

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤

جامعة أم القري
بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية وآدابها



٢٠١٦

أدب الخنيفة في العصر الجاهلي

لعماد الطالب

جيب غنش حمدان الزهراني



رسالة تكميلية

لشؤون

الأستاذ الدكتور / فتحي محمد أبو عيسى

١٤٠٦

شكر وتقدير

للايقوتني بعد أن من الله تعالى بظهور هذا البحث، واستوائه على سوقه أن أصدر الله وأشكره،
فله سبحانه الفضل، وله الأمر من قبل ومن بعد.

والذي من بركه تعالى أن يذكر الإحسان لأهله، والمجمل لذويه، إيماناً بأيدٍ كريمة لها معروف لا
ينكر، ساعدت في خروج هذا الموضوع للوجود.

فأتت جامعة أم القرى على اهتماماتها بالعلم وطلابه، وتجهيزها السبل لكثيرة لابنائها الدارسين.
وأشكر سعادة عميد كلية اللغة العربية الدكتور عليان المازمي على ما نجزه من عنايته ومساعدته أمام كثير
من العضلات، وتقديره لطلبة العلم.

كما أقدم بشكري للمؤرخ الكبير محمد بن محمد الذي ساعدني على اختيار هذا الموضوع، وأرشدني لبعض الأبحاث
المفيدة، كما أشكر سعادة عميد شؤون المكتبات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الدكتور علي سلطان الحكيمي
لما قدمه من عون في تصوير بعض الكتب التي أفدت منها. ولا أنسى بالفضل والتقدير صديقي الاستاذ: عبد الله
البراهيم الزهراني، فقد كان ندي في أيام من هذا الموضوع وغروحه. وأقدم وافراً الشكر والاعزاز لأخي البار
عبد العزيز منشن فقد كان ولوجي في الدراسات العليا من ثمرة رأيه المبارك، كما أنني أشكره تحمله كثيراً من الأعباء
الأسرية عني، مما يسرني التفرغ لهذه الدراسة.

إني قل هولا وكل من قدم لي أي عون كان أسأل الله أن يجزيهم عني غير الجزاء فذاك ما أملكه.

ولكن لا تخان الدهر عندي وعفد الله تجزئة الرجال

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا . وأشهد
الا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه
وعلى آله وأصحابه الى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد : فلا يخفى ما لأدبنا العربي بعامته من تأثير على النفوس والمشاعر ، وان كان أدبنا
العربي على تلك الصورة فان الأدب الجاهلي منه يحتل المكانة الأصيلة ، حيث يشمل
من هذا الأدب - على امتداده - المرتكز الاساسي ، أو ان شئت اللبنة الاولى التي قام
عليها صرح الأدب بعد ذلك متمثلا في شعره ونثره بأنواعه ، وألوانه .

وهذا الأدب الذي ينسب الى أولئك القوم الذين عاشوا قبل بعثة " محمد " عليه
الصلاة والسلام لا يخلو من كثير من المعاني الأخلاقية الرفيعة ، والآداب السلوكية
القوية ، من عديد من الفضائل التي تغنى بها القوم ، ثم رويت لنا عنهم .

وبجانب ذلك تلوح لنا من خلال هذا الأدب لآلئ ايمانية ، وتسبيحات روحية ،
تختفي كثيرا في غمار العصر ، وتتجلى واضحة عند بعض الأفراد ، تطمرها كثرة الأصنام
المشهوره ، وتعفى عليها تلك الانصاب التي لطمخوها بدماء العتائر والقرايين .

وقد كانت هذه الاشارات ما اضطرت فيها الافهام بين رافض لها ، وآخر لا يرى
غضاة في أن يحمل الأدب الجاهلي تلك الاشارات ، تعبيرا أو رجعا لما دار على
سرح الحياة الجاهلية يومئذ ومضت التساؤلات تلتف حول هذه الحقيقة ، تريـد
أن تجد جوابا شافيا عن أصل هذه الاشارات التي رسمت معالم في حياة هؤلاء
الجاهليين .

وقد لاحظت ذلك وأمعنت فيه حتى رأيت أن بعض المعاني التي جاء الاسلام بها

بعدئذ على مشابه من هذا الذى عرف عند هذا الرهط من الجاهليين ، بل لعلى ألفت من هذه الاشارات كثرة كاثرة على ما سيأتى فى ثنايا الدراسة ان شاء الله .
وقد دفعنى الى هذه الواجهة ما كاد يغلب على نظرة كثير من الباحثين أو الدارسين من القول فى عشوائية ومجازفة عن مثل هذه الاشارات انها مما انتحله الرواة وقنعوا به هذا الأدب الجاهلى إبان تدوينه وجمعه .

ولا غرو أن ذلك من آثار تلك الهزات العنيفة التي رمى بها هذا الأدب ، وكانت فى الحق عند دارسيه دليلا على أصالته والوثوق به ، الا أن من لم يتحقق من ذلك يكتفى بترديد ذلك الرأى ويستمره .

ولما ظهر فى جزيرة العرب عدد من رسل الله الكرام ، وكانت رسالة " ابراهيم " الخليل عليه السلام وابنه اسماعيل هى التي انتشرت فى جزيرة العرب قبل العصر الجاهلى كما اتفق على ذلك المؤرخون ، وبقي العرب ينسبون أنفسهم اليها حتى وهم مشركون ، أردت أن أقف على هذه الحنيفية ، وأتلمس بقاياها فى طوايا الأخبار وجنات الاشعار والروايات .

ولما بعث الله نبيا محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، عرفنا الكثير من جوانب تلك الحنيفية ، وما أقره منها ، وما تدخل فيه بالتقويم والتشذيب ، مما يسر لنا تتبعها والوقوف عليها .

والحق أن ما يحمله هذا الأدب من اشارات الى معتقدات أو أحكام أو عبادات وأيتها تلتقى بسبيل مع هذه الحنيفية قد مال بى الى دراسة أدب هذه الحنيفية وشجعنى على المضى فيه .

ولعل أهمية هذا الموضوع - فى تقديرى - تكمن من وراء تلك التفسيرات التي فسرت على غير وجهها هذه الاشارات والمعانى الحنيفية .

فمن قائل باختلافها على الجاهليين وتحلهم اياها ، ومن زاعم أنها من آثار الديانة اليهودية أو النصرانية فى العرب وتغلغلها بينهم ، ومن قائل بتطور الاسلام عن تلك الارهاصات ، ومن حاقد جعل هذه الاشارات احدى مصادر القرآن الكريم ،

وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أستعان بها فيما جاء به ، وأنه أفاد من أحكام أهل مكة والمدينة فيما شرّعه لقومه كما تصور هذا بعض المستشرقين وأذاعوه بين الناس .
ولعل هذا البحث يسهم في تصور تلك الجوانب المشرقة التي وجدت عند العرب ، والتي تقابلها أبعاد حياتهم المظلمة الأخرى ، وتدفع ما يحدث من حيرة ولبلاسة عند ما يتوارد هذان النقيضان ويراد التوفيق بينهما .

وربما كان من الاسباب التي جعلت هذا الموضوع غاية في الاهمية عندي قلـــــة الدراسات التي تناولته أو تعرضت للحديث عنه على قدر ما اطلعت عليه .
ولا أزمع بذلك أنني أبوعذرتيها - كما يقال - بل هناك إشارات ودراسات لمسست بعض ما يطرقه هذا الموضوع . ولا ضير علينا من ذكر ذلك والاشارة إليه ، ان لولا تلك الجهود الكثيرة التي ذلت لنا العقبات ، وراحت بعض الطرق لما استطاع دراس أن يلم بأطراف موضوعه وقضاياه المتشعبة .

فالحق أن كتب أسلافنا لم تعدم بعض الإشارات التي أفدنا منها ، كالكتب التي تتحدث عن أعلام النبوة ، وكذلك المجموعات الشعرية وكتب التاريخ وكتب الطبقات وغيرها .

وفي العصر الحديث يبدو أن المستشرقين تناولوا كثيرا من قضايا الأدب الجاهلي ، وعنوا بهذه الاشارات الدينية في الشعر الجاهلي كما يلاحظ من دائرة المعارف الاسلامية ، والذي وقفت عليه من دراساتهم مما كان مترجما أو أشار اليه أحد الباحثين .

وعند العرب ظهرت بعض كتابات أفدت منها كذلك ، فقد كتب الدكتور جواد علي في الفصل من تاريخ العرب^(١) بحثا طيبا عن الحنفاء أفدت منه ، وألف الدكتور أحمد جمال العمري كتابا وسمه بـ (الشعراء الحنفاء) طبعته دار المعارف بمصر سنة ١٩٨١ للميلاد . وقد كان لهذا الباحث زيادة هذا الموضوع وطرقه بشيء من التوسع والتناول المستقل . وفي تقديري أن هذا الباحث فاته بعض جوانب على صلة

بالشعراء الحنفاء كموقفهم من الإسلام ، وتنصر بعض منهم ، والتاريخ المحدد الذى عاشوا فيه .

ثم إن حصره لدراسة الشعر الدينى فقط فى فصل الشعر وترك الأغراض الأخرى - وأن أعان حصره هذا على تصوّر التحنف عند الشعراء وستر ما قد يناقشه عند بعضهم ليسلم القول بتحنفهم - فيه اجحاف بالشاعرية التى وسم بها دراسته ، والفروق بينها وبين شاعرية غير الحنفاء وشعرهم . ومن العجيب أن الباحث عند ما أتى الى موضوعات شعر الحنفاء استشهد بشعر من لم يذكره لنا من الحنفاء كالأعشى وغيره . وكل ذلك لا يقلل من جهد الباحث ومكابدة موضوع الحنفاء الذى أعلم وعورة البحث فيه تماما ، وحسبه أنه أخرج للناس هذه الطائفة فى بحث علمى متناسق ، تأخذ مباحثه بحجز بعضها ، وتجلى كثيرا من جوانب الحنفاء ، راد بها الطريق ، وفتح بها الباب لمن أراد التوسع أو الدراسة .

ونشر الدكتور : " عادل جاسم البياتى " مقالا بعنوان " شعر الأحناف : دراسة وتحليل " فى مجلة آداب المستنصرية ، والتى تصدرها كلية الآداب بالجامعة المستنصرية فى بغداد (١) ، رأيته مرة أخرى فى بعض (٢) المجلات فيما عدا نتفا يسيرة منــــه ، أسهم فيه بجهد طيب حول الحنفاء ، والشعر الذى يروى لهم ومدى الفائدة مما نحل عليهم من الأشعار .

وكتب فى مجلة الأزهر (٣) عدد من المقالات عن الشعراء المتألهين فى العصر الجاهلى لا تخرج عن تعريف بعض الحنفاء وحياتهم وطرف من أشعارهم . ولا نغفل هنا كثيرا من الدراسات التى انفردت ببعض الحنفاء ، وبخاصة الشعراء كأمية بن أبى الصلت فهى كثيرة جدا .

والحق أنى أفدت منها فيما يختص بالحنفاء أما لب البحث وهو أدب الحنيفية على

(١) العدد الخامس ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

(٢) مجلة الشعر ، العدد ٣٦ أكتوبر ١٩٨٤م .

(٣) بعض الأعداد الصادرة سنة ١٣٦٠هـ ، ١٣٦١هـ .

التحو الذى صورته عند معنى الحنيفية فى بعض مباحث هذه الدراسة فذاك أمر آخر
ولن أفاد من أدب الحنفاء .

والحنيفية التى بقيت عند أولئك القوم لا ينهض أدب الحنفاء ببيانها ، بل لا بد من
الاستعانة بجميع طوائف شعراء الجاهلية حتى نقف عليها ، وربما لا نكتفى بذلك ، بل
نحتاج إلى إشارات بعض الشعراء المخضرمين لأنهم عاشوا فى الجاهلية حقبة من الزمان
فربما أفادنا بعض شعرهم فى ذلك .

ولعل هذا يدفعنا إلى الحديث عن الصعوبات التى واجهها هذا البحث
وموقفه منها .

ولا غرابة أن يجد كل باحث كثيرا من العقبات التى قد تعترضه ، ولا سيما فى
المراحل الأولى التى يروض فيها كلمه/على أن يخوض مخاضات الدراسة العلمية .
فما واجهته من تلك الصعوبات التى تقابل من يريد دراسة الحنفاء وحنيفيتهم ،
أن الأخبار قليلة ومع ذلك فهى مبثورة ولا تخلو من التضارب أو الاضطراب كما سترى
عند الحديث عن الحنفاء ، ثم تحديد الحنيفية واختلاف الأعمال وتصورات الحنفاء
لها لأنها لم تكن واضحة لهم ما يفضى إلى الحيرة التى تستبد بالدارس ، إن هو حاول
توضيح قسامات أدبهم ، وتأطيره فى إطاره الصحيح .

وما واجه هذا البحث - أيضا - صعوبة تحديد الحنيفية وأبعادها عند أولئك
الجاهليين ، فهم مشركون ، والحنيفية هى الاسلام ، فكيف نطلب وجود شئ من ذلك
عندهم ، على فرض أنهم نزلوا على " الحنيفية " وما تتقاضاه مبنى ومعنى ، فقد تقع الانطباعة
للهولة الأولى فى الذهن أنهم سيمثلون هذه الحنيفية ، وما إن يذهب الدارس فى
التقصي والتتبع حتى يجد المحصلة من ذلك لا تشفى غليلا ، أو تنقع أواما ، ذلك
أن النصوص التى بين يديه قد تخذله عما عسى أن تكون هذه الحنيفية عند العرب
الجاهليين .

كان لا مناص إذا من تتبع ذلك عند سائر الشعراء حتى نقف على اليماءات التى
تدلنا على شئ من الحنيفية ، غير أننا نجد بعض هؤلاء الجاهليين ومنهم بعض

الحنفاء أدركهم الاسلام ودخلوا فيه ، فهل نأخذ شعرهم أم نطرحه ؟ وكيف يصح لنا أن نعد ما نجده عندهم من حنيفة الجاهلية مع ترجيح الظن أن مطارحتهم لمعاني " الحنيفة " كان بعد أن شرفوا بالاسلام .

وآخر واجه هذا البحث ، ذلك هو الظن بوضع هذه الأشعار ونحلها عن الجاهليين فكيف يسوغ لنا أن نشق بصحتها ثم نبني عليها هذه الدراسة ؟ وقد وقف الانتحال بالمرصاد لقمع كل ما يظن أنه من معاني الاسلام عند أى شاعر جاهلى ، فماذا نعمل وقد أوصدت الأبواب أمام هذا الأدب الحنيفى ، والذي هو من روح الاسلام ويطابق تعاليمه وأبعاده ؟

ومن الصعوبات فى هذا المضمار حاجة هذا البحث إلى المصادر المختلفة ، ولئن كان هذا البحث فى الأدب لقد مضى بطبيعته إلى بعض مصادر العلوم الأخرى . وهذا يقتضى تنوع مصادر البحث ومراجعته ، حيث كان ضروريا أن يُبَيَّن هذه الدراسة صوب المصادر التاريخية الأولى ، ومنها على سبيل المثال " تاريخ الطبرى " وتاريخ ابن الاثير وغيرهما ، كما أننا أفدنا من الكتابات المحدثه كالمفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام وغيره ما ستزى فى صلب الدراسة .

ولعل ما يدخل فى المراجع التاريخية كتب السيرة النبوية فهى بلا شك كانت لنا ذات عون كبير فى ما كان من أخبار وافقت أحداث حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن سيرة ابن اسحاق على رأس ذلك ، ومثلها تلك الكتب التى تتحدث عن أعلام النبوة ودلائلها فهى تتحرش كثيرا بالأحوال الدينية ، عند العرب وما كان على صلة بأحداث حياة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

وبجانب المصادر التاريخية هناك " القرآن الكريم " وتفسيره ، والحق أن فائدتى منها كانت ركيزة دارت معظم قضايا هذه الدراسة حولها ، وذلك ما يجعلها فى المقام الاول .

ولا شك أن أحكام الاسلام ، ومعالجة آيات القرآن الكريم لكثير من القضايا والأحكام المتنوعة فى ذلك المجتمع كانت لنا خير دليل على تكشف جوانب حياتهم

الدينية والاجتماعية والتشريعية ، مما نريد الوقوف عليه ، وقد كانت أسباب النزول وكثير من التأويلات لآي الذكر الحكيم نهدنا بملاحظات ذات شأن غير قليل . وقد عولت كثيرا على تفسير " ابن جرير الطبري " و " ابن كثير " و " القرطبي " رحمهم الله أكثر من غيرها من كتب التفسير .

والحديث النبوي لامراء من الاستفادة من معينه ، والأخذ من رواياته التي أفدنا منها جانبا طيبا هنا ، وإن وقفنا عند الصحيحين أكثر من غيرهما .

أما المراجع الأدبية فقد دفعنا هذا البحث إلى أن نتلمس معاني هذه الحنيفية في قراءة ما وقع لي من دواوين شعراء الجاهلية ، ثم بحثت بعد ذلك في كثير من المجموعات الشعرية المعروفة ومنها " كتب الحماسة " و " الأمالي " و " الطبقات " . كما أنني عدت كما يقتضى هذا البحث إلى كتاب " الأمثال " ، ووقفت بخاصة منها عند كتاب الأمثال " لأبي عبيد القاسم بن سلام " و " مجمع الأمثال " للميداني .

ولا ريب أن هناك مباحث وكتبا حديثة أفدت منها وهي كثيرة جدا ، وعلى صلة بالأدب الجاهلي ترى كثيرا منها تعكسه هذه الدراسة في مواطن متفرقة .

وأحب أن أتوه هنا أن ماسلف من مضاعف وما أشرت إليه من كثرة المراجع ليس مما أزهى به في هذا البحث أو ألبسه ما لا يستحقه ، بل هي تزيدني عناء إلى عناء ، وتثقل كاهل من لم يحسن استخدامها ، وإنما ذلك هو طبيعة هذا الموضوع وأنا أعاشه . ولعل من حقي أن أذكر أن هناك عددا من الدواوين أو الكتب التي قلبت صفحاتها وأنا أجمع مادة هذا البحث ثم أخرج منها بلا غنم يخدم هذا الموضوع .

والحق أن ما يمثل أدب الحنيفية كما وضع له في هذا البحث عزيز في المصادر نزر في بطون الكتب ، وهذا إجماع المشقة ، ومصدر العناء .

ومنهج هذا البحث في العموم أدبي تاريخي جمعي تحليلي ، فهو أدبي يتخذ من الشعر والنثر قواما له في تصوير " الحنيفية " ، وتاريخي تعضده الحوادث والروايات المستمدة من كتب التاريخ ، وهو جمعي ذهبا في تتبع أشلائه المبعثرة ليتمكن رؤيتها في إطار متسق ، يجمعهما نظام واحد ، ويترد في صورة مقبولة ان حسن الجمع

وحالفنا التوفيق في عرض أجزاءه وجزئياته . وهو أخيرا تحليلي إذ لم نرد كل ما نجد دون تحليل أو تفصيل ، وقد نخالف بعض الدارسين في بعض الآراء التي قد تتصل بهذا الموضوع من طرف قريب أو بعيد ، كما أننا قد نعلل بعض الأمور ونناقش بعض الظواهر وندرس بعض القضايا التي نمر بها في بعض وجازة يضطرنا إليها المنهج الذي قامت عليه هذه الدراسة .

وبرغم ما واجه البحث من عقبات من الله بتدليلها خرج على صورته الأخيرة في تمهيد وبابين .

تناول التمهيد ثلاثة مباحث . تحدثت في الأول عن المراد بالحنيفية مستفيدا من كتابات السابقين وأبحاث المحدثين الذين تطرقوا لها ، وابنت آخر ذلك أن المراد بها حنيفية إبراهيم عليه السلام وما نجد عند العرب من آثارها حتى وان اعترى بعضها التحريف بزيادة أو نقصان .

وتعرضت في الثاني لجذور هذه الحنيفية ، وكيف بقيت هذه اللمة أو بعضها في العرب من تلك الأصول القديمة ، وأشارت إلى دور الرسالات السماوية التي عرفتها جزيرة العرب ودورها في إرساء أصول هذه الحنيفية إذ أن دين الأنبياء في أصوله وقواعده واحد وان تباينوا في الشرائع وبعض ما يتفرع منها .

وعرضت في الثالث للحديث عن أديان الغرب ، وحال هذه الأديان التي كثرت في ذلك العصر ، ولا مندوحة عن ذلك إذ يوضح لنا ما سيأتي عن الحنفاء الذين قضا حياتهم يتطلعون إلى الحنيفية القويمة ، ومكانة هذه الحنيفية إزاء تلك الأديان الأخرى .

وفي الباب الأول تحدثت عن الحنفاء ، وكان ذلك في فصلين :

الأول منها حول معنى "الحنفاء" ، وصعوبة الكلام عن أفرادهم دون إعطاء دراسة تسهم في تجلية كيف كان هؤلاء الحنفاء ، وما هي الحنيفية التي يريدون أو يتصورون ؟ ثم عرضت لبيان عقيدتهم وتشريعاتهم .

وفي الفصل الثاني ترجمت لهؤلاء الحنفاء الذين رأيت أن ما قدم عنهم من دراسة

ربما لا تعطى التصور الكامل لهؤلاء الناس .

وقد لاحظت أن من التيسير أن نقسمهم الى مشاهير ودرج ذكرهم في كتب التاريخ والأدب وعرفوا بالتحنف ، ومجاهيل^{ترد} أخبار تحنفهم في صورة باهتة مطورة يقتضى البحث أن نسلكهم مع أنسدادهم الآخرين .

ولم يكن هنا أن نفصل حياة هؤلاء الأشخاص بقدر ما ركزنا على ايضاح تحنف كل منهم ان ذلك مانسعى اليه .

وفي الباب الثانى تحدثت عن أدب الحنيفية وتحت هذا الباب أربعة فصول . عرضت في الاول منها لقضية " الانتحال التى تعترض هذا البحث وأبنت عن اعتمادى فى هذا البحث على ماصح ووثق من هذا الشعر والنثر ، وجمعت بعض أطراف ما قيل عن مثل هذا الشعر الدينى ، وكيف نأخذ منه ونرد ، مع الاستفادة من آراء علمائنا السابقين الذين أخرجوا لنا كثيرا من شعر الجاهليين فى الداووين أو المجموعات الشعرية الموثوق بها بوجه عام .

وفي الفصل الثانى تحدثت عن الحنيفية وجاء هذا الفصل فى ثلاثة مباحث :
الاول فى " المعتقدات " ، شمل التأمل فى آيات الكون وأخبار الامم السابقة وأنبيائها ، ثم تعرض للإيمان بالله ووصفه بكثير من الاسماء والصفات اللائقة به سبحانه ، ومنه القسم به فى كثير من ايمانهم التى أعظمها أن يقسموا به . ثم الايمان بالملائكة ثم الاستبشار بقرب ظهور النبى . ثم الايمان بالبعث والشواب والعقاب . ثم الحنفا
بآخره عدم التطير من الحيوان وغيره عند بعض من وجدنا ذلك عندهم .

وفي المبحث الثانى : تحدثت عن العبادات عندهم وكان من ذلك سنن الفطرة كالختان واعفاء اللحية والسواك وغيرها ، كما تعرضنا لكثير من شعائر الحج والعمرة وتعظيم الحرم ، والوفاء بالنذر وغير ذلك .

وفي المبحث الثالث تحدثت عن تشريعات الحنيفية التى ساد بعضها عندهم وكان مما وقفنا عليه من ذلك تحريم الخمر ، وتحريم الزنى ، والتنزّه عن أكل الميتة . ثم تعرضت بعد ذلك لأحكامهم فى بعض الجنايات كالسرقة وقتل النفس بغير حق ،

وما كان من أمر الدية عند هم ، ودفعها لأهل المقتول ، وتفاوت مقدارها بينهم .
ثم طرقتنا بعض أحكامهم في المنازعات التي يختلفون فيها ، وكان مما أخذوا به
من ذلك قبول الايمان المفلظة والحكم بالقسامة عند انعدام البيئات عند المتنازعين .
ثم خرجنا بعد ذلك الى ما كان من تشريعات الحنيفية التي وجدت في أحكام النساء
وما يتعلق بهن .

وكان من ذلك النكاح المشروع ، ومنه المهر الذي يدفعه الزوج الى ولي زوجته .
وما كان عند هم من طلاق في ملابسات تستدعي ذلك ، وقد يكون خلعا يسترجع به
ما أمهر زوجته .

وذكرنا بجانب ذلك تحريمهم للمحارم اللائي حرمن الاسلام على الرجل من قريباته
وتجنب الحائض ومعرفة الحجاب وما الى ذلك .

ويجدر بنا التنبيه هنا أننا لسنا بصدد الاستقصاء في كل ما يرد في ثنايا هذا
الفصل وانما نرمي الى الابانة عن نماذج ، توميء الى غيرها .

وفي الفصل الثالث اتجهت الى النشر فهو القيم الآخر من هذا الأدب ، وأشهرت
الى مدى الافادة من هذا النشر الذي ليس على صورته الصحيحة التي نطق بها قائلوه ،
ومن هناك اتجهت الى الامثال فهي أصح ما في ذلك وما يمكن أن يطمأن إليه ، وعليها
عولت وان أخذت من بعض النشر الذي يوميء الى أصوله التي عفت عليها الزمان .

وفي الفصل الرابع : حاولنا أن نحلل بعض قضايا تتصل بهذه الإشارات والمعاني
الدينية عند الجاهليين ، ومدى الاستفادة منها في تصوير عقائد الجاهليين وأديانهم
ثم وجود بعض هذه الاشارات حتى عند بعض من عرف بالتبذل والمجون من شعراء
هذا العصر ، ثم حاولنا أن نصحح ما شاع من قول بعدم معرفة العرب لكلمة الرحمن ،
ووجود ذلك في شعر القوم مستفيدين من اشارات بعض السلف الى ذلك .

وحاولنا كذلك أن نوضح الفرق بين المعاني الدينية عند الحنفاء وعند غيرهم

ودلالة ذلك .

وتعرضنا في هذا الفصل لما قد فسرت به هذه الاشارات والمعاني الدينية ودلالة ذلك على الزهد أو علاقته بالخضرة .

وأخيرا لسنا خصائص أدب الحنيفية الغنية وأنه أدب سهل الاسلوب واضح المعاني وما الى ذلك ، على الرغم من أنه هذه الدراسة استمدت هيكلها من أبيات مفرقة من الشعر الجاهلي ، مما لا يتيح التوسع في بسط القول في هذه الدراسة .

وأود في النهاية أن أنوه بالجهد الذي بذله معي الاستاذ الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي الذي تعهد هذا الموضوع منذ البداية بالاشراف وحسن التوجيه في مراحلها الاولى .

كما لا أنسى بخالص التقدير والاعتراف ان أشكر سعادة الاستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيسى والذي تولى اشراف هذا البحث بعد ذلك ، ورعاه بحسن التوجيه وجدية الدرس ، حتى أخذ طريقه القوية واستوى على سوقه . مع ما أفدت من علمه وثاقب نظراته .

فالى استاذى الكريمين أدعو الله مخلصا أن يجزيهم عنى خير الجزاء .

وبعد . . .

فهذه الابعاد التى تكفلت بتبيانها تلك الدراسة انما برزت الى حيز الوجود ، بعد أن عشت في محرابها قارئا متقصيا أحاول كل وكدى أن يجىء البحث فى اهاب مشرق وضوء ، يقدم للدراسات الأدبية لسمة وفاء للفتنا العربية التى نزل بها القرآن الكريم ، ولأدبنا العربى الذى ينبغى أن نتصدى لدراسته على نحو أمثل ، حتى لا يرمى بالجمود أو التخلف ، وذلك لايتأتى الا بالاحتشاد الحى لهذه الدراسة ومثيلاتها . . وبخاصة وأن الأدب العربى الجاهلى كم تتعقبه أقلام تريد النيل منه ،

والغرض من شأنه . . وأرجو أن أكون بذلك قد أوفيت على الغاية ، أو بتعبير آخرى

أن أكون كما قال الرسول الكريم قاربت وسددت . . والله حسبي وهو نعم الوكيل .

تصهير

٢- الحنيفية

ب. جذور الحنيفية

ج. أديان العرب في الجاهلية

(١)

" الحنيفية "

ينبغي لنا ونحن بصدد الحديث عن " الحنيفية " أن نقف أولاً على المراد به هذه اللفظة (الحنيفية) . فلا شك أن معرفة ذلك فوق أنه يحدد لنا معنى الحنيفية ويوضحها يعيننا على فهم ما يأتي في طوايا البحث من حديث وما يبنى على هذا الأساس من أفكار .

وواضح أن مادة " الحنيفية " اللغوية ترجع إلى أصلها الثلاثي (ح ن ف) وسأحاول أن أتعب " الأصل " وما اشتق منه في معارض عديدة بغية إيضاح مدلوله قديماً وحديثاً على سواء ، وسنبحث عنها فيما اشتق من هذا الأصل ، وسنمر بها مستفيدين من دراسة من تعرض لها في القديم والحديث .

ولفظه " الحنيفية " في معاجم اللغة متشعبة المعنى متباينة الدلالات ، لا تتضح للناظر في يسر وعجلة بل تحتاج إلى ترويض وتدقيق . ولعل هذا ما دفع أحد الباحثين عند مروره بها في إحدى كتاباته أن يقول : " وكلمة الحنفاء من الكلمات الغامضة جداً . " (١) وقد ورد أن " الحنْف " : " الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجَنَف ميل عن الاستقامة إلى الضلال " (٢) أي أن احدهما عكس الأخرى .

ومما ورد في المعاجم من ذلك أن " الحنْف " : إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى ، وأنشد لداية الأحنف (٣) وكانت ترقصه وهو طفل :

(١) فيض الخاطر : أحمد أمين : ٣٠٨ / ٩ - ط ١ (١٩٥٥ م) - مكتبة النهضة المصرية

(٢) المفردات في غريب القرآن - الحسين بن محمد (الراغب الاصفهاني) : ١٣٣ .

تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط مصطفى الحلبي - ١٣٨١ هـ .

(٣) الداية : هي الظئر . وهي من تحنو على الصغير عند فقد أمه .

والأحنف هو ابن قيس التميمي سيد تميم ، ومن يضرب به المثل في الحكمة

والحلم ، أسلم ووفد على عمر بن الخطاب وتوفي سنة ٧٢ للهجرة ، وانظر :

الاستيعاب في معرفة الاصحاب : أبي عمر يوسف بن عبد الله " بن عبد البر " :

١ / ١٤٤ . تحقيق : علي محمد البجاوي . ط - مطبعة نهضة مصر .

الاصابة في تمييز الصحابة : العلامة أحمد بن علي " بن حجر العسقلاني " :

١ / ١٨٧ - تحقيق علي محمد البجاوي . ط . دار نهضة مصر - القاهرة .

وَاللَّهُ لَوْلَا حَنْفٌ بِرَجُلَيْهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

و" الْحَنِيفُ " : المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير ، و" حنف عن الشيء وتحنّف " : مال .

والحنيف : المسلم الذي يتحنّف عن الأديان أي يعيل إلى الحق ، وقيل : هو الذي يستقبل قبله البيت الحرام على ملة ابراهيم ، وقيل هو المخلص ، وقيل كل من أسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو فهو حنيف .

والحنيف : المستقيم ، وأنشد :

تَعَلَّمَ أَنْ سَيَهْدِيكُمْ إِلَيْنَا طَرِيقٌ لَا يَجُورُ بِكُمْ حَنِيفٌ (١)

ومع هذه الدلالات للفظتنا هذه فإنّ المعاجم تسعفنا بتحليلات قيّة وأقوال أخرى تعين على دراسة اللفظة وفهم دلالاتها، وما طرأ عليها من تطور، وقد ورد من ذلك أنّ الحنيف " من كان على دين ابراهيم فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون : نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سمّوا المسلم حنيفا ، والحنيف : السلم ، وكان في الجاهلية يقال من أختتن وحجّ البيت حنيف لأن العرب لم تتسك في الجاهلية بشيء من دين ابراهيم غير الختان وحج البيت .

وقد قيل إنّ الحنّف : الاستقامة ، وانما قيل للمائل الرجل أحنف تفاءؤا بالاستقامة .

والحنيف المسلم وقد سمّي المستقيم بذلك كما سمّي الغراب أعور . وتحنّف الرجل عمل عمل الحنيفية ، ويقال اختتن ، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد ، قال جبران العود : (٢)

(١) لسان العرب : لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور . (حنف) ط دار صادر - بيروت . ٥٧/٩

(٢) جبران العود : شاعر جاهلي واسمه عامر بن الحارث النميري ، ولقب بذلك

لتخويفه زوجيه بسوط صنعه من أسفل جلد عنق البعير وهو الجران وكان الرّحال الشاعر خدنا له ، وانظر : الشعر والشعراء : عبد الله بن مسلم بن قتيبه :

وَلَمَّسَارِ أَيْنَ الصُّبْحِ بَادَرْنَ ضَوْؤَهُ^١ رَسِيمٌ قَطَا البُطْحَاءِ أَوْهَنَّ أَقْطَفُ
وَأَدْرَكَنَّ أَعْجَازًا مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَمَا أَقَامَ الصَّلَاةَ الْعَابِدُ الْمُتَحَنِّنُ

وفي الحديث القدسي " خلقت عبادي حنفاء " أي طاهري الأعضاء من المعاصي ،
لا أنهم خلقهم مسلمين كلهم لقوله تعالى : " هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن " ،
وقيل أراد أنهم خلقهم حنفاء مؤمنين لنا أخذ عليهم الميثاق " ألسنت بربكم " ، فلا يوجد
أحد إلا وهو مقرباًن له رباً وإن أشرك به ، واختلغوا فيه " (١)

ولا غرو فهذه الاشارات السابقة تتفاضلنا أن نقول : ان لهذه اللفظة معنى فسي
الجاهلية وقد طرأ عليه تغير في الاسلام وان اتفقا فسي بعض الجزئيات ، كما أنها
تحصر لنا هذه الدلالات وتقرب لنا هذه المعاني ، فهي في الجاهلية تدل على كثير
من الأمور التي تدخل في الدين عندهم ، وهي في الاسلام الدين كله . أما دلالة
اللفظة على الميل وعلى الاستقامة فهذا ليس غريباً على اللغة ان تتسع لمثل هذا وهو
التفاوت الذي أشار اليه علماء اللغة .

ولانقف باللفظة عند معاجم اللغة فلا بد من انعطافة إلى القرآن الكريم لنرى كيف
جاء الكلام عن الحنيفية " . جاءت اللفظة مفردة ، ومجموعة في غير موضع منه " (٢)
ذلك قوله عز ذكره : " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً
وما كان من المشركين " . (٣)

= ٧١٨/٢ تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر - ط دار المعارف بمصر - القاهرة ،
العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده : الحسن بن رشيق القيرواني : ٤٨/١ -
تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد - بدون ذكر طابعه .

(١) لسان العرب (حنف) ٥٧/٩ ، ٥٨ ، تاج العروس من جواهر القاموس -
محمد مرتضى الزبيدي (حنف) ٧٧/٦ - ط - دار مكتبة الحياة - بيروت .

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبدالباقي :
٢٢٠ . ط . دار الفكر - بيروت .

(٣) البقرة : ١٣٥ .

وقال تعالى : " وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاً ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة " (١)

وكما وردت اللفظة في الكتاب العزيز فقد جاءت في عدد من الأحاديث ، من ذلك ما جاء في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة " (٢) وفي حديث آخر : " . . . وأبني خلقت عبادي حنفاً كلهم . . . " (٣)

ويتبين لنا من الآيات القرآنية خاصة أمران :

أحدهما أنّ هذه اللفظة كثيراً ما اقترنت بذكر خليل الرحمن - إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وسيأتي لهذا حديث ان شاء الله .

والآخر : التعقيب عليها بنفي الشرك " وما كان من المشركين " . وهذا يعنى أن الحنيفية تضادّ الشرك تماماً فلا بد ما يمحّص معناها؛ لتكون التوحيد الخالص والعبادة المنزهة عن الشركاء ؟ .

وللمفسرين آراء كثيرة حول معنى الحنيف والحنيفية وذلك لورودها في عدد من المواضع في القرآن الكريم ، إلا أنّ هذه التفسيرات عند هم تتفق كثيراً مع ما ذهب إليه اللغويون من معان .

ومما ذهب إليه بعضهم أنّ الحنيف : المائل عن كل دين باطل إلى دين الحق . (٤)
وقد أوجز " الفخر الرازي " و" الطبرسي " آراء المفسرين لها في أربعة أقوال : (٥)

(١) البيهقي : ٥٠ .

(٢) فتح الباري بشرح صحيح الامام البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : ٩٣ / ١ ط - المكتبة السلفية - القاهرة .

(٣) مسند الامام أحمد - للامام : احمد بن حنبل الشيباني - ١٦٢ / ٤ عن عياض ابن حمار - ط - المكتب الاسلامي - بيروت .

(٤) الكشاف : ابي عمر جار الله محمود بن عمر الزمخشري : ٩٦ / ١ ط دار المعرفة - بيروت ، تفسير النسفي - عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ١ / ٧٧ ط دار احياء الكتب العربية - القاهرة .

(٥) مجمع البيان في تفسير القرآن : الفضل بن الحسن الطبرسي : ٤٨٧ / ١ ط =

أحدها : حج البيت .

ثانيها : اتباع الحق .

ثالثها : اتباع ابراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها اماما للناس بعده من الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام .

رابعها : الا خلاص لله وحده في الاقرار بالربوبية والاذعان للعبودية . وقد ذكر

الامام ابن جرير الطبري " - رحمه الله - بعض ما ذهب اليه أهل التأويل عند تأويلهم معنى الحنيف ، ورأى أن بعض هذه التأويلات لا تكفي لمعنى الحنيف أو الحنيفية ، ولعل مراد ذلك أنها جزء أو جانب من جوانب الحنيفية ثم قال : ^(١)

" الحنف عندي : هو الاستقامة على دين ابراهيم واتباعه على ملته ، وذلك أن

الحنيفية لو كانت حج البيت لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل

الشرك (كانوا) حنفاً . وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله : " ولكن كان حنيفا

سلما وما كان من المشركين " .

فكذلك القول في الختان . لأن الحنيفية لو كانت هي الختان لوجب أن يكون

اليهود حنفاً ، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : " ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا

ولكن كان حنيفا سلما " .

فقد صرح اذا أن الحنيفية ليست الختان وحده ، ولا حج البيت وحده ، ولكنه

ما وصفناه من الاستقامة على مله ابراهيم واتباعه عليها ، والائتمام به فيها " .

وقد تناولت دائرة المعارف الاسلامية ^(٢) لفظتنا هذه بدراسة ضافية ، وكان لها

= (١٣٨٠) دار مكتبة الحياة ، بيروت ، التفسير الكبير : الفخر الرازي :

٨١ / ٤ - ط ٢ - دار الكتب العلمية - طهران .

(١) تفسير الطبري " جامع البيان عن تأويل أي القرآن " - ابي جعفر محمد بن جرير

الطبري : ١٠٧ / ٣ ، ١٠٨ ، تحقيق وتخريج : محمود محمد شاكر - ط ٢ - دار

المعارف بمصر .

(٢) انظرها في ترجمتها العربية : ابراهيم زكي خورشيد وآخرون : ١٢٤ / ٨ - ١٢٩

" بدون تاريخ " .

إشارات دقيقة في تلك الدراسة ، وقد تتبعت اللفظة عند الجاهليين فيما ورد من نصوص لهم توضحها ، وما كان لها من دلالة في العصر الاسلامي . وكان ما تنبهت له دلالة الآية الكريمة " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . (١) " فرأت أن معناها الدين الفطري القديم في مقابل ذلك الدين الذي ظهر بعده أى الشرك . وقد رأيت أن معناها في العصر الجاهلي خلوص العبادة ، وقد يريد مرادفا للدخول في الاسلام ، كما تبين أن معناها في الاسلام هو المسلم .

وقد أشار " المسعودي " الى أن هذه اللفظة معرّبة من السريانية ، واستعملها في عدد من المواضع أى كلمة الحنفا مرادفا للصابئين . (٢)

وكانت إشارة " المسعودي " هذه حافزا لعدد من المستشرقين لدراسة أصل الكلمة حتى خرجت نتائج بحوثهم متباينة كما ذكرت دائرة المعارف الاسلامية .

حيث ذكرت أن " فلهوزن " يرى أن كلمة حنيف تدل على الراهب النصراني ، ويفسرها " دى غوى " " بالكافر " ، ويظن " مرجليوث " أن معناها في كل ماوردت فيه المسلم .

وانتهت دائرة المعارف - من غير اقتناع منها - أن الحنيف : الضائق أو الطحند أو الوثني أو الكافر ، وأن حنَفَ يمكن أن تكون بمعنى (كسرا أو شق) .

ولاريب أن ما انتهت اليه " دائرة المعارف " بعد ذلك العرض لا يخرج في نطاقه عن المدلول اللغوي لهذه اللفظة وهو الميل ، فمن خرج على الدين المألوف جاز أن يقال عنه كافر أو منشق أو ملحد ، وذلك لشقّه الأمر وخروجه عن الدين فهو منشق قد كسر أحكام الدين وخرج عليها .

وإذا أمعنا النظر فيما تشتمل عليه لفظة " الحنيفية " من معان فإنها على ما يظهر تنحصر في معنيين فقط : أحدهما الاستقامة ، والآخر الميل . ويبدو أن المعنيين

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) التنبيه والإشراف : على بن الحسن المسعودي : ٩٠ ، ٩١ . تصحيح : عبد الله

الصاوي ط (١٣٥٢) .

(٣) انظر : ص ٤ ، ٧٩ ، ١٣٧ ، ١٦٠ .

مختلفان ولكنها مع هذا يلتقيان " فان الميل عن الاعوجاج هو الاستقامة ذاتها (١) كما أن الانحراف عن الاستقامة هو الميل والعوج ، " ولذلك يستعمل اللفظ للدلالة على أحد المعنيين ويعين السياق حقيقة المراد ، كما يعين الدلالات الأخرى الفرعية التي تدل عليها الكلمة (٢) .

وعلى ذلك قال أحد العلماء : " كل موضع في القرآن ذكر الحنيف مع المسلم فهو الحاج " ولكن كان حنيفا مسلما " وفي كل موضع ذكر وحده فهو المسلم . . . (٣) .
ولعل من الأفضل أن نعود بلفظتنا هذه الى أصلها لنرى المراد منه فهو أمر مهم يعيننا بلا شك في معرفة ما تدل عليه اللفظة بعد ذلك .

ومن حسن الحظ أن معاجم اللغة تعيننا على ذلك ، وقد جاء " أن الحنف : أعوجاج

في الرجل الى داخل . ورجل أحنف أى مائل الرجلين ، . . . والحنيف المائل الى الدين المستقيم ، قال الله تعالى " ولكن كان حنيفا مسلما " ، والأصل هذا ثم يتسع فسي تفسيره فيقال : الحنيف : الناسك ، ويقال هو المختون ، ويقال هو المستقيم الطريقة (٤) .

وجاء في لسان العرب : " ومعنى الحنيفية في اللغة الميل " (٥) . وإذا انتهينا الى ذلك فبالوسع امكن تفسير معاني كلمتنا هذه في ضوء من ذلك ، ان أن الميل يحتمل وجود أمرين أو شيئين ترك أحدهما وانتقل الى الآخر ، وبذلك يُحمل معنى من فسرهما بالكافر أو المنشق أو الملحد ، وهذا الميل هنا عن دين مألوف ، ولعل ما فسرهما

(١) مجلة التضامن الاسلامي : العدد السابع - المحرم ١٣٩٢ هـ ص ٢٩٦ .

(٢) السابق نفسه : ٢٩٦ .

(٣) الكليات لابي البقاء الكفوي : ١٨٥ / ٢ . تحقيق عدنان درويش ومحمد المصدي ط وزارة الثقافة

(٤) معجم مقاييس اللغة . أبو الحسين أحمد بن فارس : ١١٠ / ٢ - ١١١ - تحقيق ١٩٥٦

عبد السلام هارون - ط ٢ - ١٣٨٩ - مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٥) لسان العرب : ٥٧٩ .

(٦) انظر : فيض الخاطر : ٣٠٨ / ٩ .

به " السعوى " ومن تابعه من المستشرقين (بالصابئين) قريب من ذلك فقد كان الجاهليون يرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه صباة لخروجهم على دين قومهم .

والميل أيضا قد يكون الى شئ أو أمر ما ، وعلى هذا يقال : مال اليه ورغب فيه ، وبذا يفسر من قال إن معناها الاستقامة أو صحة الميل الى دين والثبات عليه ونحو ذلك .

وبذلك لا أرى حاجة تدعو الى ترجيح احد المعنيين على الآخر كما يرى بعض الدارسين ^(١) لاسيما وسياق الكلام يساعد على تحديد المراد .

وهناك أمر جدير بالانتباه نذكره ما دنا نريد معرفة الحنيفية ، ذلك هو مدلول هذه اللفظة عند الجاهليين فلا شك أنه سيدفع بنا الى زيادة فهم هذه اللفظة التي جاءت هذه الدراسة تضى في موكبها .

وهناك - بحمد الله - من سبقنا الى ذلك ^(٢) ما يسر لنا الامر وراود لنا الطريق وقد جاء أن " الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن . وقال " أبو عبدة " : من كان على دين ابراهيم ، فهو حنيف عند العرب ، وكان عبدة الاوثان في الجاهلية يقولون نحن حنفاء على دين ابراهيم ، فلما جاء الاسلام سموا المسلم حنيفا ^(٣) . وقال أبو عبدة " الحنيف في الجاهلية من كان على دين ابراهيم ، ثم سمي من اختتن وحج البيت حنيفا لما ثناسخت السنون وبقي من يعبد الاوثان من العرب قالوا : نحن حنفاء على دين ابراهيم ، ولم يتسكوا منه الا بحج البيت والختان " ^(٤) .

(١) الاستاذ عبدالعزيز الرفاعي في مجلة التضامن الاسلامي : العدد السابع

محرم ١٣٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : ١٢٥ / ٨ - ١٢٧ .

(٣) لسان العرب (حنف) ٥٧ / ٩ ، ٥٨ .

(٤) مجاز القرآن لأبي عبدة : ٥٨ / ١ - تحقيق : د . فؤاد سزكين - ط (١٩٥٤ م)

مطبعة السعادة - مصر .

وجاء من ذلك أن " الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويغسل موته ويختتن " (١)

ويضاف الى هذه الأقوال بعض من الحوادث التي تدل على ذلك . وقد جاء في قصة النفر الذين اجتمعوا يتباحثون امر دينهم من قريش أنهم اتفقوا ان قومهم اخطأوا دين ابيهم ابراهيم " ففرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم " (٢)

ولعل ماورد في قصة بسطام بن قيس (٣) حين اسر وقوله لأخيه الذي حاول انقازة وقد خشي عليه " ان كررت يابجاد فانا حنيف " (٤) وذلك ان بسطاما هذا يزرع أخاه بذلك، وكأنه يزرعه بالخروج من دينه الى الحنيفية ، ولعله يريد بها الشرك ، وان سماها بذلك لأن أهل الكتاب كانوا يرون أن العرب مشركون فيما يبدو .

وقد كنا نودّ في مثل هذه الدراسة لللفظة عند الجاهليين أن نسمعنا شعرهم بذلك ، الا أن ما اطلعنا عليه منه لم يقدر لنا ان نظفر فيه بلفظتنا هذه سوى قول جبران العود السابق الذكر:

وأدركن أعجازا من الليل بعدما اقام الصلاة العابد المتحنف

(١) أمالي الزجاجي : ص ٢ . عبد الرحمن بن اسحاق . تحقيق عبد السلام هارون ط ٣٨٢ المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة .
(٢) السيرة النبوية : عبد الملك بن هشام الحميري : القسم الاول : ٢٢٣ - تحقيق مصطفى السقا وآخرون . ط - مؤسسة علوم القرآن .

(٣) بسطام بن قيس الشيباني كان سيد قومه شيان في الجاهلية ، وهو من الفرسان المعدودين ومن الشعراء ، أسر في الجاهلية وضرب المثل بفدائه في الكثرة والعدد ومات قتيلًا ، ويفهم من بعض المصادر أنه ربما كان مسيحيا ، انظر : جمهرة أنساب العرب : علي بن أحمد بن حزم الاندلسي : ٢٠٦ ، ٣٢٦ . تحقيق عبد السلام هارون - ط ٤ - دار المعارف بمصر ، والكامل في التاريخ - ابي الحسن

علي بن ابي الكرم بن الاثير الجزري ١ / ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ . ط ٤ - ١٤٠٣ - دار الكتاب العربي - بيروت .

(٤) الكامل في اللغة والادب : ابي العباس محمد بن يزيد البرد : ١ / ١٣٤ ، ١٣٥ ط مكتبة المعارف - بيروت ، النقائض بين جرير والفرزدق : أبو عبيدة معمر بن

المثنى : ١ / ٣١٤ - تحقيق بيقان - ط ١٩٠٥ م - ليدن .

والمتحنف هنا أى العابد المتبتل للعبادة من ترك الأصنام . وهذا المعنى
 أيضا ما تدل عليه هذه اللفظة ، وقد يقولون فى مثل ذلك تحنث^(١) .
 ومن كل ما سلف وما يماثله^(٢) يترجح أن الجاهليين كانوا يريدون الحنيفية منهم
 وأنهم حنفاء ، كما يقال لغيرهم يهود أو نصارى لمن يدنون باليهودية أو النصرانية .
 ولما كان الجاهليون يدعون الحنيفية وقد أشركوا بعبادتهم للأصنام ، فقد
 نبه القرآن الى أن الحنيفية لا يشوبها شرك ، بل تقوم على الاخلاص عند ما يذكر
 الحنيفية والحنفاء . وقد تنبه لذلك الامام الرازى فى تفسيره عند مروره بذلك فقال
 " ان الحنيف اسم لمن كان يدين بدين ابراهيم ، ومعلوم أنه عليه الصلاة والسلام
 أتى بشرائع مخصوصة من حج البيت والختان وغيرها ، فمن دان بذلك فهو حنيف .
 وكانت العرب تدعى بذلك ثم كانت تشرك فقليل من أجل ذلك " حنيفا وما كان من
 المشركين " ، ونظيره قوله : " حنفاء لله غير مشركين به " وقوله " وما يؤمن أكثرهم بالله
 الا وهم مشركون " .^(٣)

وبعد استعراض آراء القدماء ودراسات المحدثين - وبخاصة المستشرقين - لمعنى
 الحنيفية يرى أحد الباحثين أن المحدثين ضيقوا معنى الحنيفية عندما أريد بها
 " فرقة جاهلية صغيرة أو أفراد متفرقون لا يكونون جماعة ، وذلك على عكس رأى القدماء
 الذين يذهبون الى أن الحنيفية دين ابراهيم عليه السلام وأن العرب ورثوه منه ثم
 خلطوه بالشرك ، وأنهم احتفظوا بالتسمية علما على شركهم " .^(٤) ثم ذكر اقتناعه برأى
 القدماء مدلا على ذلك .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الاول : ٢٣٥ ، لسان العرب (حنث)

٠١٣٩٠١٣٨/٢

(٢) انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ١٢٤/٨ - ١٢٩ ، الشعراء الحنفاء :

د . أحمد جمال العمري : ١١ - ١٥ ط ١ - ١٩٨١ م - دار المعارف بمصر .

(٣) التفسير الكبير : ٩٠/٤ ، ٩١ .

(٤) الحياة والموت فى الشعر الجاهلى : د . مصطفى عبد اللطيف جاووك : ١٦ ، ١٧

ط (١٩٧٧ م) وزارة الاعلام العراقية .

ولا ريب أن هذه نظرة ثابتة ولمعة ساطعة لا تغفل يجب التنبه لها ، ولكن كثيرا من الباحثين عن الحنيفية في العصر الجاهلي تعودوا أن يقصروها على طائفة الحنفاء التي سترد معنا في هذا البحث ، وهو منظور اسلامي لمعنى الحنيفية يرمى الى التوحيد والبعد عن الشرك الذي يتركز عليه الحنيفية وقد قام على ذلك أولئك الاشخاص الذين سموا بالحنفاء ، أما من أشرك في عبادته فلم يسلكهم الباحثون في زمرة الحنفاء من ذلك المنظور الاسلامي الذي سمي من لم يفرد الله بالعبادة مشركا . وبهذا أرى انتفاء التعارض بين كل من الرؤيتين اللتين تلتقيان في أمر واحد لمعنى الحنيفية وهي دين ابراهيم الخالص لله من كل شرك .

غير أن هذه النظرة من ذلك الباحث لها دلالة أخرى كبيرة ، ذلك أن حنيفية ابراهيم دين الجاهليين ، وان دخلها الشرك فانه بقي لهذه الملة كثير من معتقداتها وجانب رحب من عباداتها وطرف من أحكامها بين أولئك المشركين ، فهي لم تجتث جذورها وما تزال عليهم آثارها وأفكارها . وبذلك فاننا نجانب الواقع كثيرا ان ظننا أن ملة ابراهيم انحصرت في أولئك الحنفاء فقط ولم يبق لها أثر فيمن سواهم .

والذي استطيع أن أخلص اليه من معنى الحنيفية بعد هذا الاستعراض أنها دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام - وولته السمحة المسلمة التي دان بها العرب وظلموا يزعمون أنها دينهم حتى حين أدخلوا الشرك اليها ويقوا كذلك الى أن بعث الله فيهم رسولنا * محمدا * صلى الله عليه وسلم .

وقد يتبادر الى الذهن تساؤل مؤداه ، أى حنيفية كانت عند العرب في الجاهلية؟ وفيما إذا كان بعث محمد - عليه الصلاة والسلام . وينبغي أن يكون واردا أننا لا ندعى للعرب بذلك دينا قويا ، فلا شك أنهم كانوا منحرفي العقيدة ، قد فسد دينهم حين بعث الله فيهم خاتم رسله - صلى الله عليه وسلم - وانما مراد هذا البحث ما وجد من بقايا دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام (الحنيفية) بين هؤلاء الناس وما نعهه أثرا نجم عن تلك الملة . ويدخل في ذلك أيضا ما وجد من أحكام أو عبادات عرفت في الجاهلية وأقرها الاسلام فانه لا يقر الا ما كان من تلك الملة ، خاصة

وأن الله سبحانه قد أمرني^(١) باتباعها عند ما قال عز وجل : " ثم أوحينا اليك ان اتبع
 طة ابراهيم حنيفا . . . " ^(١) وكما قال : " قد كان لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذي
 معه . . . " ^(٢) . ولا شك أنه بفضل الله ثم بفضل الاسلام استطعنا أن نعلم أحكام حنيفية
 ابراهيم في العرب وذلك بموقفه من أحكامهم تلك بالموافقة والرضا أو الرضا أو التهذيب
 ان أن الأصل في كافة ما يأتي به الرسل من عند الله الاسلام ، ومن تتبع ذلك في
 القرآن الكريم أدركه ووعاه .

ومما يدُخَلُ في هذا البحث ما وَجِدَ من أحكام عند العرب أخذوها من أهل
 الكتاب شريطة أن تكون ما أقرّه الاسلام وأخذ به ان قيل انهم كانوا عليها .
 ولا عجب أن تكون طائفة الحنفاء التي ظهرت في جاهلية العرب داعية الى نيل
 الأوثان والعودة الى حنيفية ابراهيم النقية المخلصة خير من ظهرت فيهم روح تلك العلة
 في زمانهم، وظهرت آثارها فيما روى لنا من تاريخهم وآثارهم . ولا يفوتنا أن نذكر أخيرا
 أن هذا الذي ارتضيناهُ للكلمة يسمح لنا أن ندخل في اطاره كل ما نراه
 في آثار الجاهليين ما هو موافق الاسلام في الأحكام والعبادات والمعتقدات ، إن
 لا يخرج ذلك عن الحنيفية وما أتت به الرسل من عند الله .

فكل ما ذكر هو مدار هذا البحث من خلال النصوص الشعرية والنثرية لأدباء
 الجاهلية التي نراها تمت الى الحنيفية بسبيل وتلتقى معها في أي فرع من فروعها
 السابقة .

وقد لانعد بعض الإشارات الى شيء من ذلك عند بعض الشعراء المخضرمين الذين
 قضاوا ردا من حياتهم في الجاهلية ، فقد يذكرون شيئا على رجم بأبعاد هذا البحث
 حين نعدم الاشارة اليه عند الشعراء الجاهليين الاقحاح .

كل ذلك ما ندعو الله أن يوفقنا لإبرازه للعيان ، فهو المأمول وحده ونعم
 المستعان .

(١) النحل : ١٢٣ .

(٢) المتحنة : ٤ .

(ب)

جذور الحنيفية

خلق الله الانسان والكون بما فيه مפורرين على معرفة الله وعلى الايمان به ، بل لقد أخذ الله العهد على بنى آدم - قبل وجودهم - انه ربهم وخالقهم ، وله عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، والانسان عند ما يبقى على هذه الفطرة الصافية فانه مسابير وموافق لهذا الكون في عبوديته لله وخضوعه له " وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً " (١) " ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس . . . " (٢) هذا آدم - أبو البشر - يهبط الى هذه الارض مؤمناً بربه مستغفراً لذنبه ، مأخوذاً عليه عهد الخلافة : ان يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى ، مزوداً بتلك التجربة الاولى فى حياته " (٣) ولا شك أن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تعدد أهم اساس تبنى عليه الحنيفية ، وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " (٤) ومع ما قد تفسر به الفطرة وما تحتله من دلالات (٥) فان مانعنيه منها هنا ما رجحه بعض المحققين عند تفسير الآية السابقة " وأن الذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة أنها الخلقة والهيئة التى فى نفس الطفل التى هى معدة ومهيأة لان يميز بها مصنوعات الله تعالى ، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه ويؤمن به ، فكانه تعالى قال : أقم وجهك للدين الذى هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذى على الاعداد له فطر

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) الحج : ١٨ .

(٣) فى ظلال القرآن ، سيد قطب : ٣ / ١٣٠٣ . ط ٨ (١٣٩٩) دار الشروق .

(٤) الروم : ٣٠ .

(٥) انظر ذلك فى تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ١٤ / ٢٥ وما بعدها . نشر : دار الكاتب العربى بالقاهرة (١٣٨٧) بصورة عن طبعة دار الكتب .

البشر ، (أو من قال) ان الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمعانيات والسموعات ، فما دامت باقية على ذلك القبول

وعلى تلك الاهلية أدركت الحق ودين الاسلام وهو الدين الحق* (١)

ان هذه الفطرة مهياة للخضوع لله ومقرّة بربوبيته تأخذ بالانسان الى الاسلام لله والخضوع له بالطاعة عند ما يخلو لها الجو ، ويسلم من العوارض والعراقيل . والذي

نفهمه من ديننا الحنيف أن هذه الفطرة لا تنفرد بطريق البشر وحدها ، بل تزاوجها عوارض أخرى تريد التوجه بهذه البشرية الى غير الوجهة التي تقصدها الفطرة لو خلالها ذلك السبيل .

لقد كان من أمر الله تعالى أن يتلوي الانسان بالشیطان بدءاً بأبي البشر - آدم عليه السلام - ثم يستمر هذا الابتلاء في بنیه الى أن يرث الله الارض ومن عليها ،

والذي يقوم به ذلك الشيطان الرجيم في هذه المدة الطويلة له هي اغواء بني آدم ، واذلالهم عن الصراط المستقيم الذي أمرهم الله أن يكونوا عليه لا يحدون . وفي الكتاب

العزیز كثير من الآيات التي تأمر الناس بالحدّ من طاعة الشيطان واتباع سبله . (٢) وفي الحديث القدسي ما يدل على دور الشياطين في اغواء الناس ان يقول الرب جلّ وعلا :

* اني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم* . (٣)

ومثل ذلك ما قد يكون من تأثير المجتمعات أو الآباء والأمهات في توجيه الابناء على ما يدينون به حتى وان خالف دين الله الحق ، وفي الحديث الصحيح أنه - عليه

الصلاة والسلام - قال : * كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . (٤)

(١) ذاته : ٢٩/١٤ .

(٢) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) صحيح مسلم (بشرح النووي) ١٧/١٩٧ ، ط ٢ دار احيا التراث العربي -

بيروت - ١٣٩٢ هـ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٨/٥١٢ (تفسير سورة الروم) .

وواقع الأمر أن كثرة من العوارض رتقت من تلك " الفطرة " وغيرت منها ، بدليل ما نفشى من شرك ووثنيات وعصيان ، وطمع الله سبحانه أزلا ضعف هذا الانسان وجهله - ان لم يمهده بعونه وتوفيقه - وقوة عدوه الرجيم وغلبته له ، كما علم ان هذا البشر ينسى كثيرا من الأمور ، فهو بحاجة الى من يذكره ويأخذ بيده ويعينه على ضعفه فيتغلب عليه ، وعلى شيطانه فيقهره ولا يذل له . ولما كان الأمر كذلك ، كان من عدل الله ورحمته بهذا الانسان ألا يأخذه بالعذاب ويحاسبه ان لم يسر على مقتضى هذه الفطرة ، بل جعل من عباده رسلا يبعثهم الى الخلق عندما تنحرف فطرتهم ليردوهم اليها ويذكروهم بها ، ويشرحوهم وينذروهم بما عند الله " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " . (١)

مشاعل الحنيفية في بلاد العرب.

لم يكن ظهور طائفة - فيما نسميه بالعصر الجاهلي - تدعو الى نبذ الأوثان والعودة الى شريعة ابراهيم قد أتى من فراغ ، أو أنه ظهر موافقا لما يزعمه بعض دارسي الأديان من أن التوحيد (أى عبادة اله واحد) قد مرّ بمراحل من الشرك والخرافة حتى وصل الى التوحيد^(١) ، بل لقد عرفت جزيرة العرب فى عدد من المواضع طائفة من أنبياء الله ورسله الكرام ، حملوا معهم نور التوحيد ، ودعوا الى عبادة الله ، وحذروا من الشرك به من أرسلوا اليهم من الأقسام .

إن بعثه أولئك السفراء بين الله وعباده لا يأتى الا على فساد فى الدين وبعد عن عبادة الله فى أغلب الأحوال ، وعند طغيان الشرك ، وتفشي المعتقدات الفاسدة ، وظهور المنكرات واستفحال الباطل ، وساعتئذ يذوى بصيص الحق وتخبو جذوته فى الحياة .

ولولا عناية الله ولطفه بهذه البشرية ونظره لها بعين الرحمة ، وتداركه لها بهؤلاء الرسل والانبياء من حقبة الى أخرى - حسب حكمة الله وقدره - لعاش الانسان أسوأ من الحيوان بكثير جدا فى أغلب شئون حياته ، وربما ماتت النزعة الانسانية التى كرم الله بها هذا الانسان فى طفولة البشرية المبكرة . وحتى ترى تلك النبوات ينبغى أن نتعطف سريعا الى ما قبل العصر الجاهلي بآساد وقرون كثيرة حتى يتضح لنا ذلك .

ولما كان سام بن بنى الله نوح هو أبوالعرب على ما روى من قوله - صلى الله عليه وسلم - " سام أبوالعرب ، وحام أبوالحيث ، ويافت أبو الروم"^(٢) وجب أن يكون هذا منطلقا لنترى تلك النبوات التى أرى تجاوزها غمطا للحق والتاريخ عند ما يتناول خاليا من ذكر

(١) انظر : كتاب " الدين " د . محمد عبد الله نزار وما بعدها ط (١٣٩٠) دار القلم الكويت وتسمى هذه الدراسة " مذهب التطور التقدمى .

(٢) رواه أحمد فى مسنده عن سمرة بن جندب : ١٠٠ ، ٩ / ٥ .

هذه النبوات ، سواء كان جهلا أم تجاهلا بهذه الرسالات ودورها الخطير في حياة
الام والشعوب. (١)

" وقد قيل إن جميع العرب ينتمون الى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام . .
والصحيح المشهور أن العرب العاربة قبل اسماعيل . . وأن العرب العاربة منهم عاد
وثمود وطسم وجد يس وأميم وجرهم والعماليق وأم أخرى كانوا قبل الخليل عليه الصلاة
والسلام وفي زمانه أيضا. (٢)

وإذا ما بدأنا بذكر هؤلاء الانبياء الكرام فإن أول ما نواجهه ما روى عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال " أربعة أنبياء من العرب. هود وصالح وشعيب واسماعيل ، ونبىك
يا أبا زرر. (٣)

وقد أرسل الله " هو دا إلى " عاد " الذين كانت منازلهم وجماعتهم بالأحقاف ،
" والأحقاف الرمل ، فيما بين عمان وحضرموت فاليمين كله. (٤) كما بعث الله رسوله
صالحا - عليه السلام - الى ثمود الذين كانوا يسكنون الحجر ، وهو الذى يسمى مدائن
صالح الآن ، وكان شعيب - عليه السلام - رسولا من عند الله الى مدين ، وهي قرية
من أرض معان من أطراف الشام ما يلي ناحية الحجاز. (٥)

هؤلاء الرسل الثلاثة الكرام ، وما كان من شأنهم وما أجابتهم به أقوامهم حفل
بذكرهم القرآن الكريم في كثير من آياته ، وفصل القصص فى حوادث تلك السير وما كان

(١) انظر فى ايضاح ذلك : جزيرة العرب منذ أقدم العصور : ٢٨ وما بعدها
ان ضرب أمثلة لتلك الكتابات ، ص : ٨٣ ، ٨٤ ، وما بعدها . للدكتور وفاء محمد
رفعت ، الدكتور جمال عبدالهادى . ط سنة ١٣٩٨ هـ . ج ١ .

(٢) البداية والنهاية : أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى : ١٥٦/٢ -
ط ٣ - ١٩٢٩ م - مكتبة المعارف - بيروت .

(٣) رواه ابن حبان ، وانظر جامع الرسائل لابن تيمية (المجموعة الاولى) : ٦٣ تحقيق
د . محمد رشاد سالم . ط . المدنى بمصر .

(٤) تفسير الطبرى : ١٢ / ٥٠ . الاثر (١٤٨٠٤) .

(٥) قصص الانبياء : للحافظ أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير : ٢٢٢ - ط دار
القلم - بيروت .

ينتهي اليه أمر كل قوم وما يختم به لكل رسول .

ونبى الله ورسوله "اسماعيل بن ابراهيم" - عليهما السلام - ذو رسالة فى مكة وما حولها ، ولهذه الرسالة أهمية كبيرة فى بلاد العرب إذ إنها انتشرت انتشاراً واسعاً فـ "إسماعيل" كان رسولا الى تلك الناحية - مكة - وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن^(١) .

ولا يفيب عن البال أن خليل الرحمن قد استجاب الله دعوته عندما أتى بها جرهم وابنها اسماعيل وتركهما فى الخلاء " ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون^(٢) . كما دعا ربه وهو يرفع قواعد البيت واسماعيل " ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . . ."^(٣) .

لقد كان لدعوة اسماعيل وإبراهيم أثر فى جزيرة العرب لا يمكن اغفاله أو التقليل من شأنه ، تجلّى فى انتشار الحنيفية فى أرجاء جزيرة العرب ودان بها غالبيتهم ، حتى لقد ذهب الرواة أن العرب كانت على ملّة ابراهيم من الإيمان بالله واحد ، اعتقدت به ، وحجت الى بيته ، وعظمت حرمة ، وبقيت على ذلك ، ثم سلخ بهم الى عبادة الاصنام التى دخلت عليهم ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، وابتعدوا بعد ذلك عن دين أسلافهم وتغشّت بينهم الوثنية^(٤) .

ولقد اقترن ذكر الحنيفية بابراهيم - عليه الصلاة والسلام - كما هو معلوم من القرآن الكريم ، وذلك لما قام به من أمجاد ، وما ضربه من أمثلة الانقياد لأوامر الله ، فقد ابتلاه الله بالكلمات^(٥) فأتتهن ، وأمر بذبح ابنه فتلّاه للجبين ، وجاهد

(١) تاريخ الأمم والطوك (تاريخ الطبرى) : لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى :

٣١٤ / ١ . تحقيق : محمد ابى الفضل ابراهيم . ط . دار المعارف بمصر .

(٢) ابراهيم : ٣٧ . (٣) البقرة : ١٢٨ .

(٤) إيمان العرب فى الجاهلية : لآبى اسحاق ، ابراهيم بن عبد الله النجيمى - تحقيق :

محب الدين الخطيب ص ١٢ . ط ٢ - ١٣٨٢ - المطبعة السلفية بمصر ، الأصنام :

لابن الكلبي تحقيق : أحمد زكى باشا - ط ٢ - دار الكتب المصرية - ١٩٢٥ -

القاهرة ص ٦ ، السيرة النبوية : القسم الاول : ٧٧ .

(٥) انظر الجامع لاحكام القرآن : ٩٦ / ٢ وما بعدها .

أعداء الله حتى ألقوه في النار ، وأمره الله ببناء بيته الحرام ، وأذن في الناس بالحج
الى غير ذلك ، فكان ابراهيم بامتثاله وطاعته لله أمة ، مخلصا لله في حياته كلها ،
فاصطفاه الله خليلا ، وجعله للناس اماما ، فهو امام الحنفا ، والناس إنما آمنوا
باتباعه ، والاقداء به ، واليهود والنصارى والعرب يدعون الصلّة به ويفخرون بها .

لم يكن حظ جزيرة العرب ممن حمل الاسلام مقصورا على من سلف من رسل
رب العالمين ، بل لقد وردت إشارات في القرآن الكريم الى اقوام آخرين بهذه الجزيرة
منهم من كذب ومنهم من آمن ، وهذا يدل - بلا ريب - على وجود من دعا هذه الامم
الى الاسلام . والحق أن القرآن في ذكره لبعض هذه الامم وموقفهم من رسلهم ليدلنا
صراحة على أن الحجة قد بلغتهم ، وأنهم قد أنذروا ولكنهم خالفوا وعصوا كما كثرت
قوم هود وشمود .

ومن هذه الاقوام أصحاب الرسل الذين انبأنا الله عنهم في قوله جل وعلا :

” كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسى وشمود (١) .

ومنهم أيضا قوم تبع وهم الحميريون أو ما يسمى في التاريخ بدولة حمير ، والتبع
حاكهم وسلطانهم كالقيصر عند الروم أو كسرى عند الفرس . وكانوا ممن يسكن اليمن
وجنوب الجزيرة ، وقد اشتهر في التاريخ عدد من التبابعة ، ولعل في ذلك ما يدل
على عظمة ملكهم وقوة سلطانهم في زمانهم . (٢)

وقد ذكروا في القرآن في عداد الأمم المكذبة لرسولها ، ومنه قوله تعالى :

” كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسى وشمود . وعاد وفرعون واخوان لوط . وأصحاب

الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ” (٣)

ولاشك أن الآية تدلنا على أنهم بلغتهم الرسالة وأقيمت عليهم الحجة .

(١) سورة ق : ١٤ . وعن أصحاب الرسى . انظر تفسير البحر المحيط لابن حبان :

٤٩٨/٦ ، ٤٩٩ . ط بيروت .

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام : القسم الاول : ١٩ وما بعدها .

(٣) سورة ق : ١٢ - ١٤ .

ومثل التبابعة السبيئون الذين اشتهرت دولتهم في تاريخ دول جنوب الجزيرة ، وقد كانوا قبل التبابعة . والذي يفهم من ذكرهم في القرآن أنهم خالفوا أمر الله ولم يتبعوا دعوته فعاقبهم بسلب ما اسبغ عليهم من نعم ، وتشثيتهم مع ضيق العيش وضنك الحياة بسبب اعراضهم ، وصدق الله " لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور" (١) .

وإذا كان ما سبق ذكره من هذه الأم تأخذ صوراً مقاربة تتمثل في ارسال رسل من عند الله اليهم ليبلغوهم دعوة الله فاننا نجد القرآن الكريم يذكر لنا جماعة مؤمنة تعيش فيما يمكن تسميته بالعصر الجاهلي يبطش بها اعداؤها ، لا لشيء الا لانها تؤمن بالله ، وهؤلاء هم الذين احرقهم أصحاب الأخدود فيما ذكره القرآن ، " قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . ان هم عليا قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . " (٢) وهؤلاء الذين نص القرآن على إيمانهم كانوا على ما سلم وضح من دين عيسى - عليه السلام - والذي حرّفه النصارى عن أصله الصحيح .

ان هذه المشاعل التي حملت الاسلام في جزيرة العرب ، على ما ذكرنا منها تصور لنا كيف تحركت العقيدة الاسلامية مع التاريخ في جزيرة العرب ، هذا فضلا عن قوله تعالى : " ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك " (٣) مع كثرة النذر " وإن من أمة الا خلا فيها نذير " (٤) ، كما تدلنا على ما حبا الله به هذه

(١) سبأ : ١٥ - ١٧ . وانظر في كفر سبأ : تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير ٦ / ٤٩٥ . تحقيق : ^{عبد العزيز} محمد غنيم وآخرين . ط . دار الشعب - القاهرة ، في ظلال القرآن : ٥ / ٢٩٥ وما بعدها ، وانظر قصة سبأ في : جزيرة العرب منذ أقدم العصور : ١٨٧ وما بعدها .

(٢) البروج : ٤ - ٨ .

(٣) غافر : ٧٨ .

(٤) فاطر : ٢٤ .

الجزيرة من أنوار النبوة ومن يدعو الناس الى دين الله وطاعته .
 و اذا كان كثير من هذه الامم خالف أمر الله وعصى رسله - كما يعلم من أخبارها -
 فإن ذلك لا يدعونا الى تصور أن دعوات تلك الرسل ذهبت أدراج الرياح ، خاصة
 وأن الله أهلك أولئك المكذبين ، ولكنه بالمقابل كان ينجي ذلك الرسول ومن آمن معه ،
 وبهذه القلة المؤمنة ينشأ جيل جديد على الاسلام والايمان ويتناسل ويعمر الارض حتى
 اذا خبت جذوة الايمان في نفوسهم بعد ~~جهد~~ وتمكن الشيطان من اجتياهم عن دينهم
 وعبدوا غير الله . هنا يبعث الله اليهم من يعيدهم الى توحيد الله وعدم الاشراك به
 كما قال أحد المفسرين : " إن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة . . ثم
 تنحرف الى جاهلية ضالة مشرقة - بفعل العوامل المتشابكة المعقدة في تركيب الانسان
 ذاته ، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها - وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة
 التي كانت عليها قبل أن تضل وتشرك فيهلك من يهلك ، ويحيا من يحيا . والذين
 يحيون هم الذين آبوا الى الحقيقة الايمانية الواحدة . هم الذين علموا أن لهم إلهاً
 واحداً ، واستسلموا بكليتهم الى هذا الاله الواحد . هم الذين سمعوا قول رسولهم :
 " يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره " فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ،
 ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ . فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة
 لقومه ، الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله الهة
 أخرى - على اختلاف هذه الالهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة
 بين الحق والباطل . . وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين وينجي المؤمنين " (١)

وينبغي لنا الا نفعل أن ثمة قلة مؤمنة من بقايا أهل الكتاب - كانوا في العصر
 الجاهلي - على ما صح لهم من دين عيسى بن مريم " - عليه السلام - ولم يجاوروا من
 حرف وبدل ، ولا نستبعد أن يكون هؤلاء هم المعنيون في الحديث القدسي
 " . . وإن الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . . " (٢)

(١) في ظلال القرآن : ١٣٠٤ / ٣ .

(٢) رواه مسلم (بشرح النووي) ١٧ / ١٩٧ ، وأحمد في المسند : ٢٦٦ / ٤ .

ونوه اليهم القرآن في قوله تعالى: ^(١) " لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول — ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتينا فآتينا مع الشاهديين . وما لنا لانؤ من بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار . . . "

ومثل هذه القلة كانت لا تخلو من تأثير على من سألها أو عاشرها ببيان الصحيح من الباطل في دين الجاهليين ، ومن أمثالهم أولئك الرهبان الذين تدرج " سلمان الفارسي " - رضی الله عنه - في سؤالهم ومتابعتهم حتى دلّوه إلى الاسلام ^(٢) ، كما أن من آمن من يهود يثرب بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وصدق ما جاء به يدخل في جملةهم والله أعلم .

من كل هذه الإشارات السابقة يتضح لنا أن جزيرة العرب لم تكن خالية من أنوار الايمان ونبراس التوحيد وقداسة النبوة قبل العصر الجاهلي ، بل على العكس — من ذلك ، كانت هنا وهناك دعوات ورسول ، ثم هلاك للكافرين وحياة جديدة لجيل ينشأ على الاسلام حتى يبتعد عن دينه فيبعث الله من يدعو إلى الرجعة إليه .

وما دام حال الجزيرة في معرفة الدعوات إلى الاسلام كذلك ، فالحق أن من حمل شيئاً من مبادئ دعوة أولئك الرسل ، أو دعا إلى عبادة الله وحده في العصر الجاهلي يعدّ أمراً طبيعياً لا غرابة فيه ، ولا يظن أن القرآن الكريم وهو يخاطب كفار قريش ويذكرهم بهؤلاء الرسل وقومهم يعرفهم على شيء لم يألفوه ولم يكونوا منه على علم ان لم يكن كثيراً فهو أمر معلوم عندهم .

وما ينبغي التنبيه له هنا أننا لا ندعى للعرب قوامة الدين وصفاء العقيدة على امتداد تاريخهم وتباين عصورهم ، ان لا شك في ظهور الشرك والوثنيات بينهم ، حتى

(١) الآيات في سورة المائدة : ٨٣ - ٨٥ ،
 (٢) انظر قصة اسلام سلمان - رضی الله عنه - في السيرة النبوية لابن هشام : القسم الاول : ٢١٤ - ٢٢١ .

كان الله يتعهدهم بالأنبياء والرسل عندما تغلب عليهم الوثنية وتضرب بأطنابها ، ومن غير الصحيح أن يقرّ ، الذين يرون أنّ المسلمين قد أرادوا أن يشبّثوا أنّ للاسلام اقدمية وسابقة في بلاد العرب ، وأنهم ظنوا أن خلاصة الدين الاسلامي وصفوته هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله الى الأنبياء من قبل^(١) لأن آيات الله البينات قاطعة في ذلك ، ومن أصدق من الله قيلا .؟

(١) في الادب الجاهلي - د. طه حسين : ١٤١ - ط. ١ - دار المعارف بمصر
التفكير الفلسفي الاسلامي : د. سليمان دنيا : ٣٢٠ - ط ١ (١٣٧٨) الخانجي

(الحقبة الزمنية للعرب قبل البعثة)

إن ما سلف من أنوار الايمان في بلاد العرب لا تدعونا الى التعصب للعرب فننسى
وثنية العرب وبخاصة وقد تغشت قبل البعثة النبوية في أرجاء جزيرتهم ، فبعد ذلك
التور الذي دب في الجزيرة منطلقا من مكة بدعوة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام -
واستمر مدة مديدة بدأ الضعف يطرأ والتهاون بالحنيفية يزداد حتى سؤل لهم الشيطان
عبادة الاصنام ويحاول الرواة تحديد ظهور الشرك إذ " يرجع المؤرخون تلك الوثنية
الى قبيلة خزاعة والتي أخذت الحكم والقيام بأمر البيت من جرهم الذين تولوا البيت بعد
وفاة نابت بن اسماعيل طمعا في بني أختهم ، فحكوا بمكة وما والاها عوضا عن بنسى
اسماعيل مدة طويلة . . . وقد كانت ولاية خزاعة على البيت نحو من ثلاثمائة سنة ، وقيل
خمسائة ، وفي زمانهم كان أول عبادة للأوثان بالحجاز ، وذلك بسبب رئيسهم " عمرو
ابن الحي " فانه أول من دعاهم الى ذلك " (١) .

غير أن هناك أمرا نبه القرآن عليه من شئون العرب ، ذلك ما كانت عليه حالة العرب
قبل العصر الجاهلي وفي العصر الجاهلي نفسه من مرورهم بفترة توقف إرسال الرسل
فيها اليهم ، وقد نبه الله " لذلك عندما قال " لتتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم
غافلون " (٢) ، وذكرت هذه الفترة في قوله جل وعلا " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا
يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . . . " (٣) .

ولاشك أن الفترة التي تشير اليها الآية الكريمة هي الزمن الذي كان بين عيسى ابن
مريم آخر انبياء بني اسرائيل ، وبين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقد ثبت في
الصحيح أنه - عليه الصلاة والسلام قال : " أنا أولى الناس بابن مريم ، والأنبياء أولاد علات
، ليس بيني وبينه نبي " (٤) .

وقال بعض العلماء " قال غير واحد من العلماء إن الله تعالى لم يبعث بعد

(١) البداية والنهاية : ١٨٤ / ٢ .

(٢) سورة يس : ٦ .

(٣) المائدة : ١٩ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٤٧٧ / ٦ ، ٤٧٨ " كتاب الأنبياء " .

اسماعيل نبيا في العرب الا محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء الذي دعا به
ابراهيم الخليل باني الكعبة . . . وبشرت به الانبياء لقومهم حتى كان آخر من بشر به
عيسى ابن مريم عليه السلام .^(١)

ومقدار هذه المدة على ما قيل فيه ، ستائة سنة كما هو المشهور عند العلماء
المحققين .^(٢)

ان هذه الفترة طويلة حقا ، وكان المجال أمام الوثنيات واسعا لكي تطبق على
نور تلك النبوات ، وكان ذلك ما تم ، الا أن المؤرخين يؤكدون لنا انه برغم ظهور
الوثنية بقى في العرب بعض بقايا من دين ابراهيم واسماعيل ، وأدخلوا على بعض
البقايا ما ليس منها كتعظيم الحرم ، واهداء البدن ، والاهلال بالحج والعمرة
وغيرها .^(٣)

ولقد ذكر أحد المفسرين عند قوله تعالى " لتنذر قوما ما أنذرت آباؤهم فهم غافلون "^(٤)
" إن الله اذا أرسل رسولا فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمره لا يرسل
الرسول في أكثر الأمر ، فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو
الكفر يبعث رسولا آخر . . . وقوله " لتنذر قوما ما أنذرت آباؤهم . أى ما أنذروا بعدما
ضلوا عن طريق الرسول المتقدم "^(٥)

ولا شك أن ذلك لا يخرج بنا من أن النبوة والرسالة من قدر الله وحكمته يمن
بها على من يشاء الى من يشاء متى يريد .

كل تلك المشاعر الايمانية في تاريخ العرب وما كان لبقايا أهل الكتاب الذين
لم يبدلوا الصحيح من دينهم في فترة العرب أورثت عرب الجاهلية بعض الافكار

(١) البداية والنهاية : ٢ / ٢١٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣ / ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) الأصنام : ٦ ، أيمان العرب في الجاهلية : ١٢ ، ١٣ ، البداية والنهاية :

٢ / ١٨٤ .

(٤) سورة يس : ٦ .

(٥) الامام الفخر الرازي في التفسير الكبير : ٢٦ / ٤٢ ، ٤٣ .

الدينية والتي نجد منها شيئاً في أدبهم والتي نرى بعضها منها يوافق ما جاء به
الاسلام مما سبق به الأنبياء السابقون وكلهم يأخذون من مشكاة واحدة وان تباينوا
في الشرائع والاحكام ، وصدق الله " ان الدين عند الله الاسلام " (١)

أديان الجاهليين

بدأت البشرية في أصلها على التوحيد بلا شريك ، وكان الاسلام دينهم الذي جُبلت عليه وتعبدت به قبل أية ملّة على وجه الارض ، ثم ان البشرية كانت كما أجتيلت عن ذلك بعث الله اليها رسولا يدعوها الى العودة الى الايمان ويستحثها اليه .

والناس مفلطرون على الحياة بدّين يقيمون عليه ، ويرون له في نفوسهم من المكانة والشعور ما لا يمكن تجاهله ، حتى ولو كان دينهم على أي صورة من السذاجة أو الخرافة في التصورات والشعائر والمعتقدات ، وذلك في كل عصر وفي كل مصر ، إذ أنّ النفس الانسانية لا تسكن وتصلح لها الحياة عندما تخلو من ذلك .

ومع عدم تجاهلنا لما يسبغه دين الاسلام على النفس البشرية من أمن وسعادة ونظرة الى الحياة وما بعدها بصفة عامة مما لا يمكن لدين سابق أن يطاوله أيا كان ، فإن نزعة التدين " فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ودرجات الهمجية . وهكذا ظهرت أقدام فسي المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها لم تقم على خداع الرؤساء وتضليل الدّعاة ، ولم تتركز على أسباب طارئة أو ظروف خاصة ، بل كانت تعبّر عن نزعة أصلية مشتركة بين الناس " (١) .

ويرى المؤرخون أن العرب كانوا في الأصل على ديانة التوحيد - ملّة ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام ، ثم أضلّهم الشيطان عنها ودخلتهم الوثنية وعبدوا الأصنام . (٢)

وقد كانت جزيرة العرب في العصر الجاهلي مسرحا لعدد من العقائد والاديان المختلفة ، عجّت في ربوعها وتناثرت في أقاليمها الواسعة ،

(١) الدين (د . د . راز) : ٨٢ .

(٢) الأصنام : ٦ .

وطمع كلّ منها في اخضاعها له والسيطرة عليها ، وكان منها اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة وعبادة الأصنام .

والذي بيد و للمتأمل في أديان العرب في هذا العصر أنهم اعتنقوها بالمجاورة وأخذوها بالمعايشة لأهل تلك الأديان فلم يكن الأصل عند العرب . وقد احتك العرب في جزيرتهم بأمم كثيرة كاليهود والنصارى في بلاد الشام ، واحتكوا بالفرس في ما نسميه اليوم بالعراق ، وعرفوا الأحباش في ديارهم وفي جنوب الجزيرة ، وهذا يدلّ على مدى اتصالهم بغيرهم ونشاطهم ومعرفتهم بمن حولهم ،^(١) إلا أن من عاش في وسط الجزيرة وفي صحاريها لم تسمح له ظروف الحياة بمعرفة تلك الأمم التي عرفها من كان من العرب في المدن المتحضرة أو مراكز التجارة ، ومن عاش بأطراف الجزيرة وبخاصة الجنوبية والشمالية منها .

وقد كانت هذه الأديان مختلفة الطقوس متباينة الآراء ، كما كانت مختلفة أيضا من حيث أتباعها ومن يدين بها ، فعباد الأصنام لا يقاس بهم الصابئون أو من دان من العرب بالمجوسية ، كما كانت النصرانية أكثر اتبعا وانتشارا من اليهودية . والصراع بين هذه الأديان كان قائما ، فالمجوسية والسيحية من أشدّ هذه الديانات صراعا ، إذ كانت لكل منهما دولة كبرى - آنذاك - تحميها وتدعو إليها ، فدولة الروم مسيحية ، والفرس على المجوسية ، وقد كان الصراع بينهما قائما ، ولا يُظن أن ما دار بين تلك الدولتين من خلافات وشبهت من معارك مقصور على أطماع ماديّة ان لم يكن مبنيا على ذلك الصراع الديني العقائدي .

وكان اليهود يستخفون بالنصارى ، والنصارى لا يروّونهم على دين حتى قال الله تعالى عنهم " وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب . . ." ^(٢) .

(١) انظر: فجر الاسلام : أحمد أمين ، ١٢ (الفصل الثاني : اتصال العرب

بمن جاورهم من الامم) . ط ١١ - ١٩٧٩ م - دار الكتاب العربي - بيروت .

(٢) البقرة : ١١٣ .

ولعلّ ما حدث في جنوب جزيرة العرب - آنذاك - من أحداث وما نجم عنها من النتائج والتغيرات خير ما ندلّ به على ذلك . (١)

ويتعدى ذلك الصراع هذه الأديان فيما بينها لنراه داخل المذهب الواحد ، فالنصرانية مثلا فيها المذهب النسطوري واليعقوبي ، وبينهما انقسام وخلاف ، ومفاهيمهما عن المسيح متباينة ، وكل لا يقر للآخر برأى (٢) . ونجد اليهودية فيها مثل ذلك ، فيهود فلسطين وبلاد الشام يتنكرون لاخوانهم يهود الجزيرة ، ولا يأبهون بهم وينفونهم من الديانة اليهودية (٣) . وأمّا عبّاد الأوثان فكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل قبيلة لها صنم تعظمه وترى أنه أعظم الأصنام ، وتحتقر أصنام القبائل الأخرى ، بل من المحتمل لو حدثت حرب بينهما ، فإن القبيلة المنتصرة ربما تحطم صنم القبيلة المغلوبة وتقضى عليه . (٤)

والذي نحب أن نشير إليه هنا أن في ذكرنا لهذه الأديان ومعرفتها في ذلك العصر فائدة تتعلق بموضوع هذا البحث وتقتضيه ، حيث قد ظهرت الحنيفية في العصر الجاهلي رغم وجود هذه الديانات المتنوعة متمثلة في طلائع النفر الذين سمّوا بالحنفاء على قدر اجتهادهم في الوقوف على هذه الحنيفية ، ومعرفة هذه الديانات سوف يطلعنا على مكانة هذه الحنيفية منها ، ونظرتها الى تلك الأديان ، أضف الى ذلك أن أصحاب هذه الحنيفية ومعتنقيها ظن أنهم من الصابئة وظن أنهم فرقة من النصارى ، كما ظن أن هذه الحنيفية أخذت من هذه الديانات واستفادت من بعضها ، أو كان لها علاقة ما بإحداها كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله . كل ذلك قادنا الى الحديث عن تلك الديانات في ذلك

(١) انظر : السيرة لابن هشام : القسم الاول : ٢٣ - ٤٢ .
 (٢) انظر : الدعوة الى الاسلام : أرنولد : ٧١-٧٣ ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن وآخرون . ط ٣ (١٩٧١ م) - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
 (٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب : اسرائيل ولفنسون : ١٣ - ط (١٩٢٧ م) القاهرة .
 (٤) انظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : د . جواد علي :
 ٦ / ٢٩٠ ، ٢٩١ - ط ٣ - ١٩٨٠ م ، دار العلم للملايين - بيروت .

الزمان ، وسوف يكون حد يثنا عنها مقتضيا للوقوف منها على ما يعنيننا دون خوض في تفاصيل تلك الأديان ، وسبيل من أراد المزيد منها الرجوع الى مظانها من كتب الأديان والفرق والعقائد وغيرها .

(١) اليهودية :

ينبغي أن يعلم أن ما يتعارف عليه باليهودية من ديانة مستقلة ليس ديناً صحيحاً على أصوله التي جاء بها الأنبياء الذين بعثهم الله إلى اليهود ، فالرسل جاءوا بالاسلام ودعوا إليه ثم حرق اليهود ما جاءهم من عند الله ، بل وأدخلوا الشرك في دينهم كما أخبر الله تعالى عنهم : " وقالت اليهود عزير ابن الله " (١) ثم بقوا يتوارثون هذه الديانة الباطلة مفاخرين ينافحون عنها حتى اليوم . ويقال ذلك على المسيحية التي لا تزال قائمة على أصول سابقة وباطلة ، ويدين بها ثلثة من العالم في وقتنا الراهن . (٢)

وقد دخل اليهود جزيرة العرب قبل البعثة بقرون كثيرة ان لم يأت الاسلام الا ولهم مستوطنات في " يثرب " وما حولها " كندك " و " خير " و " تيماء " ، كما وجد بعض منهم في أماكن أخرى " كاليمين " و " والبحرين " (٤) وغيرها .

ويرى المؤرخون أن اليهود " دخلوا يثرب وأطراف الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم مما اضطر بعضهم الى الفرار

(١) التوبة : ٣٠ .

(٢) انظر: ما يتصل بهذا المعنى : روح المعاني : محمود شكرى الألويسى :

٣٩٤ ، ٣٩٣ / ١ ط ٢ - دار إحياء التراث العربى - بيروت .

في ظلال القرآن : ١ / ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى : ١ / ٢٥٧ ط (١٣٧٩ هـ)

دار صادر ، دار بيروت .

(٤) فتوح البلدان : ٩٥ ، ٩٨ . أحمد بن يحيى البلاذرى . نشره د . صلاح

الدين المنجد . ط . مكتبة النهضة المصرية .

الى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم^(١) . أما وجودها في اليمن فلا نستبعد هذا السبب وان دعاهم اليها التجارة وما تتمتع به اليمن من ثراء ووفرة المعيشة . كما أنّ من الرواة من يذكر لنا غير ذلك^(٢) .

وقد عرف العرب اليهود وخالطوهم وذكروا عبادهم في شعرهم^(٣) ، وكانت لهم قبائل من أشهرها " بنو قريظة " و " بنو النضير " و " بنو قينقاع " .

وقد كان اليهود يعملون في الزراعة كما عملوا في صناعة المعادن من حدادة وصناعة أسلحة ومصوغات وغيرها^(٤) ، غير أن أشهر أعمالهم التجارة ، وقد كانت تدر عليهم أرباحا طائلة . وصور التجار اليهود أصحاب حانات الخمر مألوفة في الشعر الجاهلي كما قال الاعشى^(٥) :

وصهباء طاف يهوديها . . وأبرزها وعليها خُتم^(٦) .

ومع ما كان يتصف به اليهود من انطوائية وانعزالية عن غيرهم دلتنا المصادر على أنّ نفرا من العرب قد تهودوا وإن كانوا قلة ، وأن من أسلم من أهل يثرب وقد تهود ابنه أو قريبا له أرادوا ادخالهم في الاسلام واجبارهم عليه فأنزل الله تعالى

(١) تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر) ، ط ١٩٥٦م - بيروت .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٩/١ - ٢٧ .

(٣) من ذلك ما ورد في ديوان زهير :

سوى ربيع لم يأت فيها مخافة . . ولا رهقا من عابد متهود
ديون زهير (صنعة ثعلب) : ١٧٠ . تحقيق : د . فخر الدين قباوة ، ط ١ ،
(١٤٠٢ هـ) دار الافاق الجديدة : بيروت .

(٤) فجر الاسلام : ٢٤ .

(٥) ديوان الاعشى : ميمون بن قيس : تحقيق د . محمد محمد حسين : ٨٥ .
ط ٧ - ١٤٠٣ هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، وانظر المفضليات : للمفضل
ابن محمد الضبي ص : ٢٤٢ . تحقيق : الشيخ أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام
هارون . ط ٦ : بيروت .

(٦) الصهباء : الخمر ، والصهباء الحمرة . ختم : أى مختومة لم تفتح بعد .

الآية " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي " (١)

والذى بيد وأن ديانة اليهود لم تكن صالحة لحمل عقيدة وشريعة توائم النفس البشرية ، وغير كافية لاقامة مجتمع صالح فى ظل حياة سوية ، حتى أنصف العرب من هذه الديانة ولم يعبثوا بها إن لم يكونوا قد سخرها منها ومن أهلها (٢) .
وبالمقابل فقد غلا اليهود بأنفسهم كما بين لنا القرآن الكريم ، فزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، كما أباحوا لأنفسهم ايقاع الأذى بمن سواهم فى سبيل ما يرغبون " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " (٣) .

وقد كان اليهود يتكلمون باللسان العربى كالعرب أنفسهم ، حتى عدّ لنا الرواة شعراء اليهود طبقة من طبقات الشعراء العرب فى الجاهلية وصدور الاسلام (٤) . وذكروا لنا عددا منهم مع أطراف من شعرهم .

ولم يكن اليهود مختلفين فى حياتهم وبيئتهم العامة عن غيرهم من شركى العرب ، ولم يكن تعصبهم لدينهم فى جاهليتهم الى تلك الدرجة التى قاوموا بها الاسلام وأهله عند ما كان للاسلام سلطان فى " يثرب " .

ويصور لنا أحد المؤرخين علم اليهود الذين كانوا ببلاد العرب وثقافتهم فيقول : " وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك - أى أسباب المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود - الا ما تعرفه العامة

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ . وأنظر تفسير الطبرى .

(٢) انظر رسائل الجاحظ (رسالة الرد على النصارى) : لأبى عثمان عمرو

ابن بحر الجاحظ : ٣١٦ / ٣ - تحقيق : عبد السلام هارون ، ط ١ (١٣٩٩هـ)
الخانجى بمصر ، تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ٧٢ .

(٣) آل عمران : ٧٥ .

(٤) طبقات فحول الشعراء " شعراء يهود " لمحمد بن سلام الجمحى : ٢٧٩ .

بشرح : محمود محمد شاكر . ط . مطبعة المدنى - القاهرة .

من أهل الكتاب^(١) ومع ذلك فقد روى أنه كانت لهم دور تسمى (المدارس) يعلمون فيها أبناءهم دينهم وعبادتهم^(٢).

ويفهم من القرآن الكريم أن اليهود كانوا يهدون العرب بظهور نبي منهم وبه ، يسلمهم الله عليهم ، فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم - من العرب كذبوه وكانوا من الدّ خصومه ، قال تعالى " ولما جاءهم كتاب من عند الله صدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ... " (٣)

والذي يمكن قوله فيما كان لليهود من تأثير على العرب أن ذلك كان ضعيفاً وغير مهين إذ لا يصح المبالغة في ذلك ، وما يراه بعض الباحثين من ادخالهم بعض المصطلحات في اللغة العربية وغير ذلك^(٤) لا يؤخذ على إطلاقه إذ لديهم من الكلمات ما كان يحمل تلك المدلولات ، بل إن أثرهم إن لم يكن شيئاً فسي جملته فهو يقترب من ذلك حتى قال بعث الباحثين " إن أثر اليهود في العرب كان خافتاً من الناحية النظرية أم الناحية العملية .

فأما الناحية النظرية فانهم لم يجدوا في نشر دينهم بين العرب الوثنيين ، ليرفعوهم من وهدة الشرك إلى سماء التوحيد ، وكذلك لم ينشروا بينهم ثقافة دينية أو خلقية .

وأما من الناحية العملية فقد كان لهم ^{أثر} شيء في بلاد العرب ، لأنهم انصرفوا إلى كسب المال من طرقه المشروعة وغير المشروعة ، فكانوا هم الذين يرابون ويعلمون الناس الربا ، وكانوا يوقعون بين القبائل العربية ، ويفرون الأوس بالخزرج والخزرج بالأوس ، ولم يعنهم من أمر العرب المشهودين إلا أن ينتفعوا بهم لحمايتهم ولحماية متاجرهم . (٥)

(١) تاريخ ابن خلدون : ٤٣٩/١ ، وانظر : المفضل في تاريخ العرب : ٥٣٢/٦ .

(٢) لسان العرب (درس) : ٨٠/٦ ، : .

(٣) البقرة : ٨٩ .

(٤) فجر الاسلام : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : د . أحمد محمد الحوفي : ١٤١ .

ط . دار القلم - بيروت .

(ب) النصرانية

نود أن نشير الى أن ما نسميه بالنصرانية لم يأخذ هذه التسمية الا في وقت متأخر بعد أن رفع الله رسوله " عيسى عليه السلام " إليه ، إذ أنه جاء بالاسلام من عند الله ودعا اليه في رسالته التي كانت رحمة لبني اسرائيل ، بعد أن عاقبهم الله قبل ذلك بألوان من الجزاء عند ما عصوا رسل الله وقتلوهم واستحلوا محارمه .

ولعل هذه التسمية مأخوذة من الناصرة ، وهي " قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا فيها كان مولد المسيح . . ومنها اشتق اسم النصارى ^(١) أو راجعة الى النصارى أتباع عيسى وأنصاره كما جاء في القرآن الكريم " قال الحواريون نحن أنصار الله " ^(٢) .

أما دخول النصرانية بلاد العرب فذلك قبل العصر الجاهلي بفترة طويلة فيما يبدو ، إذ أن من كانوا عليها يومئذ ليسوا أول من دان بها ، وفي بعض الأماكن شمال الجزيرة بيد وأنها قد رسخت أقدامها من فترة متقدمة .

وقد كانت النصرانية تنتشر في بلاد العرب وغيرها بفضل العباد والرهبان الذين كانوا ينتشرون في الأرض ثم لا يلبثون أن يدعوا الناس ويرغبوهم وييسروا بدينهم ، ولعل هؤلاء المبشرين كانوا على حظ من الجدل والاقناع حتى يتمكنوا مما يريدون . ولما آلت النصرانية الى دولة الروم وأصبحت دين حكامها كان لها الدور الاكبر في انتشارها في أوربا وشمال وشرق أفريقيا وبلاد الشام وما حولها ^(٣) .

وفي العصر الجاهلي نجد النصرانية في شمال الجزيرة ، في بلاد الشام وبلاد الرافدين ، ويذكر الرواة أنها كانت في ربيعة ، وغسان وبعض قضاة ^(٤) ،

(١) معجم البلدان : لياقوت بن عبد الله الحموي (الناصره) : ٥ / ٢٥١ . ط دار

صادر - ١٣٩٢ - بيروت ، لسان العرب : نصر : ٥ / ٢١١ ،

(٢) الصف : ١٤ .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٥٨٢ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ .

(٤) المعارف : عبد الله بن مسلم بن قتيبة : ٦٢١ ، تحقيق ثروت عكاشة . ط دار المعارف بمصر .

كما وجدت بين الفساسنة وتغلب ، وتنوخ ، وشليح ، ولخم ، وايا ، وبهراء ، وطى ،
وبعض أحياء من العرب . (١)

وقد كان الفساسنة في بلاد الشام يرجعون الى " قيصر " وينتمون اليه وفي ذلك
ما يبين العلاقة التي كانت قائمة بينهما ، ولما جاء الاسلام وقف الروم من وراء نصارى
العرب في بلاد الشام يوءازرونهم في حرب المسلمين .

وكانت النصرانية ببلاد العراق الا أنها لم تكن كحالها ببلاد الشام اذ العراق
تخضع للفرس الذين يدنون بالمجوسية ، ولا ريب في انتشارها هناك اذ تدلنا
المصادر على العديد من الأديرة التي انتشرت في الحيرة وما حولها اذ كانت
معتقلا للأخبار والرهبان وغيرهم من أهل دينهم (٢) ، والعباديون في الحيرة هم
أظهر من عرف بالنصرانية ، غير أن ما يفهم من دراسات الباحثين أن نصارى العراق
كانوا على المذهب النسطوري الذي يختلف عن المذهب اليعقوبي الذي كان عليه
نصارى بلاد الشام . (٣)

وعرفت النصرانية في بعض أجزاء اليمن وجنوب جزيرة العرب ، وقد كانت
" نجران " أهم موطن لها في " اليمن " ، وبقيت بها حتى جاء الاسلام ، وقدم وفد
نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان فيهم العاقب والسيد والأسقف (٤) ،
ودعاهم الى المباهلة (٥) ، وكعبة نجران التي كان يقوم عليها بنو عبد المذان

(١) تاريخ اليعقوبي : (أديان العرب) : ٢٢٧ / ١ ، رسائل الجاحظ (رسالة
الرد على النصارى) : ٣ / ٣١٣ .

(٢) أنظر ذكر هذه الأديرة في معجم ما استعجم : ٥٦٧ / ٢ . أبو عبيدة البكري

تحقيق مصطفى السقا وآخرون ط ١ ، ١٣٦٤ لجنة التأليف والترجمة - مصر ، معجم
البلدان ١٩٥٠ / ٢ ، وما بعدها

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، العصر
الجاهلي : د . شوقي ضيف : ١٠٠ - ط ٧ - دار المعارف بمصر .

(٤) العاقب : أمير القوم ونز والرأى فيهم وصاحب مشورتهم الذي لا يصدرون الاعن
رأية ، والسيد : من يقوم بأموهم وشئونهم وصاحب رحلتهم ومجتمعهم ، والأسقف :
حبرهم ومامهم .

(٥) السيرة لابن هشام : المجلد الثاني : ٥٧٣ وما بعدها .

التي اذا جاءها الخائف آمن ، أو طالب حاجة قضيت مشهورة عند الرواة (١) .
ولما دخل الأحباش اليمن وأخذوا سلطته كان للنصرانية شأن بارز ، حاولت
به أن تنتشر ، وُنيت كثير من البيع والكنائس ، وكانت القليس التي بناها " أبرهة " في
" صنعاء " ، وبالغ في احكام بناءها وتزيينها ليصرف العرب عن الكعبة اليها
خير شاهد على ذلك (٢) .

ولا ريب أن ما ذكرناه عن النصرانية في ماسلف وان ظهر على شكل جماعات
كثيرة في تلك الأماكن لا ينفي وجود بعض نفر أو جماعات قليلة في غيرها من المناطق (٣) ،
إن من المعلوم أن ظروف الحياة وحركة التجارة ورغبة النصارى في التبشير قد تدعوا
الى ذلك أو تشجع عليه .

وقد حفل الشعر الجاهلي ببعض الصور النصرانية التي عرفها العرب ، ومن
هذه الصور ذكر الراهب المتبتل لعبادته المنقطع عن شئون الحياة وشهواتها ،
وذكر النابغة الذبياني أن (المتجردة) لو عرضت لراهب أشمط لرننا لها (٤) .
لو أنها عرّضت لأشمط راهب . . يخشى الإله ضرورة متعبداً (٥)
لرنا لروءيتها وحسن حديثها . . ولخاله رشد أو إن لم يرشداً (٦)
وصورة مصباح الراهب الذي يضيء في جوف الليل كوجه محبوبه امرئ القيس (٧) :
تضيء الظلام بالعشاء كأنها . . منارة مس راهب متبتل

(١) معجم البلدان (نجران) : ٥ / ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، تاج العروس : (نجر) :

٥٥٦ / ٣ ، ديوان الأعشى : ٢٢٣ .

(٢) انظر السيرة لابن هشام : المجلد الاول : ٤٣ .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٦٢١ .

(٤) ديوان النابغة الذبياني : تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور : ٩٨ . نشر

الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة الوطنية للنشر - الجزائر .

(٥) الأشمط : الذي خالط بياض شعره سواده أي دخله كبر السن ، الصرورة :

الذي لا يتزوج لثلاث تشغله امرأته عن مداومة العبادة .

(٦) رنا : أي أدام النظر .

(٧) ديوان امرئ القيس : تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم : ط . دار المعارف بمصر . ص ١٧ .

ونواقيس الأديرة وأصواتدقاتها مما ذكره الأعمشى (١) :

وكأس كعين الديك باكرت حدّها . . . بفتيان صدق والنواقيس تضرب .
ونجد اضافة الى ذلك عددا من الاشارات الى الكنائس والبيع والدمى والصلبان ،
وثوب الراهب وأيام أعيادهم (٢) .

ولم تكن النصرانية فى طبيعتها قادرة على تأسيس أمة ذات عقيدة ومنهج
سوى ، فقد دخلها الشرك عند ما جعلوا الله ثالث ثلاثة - تعالى الله عن ذلك علوا
كبيرا " يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما
المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله
ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله واحد سبحانه أن يكون له ولد (٣) .
كما كانت النصرانية معقدة لا يُعلم كنهها ، برمت بها النفوس عندما أصبحت
مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والافلاطونية المصرية والرهبانية
اضحلت فى جنبها تعالم المسيح (البسيطة) كما تتلاشى القطرة فى اليم ،
وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ، ولا تمد العقل
ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ولا تنير السبيل ، بل أصبحت
بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين تحول بين الانسان والعلم والفكر ، وأصبحت
على تعاقب العصور ديانة وثنية (٤) .

وبرغم هذا الغموض والاسفاف فى هذه الديانة فقد تصدعت من داخلها
الى فرق متناحزة ، تختلف حول فهم المسيح وتتجادل فى أسس الديانة ،

(١) ديوانه : ٢٥٣ ، وحدّ الخمر : سورتها وحدّتها .

(٢) انظر فى ذلك الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٤١٩-٤٢١ ، الصورة
الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث . د . نصرت عبد الرحمن :

٢٣ ، ٢٢ . ط ١٩٧٦ م ، مكتبة الاقصى - عمان .

(٣) النساء : ١٧١ .

(٤) ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين لأبى الحسن على الحسنى الندوى :

٤٢ . ط الاتحاد الاسلامى العالمى للمنظمات الطلابية (١٤٠١ هـ) .

وأشهر فرقها (اليعقوبية أصحاب يعقوب والملكية أهل دين الملك، والنسطورية أصحاب نسطورس) .^(١)

والذين وجدت بينهم النصرانية من عرب الجاهلية ينبغي أن يفهم أنها، لم تكن متعمقة في نفوسهم، أو كانوا ملتزمين بأحكامها بدقة، فهم لم يكونوا مخلصي النية في اعتناقها ولم يختلفوا كثيرا عن غيرهم من الوثنيين، وظلوا يخلطونها بغير قليل من وثنياتهم، وربما لم يتسكروا إلا بما وافق هواهم من هذه الديانة،^(٢) حتى ذكر "ابن كثير" عند قوله تعالى "اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم..."^(٣) "أن نصارى العرب كبنى تغلب وتنوخ وبهراء وجماد ولخم وعاملة ومن أشبههم لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور"، وعلل ذلك بما روى عن "علي بن أبي طالب رضي الله عنه" أنه قال: "لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتسكون من النصرانية بشرب الخمر"^(٤).

ويقوى ذلك أن عدّهم الرواة نصارى من شعراء الجاهلية وأشهرهم عدى بن زيد العبادي^(٥) لم يرد في ما يروى له من الشعر ما يتحدث عن عقيدة التثليث ويوضح آراء النصارى ومعتقداتهم وأفكارهم، بل قد روى أنه حلف بملكه في قوله:^(٦)

سعى الأعداءُ لا يألونُ شـراً .. عليّ وربّ مكة والصليب

(١) تلبيس ابليس: لأبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: ٧٣. ط دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) انظر: العصر الجاهلي: ١٠٠، ١٠١.

(٣) المائة: ٥.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٧/٣.

(٥) عدى ابن زيد العبادي: شا عن نصراني متقدم، كتب بالعربية والفارسية لدى كسرى، وكان معاصراً للنعمان ابن المنذر ملك الحيرة الذي حبسه حتى

مات. انظر: طبقات فحول الشعراء: ١٥٠/١، الاغانى: ٩٧/٤.

(٦) الاغانى: لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني: ١١١/٢. نسخة مصورة

عن طبعة دار الكتب - نشر - دار احياء التراث العربى - بيروت.

وما يروى له إنما هو ذكر لبعض مظاهر النصرانية نجدها عند غيره ممن ليسوا على دينه كما أكد ذلك من تعمقوا في دراسة حياة عدى وشعره ،^(١) والاعشى ميمون - ابن قيس - الذي بدت آثار النصرانية واضحة في بعض صورهِ - من أثر اتصا له بالعباديين في الحيرة وآل جفنه في الشام ، حتى زعم بعض من ترجم له من القدماء والمحدثين أنه كان نصرانيا ، وأن العباديين هم الذين لقنوه هذا الدين عندما كان يفد إليهم ،^(٢) لا يمكن الجزم بنصرانيته ، وكيف هشت نفسه عندما علم بالإسلام فمدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكان يدخله لولا أن خدعه القرشيون ،^(٣) والواقع أن كل مانجده من آثار النصرانية في أخبار الاعشى ، هو أن راويته كان نصرانيا اسمه يحيى بن متى ، وأنه كان يزور بعض أشرف النصارى وسادتهم مثل بنى الحارث بن كعب في نجران ، فيمدحهم وينال عطاءهم ، ويقوم عندهم يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومي . ثم لا نجد بعد هذا في شعره إلا بعض الصور والتشبيهات مثل تشبيه قيس بن معدى كرب^(٤) بالرهبان في عدله وتقواه ، ومثل حلفه برهبان دير هند وإشارته إلى عيد الفصح وإلى طوفان نوح .^(٥) ولكنه مع هذه الآثار النصرانية في شعره ظل بدويا في أعماقه

(١) عدى بن زيد العبادي : د . محمد علي الهاشمي : ٦٠ ، ٦١ . ط ١٣٨٧-١٣٨٨ هـ

المكتبة العربية - حلب .

(٢) ديوان الاعشى : ٣٨ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : المجلد الاول : ٣٨٦-٣٨٨ ، ديوان الاعشى : ١٨٤ .

(٤) قيس بن معدى كرب الكندي : ملك جاهلي يمانى ، وهو والد الأشعث بن قيس

صاحب الثورة على الأمويين ، وكان صاحب مرباع حضر موت الذي خلف والده

عليه ، وقتل في إحدى وقائعه مع مراد .

وانظر خزانة الادب : لعبد القادر بن عمر البغدادي : ٢٣٩/٣ . تحقيق :

عبد السلام هارون . ط الخانجي بالقاهرة ، الاعلام : خير الدين الزركلى :

٢٠٨/٥ ط ٥ - ١٩٨٠ م . دار العلم للملايين بيروت .

(٥) انظر ديوانه ، القصائد : ٥ : ٦٢-٦٤ ، ١٣ ، ٦٩ : ٢٣ ، ١٦ ، ٧٩ : ٢٨-٢٩ ،

٣٥ : ١-٦ .

وفي تصويره للأشياء ، لا يمجّد الا القوة^(١) وشعره خير مبين لذلك^(٢) .
والذين أخذوا على عاتقهم تنصير عرب الجاهلية ليقولوا ان النصرانية
ديانتهم السائدة ، وجاوزوا ذلك الظن بأن الكعبة إنما هي في الأصل كنيسة
أو صومعة^(٣) ، وما شابه ذلك من مزاعم تدور حول التنصير ، هؤلاء قوم طمس التعصب
بصائرهم وأظهر الله حقدهم فيما سطره من كتابات لا تصمد أمام الحقائق العلمية
التي تسير البحوث القويمة الهادفة على ضوئها ، وحسبى أن أذكر مثلين يكفيان
في بيان مدى المجازفة الباطلة في قلب الحقائق والجهل أو التجاهل في تحريف
الكلم وادعاء الباطل الذي وقع فيه هؤلاء القوم .
لقد زعم " لويس شيخو " أن " جابر بن حنّى " كان نصرانيا ، واستدل بقوله
مفتخرا بنصرانيته :

وقد زعمت بهراً أن رماحنا . . رماح نصارى لا تخوض إلى دم^(٤)
ومثل هذا البيت في وضوح معناه وقوة دلالة على أنفة قائله من النصرانية التي
لا تميل إلى الحرب مالا يحتاج معه إلى أعمال فكر أو مزيد تأمل وإنما هو التعصب
المقيت^(٥) .

وقد زعم أيضا أن " حاتما الطائي " من النصارى ، وما رواه من شعره قوله :
وما زلت أسعى بين ناب ودارة . . بلحيان حتى خفت أن أت نصرا^(٦)

(١) السابق : ٣٨ .

(٢) السابق (القصائد) : (٣٠ ، ٣١) - (٤ ، ٣) - (١٣ - ١٤) (٢١ ، ٢٢) : (٣٥ ، ٤٢ ، ٤٣) .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٦٦٦ .

(٤) شعراء النصرانية : لويس شيخو : ١٨٨ . ط . مكتبة الاداب بالقاهرة .

(٥) انظر : المفضليات : ٢٠٨ .

(٦) شعراء النصرانية : ١ / ١٠٧ ، وناب ودارة موضعان ، وانظر في مثل ذلك أديان

العرب في الجاهلية : محمد نعمان الجارم : ٢٠٥ . ط ١ - مطبعة السعادة

فحاتم كاره للنصرانية يخشى على نفسه من التأثير بها مما يلاحظه من أهلها ، وهذا يدعى له النصرانية لأنه ذكرها وليس ذلك بشيء .

وقد تبين أن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت من توفرت فيه أخلاق معينه مسيحياً وان لم يكن على دينها حتى قال أحد الكاثولوكيين : " فالوشى مهما كانت ديانتها اذا كان يحافظ على شريعة الله بقدر ما يعرفها ، أى الشريعة الطبيعية الصارخة بضمير الانسان أعمال الخير وهو متحد بنفس الكنيسة أم لم يعمل فهو يخلص أنه منها " (١) .

أما تأثير النصرانية على العرب فلا شك أن التأثير والتأثر ظاهرة طبيعية بين الأمم والشعوب . ويعدّ من تنصر من العرب انما كان لتأثير هذه الديانة التي آزرتهما السلطة في الغالب ، ولا شك في دخول الأفكار النصرانية على هؤلاء وربما أنفذوها الى من حولهم ، ومن المصادر ما يشير الى وعظ القس والرهبان للناس في المجتمعات والأسواق ، يذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، (٢) غير أن ذلك فيما يبدو كان نادراً ، والشعر الجاهلى حافل بكثير من الصور النصرانية التي أشرنا اليها كالنواقيس والرهبان وأيام الاعياد وغيرها . ولا شك أن من ترهب من العرب ولبس المسوح أو بنى بيعة أو ديرا اعتزل فيها وتعبّد كان من أشر ذلك الدين .

وخلاصة ما يقال في ذلك أن النصرانية لم تكن لتترك آثارا واضحة في حياة الجاهليين حتى ليصعب التعرف عليها لمن أراد التماسها ، بل ويحتاج الى اطلاع واسع يمكنه من ذلك ، وقد عجزت النصرانية أن تقتحم وثنية العرب ، وما يروى

(١) وثنية العرب وأثرها في الادب الجاهلى : على أحمد على الخطيب : ١١٤ .

رسالة ماجستير - جامعة الازهر ١٣٨٩ هـ .

(٢) نقد النثر . المنسوب لقدامة بن جعفر : ٩٨ . ط . لجنة التأليف والترجمة

والنشر . مصر .

من أمور تدل على النصرانية لا يدل على ايمان متمكن عميق ، بقدر ما يدل على
وصف أمور مشاهدة (١) .

(١) انظر الجاهلية : مقدمة في الحياة العربية لدراسة الادب الجاهلي :
د . يحيى الجبورى : ١١٤ ، ١١٥ ، ط ١٣٨٨ ، مطبعة المعارف -
بغداد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ١٤٩ ، ١٥٠ .

(ج) المجوسية

وأصحاب هذه النحلة هم المجوس ، وهم القائلون بالأصلين " وهما النور والظلمة ، يزعمون أن الخير من فعل النور ، وأن الشر من فعل الظلمة " (١) . وقد أشار اليهم القرآن الكريم في الآية " إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . . . " (٢) .

ونجد في الشعر الجاهلي بعض اشارات تدل على معرفة بالمجوس ووقوف على أحوالهم ، وقد قال شاعرهم " كئار مجوس تشتعل اشتعالا " (٣) ، ويدلنا امرؤ القيس على مشية الاختيال التي رآها في قومة بيت النار التي يعبدها المجوس عندما قال :

مشى الهربذي في دفه ثم فرقا (٤) .

وقد ورد عن عقيدتهم " أن الله تعالى شخص روحاني ظهر فظهرت معه الاشياء روحانية تامة ، فقال : لا يتهاى لغيري أن يبتدع مثل هذه التي ابتدعتها ، فتولد عن فكرته هذه الظلمة ، إذ كان فيها جحود لقدرة غيره فقامت الظلمة تغالبه .

(١) لسان العرب : ٢١٣/٦ ، تاج العروس : ٢٤٥/٤ (مجس) .

(٢) الحج : ١٧ .

(٣) هذا عجز بيت أجاز به التوأم اليشكري امرأ القيس عندما طلب منه ذلك ثم قال : أصاح أريك برقا هب وهنا كما في لسان العرب : ٢١٣/٦ ، ولم نجد في ديوان امرئ القيس .

(٤) هذه رواية لسان العرب (هرند) ٥١٨/٣ ، والبيت كما في الديوان يصف الحصان ص ٦٧ :

إذا زعتك من جانبيه كليهما . . . هشي الهيدبي في دفو ثم فرقا
وجاء في شرحها : إذا عطفته وألمته بالتركض والزجر من جانبه تبخرت في مشيه ، ومال في أحد جانبيه ، ثم حرك فمه باللجام عبثا ونشاطا ، والهيدبي ، بالبدال : مشية فيها تبخرت ، واشتقاقها من الثوب ذي الهدب ، لأنه مما يتبخر فيه ، ويروى : " الهيدبي " بالبدال المعجمة ، وهو من أهدب في سيره إذا أسرع ، ومعنى : " فرفر " حرك اللجام في فمه .

أما شريعتهم التي شرعها زرادشت^(١) فهي عبادة النار والصلاة السنية الشمس ويتأولون فيها أنها ملكة العالم ، وهي التي تأتي بالنهار وتذهب بالليل ، وتحيي النباتات والحيوانات ، وترد الحركات الى أجسادها ، وكانوا لا يدفنون موتاهم في الأرض تعظيما لها ، ويقولون إنها نشوء الحيوانات فلا نقدرها ، وكانوا لا يفتسلون بالماء تعظيما له ، لأن به حياة كل شيء ، بل يغسلون وجوههم ببول الأبل تبركا به ، لذلك فهم لا يرون قتل الحيوانات ولا ذبحها ، وكانوا يستحلون فروج الأمهات ، . . وهم يرون في الأفعال خيرا وشرا ، وأن فاعل الخير لا يفعل الشر ، فأثبتوا الهين ، وقالوا : أحدهما نور حكيم لا يفعل إلا الخير ، والآخر شيطان هو ظلمة لا يفعل إلا الشر^(٢) .

ويبدو أن عبادة النار مرت بمراحل " من عبادة الله والسجود له الى عبادة عدد من الكواكب ، ثم تحريم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار فاقترضوا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن تمجيدهم للنار واتخاذها قبلة تدرج الأمر بهم الى أن عبدوا عين النار^(٣) .

لقد كانت ديانة المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يوءونها في أمكنة خاصة . أمّا في خارج المعابد ، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفي السياسة والاجتماع فكانوا أحرارا يسيرون على هواهم وما تملئ عليهم نفوسهم^(٤) .

(١) قال الأزهري : وليس هو زرادشت الفارسي (أي الذي وضع دين المجوس) كما قاله بعض لأنه كان بعد إبراهيم عليه السلام ، والمجوسية دين قديم وانما زرادشت جدده وأظهره وزاد فيه (تاج العروس : ٢٤٥ / ٤) .

(٢) تلبيس إبليس : ٧٥ ، ٧٦ .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ٦٣ .

(٤) السابق : ٦٣ ، ٦٤ .

وقد أخذت العرب المجوسية عن أهل فارس إذ هي ديانتهم، والحسيرة
أكبر المراكز التي احتك العرب بالفرس فيها، وذكر الرواة أن أشتاتا من العرب
قد عبد النار^(١) كما يبدو وأن ثمة مجوسا كانوا في بعض المناطق عندما بدأ
الاسلام ينتشر في أرجاء الجزيرة، ومن ذلك "عمان" و"البحرين" و"هجر"^(٢)،
وروى أن المجوسية كانت في تميم^(٣).

وقد ذكرت بعض المراجع أسماء بعض العرب اعتنقوا هذا المذهب منهم
"زرارة بن عدس التميمي" وابنه "حاجب بن زرارة" وهما من سادات تميم، ومنهم
"الأقرع بن حابس" و"أبو الأسود" جد "وكيع بن حسان"^(٤).

كذلك اليمن لا يستبعد أن يكون بها بعض أشخاص اعتنقوا المجوسية إذ كان
للفرس دور كبير في طرد الأحباش من اليمن، وقد جاء الاسلام وفي اليمن جالية
من الفرس عرفوا فيما بين العرب بالابناء^(٥).

ومع ما سلف من ذكر للمجوسية بين العرب إلا أن أثر المجوسية في العرب كان
ضعيفا جدا، ونعني بذلك من اعتقد المجوسية واتخذها ديناً له، وقد ورد أن
للعرب في جاهليتهم نيرانا كثيرة لا يستبعد تأثرهم ببعضها من المجوس فـسـى
الغالب، إذ هم عبّادها وخدمها، وقد كانت النصارى أيضا توقد النار فـسـى
معابدها ولكنهم لم يعبدوها ولا عظموها وإنما زعموا أنهم أمروا بذلك، وقد أفاض
"الجاحظ" وأسهب كثيرا عن نيران العرب والعجم، وعن نيران الديانات وغير
الديانات، وعمّن عظمها وعمّن استهان بها، وعمّن أفرط في تعظيمها

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : محمود شكرى الألوسى : ٢٣٣/٢ .

ط ٣ - دار الكتب الحديثة - القاهرة .

(٢) فتوح البلدان : ٩٣ ، ٩٥ .

(٣) المعارف : ٦٢١ .

(٤) السابق : ٦٢١ .

(٥) انظر السيرة لابن هشام : المجلد الاول : ٦٨ - ٧٠ ، فتوح البلدان : ١٢٥ ،

حتى عبدها^(١) . ومن تلك النيران : نار القربان ، ونار الاستمطار ، ونار المسافر ،
ونار الحرب ، نار الحرتين ، نار الصيد ، نار القرى^(٢) ، وغيرها .

وينبغي أن يفهم أن المجوسية تحتوى على كثير من الفرق المتشابهة ، والتي
ترجع في جملتها الى الثنوية ، ومن ذلك : المانوية ، والزرادشتية ، والمزديكية
وغيرها^(٣) .

(١) الحيوان : لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٤ / ٤٦١ ، تحقيق عبد السلام
هارون . ط ٢ ١٣٨٥ - مصطفى الحلبي - مصر .

(٢) نار القربان هي التي كانت لبنى اسرائيل كما أشار اليها القرآن ، في موضع
امتحان اخلاصهم ، وتعرف صدق نياتهم ، فكانوا يتقربون بالقربان . فمن
كان منهم مخلصا نزلت نار من قبل السماء حتى تحيط به فتأكله ، فاذا فعلت
ذلك كان صاحب القربان مخلصا في تقربه ، ومتى لم يروها وبقي القربان
على حالة قهصوا بأنه كان مدخول القلب فاسد النية ، ومثلها ما يروى عن
النار التي يحتكمون اليها في اليمن . انظر السيرة : المجلد الاول : ٢٦ .
نار المسافر : ويوقدونها خلف المسافر والزائر الذي لا يحبون رجوعه ، وكانوا
يقولون في الدعاء : أبعد الله وأسحقه وأوقد نارا خلفه .

نار الاستمطار : سيرد الحديث عنها في قسم العبادات من فصل أدب
الحنيفية باذن الله .

نار الحرب : هي النار التي كانوا اذا أرادوا حربا ، وتوقعوا جيشا عظيما ،
وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلا على جبلهم نارا ليبلغ الخبر أصحابهم .
نار الحرتين : سترد معنا عند الحديث عن خالد بن سنان أحد الحنفاء .
نار الصيد : توقد للصيد لتعشى اذا أدامت النظر اليها ، وقد يوقدون
النيران يهلون بها على الأسد اذا أخافوها لانها تشغلها عن السابلة .

نار القرى : من النيران التي افتخر بها العرب وهي التي ترفع للسفر
ولمن يلتصق القرى ، فكما كان موضعها أرفع كان أوفر .

(٣) انظر : الملل والنحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : ٢ / ٧٠ وما بعد ها

على هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم . ط ٢ - ١٣٩٥ -

دار المعرفة بيروت .

(د) الصابئة

بيد وأن هناك من العرب من كان على علم بأصحاب هذه الديانة، إذ نجد المشركين ينجزون من كان يدخل في الاسلام بالصائبى . ومع ما تدلّ عليه لفظ الصائبى من خروج من الدين المألوف عند قوم فقد ورد أنّ الصابئة " أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لا اله الا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبيّ الا قول لا اله الا الله ... ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي وأصحابه : هؤلاء الصابئون ، يشبهونهم بهم ، يعنى فى قول لا اله الا الله " (١) .

والمطلع على ما يروى عن تفسيرات لهذه الصابئة وتحديد دينهم يقف حائرا بين جملة من الآراء الكثيرة المتباينة حتى يصعب الخروج منها بنتيجة مرضية تدل على حقيقة هذه الطائفة وتصور لنا دينها . (٢)

وفى العصر الحديث ظهرت دراسات جادة أمّاط اللثام عن هذه الطائفة ، وقد أسهم فيها المسلمون والمستشرقون على السواء ، ومن خير ما تميزت به هذه الدراسات مشاركة بعض أبناء هذه الطائفة فى تقويم ما كتب عنها . (٣)

وقد تبين من خلال هذه الدراسات أن الصابئين " اسم لطائفة دينية قديمة جدا ، لا يزال لأتباعها بقية باقية فى " العراق " و " جنوب " ايران " حتى يومنا هذا . ولا يزال لهؤلاء الاتباع قيم وطقوس وشعائر دينية خاصة ، ولفة وحروف ابجدية مستقلة ، وكتب مستقلة " . (٤)

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ١٤٩ .

(٢) انظر فى ذلك تلبس ابليس : ٧٤ ، ٧٥ ، تفسير البحر المحيط : ١ / ٢٣٩ .

(٣) انظر ذكر هذه الدراسات : الصابئة المندائيون : الليدى دراوو . ترجمة :

نعيم بدوى ، غضبان رومى : (الكتاب الاول : ٤ ، ٥) ط ١٩٦٩ م ، مطبعة

الارشاد - بغداد .

(٤) الصابئون حرانيين ومندائيين ، رشدى عليان : ١٦ ، ط ١٩٧٦ - دار

السلام - بغداد .

وسبب اختلاف العلماء - قديما وحديثا - يرجع الى الصعوبات التي تعترض البحث في هذا الموضوع ان " أن رجال الدين الصابيين يتكتمون على معتقدات دينهم حتى على معتنقى هذا الدين انفسهم ، ولا يقرون علنيتها بأى حال من الأحوال ، وأن المثقفين من أبناء هذه الطائفة يتهيبون البحث في أمور الدين لعدم احاطتهم بها من جهة ، ولعدم معرفتهم الكافية باللغة التي دونت بها كتبهم الدينية من جهة أخرى ، فضلا عن أن الصابئين عموما يصطنعون التقيّة ، ويؤثرون العزلة والانزواء عن غيرهم من أهل الأديان الأخرى فلا يخالطونهم ولا يواكلونهم ما استطاعوا" (١) .

ويذكر الرواة أن هناك من انتحل ديانة الصابئين كأهل " حران " في عصر " المأمون " مع أنهم ليسوا على دينهم انهم يعبدون النجوم والكواكب (٢) وتشتبه كثير من شعائر الصابئة بما يوجد في الملل الأخرى المختلفة ، ولا يعرف دين من الأديان تخلو الصابئة من مشابهة له في إحدى الشعائر (٣) وكل ذلك مما كشف الحجب دون حقيقة هذه الديانة .

وهم يعتقدون بالحي الأزلّي ، والثواب والعقاب ، وينكرون النبوة ، كما يرون أن للملائكة التي يسمونها (الروحانيات) تأثيرا على مصير الأحياء (٤) .

وتدل الدراسات أن من أهم شعائر الصابئة الانغماس في الماء والاغتسال بكثرة منه ، ويسمّون ذلك " مصبته " أى التعميد . ويتوجهون في عبادتهم الى القطب الشمالي ، ولهم ثلاث صلوات في اليوم يكفون بالقيام والركوع فيها ،

(١) الصابئون حرانيين ومندائيين : ١٧ .

(٢) انظر الفهرست : محمد بن اسحاق النديم : ٤٤٥ ، ٤٤٦ . ط . دار المعرفة

- بيروت .

(٣) موسوعة العقاد الاسلامية (المجلد الاول) - ابراهيم أبو الانبياء :

عباس محمود العقاد : ٤١٢ . ط (١٩٧٠ م) دار الكتاب العربي - بيروت .

(٤) الصابئة المندائيون : ١٩ .

وهم يصومون بتحريم اللحم فقط عند ذلك ، كما اشتهر عنهم توقيف الكعبسة . (١)
ومن أشهر فرقهم : أصحاب الروحانيات " المندائيون " وأصحاب الهياكل
وأصحاب الأشخاص ، وأصحاب الحلول " الحرانيون " .
وهناك من يرى أن الصابئة هم الحنفاء وستتضح هذه الرواية عند حديثنا
عن الحنفاء بمشيئة الله .

(١) الصابئون : حرانيون ومندائيين : ٩٧،٢٠ وما بعدها .

(هـ) عبادة الأصنام :

تعدّ عبادة الأصنام أشهر أديان العرب جميعا وكانت المعنى عند ذكر دين العرب بصيغة عامة ، ويرجع ذلك الى كثرة عددها وسعة انتشارها . فالقبائل بأصنامها ونواحي الجزيرة - في الغالب - لا تخلو منها ، بل كل بيت له صنم خاص حتى " كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فاذا أراد أحد هم السفر كان آخر ما يصنع من منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفر كان أول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به أيضا " (١) . وازدحمت عند الكعبة حتى كانت على ما قيل في جوف الكعبة وفي فناءها ثلاثمائة وستون صنما . (٢)

وقد بلغ من عبادتهم هذه أن عبدوا الأحجار وفاضلوا بينها حتى جاء في الصحيح أنهم قالوا " كنا نعبد الحجر ، فاذا وجدنا حجرا هو خيرا منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلينا عليه ثم طفنا به " (٣) وهم لا يتركونها في تنقلاتهم فاذا سافر أحدهم أخذ أربعة أحجار ، فنظر الى أحسنها فاتخذها ربا وجعل ثلاثة أثافي لقدره واذا ارتحل تركه ليأخذ غيره (٤) . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتا ، ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجرا امام الحرم ، وامام غيره - مما استحسن - ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأَنْصاب . (٥)

وأصل هذه العبادة فيما يروى أنها تطورت ومرت بمراحل حتى وصلت الى صورتها التي جاء الاسلام وهي عليها ، وأن سبب ذلك انتشار بنى اسماعيل في الجزيرة وصبابتهم بالحرم وأخذهم من حجارتهم حتى لا ينسوه ويعظموه ويجهتدوا في العبادة ، ثم خلفت

(١) الأصنام : ٣٣ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : ١٦٠١٥ / ٨ " كتاب المغازي " .

(٣) السابق : ٩٠ / ٨ .

(٤) الأصنام : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) السابق : ٣٣ .

الخلوف ونسوا السبب الذي دفع أجدادهم إلى تعظيمها فزين لهم الشيطان عبادتها
فعبدها. (١)

وهذا التعليل لظهور عبادة الأصنام مقبول ، وقد وقع مثله في قوم نوح حتى
عبدوا الأوثان ، إلا أن الرَّاجح أن العرب كانت على دين إبراهيم واسماعيل حتى بَعُدَ
بهم الزمان وجاء عمرو بن لحي الخزاعي فكان أول من غير ذلك ، وقد جاء عنه صلى الله
عليه وسلم أنه قال " إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، واني
رأيت يجرامعاه في النار " . (٢)

وتذكر المصادر من قصة ذلك أن عمرو بن لحي هذا ذهب إلى الشام فرأى قوما
يعبدون الأصنام فسألهم عنها ، ثم طلب منهم أن يعطوه منها فجلبها إلى الجزيرة
ودعا العرب إلى عبادتها. (٣)

ويبدو أن الذي ساعد على استجابة هذا الأمر وقوى انتشاره ما كان يتمتع به ابن
لحي من مكانة رفيعة إذ هو حاكم مكة وولي بيتها العتيق ، ويضاف إلى ذلك ما يقوم به
من إكرام الحجيج ، فربما ذبح أيام وفود الحجيج عشرة آلاف بدنه ، وكسا عشرة
آلاف حلّة ، ويطعم العرب الحيس ويلت لهم السوق ما جعل قوله وفعله فيهم كالشرع
المتبع لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم. (٤)

وبهذا لا يمكن الركون إلى من يرى أن عبادة الأوثان عند العرب يمكن أن تكون
بقايا طوطمية (٥) بعدما تبين دخولها إلى جزيرتهم من ناحية بلاد الشام. ولعل من
ظهرت عليهم تلك الأصنام قد ضعفت في نفوسهم حنيفية إبراهيم لما تناول عليها من
الزمان مما ثبتت هذه الأصنام وجعل الشيطان يحب إليهم عبادتها .

-
- (١) السيرة النبوية لابن هشام : ٧٧/١ .
(٢) رواه أحمد : ٤٤٦/١ وانظر السيرة النبوية : لابي الحسن علي السجستاني
الندوي : ٦٥ ط ٣ (٤٠) - دار الشروق جده حيث خرج الحديث .
(٣) السيرة النبوية : المجلد الأول : ٧٧ .
(٤) البداية والنهاية : ١٨٧/٢ .
(٥) موسوعة التاريخ الاسلامي : د . أحمد شلبي : ١٦٥/١ ط ٨ - ١٩٧٨ .

والشعر الجاهلي حافل بذكر كثير من أصنام الجاهليين ، فأوس بن حجر يقسم
باللات والعزى (١) :

وباللاتِ والعزى وَمَنْ دَانَ دِينَهَا وباللهِ إِنَّ اللَّهَ مِنْهُمْ أَكْبَرُ
وزهير يقسم بأنصاب الأقيصر (٢) :

حَلَفْتُ بِأَنْصَابِ الْأَقْيَصِرِ جَاهِدًا وَمَا سُحِّقَتْ فِيهِ الْمَقَادِيمُ وَالْقَمَلُ (٣)
وهناك ذكر لليعقوب وود، وهما من أصنام العرب - وغيرها ، كما أن صور الأنصاب
والحلف بها كثير في الشعر الجاهلي (٤) .

والأصنام التي عرفها الجاهليون على اختلاف صورها وتباين موادها ، وما كان منها
حجرا أو شجرا لم تكن على درجة واحدة من التعظيم والتقديس ، بل يفاضلون بينها ،
وبعضها لا يتم حجهم - فيما يرون - إلا بالتعبد لها والوقوف عندها كسائر الشعائر
الأخرى . وقد ورد أن الأوس والخزرج " كانوا يحجون ويقفون مع الناس العواقف كلها
ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفرأ أتوا أمانة وحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده لا يرون
لحجهم تماما إلا بذلك " (٥) .

ومع كثرة الأصنام حول الكعبة وفي جوفها إلا أن هبل أعظمها عند قريش ،
فكانوا لا يضربون القداح إلا عنده ، وكان يصل قربانه إلى مائة بعير (٦) .

وقد كانت العرب تقوم بكثير من الأعمال والشعائر يتقربون بها لأصنامهم ، وقد
كانوا يتقربون لها بالذبح عندها وأداء الشعائر اليها ، حتى سبوا لها السوائب

(١) ديوانه : ٣٦ . تحقيق : محمد يوسف نجم - ط (١٣٨٠) دار صادر ، دار
بيروت .

(٢) هذه رواية كتاب الأصنام : ٣٠ ، ومثله تاج العروس : ٤٩٧/٣ ، ولم أجده
صدر البيت في ديوان زهير .

(٣) سحقت : حلقت ، المقاديم : جمع مقدمة . أي مقدمة الرأس والشعر الذي به
القمل .

(٤) انظر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث : ٢٥ - ٢٧ .

(٥) معجم البلدان : ٢٠٥/٥ .

(٦) الأصنام : ٢٧ ، أخبار مكة : لابي الوليد الارزقي : ١١٧/١ - ١١٩ - تحقيق
رشدي الصالح ملخص - ط (١٣٩٨) دار الثقافة - مكة المكرمة .

والبحائر وحجوا اليها . وكانوا يسبحون ويصلون اليها كما استقسموا بالأزلام عند ها ، وكانوا يقفون لها الاوقاف ويسمون ابناهم بعبيد ها كما أقسموا لها ونذروا لها . وربما جعلوا لها أعيادا يخرجون اليها يعظمونها ويتقربون اليها ويزينونها في ذلك اليوم . وان اذبحوا القرابين عند ها لطحوا الاصنام بدماها حتى تبارك في أموالهم وتدفع المكروه عنها . (١)

والذى يفهم من القرآن الكريم ان عبادة الاصنام لم تكن لذاتها عند العرب ، وانما لتشفع لهم عند الله * والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم الا ليقربونا الى الله زلفى . . . (٢)

غير أن ذلك وان وجد فانه لا يمنع من وجود بعض من يرى في هذه الاصنام القدرة على الأمور العظيمة كشفاء المرضى وجلب الخير ودفع الضر وغير ذلك ، والآيات القرآنية التى جادلت المشركين في أصنامهم تبين ذلك ، كما يؤكد ذلك ما كان يفعله أهـل الأصنام عندما دخلوا في الاسلام وامتنعوا من تكسير أصنامهم خوفا على انفسهم من مغبة ذلك العمل .

ونجد في تاريخ العرب بعض حوادث ظهر فيها الاستخفاف بالأصنام وعدم الاهتمام بها ، ومن ذلك ما حدث للذى استقسم عند (ذى الخلصة) لياخذ بثأر ابيه ، فخرجت القداح تنهاه عن ذلك ، فسب ذى الخلصة وبطشه وقال :

لو كنت يا ذى الخلص الموتورا
مثلي وشيخك المعقبورا
لم تت عن قتل العداة زورا (٣)

ومثله ما حدث عند (سعد) وقد أتاه رجل بابله حتى يمن عليها بالبركة والكثرة فلما نفرت من الصنم ابله غضب عليه وسبه ورماه وقال : (٤)

(١) أديان العرب في الجاهلية : ١٥٩ - ١٦٢ .

(٢) الزمر : ٣ .

* انظر في ذلك آية (١٤) من سورة (فاطر) وكذلك آية (٢٨) الأحقاف .

(٣) الاصنام : ٢٢ ، ٣٥ ، ديوان امرئ القيس : ٤٦٠ .

(٤) السابق : ٣٧ ، الملل والنحل للشهرستاني : ٢٢٢ / ٣ ، ٢٢٣ .

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتْنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بِتَفُوقَةٍ مِنْ الْأَرْضِ لَا تَهْدِي لِفِي وَلَا تُرْشِدُ

ومن هذه الظواهر ومثالها بيد ولنا عمق هذه العبادة في نفوس العرب وانها لم تكن عميقة في نفوس بعضهم وذلك ما دفع بعضهم الى الشك فيها ، ولعل ذلك أخذ يغشو قبل البعثة النبوية . " والدلائل تشير الى ان الوثني في الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك في دينه ببعيدة نابعة من شعور ديني عميق ، أو عاطفة روحية شديدة ، قائمة على عقل سديد ، أو تفكير سليم ، وانما هي عادات تأصلت في نفوسهم تقليداً لغيرهم أو تمسكا بسلوك آباءهم وأجدادهم السابقين " . (١)

ولا يحسب أحد أن " سراب العبادة المكية ما " ، فقد كانوا يقيمون الحج ويحشدون الأصنام ويزينون الكعبة بتهاويل الآلهة وتساوير الأنبياء . ويقدمون القرابين ويطعمون الحجيج ويسقونهم ويرفدوهم ويحمونهم لا حباً في دمج أعين الأرباب والأصنام ، ولا ايماناً بقوتها ولا ثقة باستجابتها للدعاء ، ولكن فعلوا ذلك وغيره بقصد التجارة بالدين ، وجلبا للمنافع المادية ، لأن تجارتهم تدور حول موسم الحج والاعيان التي تسبقه وتلحقه والاسواق التي تصحبه أو تتلوه " . (٢)

ويضاف الى ما سبق للعرب من عبادات ما يدل على من عبد منهم الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعا لهم عند الله ويعبدونهم قال تعالى " ويوم نحشرهم جميعاً نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون " . (٣)
واتخذوا من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم حتى قال الرواة " كانت بنو طيح من خزاعة يعبدون الجن " . (٤) أما عبادة الكواكب فقد كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران . ولخم وجذان المشتري ، وطىء سهيلا ، وقيس الشعري العبور ، وأسد عطاردا " . (٥)

(١) تاريخ الادب الجاهلي : د . علي الجندى : ١ / ١١٧ . ط ٣ (١٩٦٩ م) مكتبة الانجلو المصرية .

(٢) الاديان في القرآن : د . محمود بن الشريف : ٤٥ ط ٣ (١٩٧٩ م) دار عكاظ للطباعة والنشر - جدة .

(٣) سبأ : ٤٠ (٤) الأصنام : ٣٤ .

(٥) طبقات الامم : صاعد الاندلسي : ٤٣ . المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢ م بيروت .

الباب الأول

الحنفاء

الفصل الأول : حول معنى الحنفاء

الفصل الثاني : الحنفاء

الفصل الاول

(أ) حول معنى الحنفاء :

لما كان هذا البحث يتخذ من الحنيفية أساسا له ومحورا يدور حوله ، وكان ثمة أناس نسبهم الرواة بحق أو بغير حق الى هذه الحنيفية ، وكانوا بذلك خير ممن تمسك بها وأخذوا بها في حياتهم في العصر الجاهلي ، وجب علينا الوقوف على ذلك ، ومعرفة هذه الحنيفية في تصورهم ، وطرفا من حياة هؤلاء الأشخاص الذين انتسبوا اليها فكل ذلك بلاريب يساعدنا على دراسة هذه الحنيفية وفهم جوانبها . .

وقد أمأنا فيما سبق من هذا البحث الى معنى الحنيفية ، وقد تبين لنا ثمة عددا من الآراء المتباينة حول معنى الحنيفية ، وانتهى بنا الامر على أن الحنيفية : ملة ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهي الاسلام الذي جاء به خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من السهولة أن نقول هنا إن الحنيف هو من دخل في هذه الملة ودان بها ، وإن الحنفاء هم الذين دانوا وتعبدوا بهذه الملة أيضا ، ولكن الواقع وما بين أيدينا من نصوص لا يسلم لنا أو يسمح بذلك بمثل هذه البساطة ، ذلك لان الزمن الذي جاء فيه ابراهيم واسماعيل وانتشرت بعده الحنيفية يبعد كثيرا عن عصر الجاهلية التي بعث في آخره محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي هذه الفترة الزمنية الطويلة ، ضعفت تلك الملة وجاء من أدخل عليها الشرك الذي طمس بعض معالمها مع تعاقب العصور ، فماذا بقي من هذه الملة حتى يدخلها من يدخلها بعد هذه الاحداث ؟

وهناك امر آخر يضاف الى ذلك وهو صعوبة التوصل الى معنى محدد لهؤلاء الحنفاء عند المؤرخين وعدم الجزم بتحديد معالم ما يمكن أن نسميهم الحنفاء نظرا لغموض الكثير من اخبارهم ، وعسر الاستنتاج من ما نجد من أقوال غموض هي لا تخلو من التعارض في كثير من الاحيان .

وبناء على ذلك فلا بد من دراسة ما قيل عن من سمووا بالحنفاء - في رأيي - إذ إن ذلك بلاريب يقودنا الى معرفة من يكون هؤلاء الحنفاء ؟

وأول ما يتبادر لنا وأحب البدء به - هو الزمن الذي عاش فيه هؤلاء الحنفاء ،

فليس سهلاً أن نحصرهم في حقبة واضحة تبدأ وتنتهي بسنين معينة ، وقد عد المسعودى من ذكر من الأحناف أنهم من أهل الفترة التي بين عيسى ابن مريم ومحمد عليهم الصلاة والسلام ^(١) ، ولا شك أنها حقبة واسعة تقدر بستة قرون تقريباً ، كما سبق أن بينا ذلك ، ولكن الملاحظ أن أكثر من ذكر من الأحناف عاشوا في الجاهلية قبيل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء من مات ولم يدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يره وإنما أدركه بنوه وهن ذلك مثلاً ^{بنت} خالد بن سنان التي جاءت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وبسط لها ثوبه ^(٢) ، ومن ذلك أيضاً كعب وبجير ابنا زهير بن أبى سلمى اللذان أدركا الرسول وأسلموا وغيرهم .

ومنهم من أدرك الرسول وراه وكلمه كأبى عامر بن صيفى - المعروف بالراهب لأنه قد تهرب في الجاهلية وليس المسوح - الذي قدم المدينة وسأل الرسول عما جاء به ^(٣) .

وقد أدرك زيد بن عمرو بن نفيل الرسول أيضاً وكلمه ^(٤) ، ولكن ادراك زيد له صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة ، وقريب منه ورقة الذي تدل المصادر أنه كان حياً عند بدء نزول الوحي ، وذلك عند سؤال خديجة له عما حدث للرسول عليه الصلاة والسلام ومن هؤلاء من أدرك الإسلام ودخل فيه ويعد من الصحابة كأبى قيس صرمه بن أبى أنس ^(٥) ، ومثله لبيد بن ربيعة ^(٦) والناطقة الجعدى ^(٧) .

ولا شك أن من هؤلاء الأحناف من تقدم به العهد عن مولد المصطفى عليه الصلاة والسلام ومبعثه بما يزيد على القرن كأسعد أبو كرب الحميرى .

(١) مروج الذهب ١/٧٨ ، المسعودى . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط دار

الاندلس

(٢) البداية والنهاية ٢/٢١١

(٣) مجمع البيان (٩/٦٤٤ ، ٣/٥٠٠)

(٤) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ١٠٨/٧ " باب الذبائح ، ما ذبح على النصب

والأصنام "

(٥) الاصابة ٣/٤٢٢ (٤٠٦٥)

(٦) الاصابة ٥/٦٧٥ ، ٦٨٠ (٧٥٤٧)

(٧) السابق ٦/٣٩١ (٨٦٤٥)

و اذا أردنا أن نتبين العلة فى تجنب ما كان ما عليه مجتمعهم و بروز نزعة التحنّف فيهم تبين لنا كما أسلفنا القول أن عددا غير قليل من الأنبياء حملوا الاسلام فى ارجاء الجزيرة و عملوا على نشره ، و قد كان ابراهيم و اسماعيل أهم و أشهر من أخذت و عرفت عنه العرب الاسلام و انتشر فى جزيرة العرب ، و نحن نعلم أيضا ان الشرك و عبادة الاصنام عند ما ظهرت و انتشرت لم تطمس كل شىء من تلك الديانة بل بقى بعض الشعائر و ظهر التحريف فى بعض آخر و نسي و طمس أجزاء أخرى .

و لا نزال نذكر أيضا أن اليهودية انتشرت فى بعض مناطق من الجزيرة و مثلهم النصرانية ، و لا ريب أن من أتباعهما من كان يحمل العقيدة الصحيحة ، و قد كانت النصرانية أوسع انتشارا و أكثر تأثيرا من اليهودية ، و لا ريب كذلك ان لكل من الديانتين تأثيرا فى تعريف هؤلاء الحنفاء الدين الصحيح و البعد عن الخرافات و دين الاساطير و بيد و لى أن هناك أمرا ثالثا لا يقل عن سابقة ساعد على معرفة زيف الوثنية و الدعوة الى الحنيفية الا و هو العقل ، إذ تدل سير بعض منهم أنهم عملوا عقولهم و لم يكونوا مقلدين ، و قد استغلوا فطرهم السليمة فقادتهم الى معرفة الحق من الباطل .

و معلوم أن الفطرة السليمة اذا نجت من عوامل الغواية و الاضلال تقود صاحبها الى الحق و بالرغم من هذه المشاعر الهادية التى ساعدت على ظهور الحنيفية ، و على اضاءة الطريق لأهلها لم تستطع تلك المشاعر القضاء على الظلمات و الجهالات التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى بجانب عبادة الاوثان إذ لا شك أن مجتمع الجاهلية الذى بعث فيه رسولنا محمد صلى الله عليه و سلم — كان به الكثير من قبيح الأعمال و سوء الفعال من ذلك الاسراف فى شرب الخمر و تفشى الزنى و لعب القمار و عبادة الاوثان و وأد البنات و غير ذلك .

على أننا لا نستطيع تعميم كل هذه القبائح على العرب كافة اللهم الا عبادة الأصنام بشىء من التجوز إذ ان الحنفاء كان تركهم عبادة الاصنام من أهم ما خالفوا به الجاهليين و قد اشبه موقف الحنفاء موقف المصلحين و الدعوة فيهم " من هذا الطراز الذى يريد اصلاح الأوضاع و رفع مستوى العقل ، فمنهم جماعة ضد الأوضاع الاجتماعية السائدة فى

أيامهم لأنها في نظرهم أوضاع مؤخرة تمنع الانسان من التقدم ومن ادراك الواقع ، وقد رأت ان العقل لا يقر التقرب الى أحجار و الى التبرك بها والذبح لها ، لأنها حجارة لا تعى ولا تفهم و ليس فى امكانها أن تسمع أو تجيب لذلك نفرت منها (١) .

وقد جاء أن من العرب من لم يرض بعبادة الأصنام بل سخر منها ومن يعبد هـا اذ هى لا تملك لنفسها شيئاً فكيف تملك شيئاً من أمر غيرها . وقد ورد أن عمرو بن عبسة ابن عامر بن خالد السلمى رغب عن الهة قومه ورأى أنها : باطلة لا تنفع ولا تضر . . . (٢) ولا شك أن الحنفاء قد شكوا فى عبادة الاصنام ورأوا ان ذلك لا يُعد شيئاً من الدين الصحيح واجتمع نفر منهم على ذلك .

جاء فى السيرة النبوية : " اجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم غد صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون غده ، يدسرون به وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض ، قالوا : أجل . وهم ، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وعبيد الله بن جحش . . . ، عثمان بن الحويرث . . . ، وزيد بن عمرو بن نفيل . . . ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء . لقد أخطأوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شىء ، ففرقوا فى البلد ان يلتمسون الحنيفة دين ابراهيم * (٣)

إن الذى يفهمهما حدث فى هذا العصر من شكوك فى عبادة الاوثان ، وما تعدى ذلك من حوادث تحطيم بعض الأصنام وعدم المبالاة بها ليد لنا على أن الوثنية كانت على وشك الانحلال ، ولم تعد كافية للاقتناع بعبادتها ، وذلك واحداً ببعض العرب وعلى رأسهم الكثير من هؤلاء الحنفاء عن البحث عن دين أفضل ومعبود أحق بالعبادة من تلك المعبودات .

والذى يفهم من أخبار الحنفاء أيضاً أنهم جاسوا الديار وقطعوا الفياض وتحملوا

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام ٤٥٧/٦

(٢) أنظر هذا فى قصته وخبره الاستيعاب ٤٩١/٢ ، الاصابة : ٦٥٨/٤ (٥٩٠٢)

(٣) سيرة بن هشام ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

أعباء السفر ، وقد وصلوا الى أماكن ^{كثيرة} يدفعهم الى تلك الأسفار البحث عن الدين الصحيح الذي يرتضونه ويريدون الدخول فيه و هود بين ابراهيم .

ومن أمثله سفر هؤلاء ما ذكره بن هشام بعد أن ذكر قصة الذين اجتمعوا يوم عيد قريش و رأوا ان قومهم ليسوا على شيء ، وكانوا أربعة رجال ثم قال : (٠٠٠) و أما عثمان بن الحويرث (أحد المجتمعين الأربعة) فقدم على ملك الروم فتنصر (٠٠٠) (١) وهذا زيد بن عمرو بن نفيل يخرج الى الشام و البلقاء يسأل عن الدين و يتبعه (٢) ، و من أشهر هؤلاء الحنفاء ضربا في الأرض أمية بن أبي الصلت الذي تدل كثير من أخباره على تنقله و كثرة أسفاره و ان كت لا أستبعد أيضا أن وراء أسفاره هذه أمر آخر فهو شاعر ، و من شأن أكثر شعراء عصره التكسب بالشعر و مدح الملوك و ذوى الجاه من الناس ، و قد ورد أنه مدح عبد الله بن جدعان (٣) أحد أجواد الجاهلية ، كما زعم بعض المؤرخين أنه مدح ملك اليمن سيف بن ذي يزن في قصيدة ذكر فيها قصة سيف بن ذي يزن و استنصاره بقيصر و كسرى حتى ملك اليمن (٤) فهو اذا : قد سافر و مع تكسبه بشعره أو سفره لتجارته تدل أخباره أيضا أنه يبحث عن الحنيفية ، و مع أنه ثقفى من الطائف فقد سافر الى اليمن كما سبق و تردد كثيرا الى مكة ، و رحل الى الشام و كان له اتصال بالروهبان و الأخبار (٥) .

و تدل بعض الأخبار على كثرة أسفار بعض هؤلاء و بمخاصة أمية و زيد و سؤ الهم فسى تلك الأسفار ، جاء فى طبقات ابن سلام : " ٠٠٠ ان أمية مر بزيد بن عمرو بن نفيل

(١) السابق ٢٢٤ / ١

(٢) عدة القارى شرح صحيح البخارى بدر الدين أحمد العيني : ٢٨٦ / ١٦

ط (المطبعة المنيرية - بيروت) ، مجمع البيان ٢٥٢ / ٧ ، ١٣٧ / ١٤ .

(٣) البداية و النهاية ٢١٧ / ٢ .

(٤) الشعر و الشعراء ٣٦٩ / ١ .

(٥) البداية و النهاية ٢٢١ / ٢ ، ٢٢٢ .

أخى عدى بن كعب ، وكان قد طلب الدين فى الجاهلية هو وورقة ، فقال له
أمية : يا باغى الخير هل وجدت ؟ قال : لا ، ولم أوت من طلب ، قال أبى
علماء أهل الكتاب الا أنه منا أو منكم أو من أهل فلسطين (١) ، ويد ومن هذه
الحادثة انها جاءت بعد ما تبين لبعض هؤلاء الحنفاء أنه سيبعث نبي يحمل الدين
الصحيح مما علم من أهل الكتاب .

واذا انتقلنا لنرى الدين الذى يبحث عنه هؤلاء الحنفاء ، وهل لنا أن نفهم
أنهم كانوا على ديانة معينة ، أو انهم اختلفوا فى ذلك ؟

وما أطلقه المؤرخون على هذه الفئة بصفة عامة كان موهما وغير واضح فى بعض
الاحيان مع ذلك فلاننكر قيمة هذه المعلومات ومدى الاستفادة منها .

فقد وصفهم ابن الجوزى : (بمن كان يقر بالخالق والابتداء والاعادة والثواب
والعقاب) ثم ذكر عددا منهم (٢) ، وسماههم ابن حبيب " بالذين رفضوا عبادة
الاوثان) (٣) وذكر اكثرهم ممن حرم فى الجاهلية الخمر والسكر والازلام (٤) ، وقد جاء
ذكرهم عند ابن قتيبة بأنهم من كان على دين قبل مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم ،
ثم ذكر عددا منهم (٥) ، وقد سماهم الالوسى بالموحدين من العرب (٦) ، وقال
الشهرستانى (٧) : (ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومنتظر النبوة ،
وكان لهم سنن وشرايع) والذى اشتهروا به وتداوله الكتب متعارف عليه فى الغالب
قدما وحديثا ان يطلق عليهم الحنفاء - على قدر ما اطلعت عليه - وقد يقال المتألهون .

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٦٣/١

(٢) تليس ابليس : ٦٣ ، ٦٤

(٣) المخبر : ١٧١ ، ١٧٢

(٤) السابق : ٢٣٧

(٥) المعارف : ٥٨ - ٦٢

(٦) بلوغ الارب : ١٩٦/٢

(٧) الملل والنحل لشهرستانى : ٢٥٠/٢ ، تحقيق د . محمد فتح الله ، ط

الحلبى - القاهرة .

والذى يستشف من اخبارهم انهم ليسوا على دين واحد - ان جاز لنا ان نسمي
مذهبهم الذى اخذ به اكثرهم ديننا - وسيوضح لنا ذلك عند الحديث عن افرادهم فيما
سيأتى ان شاء الله .

ويفهم من كلام الرواة ان بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى مثل ورقة بن نوفل ، اى على
عكس ما يذكره الرواة انفسهم من ان هؤلاء كانوا قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين
ديانة ابراهيم ، والظاهر ان الرواة قد اشتبه عليهم الأمر فخلطوا فى بعض الاحايين
بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الاصنام واعتقدوا التوحيد (١) .

والمشهور من أمر هؤلاء انهم عندما مالوا عن الوثنية الجاهلية كانوا يرغبون فى
البحث عن ملّة ابراهيم كما جاء فى السيرة (٢) ، وكما هو واضح من قصة زيد بن عمرو بن
نفيّل - كما سيأتى - ولكن من المؤرخين من نص على ان منهم من دخل النصرانية
وميزب هذا بين من دخل النصرانية ومن لم يدخلها منهم ، من ذلك ان
(عثمان بن الحوي رث بن اسد بن عبد العزى ، تنصر ومات على النصرانية ، و (ورقة)
ابن نوفل بن اسد بن عبد العزى تنصر واستحکم فى النصرانية وقرأ الكتب ومات عليها ،
وزيد بن عمرو بن نفيّل لم يتنصر ولم يتهود ، و (عبيد الله بن جحش)
ابن رثاب الاسدى ثم الغنمى حليف بنى أمية اسلم وهاجر الى الحبشة فرأى النصارى
هناك فأعجبته النصرانية فتنصر ومات عليها) (٣) .

واذا كان هذا النص أفادنا بديانة هؤلاء فان من الحنفاء من لا تستطيع الجزم
بنصرانية او حنيفية وان ذكرناه منهم ، كوكيع بن سلمة بن سلمة ، وعبيد بن الابصر
مثلا ، كما ان منهم من لم يدخل فى دين معين ولكنه سخر من عبادة الاصنام وقى على
حالته حتى مات وهوؤلاء هم الذين كانوا ينتظرون ظهور النبى فيما علموا من ذلك .

واغلب الظن ان اسعد ابو كرب الحميرى كان على اليهودية فيما ورد من اخباره وأنه

الذى أدخل اليهودية الى اليمن .

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٦ / ٤٦١

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ١ / ٢٤٣

(٣) المحابر : ١٧١ ، ١٧٢

واذا أردنا أن ندقق النظر في هذا اللبس في ديانة هؤلاء الحنفاء فإن القرآن فيما يتضح من آياته يدل على أن الحنيفية مخالفة لليهودية والنصرانية ، كما قال تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين)^(١) والمعروف عن أهل الكتاب أنهم حرفوا الكثير مما جاءهم به انبياءهم حتى ان اليهودية والنصرانية التي كانت في العصر الجاهلي لا تخلو من شرك كما استدل على ذلك بعض المفسرين من الآية السابقة^(٢) ، وكما اشار القرآن : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله)^(٣) ، وما دامت الحنيفية على هذا مخالفة لليهودية والنصرانية فالذي يترجح لنا ان هؤلاء الحنفاء كانوا على ديانة ابراهيم وارادوا البحث عنها والافتداء بها ، وان من دخل منهم في النصرانية لم يعتقدهما فيها من الشرك كنبوة عيسى وغيرها ، وقد رد ابن حجر - رحمه الله - على السهيلي الذي توهم ذلك في ورقة بن نوفل فقال : (أما ماتمحل له السهيلي من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى في عدم نبوة عيسى ودعواهم أنه احد الاقانيم ، فهو محال لا يعرج عليه في حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل في التبديل ولم يأخذ عن بدل)^(٤) . ولعل في تنصر بعض الحنفاء ما دعا الابل لمس شيخوان يظن أن الحنفاء فرقتهم من فرق النصارى ليبالغ في سعة النصرانية وتغلغلها بين العرب .^(٥)

(وقد عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصرانية ، وعدوهم نصارى عربا زهادا كيفوا النصرانية بعض التكيف ، وخلطوا فيها بعض تعاليم من غيرها . وقد استدلوا على ذلك بما ورد في بعض الاشعار الجاهلية من مواضع يفهم منها على تفسيرهم أن المراد بهم شيعة من شيع النصرانية ، غير ان القرآن الكريم نص صراحة صريحا على ان الحنفاء لم يكونوا يهودا ولا نصارى ، وانهم ينتمون في عقيدتهم الى

(١) البقرة : ١٣٥

(٢) الفخر الرازي في التفسير الكبير : ٤ / ٨٠ ، روح المعاني : ١ / ٣٩٣ ، ٣٩٤

(٣) سورة التوبة : ٣٠

(٤) فتح الباري ١ / ٢٩ (ط الحلبى)

(٥) مجلة المشرق مجلد ١٥ / ٥٤٦

ابراهيم . ثم إن الاخباريين وان ادخلوا فى الاحناف اناسا نصوا على أنهم كانوا نصارى ، الا أنهم نصوا فى الوقت نفسه نصا صريحا على ان البقية الباقية ، كانت واقفة مالم تدخل فى يهودية و لا نصرانية اذ وجدت فى كل من الديانتين أمورا جعلتها تترث ، فلم تدخل فى احدهما ومقيت مخلصه لسنة ابراهيم ، لذلك فلا يمكن اعتبار الأحناف نصارى خلصا او شيعة من شيع النصرانية (١) .

وأكبر الظن ان الذى حال بينهم وبين الدخول فى اليهودية أو النصرانية أنهم رأوا فيهما تحريفا وانهما لا تخلوان مما لا يقهره العقل السليم ولا ترتاح له الفطرة النقية .

ان ما وجد عند هؤلاء مما يشابه النصرانية كلبس المسيح ، والسياسة فى الارض بحثا عن الدين ، والعيش فى مناطق منعزلة عن الناس وما شابه ذلك من أعمال الرهبان لتوحى بأن بعضا من الحنفاء تأثروا بالنصرانية ، وغير مستبعد أن منهم من ظن أن ذلك من الحنيفية التى يريدونها .

وكشال على هذا التأثر ماورد أن أبا عامر الراهب قدم المدينة ورأى الرسول — صلى الله عليه وسلم — وكان (ابو عامر) قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسحوح (٢) وكذلك أمية .

وأما السياحة فى الارض بحثا عن الدين فمعروف ومشهور عن أكثرهم وخاصة أمية بن أبى الصلت وزيد بن عمرو وعبيد الله بن جحش وثمان بن الحويرث وغيرهم ، وقد ورد أن وكيع بن سلمة بن زهير الايادى بنى صرحا بأسفل مكة يعتزل فيه ويزعم أنه يناجى الله (٣) .

(١) الفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٥٦/٦

(٢) تفسير الطبرسى (مجمع البيان) : ٥٠٠/٣ ، ٦٤/٩ ، وانظر تاريخ الطبرى ٥١١/٢ ، ٥١٢

(٣) الحجر : ١٣٦ ، بلوغ الارب ٢٦٠/٢

و مع ما قيل عن هذه الفئة من الناس فإنه ينبغي الا يتصور أنهم كانوا جماعة متحدة
أو منظمة يمكن أن تنضبط و تعيش على أسس و آراء متحدة يجتمعون عليها .

فالواقع أنهم كانوا فئة من الناس مفرقة في قبائل متعددة و منهم من لم يعلم عن بعض كما
أن منهم من تعاصروا و تعارفوا و هذا واضح فيمن عاش منهم في مراكز المدينة أو ما يشبه
المدن التي تعد أكثر حضارة من البادية مكة و يثرب و الطائف .

و قد رد بعض الباحثين على المستشرق (شيرنكر) الذي ظن أن الحنفاء طائفه
دينية منظمة (١) إذ أن ذلك لا يمكن تصوره بما ظهر لنا من أخبارهم و لا نستطيع
استنتاجه من تلك الأخبار البعثرة .

و مما يسترعى النظر في أمر الحنفاء أن جلهم كانوا يتقنون القراءة و يحسنون الكتابة
و ليس هذا فحسب ، بل إن منهم من كان يجيد بعض اللغات الأخرى قراءة و كتابة ،
و لا مشاحة أن ذلك يؤخذ مما ورد في أخبارهم إذ قد ساحوا في البلاد و اختلطوا بأهل
الكتاب ، و لعلمهم ، تعلموا عنهم اللغات الأخرى ، و أفادوها من تلك الأسفار ، و خاصة
معايشتهم للرهبان و سؤالهم إياهم ، و لا ريب أن من كان أمره البحث ، و قراءة بعض
الكتب الأخرى بحثا عن الدين أو غيره سيكون له بلا ريب نصيب من المعرفة يرتفع به كثيرا
عن عامة أهل عصره .

و مما يدل على معرفتهم بالقراءة و الكتابة ما ورد أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجا
أو معتمرا ، و تصدى له الرسول صلى الله عليه و سلم - و دعاه الى الله ، فقال سويد :
لعل الذي معك مثل الذي معي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " و ما الذي
معك ؟ " قال : مجلة لقمان ، و قد أخبره الرسول أن ما جاءه لاخير له مما نفي تلك
المجلة و هي حكمة لقمان (٢) . .

(١) د . جواد على (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) : ٤٥٨/٦

(٢) تاريخ الاسلام و طبقات المشاهير و الأعلام الحافظ محمد بن أحمد الذهبي

١٩٠/٢ . تحقيق حسام الدين المقدسي . ط ، المدني - القاهرة .

ومن هذا يتبين أن سويدا هذا كان يصطحب معه تلك المجلة ليأخذ ويفيد مما فيها بالقراءة . ومن كان يقرأ ويكتب أمية بن أبي الصلت (١) والذي يدل من أخباره وما ينسب إليه من أشعار أنه كان كثير الاطلاع على الكتب التي تتحدث عن الدين ، والذي يفهم من قصة عامر بن الظرب مع الملك الغسانى أنه كان يعرف القراءة ففى الكنوز التي معه (٢) وكان قسرين ساعدة كاتباً (٣) .

ومن ورد أنه كان يؤمن بالله ويحسن الكتابة لبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم ، وقد كان عمر بن الخطاب أرسل إليه يطلب منه أن يكتب ما قاله فى الاسلام من الشعر ، فانطلق لبيد الى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها ، فقال : أبدلنى الله هذه ففى الاسلام مكان الشعر (٤) .

وخير من يمثل الذين كان لهم علم بلغة أخرى قراءة وكفاية ورقة بن نوفل ، وقد جاء فى صحيح البخارى فى (باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم) ما نصه : (. . . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى بن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب . . .) (٥)

وتأسيساً على هذا يمكن القول ان هؤلاء الناس كانوا من طبقة المثقفين فى عصرهم

(١) المعارف : ٢٨ ، الأغانى ١٢١/٤ - ١٢٢

(٢) جاء فى المعمرين لابي حاتم السجستانى ص ٤٨ ، ٤٩ ، قول عامر للملك الغسانى (ان لى كثر علم وان الذى أعجب من علمى . انما هو من ذلك الكنز احتذى عليه وقد خلفه خلفى . . .) وانظر مصادر الشعر الجاهلى د . ناصر الدين الأسد : ١٦٥ ، ١٦٦ ط ٨ (١٩٨٢م) دار المعارف بمصر .

(٣) مصادر الشعر الجاهلى : ١٦٥ ، ١٦٦

(٤) خزانة الأدب : ٢٤٧/٢ ، ٢٤٨ .

(٥) عدة القارى ١/٤٦ ، ٤٧

ولا ريب أنه لولا تلك الثقافة التي تساعد العقل على معرفة الحق و انارة السبيل لما كان لهم أن يذهبوا الى هذا المذهب الذي خرجوا به على عامة ^{أقوامهم} ~~أقوالهم~~ ، ولا يظن بأناس من هؤلاء وأكثرهم من الشعراء والخطباء والحكماء أن يكونوا من سواد الناس وعوامهم ، ولولا اقتناعهم بما هدتهم اليه ^{قطيرهم} السليمة وثقافتهم الواسعة لما كان لهم أن يقفوا مخالفين لعامة الناس في ذلك الزمان ، بل ولا أستبعد قدرتهم على اقتناع غيرهم فيما يذهبون اليه ، مع علمهم بما يدور في عصرهم من آراء وأحداث .

وبمناسبة الحديث عن الكتابة في العصر الجاهلي بين هذه الطائفة ، فنحن نذهب الى وجود القراءة و الكتابة في العصر الجاهلي و ليس العرب كما ظن بهم أنهم أمة أمية تماما و هذا يتفق بلا ريب مع ما ذهب اليه أحد الباحثين المعاصرين عندما قال " وقد كان أكثر هؤلاء الذين كانوا على دين في الجاهلية يحسنون الكتابة " (١) .

ولا ريب أننا نعلم أن أكثر العرب كانوا لا يقرءون ولا يكتبون و لكن مرادنا أن القراءة و الكتابة معروفة لديهم و بإمكانهم أن يجدوا بينهم من يكتب لهم عندما يحتاجون كتابة أمر من الأمور و ليست أميتهم على تلك الضخامة التي ترد عن بعض المؤرخين وربما بالسفح فيها بعض المستشرقين .

ومع ما ذكر من عدم تحديد المؤرخين لمذهب هؤلاء الخنفاء و الظن أنهم من كان على حياة الرهبنة و التقشف ، فقد ظن أنهم أنبياء ذكرهم المسعودي في أهل الفترة و عقب بقوله : (وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء و منهم من رأى غير ذلك) (٢) .

و قالوا ان خالد بن سنان العبسي كان نبيا و زعوا أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال عنه " ذاك نبي أضاع قومه " (٣) ، و يذكرون عنه أنه أطفأ نار الحرتين (٤) السبي

(١) (مصادر الشعر الجاهلي) د . ناصر الدين الأسد ١١٦ وقد أفاض وأفاد عن

الكتابة و موضوعاتها في العصر الجاهلي .

(٢) مروج الذهب ١/٧٨

(٣) الحيوان : ٤/٤٧٦ ، مروج الذهب ١/٦٧ ، الاشتقاق : ٢٧٨

(٤) سيرد الحديث عنها عند حديثنا عن خالد بن سنان ان شاء الله .

كانت ببلاد بني عيس ، و أن ابنته قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم وبسط لها
رداه .

و ممن ورد عند أهل الاخبار أنهم من الأنبياء (حنظلة بن صفوان) و يزعمون أنه
عاش في أيام (بختنصر) ، و كان نبيا بعثه الله الى أهل الروس ، فكذبوه وقتلوه
و يزعم أهل الأخبار أنه هو الذي دعا على العنقاء ، فانقطع نسلها (١) .
و لعل من ذهب الى أن بعض هؤلاء الحنفاء أنبياء لم يكن لديهم أخبار وافية و ليس
لديهم معلومات كثيرة عنهم .

... كما أن المكانة التي كان بها هؤلاء

عند أقوامهم و شهرتهم بينهم و ما كان لهم من أحكام و أفعال غريبة مما يشبه أعمال الكهان
مما لا يستطيع عمله عامة الناس ، ظن أنهم أنبياء ، فخالد بن سنان أظفأ تلك النار
العظيمة التي اضرت بمن حولها ، و حنظلة أراح قومه من العنقاء التي ربما اختطفت الناس
و لعل من الجائز أن يكون حنظلة ^{بن} صفوان هذا نبى على رأى من يرون ذلك ، و لكن
هذا ان صح فانه لا يعد بحال من أهل الفترة بل هو متقدم عليهم و سابق لظهور عيسى
ابن مريم عليه السلام .

و الحجة البينة فى نفي النبوة عن هؤلاء الذين عاشوا فى الفترة الزمنية التى بين
عيسى ابن مريم و محمد — عليهما الصلاة و السلام — ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه
قال : (أنا أولى الناس بابن مريم ، و الانبياء أولاد علات ، ليس بينى و بينه نبى) (٢)
و قد عقب الجاحظ على قصة خالد بن سنان منبها على كون نبوته لا تصح قائلًا :
(و المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، و يزعمون أن خالد هذا كان أعواليا و بريسا من أهل

(١) مروج الذهب ٦٥ / ١ ، مجمع الأمثال ٤٢٩ / ١ للميدانى تحقيق محمد محى الدين
عبد الحميد ط ١٣٢٤ السنة المحمدية القاهرة
(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٤٧٧ / ٦ ، ٤٧٨ .

شرح وناظرة (١) ، ولم يبعث الله نبي قط من الاعراب ولا من الفدادين أهـ الـ
الوير . وانما يبعثهم من أهل القرى وسكان المدن (٢) .

وتدل حالة عرب الجاهلية وأخبارهم أنهم لم يكن منهم من يدعى النبوة كما حدث
بعد فى الاسلام ، يقول (ابو العلاء المعرى) : * ولم تكن العرب فى الجاهلية
تقدم على هذه العظام ، والامور النواظم ، بل كانت عقولهم تجنح الى رأى
الحكماء ، وما سلف من كتب القدماء ، اذ كان اكثر الفلاسفة لا يقولون بنبي ، ومنظرون
الى من زعم ذلك بعين الغيب (٣) .

والذى يظهر لنا أمر من زعمت نبوتهم (ان هؤلاء قوم صالحون يدعون الى الخير ..
ولعله كان لهم احوال وكرامات (٤) .

وقد رد بن كثير رحمه الله على هؤلاء الزاعمين بحديث البخارى السابق ، ويقول
تعالى (لتندرقوما ما اتاهم من نذير من قبلك) (٥) ، ثم قال : (وقد قال غير
واحد من العلماء ان الله تعالى لم يبعث بعد اسماعيل نبيا من العرب الا محمداً
(صلى الله عليه وسلم) خاتم الانبياء الذى دعا به ابراهيم الخليل بانى الكعبة
المكرمة .. وشرت به الانبياء لقومهم حتى كان آخرهم من بشره (عيسى ابن مريم)
عليه السلام ، وهذا المسلك بعينه يرد ما ذكره السهيلي وغيره من ارسال نبي من العرب
يقال له شعيب بن ذى مهزم ... وعث الى العرب ايضا حنظلة بن
صفوان ...) (٦) .

(١) ما ان لعيس ، كما فى معجم البلدان

(٢) الحيوان : ٤٧٨/٤

(٣) رسالة الغفران : ٤٤٠ / ابوالعلاء المعرى تحقيق ودراسة عائشة عبدالرحمن
ط. دار المعارف بمصر

(٤) البداية والنهاية ٢١٢/٢

(٥) السجدة : ٣

(٦) البداية والنهاية (٢١٢/٢)

ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن أمية بن أبي الصلت كان يطمع أن يكون نبيا ويبدو من أخباره أنه صرح بذلك - كما سيأتى ذلك إن شاء الله ، وعرف أمره ، وهذا ما جعله يكثر السفر والتردد على الرهبان ويقرأ الكتب الدينية .
وهذه الإشارة تقودنا إلى الحديث عن جانب من أمر هؤلاء الحنفاء حتى نزيد أمرهم وضوحا .

ذلك أن من هؤلاء الحنفاء من لم يكن مخلصا لدينه هذا وإنما كان يخفى وراء تحنفه أمورا أخرى وكان من المناسب في رأيه أن يذهب ذلك المذهب عليه ليوصله إلى ما يرمى إليه . وأممية بن أبي الصلت - فيما بلغنا من أخباره ، مثلا ما يدل على علمه بقرب ظهر - نبى ، وكان كثيرا ما يسأل عنه أهل الكتاب وعندما علم أنه سيخرج من مكة كان يسأل عن رجال من مكة كان يتوسم النبوة فيهم بما عنده من علم وتؤكد أخباره استشراقه وتطلعه أن يكون هو ذلك النبى (١) .

ولما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم - وتأكد الخبر لأمية بيد وأنه حسده على ذلك وأن العصبية القبلية جعلته يقول : (والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا) (٢) . وفى رواية : " ما يمنعنى من (من أتباع النبى صلى الله عليه وسلم) إلا الاستحياء من نساء ثقيف انى كنت أحدثهن أنى هوأثم يريننى تابعا لغلالم من بسنى عبد مناف " (٣) .

وقد حفل كتاب الأغاني بكثير من الروايات التى تشرح حالات الرجل وتطلعاته إلى النبوة وأمانيه بما يناله منها من حظ ومكانة ، وسؤدد ، فى (٤) الدنيا والآخرة . وكل ذلك فى نظرنا - دليل على عدم إخلاص أمية فى تحنفه ، وإن كان لا ينكر

(١) الأغانى : ١٢٣/٤ ، ١٢٣ ، البداية والنهاية ٢/٢٢٢ .

(٢) البداية والنهاية : ٢/٢٢٣ .

(٣) السابق ٢/٢٢٤ .

(٤) الأغانى : ١٢٣/٤ ، ١٢٤ .

أنه من الحنفاء • وقريب من أمية في عدم الاخلاص لدينه و الطمع من وراء التحنف السى
 مآرب أخرى ما قام به عثمان بن الخويرث - أحد الحنفاء - اذ يمم الشام و لحق بقيصره ،
 ويقال انه تنصر هناك و طلب من قيصر أن يملكه على قريش (١) ، و فى رواية أن عثمان
 هذا : ((كان يطمع أن يملك قريشا •• حتى قدم على قيصر و قد رأى موضع حاجتهم
 (أى قريش) اليه و متجرهم ببلاده ، فذكر له مكة و رغبه فيها • وقال : تكون زيادة فى
 ملكك كما ملك كسرى صنعاء فملكه عليهم (٢)) • و مهما يكن من أمر الرويات التى
 تدل على أن قيصر أراد تنصيبه ملكا على مكة (٣) ، فان هذا يدل على ضعف تحنفه
 من جهة و رغبته فى الملك من جهة أخرى ، كما أن فى علاقته بقيصر و ثقته به الى هذه
 الدرجة ، ما يدل على اخلاصه فى النصرانية اخلاصا يضاعف ما بداخله من نزعة التحنف •
 و سيرد خبره و ما أنتهى اليه أمره غدا ما يخصه ببعض هذه المعانى فيما سيأتى بحول
 الله وقوته •

ونظرا لان بعض هؤلاء المتحنفين قد ادرك ظهور النبى و علم به فان مواقف بعضهم
 منه لتدلنا على ما ذهبنا اليه من عدم اخلاصهم للحنيفية •

فهذا (عبيد الله بن جحش) عندما اسلم وكان من الحنفاء قبل ذلك تنصر
 عندما هاجر مع مهاجرى المسلمين الى الحبشة عندما أذن لهم الرسول عليه الصلاة والسلام
 بذلك فرارا بدينهم ، وهذا سويد بن الصامت وكان يسمى الكامل ، يقابل الرسول بمكة
 أول مرة ثم يدعوه الى الاسلام فلم يستجب وان كان وعد انه لن يبعد عن ذلك •
 وفى رواية - ان امية عندما سمع القرآن من الرسول كاد يسلم ولكنه اصر
 ذلك حتى يعمل عقله و يتفكر فى أمره •

وكل هذا يدل ايضا على عدم وضوح الحنيفية عند هؤلاء الرجال •

(١) نسب قريش : المصعب بن عبد الله الزبيرى : ٢٠٩ ، ٢١٠ ، تحقيق : بروفنسال
 ط ٣ - دار المعارف بمصر •

(٢) جمرة نسب قريش واخبارها : الزبير بن الكار : ٤٢٥/١ ، تحقيق محمود شاكر
 ط (١٣٨١) المدنى - القاهرة •

(٣) ابن هشام ، ٢٢٤/١ ، الرضى الانف : ١٤٦/١ . عبد الرحمن السهيلي ، تحقيق
 عبد الرحمن الوكيل ١٣٨٩ ط دار الكتب الحديثة . القاهرة .

والحنفاء بصفة عامة تغلب عليهم رجاحة العقل ، وتنطق الحكمة السنتهم ، ونجد منهم من كان من حكماء العرب كعامر بن الظرب ، ومنهم من كان يحكم قومه ، فأسعد الحميري يحكم تبسح ، وسيف بن ذي يزن يلي أمر اليمن ، وعبد المطلب بن هاشم وكعب بن لؤى سدنة البيت في مكة ، وهم على العموم في مكانة عالية من أقواهم ومن خيارهم وأولى الفضل فيهم .

والحكم كثيرة على لسان الخطباء كقس بن ساعدة ، وويعب بن سلمة الأيادي ، أما الشعراء منهم فلم يعدوا ذلك ، ولا تخفى علينا كثير من حكم زهير بن أبي سلمى ، وعبيد بن الأبرص وأميرة بن أبي الصلت .

والعجيب أن تورد المصادر لكثير منهم شعرا ، وكأنما غلب عليهم الشعر حتى رأينا من الباحثين من كتب كتابا عن (الشعراء الحنفاء) (١) .

والملاحظ أن الأساطير تحف طرفا من أخبارهم ، مما قد يوقع في اللبس ، فأميرة ابن أبي الصلت (كما في الأغاني) يفهم ثغفاء الشاة ، وجاءه طائران وهوناء فشق صدره ، وأسعد الحميري يخرج بجيوشه يقاتل خارج الجزيرة جهة المشرق ، وكعب ابن لؤى يعلم أن النبي من سلالة ، وعير بن جندب يموت ثم يحيا مرة أخرى إلى غير ذلك . . . ولعلنا نلمس شيئا من ذلك فيما يرد من حديث باذن الله .

والذي يلاحظ بالنسبة لأعمار بعض الحنفاء أن من المؤرخين من بالغ في تطويل أعمارهم كأن تزيد عن ثلاثمائة سنة (٢) ، وهذا مما لا نطمئن إلى صحته .

وقد حاول أحد الباحثين في العصر الحديث (الربط بين ظهور الحنفاء وبين حدوث تطورات سياسية جديدة في الجزيرة العربية منها : تفجر الصراع السياسي الذي اتخذ بعد حملة أبرهة الحبشية الفاشلة - على مكة - مضمونا تاريخيا حدد وجهته كصراع بين قوى داخلية من أهل البلاد وقوى خارجية كالحبش والفرس ، ومنها حادث ذي قار الشهير سنة ٦٠٩م الذي كان تعبيرا عن الرغبة في نمط جديد من العلاقات الاجتماعية بين القبائل التي تسمو على التعدد وتتطلع إلى ما يشبه الوحدة القومية .

(١) الدكتور أحمد جمال العمري

(٢) انظر في ذلك : المعمرون والوصايا : ٨٧ ، ٥٦ ، ٥٨

وفى هذه الظروف السياسية نشأت ظاهرة الحنيفية تدعو الى اقتلاع جذور الوثنية بوصفها مرتبطة بقبيلة تعددية تقسم جماعة العرب الى وحدات متصارعة (فليس من معنسى لتعددية الآلهة فى الوثنية الا انها الصورة القائمة فى وعى الانسان القديم عن تعددية الأطر البدوية) (١) .

والذى افهمه من هذا أنه يزعم أن ظهور الحنيفية انما هى دعوة الى الوحدة القومية لمجابهة القوى الخارجية التى تحيط بالعرب .

وعندى ان هذا لا يتفق وما نعلمه عن الحنيفية وما لبسات ظهورها ، اذ هى فئة أعلت العقل وشكت فى دين الوثنية وكانت تدعو الى العودة الى الدين الصحيح - دين ابراهيم - وحاولت الاصلاح فى تلك البيئة التى كثر فيها الباطل ومعدوا عن عبادة الخالق التى جاء بها ابراهيم واسماعيل وانتظروا الفرج بظهور نبي فيهم ، ولا يظهر من هذه الحنيفية الدعوة الى جمع الآلهة الوثنية على اله واحد وبند ما سواه ، لانها تناقض الوثنية فى أصلها .

وكثيرا ما يربط بعض الباحثين بين ظاهرة التحنف هذه والاسلام بأن الحنيفية كانت ارهاصات للرسالة المحمدية وهذا ما دفع اناسا الى القول بأن الاسلام امتداد لظاهرة عرفت بين الجاهليين .

وكان معنى هذه الارهاصات انها مقدمة للاسلام وايدان به (٢) ، (وان الاسلام كان امتدادا لفكرة بين الناس عمل النبي صلى الله عليه وسلم . على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول وقدسية الاسلام) (٣) ، وسيرد بنا الحديث عن هذا الامر فيما بعد بحول الله .

(١) دروس بنصوص فى قضايا الادب الجاهلى ، د . د . غفت الشرقاوى ، ط ١٩٧٩ ، دار النهضة العربية بيروت .

(٢) تاج العروس : رهص ٤٠٠ / ٤

(٣) الجاهلية ، مقدمة فى الحياة العربية لدراسة الادب الجاهلى

والذى يُخلص اليه من هذا الفصل ان الحنفاء فئة قليلة من الناس عاشوا فى
اماكن منفردة وقد شكوا فى دين قومهم ، وثاروا على اوضاع عصرهم السائدة التى
لا يقرها العقل (وظلوا يبحثون باذلين تصارهم ، مجندين طقاتهم العقلية والفكرية
فى البحث للوصول الى العقيدة الدينية التى يرتضونها وطمثون اليها ، فمنهم من
هدى الله فاهتدى بالالهام من الله الى ملة ابراهيم خليل الله ، فعبد الله على هذه
الملة ، ومنهم من تنصر أو تهود ، ومنهم من لم يقم وزنا لشعائر قومه وعقيدة أهله ،
فظل كما هو حيران تائها ضالاحتى قضى وهو على حيرته) (١) .

ولعل هذا القول هو خير ما يمكن أن يصور الحنفاء - فيما ارى - وهذه الرؤية
قد تتعرض للنقد عند من يستبعدون من دخل النصرانية أو اليهودية من هؤلاء بوصفهم
يهودا أو نصارى ، مما يترتب عليه اخراجهم من الحنفاء .

وهذا القول يمكن ان يصح فى الاسلام ان الحنيفية واضحة المعالم ، بل هى
دين معترف به بين اليهودية والنصرانية وغيرها ، ولعل هذا الرأى يستقيم اذا نظرنا
الى هؤلاء بنظرة الاسلام الواضحة ، ولكننا - هنا - ننظر اليهم من واقع مفهوم التحنن
الذى تصوره الجاهليون أو تصوره هؤلاء الحنفاء ، واخبارهم - كما سنرى فيما بعد -
تنطق أنهم لم يكونوا يعلمون اى دين ووجه أحب الى الله فيتبعونه ولكنهم لا يعلمون .
ولربما كانت اليهودية او النصرانية فى ذلك الوقت أحسن حالا من الوثنية وخاصة
أننا نعلم ان من أهل الكتاب (أمة يهدون بالحق) وه يعدلون) وه قلة فى ذلك
الوقت ، ولعل اليهودية والنصرانية المشتركة آنذاك كان بها من الروحية التى تم
فراغ هؤلاء الحنفاء الروحى ما يفوق الوثنية فكيف بالقلة التى تؤمن منهم كما ورد
فى القرآن (٣) .

(١) الاديان فى القرآن : ٧٣

(٢) الاعراف : ١٥٩

(٣) قال تعالى (ليسوا سوا الذين آمنوا من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر وأمرؤن بالمعروف ونهون عن المنكر وسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) آل عمران : ١١٣ ، ١١٤

ولا ريب ان اليهودية والنصرانية كانت اقرب وأيسر بد نيل يأخذ به هـ — — — — —
 الشاكون في دينهم في الجزيرة العربية ، فطبعي أن يدخل بعض هؤلاء فيهما .
 وهذا لا نستغرب ما يناقض التحنف عند هؤلاء بل ربما وجد الشرك فيهم ، قال
 ابن الجوزي — رحمه الله — بعد ان ذكر من كان يقر بالخالق والابتداء والاعادة والثواب
 والعقاب وذكر عددًا من الحنفاء ؛ (وأكثر هؤلاء لم يزل عن الشرك وانما تمسك منهم بالتوحيد
 ورفض الاصنام القليل كقسرين ساعدة وزيد) (١) .

ولا بد من الاشارة وقد تحدثنا عن (الحنفاء) الى ان تلك الابعار وحدها لا تنهض
 برسم صورة كاملة لهم ، فربما كان الوقوف على عقيدتهم وشريعتهم واحكامهم من خلال آثارهم
 مما يبيلور هذه الصورة وقوى وضوحها وهذا ما استتكفل به الصفحات التالية بحول الله .

(١) تلبس ابليس : ٦٣ ٦٤

(ب)

عقيدة الحنفاً وشريعتهم

يأتي هذا البحث متما لما أسلفناه من قول عن الحنفاً ، وقد كان من اليسير أن يدرج هناك لكننا آثرنا أن نفرده بمبحث مستقل ، لأنه يمثل حجر الزاوية عند هم ، حيث تمثل الشرائع والسنن وما يمكن أن تعتقده هذه الجماعة نبضاً لحياتهم .

وبادىء ندى بدء أحب أن أؤكد ان الحديث عن عقيدة الحنفاً وشريعتهم يكتنفه عن شرائع ومعتقدات في حياتهم في بعض جوانبه الغموض ، ومرّت ذلك الى قلة اخبار ، ورغم ما أسلفناه عنهم مما استنبطناه من كثير من اخبارهم المضطربة المبعثرة فواقع الامر ان المرء ليجهد كثيراً حتى يخرج من تلك الاخبار بتصور يراه واضحاً ولا ريب أن ذلك قد دفع أحد الباحثين المعاصرين أن يقول :

" وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الاخبار عن عقيدة الحنفاً واضحة ، فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية . فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله وكيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء من كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسيرون عليها . نعم ان نفراً منهم كما ذكر الرواة كانوا قد قرأوا الكتب ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرأوها ، وما أسماؤها . وهل هي التوراة والانجيل ؟ ولكن أيّ توراة وانجيل ؟ التوراة التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الحنفاً كانوا يرون تحريفاً في الكتابين ، وأن هناك تبايناً قليلاً أو كثيراً بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية الى دين ابراهيم الحنيف ، فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة ابراهيم . ولكن ماهي كتب ابراهيم وماهي عبادته ؟ " (١) .

ومع ما قيل عن التزام بعض الحنفاً بدين ابراهيم فان الذي يبدو أنهم لم يكونوا

يعلمون كثيرا عن عقيدة ابراهيم وشريعته كما كانت عليه في أصولها الصحيحة .
 وبما نعلمه أن حنيفيه ابراهيم هي الاسلام ، وأن المعتقدات واحدة في دين
 ابراهيم ومحمد ، عليهما الصلاة والسلام ، فرمع احتمال في اختلاف الشرائع
 والعبادات بينهما ، فان هذا الاتحاد يعيننا على معرفة التزام هؤلاء الحنفاء بدين
 ابراهيم أم عدمه ، ولكن ما يظهر من أخبار الحنفاء أن دين ابراهيم غير واضح
 ولا معلوم لديهم فهم بحاجة من يعرفهم به ، وهذا ما يجعلنا نحيف في الحكم على
 هؤلاء الحنفاء فيما خالفوا به دين ابراهيم ، ان طلبنا منهم الوقوف عليه .

" والأمر الواضح في كل أخبارهم - أنهم وان تعددت طرقهم في طلب الدين
 وتباينت مشاربهم واختلفت مفاهيمهم في طة ابراهيم - الا ان مفهوم الدين القيم
 عندهم جميعا ، يتركز حول فكرة التوحيد الخالص ، التوحيد الذي لا يشوبه شك ،
 ولا يكدره شرك ، وقد ارتبطت هذه الفكرة عندهم بطلب الدين والبحث عنه . والسدى
 يبدو من أخبارهم أن مفهوم هذا الدين غير واضح بالنسبة اليهم لعدم وجود مرشد
 أو موجه يرجعون اليه . فهم لا يعرفون عن هذا الدين غير أمور محدودة ، ولا يدركون
 من شعائره غير ما يعرفه سائر الجاهليين . لذلك سمعنا احدهم وهو زيد بن عمرو
 وهو في قمة التحير - يناجى ربه " اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه احب اليك عبدتك به
 ولكننى لا أعلم . ثم يسجد على راحته .

ومن المؤكد أن جهلهم بالدين كان سببا في أن معظمهم ساحوا في الارض زاهدين
 عابدين متحلمين كل مشاق ، في سبيل حصولهم على معلومة توصلهم الي بغيتهم ،
 وتطفى ظمأ حيرتهم وتعطشهم" (١)

ومن أوضح ما في عقيدتهم أنهم عبدوا الله وحده ورجعوا عن عبادة ما سواه فلم
 يتقربوا الي صنم ولا وثن ، وهذا ما جعلهم يلقبون بالموحدين ، وغير بعيد أن من دخل
 في النصرانية لم يكن ليعتقد بما فيها من شرك ووثنية ، ومعلوم أن من الحنفاء من هم
 بالدخول في النصرانية لكنه أمسك ورغب عنها وبقي في حيرته ، ومن تيقن ببطلان

(٢) بلوغ الارب ١٩٦/٢ .

(١) الشعراء الحنفاء : ١١١ ، ١١٢ .

النصرانية لم يلتفت اليها .

ثم ان الحنفاء رفضوا عبادة الاوثان^(١) التي كان عليها قومهم فلم يلتفتوا اليها وقالوا : " ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ."^(٢) بل انهم عابوا على قومهم وسخروا منهم في الخضوع لهذه التماثيل .

وما هو معلوم من أمرهم - مع ايمانهم بالله كما يؤمن به الكافر والفاسق - أنهم كانوا يعلمون أن الله على ما يشاء قدير وأنه محيط ومطلع على أعمال العباد ، وان الله متصف بصفات الكمال ، وأنه الذي يلجأون اليه في أمورهم ، الى غير ذلك من الكثير من صفات الباري وقدرته في تدبير الخلق وأمورهم وغيره من كثير مما ذكره القرآن من مثل ذلك .

ومع ايمانهم بالله فلا ريب أنهم كانوا يؤمنون بالابتداء والاعادة ، والثواب والعقاب^(٣) ، وأن الناس سيبعثون بعد موتهم ويسألون عن أعمالهم التي أحصاها الله عليهم في كتاب عنده ، وأنه يجزيء الحسنين خير الجزاء ، وان من أساء فله عند الله عقاب ونكال يصيبه .

ونظرا لما عرف عنهم من كثرة السياحة في الارض بحثا عن الدين فقد كانوا كثيرى التأمل في الكون ومخلوقات الله فيه ، وما فيها من جمال وحكمة ودقة ، تحار الابصار في الاحاطة بها ، ولا ريب أن عقولهم الذكية التي أعطوها في حياتهم زادت ايمانهم أثناء تأملهم هذا بالله وأنه قدير حكيم فلا يظن أن هذه المخلوقات كثرة وحكمة وجمالا جاءت من دون خالق ، أو أنها خلقت أنفسها وأن خالقها قوى عزيز .

وقد كان الحنفاء يرون في القضاء والقدر ما يحيرهم ، وأن الدهر كثير ما يصيبهم بالنكبات والمصائب وما تكرهه النفوس ، لكننا نلاحظ ان بعضا منهم من يصبر ويتجلد امام هذه الكوارث وأن ذلك خير من الخور والجزع ، ومنهم من يرى أن ذلك مكتوب على كل انسان وما قدر له فلا بد يأتيه لا محالة ، وأن الله هو مقدر ذلك ، فلا مفر من قضائه ، فلا بد من التسليم والاذعان لما أراد الله .

(١) المعبر : ١٧١ . محمد بن حبيب البغدادي رواية الحسن بن الحسين السكري
 (٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٢٣ / ١ . تصحيح . ايلزه طالمكبت التجارى . بيروت .
 (٣) تلبيس ابليس : ٦٣ .

ونجد في أشعار أمية بن أبي الصلت اشارات الى قصص الانبياء والأُم السابقة كما سيرد فيما بعد ، ولعل في هذا ما قد يوحي لنا بايمان بعض الحنفاً بهؤلاء الرسل ، وأن على الناس - الذين في عصرهم - ان يعتبروا بتلك الامم المكذبة التي خالفت ما جاءها به الأنبياء فكان عاقبتهم الهلاك والدمار ، ولعل اشارة الحنفاً الى ذلك كانت كعزاء وتخفيف عن نفوسهم مما يجدونه ويرونه من قومهم من مخالفة لراى الحنفاً .

والذى يفهم ايضا من اخبار الحنفاً ان منهم من أخذ على نفسه دعوة قومه الى الحق واصلاح ما هم فيه من فساد ، وكانوا يطالبون قومهم باعمال عقولهم في هذه الديانة التى يخضعون لها ويقدمون لها رأوا بطلان دين قومهم .

ومما يؤكد هذا ان من هؤلاء من أصابه الأذى والعذاب ، ونكّل به من قبل قومه عند ما عرف واشتهر أمره ، وخير من يمثل هذه الظاهرة فيما نعلم زيد بن عمرو بن نفيل كما سيرد في خبره .

وقد كان من أمر الحنفاً البعد عن أهل الوثنية والخلوة في أماكن للعبادة يتحنثون فيها ويتعبدون ، ولعل هذا كان في نظرهم من تعاليم الدين ، الذى يريدون .

ويظهر من شرع هؤلاء الحنفاً أنهم حرموا على أنفسهم الخمر والسكر والازلام^(١) ، لما رأوه فيها من مفسد ، وما تؤدى اليه من افعال رذيلة وأخلاق ذميمة . والعجيب من أمر هؤلاء الأحناف ترك الخمر التى كانت لا تخلو منها أندية الجاهلية وأسواقها ، وكانوا ينفقون فيها من الأموال ما قد يفوق ما يحتاجون إليه من ضرورات الحياة ، ولا شك أن تدرج تحريم الخمر فى الإسلام ليدلنا على إسراف ورضوخ كبير فى تعاطيها عند عرب الجاهلية حتى لنجد أن من الناس من ترك الإسلام عند ما علم بتحريمه الخمر . وهذا الذى نعجب منه يدلنا صراحة على أن فى العرب قبيل الإسلام من كان عاقلاً وحازماً ، لا يرتكب القبائح ولا يقترف المنكرات ، بل يعمل بالفضائل ويستنكر الرذائل : **ورحمهم الحنفاً .**

ومع ما ذكر أنهم أشخاص قليلون وذكرتهم المصادر بأسمائهم فغير بعيد أن يكون هناك أشخاص آخرون يعتقدون هذه المبادئ الصالحة ويحيطونها في ذلك المجتمع .
ولا شك أن جاهلية ما قبل الإسلام عرفت الكثير من أرباب الفضائل والواجب والحواد والحكماء وأنصار الضعفاء، ومن كان يرعى للجار والضيف حقا وللمظلوم ناصرا ومعينا إلى غير ذلك من الفضائل التي جاء بها الإسلام فيما بعد .

ولعل هذه الأمور التي كان العرب بها آنذاك أحسن حالا من غيرهم من الأمم وغيرها من الأمور - والله أعلم - جعلت أمة العرب أنسب وأفضل من يبعث رسول اليهم ليتم مكارم الأخلاق * الله أعلم حيث يجعل رسالته * (١)

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الخمر أن ننبه إلى ورود بعض الروايات أن أمية ابن الصلت شرب الخمر (٢) ، والذي يظهر من القصص الذي وردت فيه أنها غير صحيحة ، بل مصطنعة من وضع الرواة ، إذ في القصة بعد ما شرب ثعب غراب فأخبر قومه بكلام الغراب وكأنه أوتى منطق الطير ، ولو صح ذلك فاني لا أستبعد ذلك من مثل أمية الذي عرف عنه عدم الإخلاص في تحنفه وإنما يهدف من وراء ذلك إلى جدارته بالنبوة التي ينتظرها .

وقريب من الخمر ما ورد من تحريم زيد بن عمرو بن نفيل على نفسه أكل ذبائح الأصنام التي كان يذبحها المشركون لأوثانهم ويرى أن الذي خلق الذبيحة هو الله ، فيجب أن تذبح له فهو أعظم من ذبح له وأحق بها من أي معبود آخر لأنه خالقها ، كما ترد في أشعارهم تحريمهم الميتة فلا يأكلونها .

والذي يظهر أيضا من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يذكرون الله ويسبحونه ، بل أنهم يستغفرونه (٣) ويتوبون ما سلف من أعمال خاطئة تستوجب العقاب وتحمل الضمير .

وتشير أخبار بعضهم إلى أنهم اتخذوا لهم مواضع يتعبدون فيها (٤) ، ويعتزلون

(١) الأنعام : ١٢٤ .

(٢) الأغاني ٤ / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) البداية والنهاية : ٢ / ٢٤٠ ، الأغاني : ٤ / ١٣٢ .

(٤) مثل صرمة بن أبي أنس ، ووكيع بن زهير الأيادي . بلوغ الأرب : ٢ / ٢٦٦ .

الناس ، وربما منعوا دخول هذه المواضع التي يرونها مقدسة على من لم يكن طاهرا من الرجال أو النساء ، وكأنهم بهذا يعرفون الوضوء والطهارة .

وأكبر الظن أن من هؤلاء الحنفاء من كان يعلم ويحافظ على سنن الفطرة كما ذكر الشهرستاني أنهم يداومون على طهارات الفطرة^(١) ، وكما ورد في تعريف الحنيف فسي بعض المعاجم اللغوية فيما سبق ، وهذه الطهارات عشر .

منها خمس في الرأس : وهى : المضمضه ، والاستنشاق ، وقص الشارب ، والسواك وفرق الشعر . وخمس في الجسد وهى : الختان ، والاستنجا ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، وقص الاظفار .

وبعد هذه الدراسة التي كانت بمثابة الاضواء الكاشفة لمعرفة هؤلاء الحنفاء مغرلة من أخبارهم بعد أن أوامنا إلى معتقداتهم وطرفا من أحكامهم لا سبيل لنا من التعرض لذكر سير مجملته هؤلاء الافراد الذين دلت المصادر على أنهم من الحنفاء ، ومع أهمية هذه الدراسة السابقة لهم الا أنني أرى أنها غير كافية تماما لأخذ الصورة العامة لهؤلاء الحنفاء دون وقوف على سيرهم .

ولعل هذه الدراسة تظهر تصورى وفهمي لهم ، غير أن ترجمة هؤلاء الرجال كما وردت في المصادر قد يفتح للناظر في هذا البحث آراء غير ما يدى لى فلا ينظر بعينى أو يكون أسيرا لفكرى .

ولعلنا بذلك نوضح قسما ت حياتهم ونجلى صفحة من تاريخهم ، وبخاصة أن اكثرهم غير معلوم بين المتخصصين فما بالننا بغيرهم ، والحق أن منزلة هؤلاء الحنفاء بغض النظر عن حقهم من هذا البحث - تستحق الذكر وتنال الاعجاب ، وليس بكثير - من حقهم - ان نفرد فصلا عنهم من بين فصول هذا الموضوع .

(١) الملل والنحل ٩٤/٣ ، ط الحلبي ١٩٦٨ م .

الفصل الثاني: الحنفاء (٩٤)

المشاهير (١)

ليس يعنينا هنا أن نترجم للحنفاء ترجمة تاريخية معروفة ، ولكن الذى يعنينا أن نشير اليه أن هؤلاء الحنفاء يمكن تصنيفهم الى فئتين :

أ - فئة كانت من المشاهير المعروفين ، وقد أوامت إلى هؤلاء كتب الأدب والتراجم

ب - أخرى عاشت مغمورة مطمورة ، تغفلها كثرة المراجع والمطان ، مع أن تلمسى

ما كتب عنهم من شذرات متفرقة يجعل من واجب البحث العلمى أن ننظمهم

فى سلك الحنفاء فى هذا الفصل . . .

وسنحاول البدء بالمشاهير من هؤلاء ثم نفضى بعد ذلك على المغمورين منهم املا

فى رسم صورة متكاملة ، وتقديم ما عسى الا يكون جهيرا من أمراؤلك المطمورين ويأتى

على رأس هؤلاء المشاهير :

١ - قس بن ساعدة الإيادى :

هو قس بقاف معجمة مضمومة ، وسين مهمله مشددة ، بن ساعدة بن حذافة بن

زهر^(١) الإيادى نسبة الى قبيلته اياد .

وكانت اياد منتشرة فى شمال وشرق الجزيرة العربية فى الجاهلية وذلك بعهد

»خروجهم من اليمن فصاروا الى السواد - سواد العراق - فالتحت عليهم الفرس فى الفارة

فدخلوا الروم فتنصروا وجهل الناس أنسابهم»^(٢)

ويبدو أن (قسا) نشأ فى اسرة على نصيب جيد من ثقافة عصره ، وربما كان لها

سعة المال مما أتاح له كثرة الاسفار ، والإلمام بالثقافة فى ذلك الزمان ، ولم يظهر

لنا من أخبار أسرته شئ فيما نعلم غير أن له أولادا قد وصّاهم فى حياته ، وأدرك حياة

والده على حد قوله :

وَجَدَيْمَةُ الْوَضَّاحِ خَبَّرَنِي أَبِي عَنْهُ فَيَا لِحَدِيثِ الْوَضَّاحِ (٣)

(١) فى نسبه خلاف وانظره فى خزنة الادب ٩١/٢ ،

(٢) الاشتقاق لابي بكر محمد بن الحسين بن ريد ص ١٦٩ ، تحقيق :

عبد السلام هارون . ط الخانجى ، مصر ١٣٧٨ .

(٣) الاكليل : أبو محمد بن أحمد الهمدانى . تحقيق : محمد على الاكوع : ١٤٠/٢

ط (١٩٦٣ م) السنة المحمدية القاهرة .

ولا يتضح من المصادر التاريخية ما يمكننا من تحديد ميلاده على سبيل التقريب ، غير أن ما هو معروف في كثير من أخباره أنه عاش في الفترة القريبة جدا من حياة الرسول وأنه ربما أدرك مولد الرسول ولكنه توفي قبل أن يبعث عليه الصلاة والسلام* .

وتذهب بعض المصادر إلى الأساطير التي لا تصدق في إطالة عمره والمبالغة فيه (١) وقد تمحل لذلك أحد الباحثين وأجهد نفسه في تتبع هذه المقولات التي لا طائل من ورائها غير دلالتها على أنه طال به العمر في الحياة. (٢)

وقد ذهب المستشرق "لامانس" إلى التشكيك في قس أن يكون شخصية تاريخية حقا لأن ما ورد عنه من قصص صيرته شخصيته خرافية (٣).

ويرى أنه لو يصح أن قسا شخصيته حقيقه فانه لا يعقل تصور حياته في الوقت القريب من مولد الرسول بل يستبعد ذلك ، وأن بينهما فترة زمنية غير يسيره ! ونحن لا نتكر عليه اجتهاده الأخير هذا ورأيه ، وإنما لا يصح له التشكيك في انكار شخصيته وقد أظقت شهرته الآفاق في عصر الجاهلية وفي ما جاء بعدها من عصور.

وهذا لبيد بن ربيعة العامري الشاعر المخضرم ، عاش عمرا طويلا أكثره في الجاهلية يذكر قسا بالحكمة معليا شأنه بقوله : (٤)

وأخلفُ قساً ليتنى ولو أننى . . . وأعيا على لقمان حُكْمُ التدبّر

وهذا الحطيئة في الاسلام يذكر قسا لان ذكره ليس بمجهول في عصره في قصيدة

= وجذيمة الوضاح : ملك من ملوك الحيرة ، سمي بذلك لبياضه ووضوح لونه ، وهو جذيمة الابرش الذي قتلته الزباء ، ثارا لأبيها ، وانظر : الكامل في التاريخ : ١١٩/١ ، تاريخ اليعقوبي : ١٦٩/١ .

* والذي جعلنا نذهب إلى ما ذهبنا إليه ، أنه ذكر في تراجم الصحابة ومع انه ليس صحابي الا أن هذا يدل على قرب عهده من النبي . وهناك أخبار ضعيفة تدل على

رؤية النبي له . أبي حاتم السجستاني تحقيق عبد المنعم عامر ط ١٩٦١ د اراحيا الكتب . القاهو المعمرون والوصايا : ٨٧ تهذيب تاريخ دمشق : علي بن الحسن (بن عساكر) : ٣٥٦/١ (جعله سبعمئة سنة) ط (١٣٣٢) روضة الشام .

(٢) كتاب قس بن ساعده : د . احمد الربيعي : ١٢٦ - ١٣٩ ط (١٩٧٤ م) مطبعة النعمان بغداد .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٦٨/٦ .

(٤) ديوان لبيد : ص ٥٦ تحقيق د . احسان عباس . ط (١٩٦٢ م) الكويت .

(١)
لأحد مدوحيه :

وأخْطَبُ من قسٍّ وأَمْضَى إذا مَضَى . . من السيفِ إنَّ من النفوسِ نكالها

ولم ينقطع ذكر قس على مدار التاريخ ويتكرر ذكره على اللسنة عند ذكر الفصاحة والخطابة
وفى الكتب التاريخية والأدبية ما يدل على ذكره فى مختلف القرون الفابرة عند المسلمين
كعصر الأمويين والعباسيين إلى عصرنا اليوم .

ولا تخلو كتب الامثال ^(٢) من عبارات تؤيد ذلك كقولهم : أخطب من قس وأبلغ من

قس وأفصح من قس وانطق من قس ، وأقول من قس ، وأبين من قس .

وقد تتبع الدكتور أحمد الربيعى ^(٣) طرفاً ممن ذكر قس على مدار اثني عشر قرناً من

الزمان . وهذا بلا ريب يدحض تلك الشبهة عند لا مانس ويرد لقس شخصيته ويقدم لــــه
مكانته التاريخية التي لا ينساها أرباب البيان وعشاق تركيب الكلام .

وقد كان قس يجمع بين عدد من الخصال الحميدة التي جعلته أحد مشاهير

الجاهلية بل تعدى ذلك إلى مشاهير التاريخ ، من ذلك شهرته بالحلم والحكمة والحنكة

حتى كان الجاهليون يتخذونه قاضياً يحكم لهم معضلات الأمور ويفصل الخلافات .

أما شهرته بالحلم والحكمة فلا تكاد تخلو منها أخباره عند من تحدث عنه من

المؤرخين .

* ولم تذكر المصادر حادثة توضح حلمه ^(٤) ولكن هذا ربما استبطن من أخباره

ومكانته .

وأما شهرته بالحكمة وضرب المثل فهذا يظهر فيما زعم من مسألة قيصر له عن ذلك

(١) ديوان الحطيئة : ٥٤ " بشرح ابن السكيت " تحقيق : نعمان أمين طــــه

ط (١٩٥٨ م) مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٢) مجمع الامثال : أحمد بن محمد الميداني . تحقيق : محي الدين عبد الحميد

ط دار المعرفة : ١١ / ١ ، المستقصى في الامثال : جار الله محمود بن عمر

الزمخشري : ٣٢ / ١ . ط (١٣٨١ هـ) دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد

الهند .

(٣) قس بن ساعدة : ٢١٤ - ٢٣٤ .

(٤) السابق : ٢٠٠ .

وعن مراسلاته له وكان قيصر يستفيد من حكمة هذا الرجل .^(١)
ومن أقواله في الحكمة وقد سئل عن أفضل العلم فقال : معرفة الرجل بنفسه ، وعن
أفضل العقل فقال : وقوف المرء عند علمه ، وعن أفضل الأدب قوله : استيقاظ الرجل
ما وجهه ، ومن ذلك قوله : من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه ، وغير ذلك .
ومع ما سلف من اشتهاره بالحكمة فقد قيل عنه أنه كان مشهورا في الحكومة والقضاء
بين المتنازعين^(٢) وكان على حظ كبير من الدهاء والذكاء^(٣) ،
وتضيف بعض المصادر أن له معرفة في الطب ، وربما سئل عن ذلك .^(٤)
وقد بالغ الرواة في أخبار قس ان جعلوه كما قال الدكتور جواد علي " من أصفيا
البشر والمخترع للعرب أشياء جديدة لم يسبقه أحد اليها"^(٥)
من ذلك ما ينسب اليه أنه أول من كتب في رسائله من فلان الى فلان أما بعد وقالها
في خطبه .

وأنه أول من توكأ على عصا أو رمح أو سيف أثناء خطبه وأنه أول من خطب على نشيز
من الارض أو على الراحلة ، كما يزعمون أنه أول من آمن بالبعث من الجاهلية ، وأنه
أول من قال " البيئنة على من ادعى"^(٦) .
ولا ريب أن الكثير من هذه المزاعم مما لا يطمئن الى صوابه ، وأنه منحول وجاء
متأخرا عن قس ، ولعل القصاصين الذين اشتهر أمرهم في القرون الاسلامية الاولى

(١) انظر قصته مع قيصر وبعض من حكمه في : العقد الفريد : أحمد بن محمد (بن
عبد ربه) ← ٣٧٦ ، ٣٥٦ ، ٣٣٠ ، تحقيق : أحمد أمين
وآخرون ، ط (١٩٤٦ م) لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .

(٢) العقد للفريد : ٢ / ٢٩١ .

(٣) المزهـر في علوم اللغة : جلال الدين السيوطي :
١ / ٥٠٣ . تحقيق : علي البجاوي وآخرون . ط . دار احياء الكتب العربية
القاهرة .

(٤) العقد الفريد ٣٧٦ ، ٣٥٠ ، ٣٣٠ .

(٥) المفصل في تاريخ العرب ٦ / ٤٦٤ ، ٤٦٥ .
(٦) الاوائل : ٥٢ - ٥٤ ، لابي هلال العسكري : تحقيق محمد السيد الوكيل . ط (١٩٦٦)
دار أمل المغرب .

وضعوا ذلك ، ان أن منهم من لم يتحاش الوضوع على الرسول صلى الله عليه وسلم - فما بالك بسواه .

ومن أوضح ما يدل على بطلان أنه أول من آمن بالبعث أو تحوّف في الجاهلية مع العلم بتحفته كمثل واحد من هذه المزاعم أن جزيرة العرب لم تكن خالية ممن كان على الصحيح من دين عيسى وموسى حتى بعث الله رسوله الخاتم كما دلّ على ذلك محكم التنزيل .

ولا ريب أن الشهرة الكبرى والمنزلة العليا التي خلد بها " قس " هي قدرته الكبيرة على التصرف في فنون القول ان كان قوى الجنان فصيح اللسان .

ومن المناسب هنا أن نذكر واحدة من خطبه كمثل على بيانه ، قال : (١)

شرق وغرب ، وسلم وحرب ، ويايس ورطب ، وأجاج وعذب ، وحب ونبات ، وآباء وأمّهات ، وجمع وأشتات ، وآيات في أثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر واعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الانام . نشو مولود ، وأؤد مفقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ومحسن وسقي . تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عله ، أو ليفقدن الآمل أمهه ، كلاب هو اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد فأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والانثى ، رب الآخرة والاولى . أما بعد :

فيا معشر اياي ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والاجداد ، وأين العليل والعواء كل له معاد يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الانفراد في يوم التناد ، فاذا نفخ في الصور ، ونقر في الناقور ، وأشرقت الأرض بالنور ، فقد وعظ الواعظ وانتبه القاطط ، وابصر اللاخط ، ولفظ اللافظ ، فويل لمن صدق عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ، والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، اذا حكم القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، ففريق في الجنة وفريق في السعير

ولاشك أن الوضع في هذه الخطبة جلي بنفسه ، ان الآيات القرآنية بنصها تذكر وأنى لقس السبق في ذلك أو ورود مثل هذه الآيات على خاطره ؟

وقد ورد له عدد من الخطب بلغت عند بعضهم من تخصص في دراسته الى ثمانى

لم أدر ما يقضيه حكمٌ غدٍ . . . ومضى بفضل قضاءه أمْسٍ
وقد أورد صاحب كتاب قس بن ساعدة بقية الأبيات وهي طويلة وخرجها (١)

ومما ينبغي الا يفوتنا ونحن نتحدث عن قس بن ساعدة أن نشير الى ما رواه الاخباريون من رؤية النبي لقس وسماعه لخطبته وسؤاله عنه لبعض الوفود عندما قدمت عليه ، فقد درس ابن حجر رحمه الله طرق رواية حديث قس ثم قال : " وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قس ، وفيه شعره ، وخطبته ، وهو في المطولات للطبراني وغيرها ، وطرقه كلها ضعيفة .

وقد ذكر ابن حجر قسا في القسم الرابع - من حرف القاف - وهذا القسم خاص بمن ذكر في عداد الصحابة على سبيل الوهم والغلط مستخدما طريقة أهل الحديث في ذلك ، على حسب تقسيمه لكتابه العظيم ، والذي عبر فيه عن هذا القسم بقوله :

" وهذا القسم الرابع لا أعلم من سبقني اليه ، ولا من حام طائر فكره عليه ، وهو الضالة المطلوبه في هذا الباب الزاهر ، وزبدة ما يمخضه من هذا الفن اللبيب المأهز (٢)

وهذا القول من عالم محقق كابن حجر رحمه الله يؤكد كثرة الوضع واللبس في بعض أخبار قس وما نسب اليه من خطب وأشعار ، ومع هذا فينبغي لنا التنبه الى ما ضعفه ابن حجر من رؤية النبي عليه الصلاة والسلام لقس ، وأما قصة قس وإيمانه بالبعث وخطبته المشهورة ، وما كان من أمره عند قبري صاحبيه . . فقد نبه ابن كثير - رحمه الله - بعد دراسته لرواة السند في طرقه التي تنوع وزوده بها على طريقة المحدثين وذكر قول البيهقي الذي ذكر ذلك في دلائل النبوة وقال أي البيهقي - " وانا روى الحديث من أوجه آخر وان كان بعضها ضعيفا دل على أن للحديث أصلا والله أعلم " (٣)

قال ابن كثير - رحمه الله - " وهذه الطرق [أي طرق رواية قصة قس] على ضعفها كالمتعاضدة على اثبات أصل القصة " (٤)

(١) قس بن ساعدة : ٤٠٧ - ٤٠٩ .

(٢) الاصابة - المقدمة - ١ / ٥٥ .

(٣) البداية والنهاية
المطبوع : ٢٣٧ / ٢ .

(٤) البداية والنهاية : ٢٣٦ / ٢ .

٢ - زيد بن عمرو بن نفيل

هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، القرشي العدوي . (١)

وزيد من بنى عدى أحد بطون قريش ، ويبدو أنه نشأ حتى ترعرع في مكة ، وأسرته - بنو عدى - معروفة في مكة وهو ابن عم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تزوج من صفيية بنت الحضرمي . (٢) ومن فاطمة بنت بعة . (٣)

وكان له ابن يدعى " سعيد بن زيد " (٤) وهو أحد السابقين الى الاسلام وأحد العشرة الذين بشرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالجنة ، ويبدو من اسرعه فى دخول الاسلام أن والده زيدا - قد حثه ووصاه باتتباع ذلك .

وقد نبه ابن حجر - رحمه الله - على من ظن زيدا من الصحابة بقوله " . . وفيه نظر لأنه مات قبل البعثة بخمس سنين ، ولكنه يجيئ على أحد الاحتمالين فى تعريف الصحابي وهو أنه من رأى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به هل يشترط فى كونه مؤمنا به أن تقع رؤيته له بعد البعثة فيؤمن به حين يراه أو بعد ذلك ، أو يكفي كونه مؤمنا به أنه سيعت كما فى قصة هذا وغيره " (٥)

ويعدّ زيد أشهر الحنفاً وخير من تمسك بالحنيفية منهم ، وهي وان لم تتضح له على كثرة أسفاره وبحته عنها فقد كان يعمل عقله ويميز ما فى الاديان من أباطيل حتى إنه امتنع عن الدخول فى يهودية أو نصرانية وظل يبحث عن دين ابراهيم عليه يظفر به . ويعد زيد من مشاهير الجاهلية بالتحنف حتى سموه موحد الجاهلية ، ولا ريب (٦)

(١) خزنة الأدب : ٤١٦/٦ ، الاغانى ٣/١٢٣ .

(٢) سيرة ابن هشام : القسم الاول : ٢٢٩/١ .

(٣) الاصابة ٣/١٠٣ ، دائرة المعارف الاسلامية : ١١/١٤١٣ .

(٤) ترجمته فى الطبقات الكبرى محمد بن سعد : ٣/٣٧٦ ط (١٣٧٧) دار صادر

دار بيروت - بيروت .

(٥) الاصابة : ٦١٣/٢ ، ٦١٤ .

(٦) تفسير البيضاوى انوار التنزيل واسرار التأويل : عبد الله بن عمر البيضاوى : ١/١١٠ ط .

مؤسسة شعبان . بيروت ، خزنة الادب : ٤١٩/٦ .

أنه كان أعلم المتحنفين وأصدقهم فيما ذهبوا إليه ، ولم نعلم أحدا منهم عذب وصبر ، ثم لم يرجع عن دينه مع ما لقيه في سبيل ذلك من سجن واضطهاد .

وكان زيد أحد الذين شكوا في عبادة الاوثان واتفقوا على الخروج للتمسك بالدين الصحيح .

ومن قصته في سؤاله عن الدين أنه " خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال : إني لعلي أن أدين دينكم فأخبرني ، فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . قال زيد : ما أفرا لا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا ، وأنا أستطيعه فهل تدلني على غيره ؟ قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا . قال زيد : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله . فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال ما أفرا الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وأنا أستطيعه فهل تدلني على غيره ؟ قال : ما أعلمه الا أن يكون حنيفا . قال : وما الحنيف ؟ قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله . فلما رأى زيد قولهم في ابراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال اللهم اني أشهدك اني على دين ابراهيم (١) .

وقد وردت قصته باختلافات بسيطة (٢) تدور كلها حول بحثه عن الدين وانما اخترنا أوثقها عند العلماء والمحدثين .

ولما كان زيد أفضل المتحنفين تمسكا بدينه وثباتا عليه فقد رويت عنه بعض الاخبار التي تدل على أن ما فعله زيد كان يراه من الحنيفية وان خالف في ذلك قومه - ، ومن ذلك أنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية بل كرهها (٣) ، وكان زيد لا يأكل مما يذبحه

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى بد رالدين محمود بن أحمد اللخيني ط. المنيرية بيروت ٢٨٧، ٢٨٦/١٦

(٢) انظر في ذلك مثلا : سيرة ابن هشام ٢٣٤/١ - ٢٣٢ ، الاغانى ١٢٦/٣ -

(٣) طبقات ابن سعد ١٦١/١ ، ١٦٢ ، سيرة ابن هشام ٢٢٤/٢ .

المشركون^(١) لأصنامهم لأنه يرى أن الله الذى خلق الذبيحة فيجب أن تذبح له .
 " وكان لا يذبح للأصنام ولا يأكل الميتة والدم " ^(٢) ، وكان يعتزل الاوثان ويـرى
 سخف من يعبدها ، وقال أعبد ربّ ابراهيم ، وربما قال منبها قريشاً : " يامعشر
 قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى ، وكان يحيى الموءودة ويقول للرجل اذا أراد
 أن يخذ ابنته : لا تقتلها أنا أكفيكها معونتها ، فياخذها فاذا ترعرعت قال لأبيها :
 ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها " ^(٤) .

وأما عبادته لله فالذى يبدو أنه كان حائرا فيها ولا يعلم كيف يعبد الله ، خاصة
 وأنه قد تيقن وشهد لنفسه أنه على دين ابراهيم ، وتدل المصادر على حيرته بقوله
 " اللهم انى لو أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على
 راحته " ^(٥) ، وروى انه كان يستقبل الكعبة داخل السجد ويقول : " لبيك حقا حقا ،
 تعبدأ ورقا ، عدت بما عان به ابراهيم ، ستقبل الكعبة وهو قائم " وربما قال :
 أنفى لك اللهم عانِ راغم . . . مهما تجشنى فانى جاشم . ^(٦)

وقد ورد أنه كان يراقب الشمس ، فاذا زالت استقبل الكعبة ، صلى وسجد
 سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة ابراهيم واسماعيل لا أعبد حجرا ، ولا أصلى له ولا آكل
 ما ذبح له ، ولا استقسم بالأزلام ، وانما أصلى لهذا البيت حتى أموت . وكان يحج
 فيقف بعرفة ، وكان يلبى ، فيقول : لبيك لا شريك لك ، ولا نند لك ، ثم يدفع من عرفة
 ماشيا ، وهو يقول : لبيك متعبدا مرقوقا . ^(٧)

ويبدو ان زيدا هذا كان متفاعلا مع قومه لم ترضه حالتهم الدينية السيئة فبادر

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى : ٢٨٥ / ١٦ .

(٢) الاستيعاب : ٦١٥ / ٢ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٢٥ / ١ .

(٤) عمدة القارى : ٢٨٧ / ١٦ .

(٥) سيرة ابن هشام : القسم (١) / ٢٢٥ .

(٦) السابق : ٢٣٤ / ١ .

(٧) البداية والنهاية : ٢٤٠ / ٢ .

قومه بعيب ما هم فيه ، فقد روى أن "أسما" بنت أبي بكر* رضی الله عنهما قالت :
لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مشيخا كبيرا مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول :
يا معشر قريش والذي نفسى زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم
غيري . . . (١)

وهذا يدل على اقتناعه بدينه ورفضه لعبادة الاوثان ، ومع ذلك فيبدو أنه كان يتنزه
عن المنكرات التي يراها كشرب الخمر والقمار ونحو ذلك وتدل المصادر على وقوفه لمن
أراد وأد ابنته بالنصح والتوجيه وأخذها من أبيها اذا عزم وألح على هذا الفعل
النكراء .

ولما كانت نفس زيد بهذه الدرجة من الصفاء والشفافية وسلامة الرأي ، لم يكن
له كل ما يريد ان هو طراز من جيل يعد غريبا في جيل زمانه ، وقد وقف له خصومه
بالمرصاد والنكال ، وهذا شأن المصلحين في كل زمان ومكان لا يخلو طريق الاصلاح
أمامهم من البلايا والعراقيل .

جاء في السيرة^(٢) ان زيد بن عمرو قد أجمع الخروج من مكة ليضرب فـ
الارض يطلب الحنيفية دين ابراهيم - صلى الله عليه وسلم - فكانت صفية بنت الحزرمي
(زوجة زيد) كلما رآته تهبأ للخروج وأراد ان تذب به الخطاب بن نفيل ، وكان
الخطاب بن نفيل عمه وأخاه لأمه وكان يعاتبه على فراق دين قومه ، وكان الخطاب قد
وكل صفية به وقال : إذا رأيتهم بأمر فاذنيتي به . فقال زيد :

لا تحسبيني في الهـوا .. نِ صَفِيٍّ مَادَابِي وَدَابُّهُ
إِنِّي إِذَا خَفْتُ الهـوا .. نِ مَشِيْعٌ ذُلُّكَ رِكَابُهُ (٣)

وقد كان الخطاب يعيب عليه خروجه من مكة وطلبه الدين ، وخلاف قومه وكان
يؤذيه وأمر امرأته أن تعاتبه وتأخذه بلسانها . . .^(٤) ويبدو أن زيدا مع ذلك تمكن

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٥ / ١ .

(٢) السابق : ٢٢٩ / ١ .

(٣) المشيع : الجريء الشجاع . الذلل : السهلة قد ارتاضت ، يريد نفسه .

(٤) الخزانة : ٤١٥ / ٦ .

من الخروج للبحث عن الدين ولكنه ربما منع دخولها عند عودته فقد روى أن "الخطاب ابن نغيل قد أخرج زيد بن عمرو من مكة وجماعة من قريش ومنعوه ان يدخلها حين فارق أهل الاوثان ، وكان أشد هم عليه الخطاب بن نغيل" (١)

وأما رؤية زيد للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فتدل المصادر على ذلك ، وقد روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقي زيد بن عمرو بن نغيل بأسفل بلدح (٢) قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، فقد مات الى النبي سفرة فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد : انى لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه . . . (٣)

ومع هذه الرؤية فالرسول لم يبعث بعد وزيد مع ذلك يعلم أن هناك نبيا سيعت وقد قرب زمانه .

روى أن زيدا كان خارج مكة فلقه عامر بن ربيعة وما قاله له : " . . وأنا انتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من ولد عبدالمطلب ، وما أرانى أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي فان طالبتك مدة فرأيت فاقرتني مني السلام ، وسأخبرك مانعته حتى لا يخفى عليك ثم وصفه . . (٤)

وقد اختلفت الروايات في تحديد مكان وفاته ، فمن قائل أنه مات بالسم في بلاد الشام وقد سمه بعض ملوك غسان (٥) ، وجاء في رواية أخرى أن مقتله بمكان يقال له ميفعة من أرض الشام وتذكر أن قتلته من قبيلة لخم (٦)

وهناك روايات تخالف ذلك تفيد رجوع زيد الى قومه بعد رحلاته في بلاد الشام ووفاته بمكة وتقول "توفي وقريش تبني الكعبة قبل أن ينزل الوحي على رسول الله بخمس

(١) الاغانى : ١٢٣/٣ .

(٢) بلدح : واد قبل مكة جهة المغرب . . (معجم البلدان - بلدح : ٤٨٠/٢) .

(٣) عمدة القارى : ٢٨٥/١٦ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٢٩٩/٢ ، الخزانة : ٤١٧/٦ ، الاصابة

٠٦١٦/٢

(٥) مروج الذهب : ٥٦/٢ . على بن الحسن السعوى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد

ط دار الاندلس

(٦) البداية والنهاية : ٢٤١/٢ .

سنين* ودفن بأصل حراء^(١)، وورد أنه شارك في حرب الفجار^(٢).

ويبدو أن الرواية الأولى أرجح إذ هي أكثر وروداً عند المؤرخين، ويقويها ما ذكر من أن أبا عبد الله الخطاب له وطرده له مع نفر من أهل مكة عندما لم يرجع عن دينه بعد ما آذوه وحبسوه من الخروج حتى كان لا يدخل مكة إلا سرا^(٣).
ولاشك أن طرده لهم له مخافة أن ينتشر مذهبه، الذي يقضى أول ما يقضى على هذه الأصنام التي لا يخلو معاشهم مما يفيدونه عن طريقها ممن يأتون معظمين لهذه الأصنام. وتتراعى في بعض الروايات السابقة أنه انتظر في مكة ولم ير شيئاً من النبوة وأوصى من يبلغ سلامه للرسول وأنه يظن أنه ربما لا يدركه فعله سافر ليزداد علماً بخبره، وما يجده عند رهبان النصارى خيراً له مما يلاقه من أذى في مكة.
وقد روى أن الرسول شهد له بالجنة*.

وقد ذكر له الرواة شيئاً من الشعر نجتزئ منه قوله^(٤) في فراق دين قومه :

أرثياً واحداً أم ألف ربِّ .. أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً .. كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها .. ولا صنمي بنى عمرو أזור
ولا هبلاً أدين وكان ربا .. لنا في الدهر إذا حلنى صفير
عجبنا وفي الليالي معجبات .. وفي الأيام يعرفها البصير

(٥)

وما يروى له قوله :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت .. له الأرض تحمل صخرا ثقالا

(١) طبقات ابن سعد : ٣/٣٧٩، ٣٨٠، البداية : ٢/٢٤١.

(٢) انساب الاشراف : ١٠٢. الحمد بن يحيى البلازرى تحقيق محمد حميد الله ط معهد المخطوطات العربية دار المعارف - مصر.

(٣) مروج الذهب : ١/٧٠، السيرة : ١/٢٣١، وما بعدها.

* الاصابة : ٢/٦١٤، ٦١٦.

(٤) سيرة ابن هشام : ١/٢٤٦، البداية : ٢/٢٤٢، ٢٤٣.

(٥) سيرة ابن هشام : ١/٢٣١.

- دحاها فلما رآها استوت .. على الماء أرسى عليها الجبالاً^(١)
وأسلمت وجهي لمن أسلمت .. له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هي سبقت إلى بلدة .. أطاعت فصبت عليه سجلاً^(٢)

(١) دحاها : بسطها .

(٢) السجال : جمع سجل ، وهي الدلو الملوثة يريد كثرة المطر وغزارته .

٣ - ورقة بن نوفل

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الاسدي ، ذكر في بنى
أسد بن عبد العزى (١) وأمه هند بنت أبي كثير (٢) وهو ابن عم السيدة خديجة بنت
خويلد بن أسد أم المؤمنين وزوج نبينا عليه الصلاة والسلام ، مات ولم يعقب ولدا من
بعده .

وأخباره في أول عمره ومقتبل شبابه لانعلم منها شيئا ، غير أن مانسب له في بعض
القوائد ربما توحى لنا بتمتعه بشيء من اللهو الذي تدفع اليه ثورة الشباب وفورة
الفرائز ، وقد روى له من ذلك قوله : (٣)

- رحلت قتيلة غيرها قبل الضحى . . وإخال إن شحطت بجارتك النوى (٤)
أو كلما رحلت قتيلة غدوة . . وغدت مفارقة لأرضيهم بكسى
ولقد ركبت على السفين ملججا . . أزر الصديق وانتحى دار العدى
ولقد دخلت البيت يخشى أهله . . بعد الهدو وبعد ما سقط الندى (٥)
فوجدت فيه طفلة قد زينت . . بالحلي تحسبه بها جمر القضا (٦)
فنعمت بالأ إذ أتيت فراشها . . وسقطت منها حيث جئت على هوى
فبتلك لذات الشباب قضيتها . . عنى فسأل بعضهم ماذا قضى

(١) جمهرة نسب قريش : ٤٠٨ ، الزبير بن بكار . تحقيق محمود شاكر ط ١٣٨١ المدنى القاهرة

(٢) الاغانى : ١١٩/٣ .

(٣) جمهرة نسب قريش : (٤٠٨) . وعلق محققه/الابيات بتمامها رواها ابو الفرج

في أغانيه عن الزبير ١١٨/٣ ، وروى الاخيرين في ١١٧/٣ وقد خرجها

الميمنى في سمط اللالكى ٢٠٦/١ ، وروى الاخيرين الصعب أيضا في نسب

قريش : ٢٠٨ .

(٤) العير : القافلة من الابل ، شحطت : نأت وبعدت ، النوى : الفراق

(٥) الهدو : الهدوء أى بعد ان سكن الليل ، سقوط الندى : في أقصى الليل .

(٦) الطفلة : البنت المرخصة الناعمة الشابة ، الغضا : شجر من نبات الرمل وهو

أحسن الحطب نارا وأزهره .

قَدَحَ الذَّبَابُ فَلَيْسَ يُورِي قَدْحُهُ .. لا حاجة قَضَى ولا مالا نَمَى (١)
 فَرَفَعَ ضَعِيفَكَ لا يَحِلُّ بِكَ ضَعْفُهُ .. يوماً فتدركهُ العواقبُ قَدْ نَمَا (٢)
 يُجْزِيكَ أَوْ يَثْنِي عَلَيْكَ وَإِنَّ مَنْ .. أَثْنَى عَلَيْكَ بما فعلتَ كَمَنْ جَزَى

ومع الشك في نسبة البيتين الأخيرين لورقة فان ماسبقهما من القصيدة لتدل أكثر
 المراجع على قوله لها ، ولكن مع ذلك فنحن لانظن أن ورقة كان من الاسراف والتبذل
 في الشهوات كعادة شباب زمانه .

وقد مر بنا أنه أحد رجالات قريش الذين اجتمعوا في أحد أعيادهم وبحثوا في
 حقيقة الدين وشكوا في عبادة قومهم واتفقوا على البحث عن الدين الذي ضل عنه
 قومهم .

وغير بعيد أنه كان يعين أهله أو أقاربه في التجارة من بلاد الشام أو اليمن شأن
 أكثر شبان أسرمكة في ذلك الوقت . فتعلم بذلك سلوك الطرق الموصلة الى العراق
 أو بلاد الشام ، ومن هنا اندفع نحو خارج الجزيرة يلتمس الحكمة والوصول الى رأى يقنعه
 في الحياة .

ويظهر أنه غير سلك حياته بعد شبابه فلم يكن من الرجال الخاملين الذين
 كانوا يصرفون وقتهم في فراغ دائم ، دون عمل ولا تفكير ، متوسدين الارض يقتلون
 فراغهم في ترهات الكلام ، كما أنه لم يكن من أولئك الطائشين النزقين الذين يقضون
 وقتهم في النزاع والخصومة وشرب الخمر والاعتداء على الناس ، والحصول على المال
 للانفاق على اللهو بأية طريقة كانت ، بل كان رجلاً متأملاً مفكراً منكمشاً على نفسه ، مكنه
 علمه بالكتابة والقراءة من قراءة الكتب والاطلاع على آراء الماضين والحاضرين ، حتى

(١) قدح الذباب : أصله من ضرب بالزناد ليورى النار ، والذباب يضرب بيد يسه
 كأنه قاذح نار من زناد كما قال عنتره في صفته

وخلأ الذبابُ بها فليس ببإح .. غرداً كفعل الشارب المترنم

هزجاً يحك ذراعه بذراعه .. قدح المكب على الزناد الأجدم

(٢) أرفع ضعيفك : أى أعنه وخذ بضعفه ، حال : انتقل من مكان لآخر ، نما
 ارتفع وعلا .

جاء يوم ، دفعه أجهاده الذى وصل اليه على الخروج على تقاليد قومه وانتقــــــــــــــــار
الاضاع التى كانوا عليها" (١)

ونظرا لادراك ورقة لبعثة النبى صلى الله عليه وسلم فقد اختلف فى صحبته ، خاصة
وأنه كان يستبشر بظهور النبى ويعلم أن نبيا سيبعث ، وقد ذكر ابن حجر ذلك وقال
" وفى إثبات الصحبة له نظر" وذكر أن الذى فى الصحيحين - كما سيرد - يدل على أنه
أقرب نبوته لكنه مات قبل أن يدعو رسول الله الناس الى الاسلام ، وهذا ما جعل له نظر
فى صحبته . (٢)

وتدل المصادر أن ورقة ضرب فى الارض بحثا عن الدين شأن الكثير من الحنفاء ،
وكان زيد بن عمرو صديقه وصاحبه سافرا معا بحثا عن الدين (٣) حتى بلاد الشام .
والذى تدل عليه المصادر أن ورقة دخل النصرانية وآمن بها وربما دخل فيها
مؤقتا حتى يظهر النبى الذى يعلم شأنه فيتركها ، وتؤكد المصادر أن ورقة استحکم
فى النصرانية وتبحر فى قراءة الانجيل وغيره من كتب النصارى (٤) .

والذى ينبغى أن يفهم من أمر هذه النصرانية التى كان عليها ورقة أنها مخالفة
للنصرانية الكافرة التى تدعى أن عيسى أحد الأقانيم الثلاثة (الله - روح القدس - عيسى)
والتي كانت ملوثة بالتعقيدات التى لا تفهم والخرافات التى لا تصدق ، بل المشهور عن
ورقة أنه كان رجلا عاقلا متفكرا ، وكان على علم كثير ويحسن القراءة والكتابة التى كان بها
الانجيل آنذاك ، فغير طبيعى أن يكون على هذا المستوى ويرضى بتلك الديانة الباطلة
ان نصرانية ورقة كانت على الصحيح من دين عيسى ولعله تعلمها ممن لم يبدلها
من علماء النصارى ، وخير ما يؤكد ذلك أنه عندما وصفت له خديجة ما حدث لمحمد
- عليه الصلاة والسلام - استبشر بذلك وصدق بنبوته وأوصاه بالثبات عند مجئ الناموس

(١) انظر : المفصل فى تاريخ العرب : ٥٠١ / ٦ .

(٢) انظر تفصيل الخلاف فى ذلك فى الاصابة ٦ / ٦٠٢ .

(٣) البداية والنهاية : ٢ / ٢٣٩ .

(٤) ابن هشام : ١ / ٢٢٣ ، البداية والنهاية : ٢ / ٢٣١ ، الاشتقاق : ١٦٤ .

اليه ، بل تمنى أن يمتد به العمر حتى يناصره عند ما يخالفه قومه .
وقد رد ابن حجر على من زعم ان نصرانية ورقة من النصرانية الباطلة بقوله " أما
ما تحمل له السهيلي من أن ورقة كان على اعتقاد النصارى في عدم نبوة عيسى ودعواهم
أنه أحد الأقانيم ، فهو محال لا يعرج عليه في حق ورقة وأشباهه ممن لم يدخل فسى
التبديل ولم يأخذ عن بدل " (١)

ولاشك أن هذه النصرانية خير من دين قريش ، ومع ذلك فنحن لانخرج ورقة من
الحنفاء لانه دخل النصرانية ، فقد جاء أنه كان يقول : " دينى دين زيد ، والهى اله
زيد " (٢) بل هذه مرحلة من مراحل تحنفه ، إذ سرعان ما استبشر عند ما علم بمبعث
الرسول وصدقه وفرح بذلك ، وتدل المصادر الصحيحة (٣) على وفاته مؤمناً بالرسول .

ولو كان "مَصْرًا" أو مُقْتَنِعًا بنصرانيته لما آمن بمحمد عند علمه بذلك فى الوهلة الاولى،
وقبل ذلك لم يكن على دين حتى اجتمع مع النفر الذين شكوا فى عبادة قومهم .

وقد علمنا أن ورقة كان رجلاً يقرأ ويكتب ولا ريب أن هذا يدل على سعة اطلاعه
على ما يدور فى كتب عصره وخاصة كتب أهل الكتاب ان الذى يفهم من أخباره " أنه
كان يعلم الكتابة العبرانية ويكتب من الانجيل بالعبرانية ، ولا يلزم من ذلك أن يكون
الانجيل عبرانيا ، لأنه يجوز أن يكون سريانيا . وكان ورقة ينقل منه باللغة العبرانية ،
وهذا يدل على علمه بالألسن الثلاثة وتمكنه فيها " (٤)

ومن المؤكد أن ورقة أدرك الرسول فى أول البعثة فقد روى البخارى (٥) عن عائشة
أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي
الرؤيا الصالحة فى النوم . . ، فانطلقت به خديجة / بعد نزول جبريل عليه فى الفار /

(٢) فتح البارى : ٢٦١/٣ .

(٣) الاصابة : ٦٠٩/٦ .

(٤) الصحيحين حديث أول ما بدى به رسول الله . . فى مجئ جبريل بحراء .

(٥) عمدة القارى : ٥٤/١ .

(٥) السابق : ٤٦/١ ، ٤٧ .

حتى أتت به ورقة بن نوفل . . . وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة يابسن عم
اسمع من ابن أخيك ؟ فقال ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله
عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى
فيها جذعا^(١) . ليتنى أكون حيا ان يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
أو مخرجي هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وان يدركنى
يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي . . .

وتدل العديد من الاخبار أن خديجة - رضى الله عنها - كانت تتردد عليه وتسأله
عن أمر زوجها محمد حتى أخبرها أنه نبي هذه الامة الذى ييشربه أهل الكتاب ، وقد
كان يعلم ذلك وينتظره ، فلما وصفت له خديجة خبره مع خادها مسرة في رحلته الى
الشام ، جعل يستبطن الامر ويقول حتى متى وقال فى ذلك :^(٢)

لججتُ وكنْتُ فى الذكْرِ لجوجا .. لهم طالما بعثَ النَّشِيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصفٍ .. لقد طالَ انتظارى يا خديجا
بيطنِ المَكْتينِ على رجائِى .. حدُّ يثُكُّ أنْ أرى منه خروجا^(٣)
بما خبَرْتنا من قولِ قَسِّسٍ .. من الرّهبانِ أكرهُ أنْ يعوجا
بأن محمداً سيسودُ يوماً .. ويخصم من يكونُ له حجيجا
ويظهرُ فى البلادِ ضياءُ نورٍ .. يقيمُ به البريةُ أنْ تموجا

وتدل بعض الأخبار أن ورقة عاش فترة من الاسلام ، رأى فيها كفار قريش
يضطهدون المسلمين^(٤) وانه كان يمر ببلال وهو يعذب برمضاء مكة ويلصقون

(١) أى ليتنى كنت شابا عند ظهور النبوة .

(٢) الخزانة : ٣ / ٣٩٢ .

(٣) ثنى مكة لان قريش قبل الاسلام فريقان : أحدهما قريش الظواهر ، وهم الذين
يتخرجون أن ينوا الى جنب بيت الله بيوتا فنزلوا فى ظواهر مكة ، والآخرون
المقيمون ببطحاء مكة مجاورين البيت ، كان يقال لهم قريش البطاح . عن محقق
الخزانة ٣ / ٣٩٢ .

(٤) جمهرة نسب قريش : ٤١٢ ، الاصابة : ٦ / ٦٠٨ .

ظهره بها لكي يشرك ، فيقول : أحداً أحد ، فيقول له ورقة : أحد أحد يا بلال والله
لكن قتلتموه لا تخذنه حناناً .^(١)

والذى فى الصحيح * أنه لم ينشب ورقة أن توفى * أى بعد فترة نزول الوحي .
وقد وفق ابن حجر - رحمه الله - بين الروايتين بقوله * والجمع بين هذا / ادراكه
تعذيب بلال / وبين حديث عائشة أن يحمل قوله * ولم ينشب ورقة أن توفى * أى قبل
أن يشتهر الاسلام ويؤمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجهاد .^(٢)

قال المعينى فى شرح البخارى ١/٦٢ :

ماروى فى السيرة لا يقاوم الذى فى الصحيح ولئن سلمنا فلعل الراوى لما فى الصحيح
لم يحفظ لورقة بعد ذلك شيئاً من الامور فلذلك جعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة
الى ما علمه منه لا بالنسبة الى نفس الامر .

وجاء فى المصادر ما يدل على أن النبي مدحه ونهى عن سبه مما يدل على رضاه عن
دينه الذى مات عليه ، وأن الرسول رآه فى منامه وعليه ثياب بيض ، وهي مما لا يلبسه
أهل النار ، وربما أبصره فى بعض الروايات فى بطنان الجنة .^(٣)

وتدل بعض المصادر على أن لورقة شعرا ، وقد ذكرنا طرفا منه ، وقد وردت له
قصيدة رثى فيها صديقه زيد بن عمرو ونديمه الحميم ، ومنها :^(٤)

رَشِدَتْ وَأَنْعَمَتْ بِنِ عَمْرٍو وَإِنَّمَا . . . تَجَنَّبَتْ تَنَوُّراً مِنَ النَّارِ حَامِيَا
بَدِينِكَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّكَ مِثْلَهُ . . . وَتَرَكَّ جَنَّانَ الْجِبَالِ * كَمَا هِيََا

(١) الحنان : * كما فى النهاية * الرحمة والعطف : الرزق والبركة ، أراد لأجعلن
قبره موضع حنان أى مظنة من رحمة الله فاتسح به متبركا كما يتمسح بقبور
الصالحين ، فيرجع ذلك عاراً عليكم وسبة عند الناس . (كعادة الجاهليين)

(٢) الاصابة : ٦/٦٠٨ .

(٣) الاصابة : ٦/٦٠٩ .

(٤) الأغاني : ٣/١٢٥ .

* جنان الجبال : الذين يأمرن بالفساد من شياطين الانس أو الجن كما فى
لسان العرب * جنن .

أقول إذا ما زرت أرضاً مخوفةً .. حنانيك لا تُظهر على الأعاد يا
حنانيك إنَّ الجنَّ كانت رجاءهم .. وأنتَ إلهي ربُّنا ورجاءنا يا

ومن جيد شعره ما ذكره البغدادي في اخبار خديجة له (١) :

يا للرجالِ وصرفِ الدهرِ والقدرِ .. وما لشيءٍ قضاءَ الله من غيرِ
جاءتْ خديجةٌ تدعوني لأخبرها .. وما لنا بخفي الغيبِ من خبرِ
جاءتْ لتسألني عنه لأخبرها .. أمراً أراه سيأتى الناس من آخرِ
فخبرتني بأمرٍ قد سمعتُ به .. فيما مضى من قديمِ الدهرِ والعصرِ

(١) الخزانة : ٣٩٦/٣، الاصابة : ٦٠٩/٦.

٤ - عثمان بن الحويرث

هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى الجاهلى (١) ، وهو واحد من النفر القرشيين الذين شكوا فى دينهم ، واتفقوا على البحث عن الدين فى الآفاق .

ولم تتح لنا المصادر شيئا كثيرا من اخباره قبل ذلك ،

والذى نعلمه منها أن الرجل كان من أشرف قريش فى الجاهلية (٢) ، وأدرك حرب الفجار وكان على رأس بنى أسد فيها (٣) ، وكان نديما للشيبة بن ربيعة بن عبد شمس الذى قتل يوم بدر كافرا (٤) .

والذى كان من قصة عثمان أنه سافر الى بلاد الشام بعد الاتفاق على البحث عن الدين ، ولكنه سرعان ما تنصّر ، وتدل قصته على عدم إخلاصه فى ذلك ، ويبدو أنه كان لا يخلو من الدهاء والحكمة ، وليس خلواً من الخبرة بعظما القبائل ومجالسة ذوى الجاه والسلطان .

جاء فى جمهرة نسب قريش : (٥)

" خرج عثمان بن الحويرث وكان يطمع أن يملك قريشا وكان من أظرف قريش وأعقلها حتى يقدم على قيصر ، وقد رأى موضع حاجتهم اليه ، ومتجرهم ببلادهم ، فذكر مكة ورغبه فيها ، وقال : تكون زيادة فى ملكك ، كما ملك كسرى صنعا ، فملكه عليهم ، وكتب له اليهم ، فلما قدم عليهم قال : يا قوم ، ان قيصرا من قد علمتم ، أما نكم ببلادهم وما تصيرون من التجارة فى كنفه ، وقد ملكنى عليكم ، وانما أنا ابن عمكم وأحدكم ، وانما

(١) معجم الشعراء : ٢٥٣ . محمد بن عمران المرزبانى تصحيح كرنكو ط دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) المحبر : ١٦٥ .

(٣) السابق : ١٧٠ .

(٤) السابق : ١٧٥ .

(٥) ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

أخذ الجراب من القرظ^(١) ، والعكّة من السّمْن والاهاب^(٢) ، فأجمع ذلك ثم أبعثه اليه ، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به ، ويقطع مَرّ فكمم منه .
 فلما قال لهم ذلك خافوا قيصر ، وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم ، فأجمعوا على ان يعقدوا على رأسه التاج عشية ، وفارقوه على ذلك . فلما طافوا عشية ، بعث الله عليه ابن عمه أبا زمعة الاسود بن عبد المطلب بن أسد^(٣) ، فصاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف ، يأل عباد الله ، ملك بتهامة ! فأنحاشوا^(٤) أنحياش حمر الوحش ، ثم قالوا : صدق واللات والعزى ، ما كان بتهامة هلك قط . فانتفضت قريش عما كانت قالت له ولحق بقيصر ليُعلمه* .

وتدل المصادر أيضا أنّ عثمان وجد حظوة عند قيصر حتى منحه ذلك اللقب الذي يدل على الرّفعة والقداسة عند النصارى وهو (البطريق) ، كما أن قيصر حمله على بغلة عليها سرج عليه الذهب حين نوى أن يُطّكه^(٥) على مكة .
 وقد ذكر الزبير بن بكار قصة عودته ووفاته بعد ذلك^(٦) ، وموجزها أن تجارا من قريش سألوا " عمرو بن جفنة الغساني " أن يرسل عند قيصر من يفسد على عثمان خبثه وما جرى له ، وتمّ ذلك ولكن عثمان تمكن من افهام قيصر بعد ذلك ، فأرسل قيصر الى

(١) القرظ : شجر عظام ، له سوق غلاظ ، له حب يُدبغ بورقه وشمه ، وينبست بأرض اليمن .

(٢) العكّة : اصفر من القرية من الجلد ، الاهاب : جلد البقر والغنم والوحش الملم

يديغ .
 (٣) جاء في نسب قريش للمصعب ص ٢١٨ : الاسود بن عبد المطلب ، وهو ابو زمعة ، وأمه فهيرة بنت أبي قيس . . وهو أحد المستهزئين الذين ذكر الله في القرآن فقال " انا كفيناك المستهزئين " / الحجر : ٩٥ . قالوا ربي جبريل في وجهه بورقة فعسى ، وكان من كبراء قريش . . وقتل له أبناء يوم بدر مع المشركين . وانظر باقى ترجمته هناك .

(٤) أنحاشوا : فزعوا ونفروا .

(٥) جمهرة نسب قريش : ٤٢٦ ، الروض الأنف : ١ / ١٤٦ .

(٦) جمهرة نسب قريش : ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

عمرو بن جفنة بسجن من يأمر عثمان بسجنه من تجار قريش بالشام ، فوجد بها أحيحة ابن سعيد بن العاص وابن اخته أبا ذيب فحبسهما ، فمات أبو ذيب في الحبس ، وسم عمرو بن جفنة عثمان بن الحويرث فمات بالشام .

وتدل بعض المراجع أن قيصر أرسل الى ابن جفنة أن يجهز معه جيشا لحرب قريش فكار عمرو بن جفنة أن يفعل ، لولا نصح كثير من العرب له بعدم الاقدام على ذلك ، وتخويفه بما وقع لأصحاب الغيل الذين أهلكهم الله بطير أبا بيل ، اعظاما لمكة ، فعند ذلك كساه ابن جفنة قميصا مسموما فمات به . (١)

ولما كان عثمان أحد الحنفاء - كما نعلم - رثاه زيد بن عمرو عندما علم بوفاة - وقال ورقة بن نوفل يرثيه : (٢)

ألا هل أتى ابنتي عثمان أن أباهما .. حانت منيته بجنب الغرصد (٣)

ركب البريد مخا طيرا عن نفسه .. مئت المصنة للبريد المقصد (٤)

فلا بكين عثمان حق بكائه .. ولأشدة ن عمرا وان لم ينشد

وقد كانت وفاته قبل البعثة بنحو ثلاث سنين ، (٥) وقد كان عثمان مع مكانته في قريش

هجاء لها ، عالما بمثالها* ، ونحن لانعلم سبب هذا الهجاء فيما بين ايدينا من مراجع ، الا أن يكون بعد فشله في ولاية مكة من قبل قيصر ، وورد اليها أبيات معدودة من شعر منسوب له وهذا الشعر لا ينيبر لنا طريقا الى سبب انشاده له .

ومما يروى له قوله يهجو أحد رجالات قريش : (٦)

وانى امرؤ من جذم كعب مقابل .. وأنت ضعيف الجذ الصق طسق

من القوم نذل ليس يعلم علمه .. من الناس الا العالم المتعمق

(١) البداية والنهاية : ٢٤٣/٢ .

(٢) الابيات في جمهرة نسب قريش : ٤١٩ ، نسب قريش للمصعب : ٢١٠ .

(٣) الغرصد : موضع بالشام .

(٤) قال محقق جمهرة نسب قريش : " علق المصعب على هذا البيت فقال : " كأنه قال أنا الرجل البريد المقصد " وهذا البيان مستغلق استغلاق الشعر نفسه ، ولذلك تركت شرح هذا الشعر حتى أقف على وجه معناه .

(٥) البداية والنهاية : ٢٤٣/٢ . * الاشتقاق : ٩٥ .

(٦) معجم الشعراء : ٢٥٣ .

هـ - عبید الله بن جحش

هو عبید الله بن جحش بن رثاب بن یعمر الاسدی ، من بنی أسد بن خزیمة^(١) ،
وكان یكنی بأبی جحش ، وأمه أمیة بنت عبدالمطلب ، وله عدد من الاخوة دخلوا
الاسلام^(٢) ، منهم أم المؤمنین زینب بنت جحش.^(٣)

وأخباره - فیما نعلم - یسیرة و غیر مفضلة ، وقد سبق أن علمنا أنه أحد القرشیین
الذین اجتمعوا فی یوم عید لهم - علی حدة - واتفقوا علی البحث عن الدین الذی ضلّ
عنه قومهم .

و خلاصة أمره أنه بقى بعد ذلك مرتابا فی دین قومه ، وبعیدا عنهم وعن عبادتهم
ملتبسا علیه الامر حتى أنقذه الله ببعثته خاتم الرسل فدخل فی الاسلام .

وبعد أن بدأت هجرة المسلمین الی الحبشة كان ممن هاجر فی المرة الثانية
ولكنه عند ما وصل الحبشة فارق الاسلام وتنصر وهلك هناك.^(٤)

ونحن نعجب من قصته هذه ، ولاندرى ما الذی أعجبه من النصرانية حتى ترك
الاسلام ، ولم يتنصر قبل ذلك وهو فی شك من الدین ، ومن الجائز أن یكون غیر
مخلص فی تحفته ، ولعله لم یفقه كثيرا فی الاسلام . و غیر بعید أن الحبشة لا تخلو من
النصارى المخلصین ، الذین یدعون الناس الی دینهم حتى استمالوه الی ذلك ، وقبل
ذلك كله فنحن نؤمن حق الیقین أن الله یهدى من یشاء ، ومن یضل الله فلیس له
من هاد .

وقد هاجر الرجل ومعه زوجته " أم حبیبة بنت أبی سفیان " ^(٥) ولكنها ثبتت علی

(١) الاصابة : ٦٥١/٧ .

(٢) انظر أخبارهم فی انساب الاشراف : ١٩٩ - ٢٠١ .

(٣) انظر ترجمتها رقم " ١١٢٢١ " . الاصابة : ٦٦٧/٧ .

(٤) سیرة ابن هشام : ٣٤٤/١ ، انساب الاشراف : ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

مروج الذهب : ٧٤/١ ، ٧٥ .

(٥) انظر ترجمتها وزواجها فی انساب الاشراف : ٤٣٨ ، الاصابة : ٦٥١/٧ ،

الاسلام ، وعوضها الله خيرا منه ان تزوجها بعده سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام -
فكانت احدى امهات المؤمنين .

ويقال انه كان يقول للمسلمين - بعدما تنصر - " انا فقحنا وصاصاتم " (١) يريد

أبصرنا وأنتم تلتسون البصر .

وكانت وفاته فيما قيل أنه أسرف في الشراب من الخمر حتى مات غرقا منها ، وقيل بل

غرق في البحر ، ولعل القول الاخير أرجح والله أعلم . (٢)

(١) هذا مثل : يقال للكلب اذا فتح عينيه بعدما يولد وهو جرو : فقد فقح ،

واذا كان يريد فتحها ولم تفتح صاصا .

(٢) مروج الذهب : ١ / ٧٤ .

٦ - أمية بن أبي الصلت

يعتبر أمية بن أبي الصلت أشعر الحنفاء قاطبة ، وذلك لكثرة ما روته المصادر من شعر ينسب له ، وشعره هذا كما يكشف لنا جزءاً طيباً من حياة أمية فإنه يبين لنا شيئاً لا يستهان به من جوانب التحنّف عند هؤلاء الحنفاء .

عاش أمية في الجاهلية وأدرك الاسلام ، ولم يسلم ، فهو شاعر جاهلي لأنه قضى أكبر حياته في الجاهلية ، وهو ثقفي نسبة الى قبيلته ثقيف التي كانت تقطن الطائف وما حولها آنذاك ، وقد اشار اليها مفتخراً بها من قصيدة له :

قومي ثقيف ان سألت وأسرتسى . . . وبهم أذافع ركن من عاد انسي (١)

وينتسب أمية الى أصل شريف ومحتد كريم ، فأتمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف (٢) حيث يلتقي مع الرسول في النسب الكريم ، فأمية له خثوله في بني عبد مناف ، ولهذا نرى له أخباراً كثيرة في مكة ان كان له بها نسب ومقام كريم في فترات من حياته ، فهو فيما يبدو وعلى صلة لا تنقطع بها وما يدور فيها .

أما أبوه أبو الصلت فاسمه عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن قسي ، ويقال: (٤)

هو أبو الصلت بن وهب بن علاج بن أبي سلمة ، يكنى أبا عثمان ، ويقال أبا القاسم .

وأبو الصلت هذا أحد مشاهير الطائف ، ومن شعرائها المعدودين ، وتذكر له

المصادر شعراً في مدح الفرس وسيف بن ذي يزن في طرد الحبشة من اليمن ، لا تصاله (٥)

بهم ومشاركته فرحة ذلك النصر العجيب .

ومن قول أبي الصلت في ذلك : (٦)

لله دَرَهُمٌ من عصبيةٍ خرجوا . . . ما إن ترى لهم في الناس أمثالاً

(١) ديوان أمية ص ٥٠٠ ، صنعه د . عبد الحفيظ السطلي ، ط ٢ (١٩٧٧) دمشق .

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٦٩ ، الاصابة ٥٥٢ * ٢٥٠ / ١ .

(٣) الاغانى : ١٢٠ / ٤

(٤) الاصابة ٢٥١ / ١

(٥) انظر هذه القصة في السيرة لابن هشام ٦٢ / ١ وما بعدها .

(٦) اختلف في نسبة هذه القصيدة الى أبي الصلت ، وقد قيل هي لأمية قاله ابن هشام =

بَيْضًا مَرَازِيَةً غَلِيًّا سِياورَه . . . أُسْدًا تَرَبُّبٌ فِي الْغَيْضَاتِ أَشْبَالًا

وكان لأمية بن أبي الصلت عدد من الاخوة أشارت اليهم المصادر منهم هذيل بن أبي الصلت (١) ، وذكر الجاحظ (٢) ربيعة بن أبي الصلت ، ولعل الجاحظ وهم في ذلك والذي أشار اليه صاحب الاغانى (٣) أنه ربيعة هو ابن أمية بن أبي الصلت الشاعر . وله بجانب ذلك اختان هما عاتكة بنت أبي الصلت الثقفية (٤) ، والفارعة بنت أبي الصلت (٥) .

وقد دلت المصادر على أن له عددًا من الاولاد ، جاء ذكرهم في الاغانى (٦) ، وكانوا أربعة بنين هم : عمرو وربيعه ووهب والقاسم ، وقد توارث الشعر في هذه الاسرة ، فكما كان والد أمية وجده شاعرين ، فقد كان القاسم وربيعه ابني أمية شاعرين ، ذكر في الاغانى بعض أبيات لهما .

حياته :

نشأ أمية بن أبي الصلت واشتهر أمره بتطلعه للنهضة ، ولا تظهر لنا حياة صباه وأيام شبابه واضحة فيما نملك من مصادر ، والملاحظ لنا من شعره أنه لا يخلو من

= ١/٦٥، ٦٦ . الا أن آخرها بيتا نسبة للنايضة ، الا أن ابن سلام قال :

(١/٥٨، ٥٩) ان النايضة اجتلبه في شعره ، والرواة مجمعون أن أبا الصلت بن ابي ربيعة قاله ، وهذا ما يقوى نسبة القصيدة لابي الصلت ، ويبيدها عن أمية ، المرازية جمع مرزيان . مُعَرَّبٌ من الفارسية وهو عند هم رئيس القوم ، الفارس الشجاع المقدم عليهم ، عُزٌّ : جمع أغر وهو الابيض الوجه المتلألئ ، الغيضا : جمع غيضة وهي الأجمة ، عندما مغيض يجتمع ، فينبت فيه الشجر الكثيف الملتف تألفه وتسكنه الأسود .

(١) انظر خبره في امتاع الاسماع : احمد بن علي المقرئ : ١/٤١٧ ط (١٩٤١ م) مصر .

(٢) كتاب القول في البغال رسائل الجاحظ ٢/٢٥٨ .

(٣) الاغانى : ٤/١٢١ .

(٤) الاصابة : ٨/١٣ .

(٥) البداية والنهاية : ٢/٢٢٤ .

(٦) ١٢٠/٤ ، ١٢١ .

اشارات تدل على ما يجنح اليه شباب عصره من غزل ومجون ربما كان له منه حظ يسير ،
فها هو يذكر ليلى وديارها التي تتطلع اليها نفسه فيقول :^(١)

وانى بليلى والديار التي أرى . . . لكالميتلى الصعنى بشوقٍ موكل
كما يرد في شعره ذكر لغير ليلى ^{ويقول} ~~ويقول~~ في مجهرته :^(٢)

عرفت الدار قد أفتوت سنينا . . . لزنب ان تحمل بها قطينا^(٣)

ونسب له شعر فيه ذكر لقضائه ليلة مختلصة تمتع فيها بما يحذر انكشافه ، وكانت تلك
الليلة كالقبة على حذر في سرعة انقضائها .^(٤)

ومهما يكن شأن مثل هذه الاشارات القليلة في شعره فشبابه * لم يكن ذا طابع
خاص به ، كما كانت كهولته وهرمه ، وانما فيه الغزل ، وفيه المرح ، وفيه الاندفاع
والفخر ، الا أنه لم يكن على ما يبدو صاحب مجون كما مرئ القيس وطرفة بن العبد ،
ان لا يعقل أن يكون التأله والحكمة أمورا طارئة عليه ، ولا بد أن تمتد جذورها الى
أعماق نفسه الأولى .^(٥)

والذى يظهر أنه بعد علمه بأن نبيا سيبعث من العرب وخامره أن يكونه ، فبدل
أمره وأخذ نفسه بجهد وصرامة ، حتى تكبد الأسفار وعاشر الرهبان والأخبار ليزداد
علمه بالنبوة وما يكون من شأن الأنبياء .

وقد دلت المصادر أنه * نظر في الكتب وقراها ، وليس المسوح تعبدا ، وكان ممن
ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرّم الخمر وشك في الاوثان ، وكان محققا ، والتمس
الدين وطمع في النبوة ، لأنه قرأ في الكتب أن نبيا سيبعث من العرب ، فكان يرجو
أن يكونه ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هذا الذى كنت تستريث

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ٤٥

(٢) ديوان أمية : ٥٠٣ .

(٣) القطين : ساكن الدار المقيم بها .

(٤) ديوانه : ٥١٠ وما بعدها .

(٥) ديوان أمية : ٤٤ .

وتقول فيه فحسده عدو الله وقال انما كنت أرجو أن أكونه" (١).

وقال "ابن دريد" (٢) : "وكان بعض العلماء يقول : لولا النبي صلى الله عليه وسلم لا دعت ثقيف أن أمية نبي ، لأنه قد دارس النصارى وقرأ معهم ، ودارس اليهود وكل الكتب قرأها ، ولم يسلم".

والروايات التي تتحدث عن تطلب أمية للنبوة وطمعه الكبير فيها ، ورحلاته العديدة الى بلاد الشام حيث يمر في طريقه وفي الشام بكثير من علماء اليهود والنصارى ، الذين ربما صانعهم في كثير مما يذهبون اليه وتلمسه خبر النبوة ومكانها وصاحبها ، وما حدث له من غم وحزن عندما فاتته وامتناعه عن قبول الاسلام ، الى غير ذلك . . . كله منتشر ومفصل في بعض المراجع (٣) ، ويطول بنا الأمر لو أردنا تتبع بعض هذه الروايات ، ومع ذلك فمؤداها يلتقى مع ما ذكرت.

وليس بعيدا أنه قضى الشطر الأكبر من حياته وقد خابته فكرة النبوة وعلق عليها آماله العراض ، وما ينسب له من الشعر يدور في فلك مذهبه الديني ، وما علمه من أحوال الآخرة وما ينبغي أن يكون عليه من كان له ذلك المصير ، حتى قال : (٤)

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ . . . لَهُ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورٌ

وكان يخشى الكفر ويرجو الايمان في كل حين ، كما قال : (٥)

يَارَبِّ لَا تَجْعَلَنِي كَافِرًا أَبَدًا . . . وَاجْعَلْ سَرِيرَةَ قَلْبِي الدَّهْرَ إِيمَانًا

كما كان يخاطب نفسه في حذر من الاغترار بما في الحياة من باطل عن الحق ، ومطالبها بلزوم الحق ، فالموت من وراء الحياة ، والبعث من بعده ، فالخلد ليس لانسان ،

(١) الأغاني : ١٢٢/٤ ، الاصابة : ١٣٢/١ ، الخزانة : ٢٤٩/١ .

(٢) الاشتقاق : ٣٠٣ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ١١٥/٣ ، وما بعدها ، البداية والنهاية ٢٢١/٢ وما بعدها ، الاغاني ١٢٢/٤ وما بعدها .

(٤) ديوان أمية : ٣٩٣ .

(٥) السابق : ٥١٨ .

(١) قال :

الا أيُّها القلبُ المقيمُ على الهوى . . الى أيِّ حينٍ منك هذا التَّصدُّدُ
 عن الحقِّ كالأعشى المُمَيِّطِ عن الهدى . . وليس يبرِّتُ الحقَّ إلا مُفَنِّدُ
 فأى فتىِّ قبلى رأيتَ مُخلِّدا . . له فى قديمِ الدَّهرِ ما يتوَدُّ
 فكن خائفاً للموتِ والبعثِ بعده . . ولا تكُ بمنِّ غره اليومُ أو غدُ

ويحفل ديوانه بالكثير من القصائد التى تدل على دينه ، وحرصه عليه قبل أن يصدىم
 ببعثه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا نبعد أن قلنا ان هذا كان من وراء مقولة
 الأصمعى الشهيرة " ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة . . " (٢)

وتشير بعض المصادر الى اشتغال أمية بالتجارة وسفره لها وخاصة مع سادة قريش
 كأبى سفيان ، وكانت هذه الاسفار تتجه - كما هو مألوف - الى اليمن فى الشتاء والى
 الشام فى فصل الصيف .

وقد دفع شعر أمية فى مدح ابن جدعان وأخباره التى تدل على حياته متخيلا
 الأنبياء والملائكة وجيشان الامم الخالية على خواطره واغراقه فى السؤال عن النبوة أحد
 الباحثين (٤) الى الشك فى عمل أمية بالتجارة ثم ثرائه منها ، ومع ما ذهب له الباحث
 الفاضل من تحليل ورأى حسن فلا أستبعد متاجرة أمية فى رحلاته هذه ان لا مانع من
 ذلك ، فقد كانت القوافل تروح وتغدو وفى أموالها من لا يحضر سفرها ورحلتها
 من أرباب التجارة ، ولا مانع أيضا أن يمدح ابن جدعان وينال وفده وهو غنى ، ان لا
 يشترط فى الشاعر أن يكون فقيرا ، ولا يتنافى مع ذلك اشتغاله بأمر النبوة والآخرة ،
 خاصة وأن ما يطمع الوصول اليه يحتاج بداهة الى الكثير من الاموال حتى يكمل بها
 ما يعترض طريقه من عراقيل .

(١) ديوان أمية : ٣٧٣ .

(٢) الأغاني : ١٢٥ / ٤ .

(٣) تاريخ ابن عساكر : ١١٥ / ٣ ، البداية والنهاية : ٢٢١ / ٢ .

(٤) الدكتور السطلى ، جامع ديوان أمية ومحققه ص ٤٨ - ٥١ .

ديانتته :

أما إذا أردنا أن نعلم الدين الذي كان عليه أمية ، والمعتقد الذي سيطر عليه في حياته ، فإننا بحاجة الى سعة من القول حتى يظهر لنا ذلك ، وخاصة أن الرجل خير من بقى له شعر - ينسب اليه - يفيدنا في دراسة هذا الامر والوقوف منه على يقين أو ما يقترب منه فيما نذهب اليه .

ولاريب أن هذا أمر دقيق ، وله دلالة في هذا البحث . ومن نعم الله علينا - وكم لله علينا من فضل - أننا سبقنا بدراسات جادة حول هذا الموضوع ، وقد أثارنا لغيرنا السبيل وأقننا منها الكثير دون نكران (١) .

وقد سبق أن علمنا أن أمية "نسب بحق أو دون حق - الى الحنيفية ، وترتبسط بهذا الامر قضية أصالة شعره ، الذي يمكن أن يفسر في اطار انتمائه الى الحنيفية ، وهو موضوع طرح كثيرا أثبتته البعض ونفاه البعض الآخر . . (٢) .

ويبدو لي أنه من الممكن أن ينحصر الحديث في هذا الموضوع في ثلاثة أمور :

وهي الأديان التي اختلفت الآراء حول دين أمية من بينها ، وهي النصرانية واليهودية والحنيفية .

أما النصرانية فقد نسب اليها "ولهوزن" * وأدخله في شعرائها الأب لوييس شيخو في كتابه المعروف بشعراء النصرانية ، وكان من طريقته في ذلك الكتاب ان يذكر الشاعر ثم يجمع ما يريده عنه من المصادر التي يذكرها في آخر أخبار الشاعر وشعره .

وعادته أن يذكر بعض المراجع ولا يستقصى كل ما كتب عنه وربما قال (٣) - كما في ترجمة

(١) انظر بعض هذه الدراسات في تاريخ التراث العربي - المجلد الثاني ، الجزء

الثاني : ٣٣١ ، ٣٣٢ وكل هذه الدراسات بلغات أجنبية لم اتمكن من الحصول عليها أو ترجمتها ، وإنما أعني الدراسات العربية كالذي كتبه الدكتور السطلي في ديوان أمية ص ٥١ - ٧٠ .

(٢) تاريخ التراث العربي د . فؤاد سزكين ، ترجمة : د . محمود فهمي حجازي . ط

(٣) ١٤٠٣) جامعة الامام محمد بن سعود . الرياض ، المجلد الثاني - الجزء الثاني : ٣٢٩ وأشار فيه لبعضهم .

* ديوان أمية : ٦٥ .

(٣) شعراء النصرانية : ٢٣٧ .

أمية - " رويانا ترجمة أمية عن نيف وعشرين كتابا من كتب الائمة منها مخطوطة ومنها مطبوعة نخص منها بالذكر مجاميع شعرية من الشعر القديم . . " ثم يذكر بعض تلك الكتب .

ولعل هذه الطريقة هي التي جعلته يلف الموضوع لفا يصعب معه معرفة مصدر كل فقرة في أى موضع ، وزاد الطين بلة تلك المجاميع الشعرية من الشعر القديم التي لا يعلمها القارئ حتى يرجع اليها وقت الحاجة وعند الخلاف ، ومدى الثقة بها .

وعلى الرغم من أن هذه ناحية غير قوية في هذا الكتاب ولا نستهدف منها الا بيان المنهج الذى أخذ به نفسه أصبح من المتعارف عليه عند بعض الباحثين أن يطلق على هذا الكتاب : شعراء الجاهلية* بدلا من شعراء النصرانية فى الجاهلية ، وهذا بلا تعصب أحق بالكتاب من ذاك ، والسبب واضح فى أن مؤلفه لم يزد أن حشر فيه جل شعراء الجاهلية دون أن يورد أدلة كافية على تنصير هؤلاء الشعراء .

وأظن أنه أصبح الان متعارفا بين أوساط المثقفين فضلا عن كبارهم أن هذا الزعم الذى زعمه شيخو لا يصح ، ولا يستقيم له الدليل ، ولا مجال لي هنا أن أزيد شيئا غير ما سبقت به مما يكفينا باقتناع فى هذا . (١)

وقد ساق شيخو أمية فى شعراء النصرانية (٢) .

وقد سبق لنا العلم أنه زعم أن الحنيفية التي عرفتها الجاهلية شيعة نصرانية (٣) ، وأما أمية فقد قال مدلا على اعتناقه النصرانية : " ومنهم " يعنى شعراء النصرانية " أمية بن أبى الصلت ، الذى ترى ديوانه مشحونا بتعاليم النصارى ، مع منقولات متعددة عن الاسفار المقدسة ، كسفر الخليفة ، وخلقة آدم وسقوط الابوين الأولين باغراء

* منهم المرحوم الشيخ أحمد محمد شاکر ، والاستاذ : عبد السلام هارون فى كثير من كتاباتهما .

(١) انظر التمهيد " ج " من هذا البحث .

(٢) شعراء النصرانية : ٢١٩ - ٢٣٢ .

(٣) انظر فى الفصل السابق ذلك .

الحية) والطوفان ، وذكر الأنبياء والرسل والسيد المسيح ومريم العذراء^(١) .
 وحسبى فى الرد على هذا الزعم أن أورد ما ذكر الدكتور السطلي مفندا ذلك
 باختصار ، فقد كان فى رده ما يكفى لبطلان تنصرا أمية عند من وقف عليه .
 ان وجود القصص الدينى عند أمية وذكره الأنبياء والرسل ، لا يكفى للبرهنة
 على نصرانيته ، وقد سلمنا من قبل برحلاته الكثيرة وأنها كانت طلبا للدين ومجالسة
 لأهل الكتاب ، كما لانكر أيضا تأثره بأديان الجزيرة وما يحيط بها من يهودية
 ونصرانية ، فلهذا فوجود تلك الامور فى شعره هو صدق لتأثره بالنصرانية . وتأثر
 الرجل بهذه العقيدة شئ واعتناقه لها شئ آخر ، شأنه فى ذلك مانراه من تأثر
 الاعشى باساقفة نجران وتجار الحيرة الذين كان له معهم صداقة حميمة ، وكذلك
 النابغة الذبياني ، وكلاهما تأثرا بالنصرانية ولم يكونا نصارى كما ذهب الى هذا
 نيكلسون فى تاريخ الادب العربى .

ومع هذا فلو كان أمية نصرانية لرأينا أثر ذلك فى أخباره وأشعاره التى لا تتفق مع
 العقيدة النصرانية .

وهناك أمر آخر وهو الاجماع على أن أمية حرم الخمر ، وهذا أمر لانراه عند رجل
 على دين المسيح ، ومع ذلك فتوجد أخبار تدل على شربه الخمر مع ابن جدعان^(٢) ، وهذه
 الاخبار مضطربة .

وهناك رواية أخرى لا تذكر أمية فى سبب تحريم ابن جدعان^(٣) للخمر
 فهذه الرواية الأخيرة واجماع الرواة على تحريمه للخمر ثم ما وجد من شعر ينسب له
 فى تحريم الخمر كقوله * :

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية (مجلة المشرق) . مجلد ١٥ / ٤٦٠
 (٢) نهاية الأرب ٤ / ١١١ ، النويرى ط . وزارة الثقافة والارشاد - مصر ، الاشتقاق
 ١٤٣ ، ١٤٤٠ .
 (٣) انظر ديوان أمية : ٥٧ - ٥٨ .
 * ديوان أمية : ٣٦٧ .

فاغفر لعبد ان أول نُبِيهِ . . شرب وايسارُ يشارُكها د (١)

كل هذا ينقض الروايتين التي تزعم أن أمية شرب الخمر ولا نستبعد وضع الرواة لها. ولو كان أمية نصرانيا لا شار الرواة الى ذلك كما أشاروا الى نصرانية عدى بن زيد (٢) أو غيره ، وابن هشام وابن سلام وابن قتيبة والأصفهاني وغيرهم ، كانوا أقرب منا الى عصره ، وأعلم منا بما يتناقله الناس حوله ، ومع ذلك لم يشر أحد منهم الى تنصره أو تهوده ، واجماع مثل هؤلاء يصل بنا الى درجة الثقة في مثل هذا .

وقد استدل شيخو على نصرانيته أيضا بذكره المسيح ومريم العذراء في شعره كما يرى ، والبيت الذي ذكر فيه مريم قوله ان صحت نسبه له :

وفي دِينِكُم من ربِّ مريم آيةٌ . . منبئةٌ والعبدُ عيسى بن مريم

وأما ذكر عيسى - عليه السلام - فقد جاء في أبيات يتحدث فيها عن يوم الحساب وما فيه قائلا :

والناسُ راثٌ عليهم أمرُ ساعتهم . . فكلُّهم قائلٌ للدينِ إيانا

أيامٌ يلقي نصاراهم سيحهم . . والكائنين له وداً وقرباننا

هم ساعدوه كما قالوا اللهم . . وأرسلوه يسوق الغيث دسفاننا (٣)

أما البيت الاول فلو صح لأمية لما كان فيه شاهد على نصرانيته لأنه لا يقول : " وفي ديننا من رب مريم آية ، وانما يقول : " وفي دينكم " فكان الامر لا يعنيه هو بالذات بل يشير اليه لوجود ذلك في عقيدة طائفة من الناس ، وقد قوى هذا الرأي المستششق رقب كليمان هوار، ونص على أنه لا يتصور أن ناسخا مسلما وجد الدليل على نصرانية هذا

(١) الدد : اللهو واللعب ، واوه محذوفه كما في الفد .

(٢) الاغانى : ٩٧/٢ .

(٣) ديوان أمية : ٥١٩ ، ساف الشئ يسوفه : شمه ، والمسافة بعد المفازة والطريق ، وأصله من الشم ، وهو أن الدليل كان اذا ضل في فلاة أخذ ترابا فشمه فعلم أنه على هديه ، والغيث : المطر ، والمعنى مواقع المطر ، الدسفان الطالب للشئ والباحث عنه .

الشاعر ثم عمد الى تغيير النص لأنه لا يجني من ذلك شيئا .
 وأما الأبيات الأخرى فهي من قصيدة^(١) لا تخلو من دواعي الشك فيها ، ولو صححت
 لامية فانه يتحدث فيها عن الحنيفية بوجه خاص ، ونرى من خلالها إنسانا يسعى الى
 الدين ، ويسأل عن نبي يخبره عما وراء الحجب ، ورجل يتحدث بهذه الامور فلا يعلم
 ما وراء الحجب ويتساءل عن نبي ينقذه من هذه الحيرة ويعلمه ما جهله قبله زهير بن
 ابي سلمى ، لا يمكن أن يكون نصرانيا ، أو يهوديا ، لان اليهودى والنصراني لا يتشكك
 ولا يسأل عن ذلك ، ولكن هذا شأن الحنفاء والذين كان أمية أحدهم وهذا جانب من
 حالتهم الفكرية .

وفي القصيدة يستعيد برب الحبيج الذين جاءوا اليه لا يبتغون بثوابه اى ثمن
 والحج والبيت وسائر الشعائر لا نبحث عنها فى الاسفار المقدسة ، وانما نبحث عنها فى
 بقايا دين الحنيفية بين العرب قبل الاسلام ، وكل هذا من أسس الحنيفية الاصلية .

ثم تأتى الأبيات التى استشهد بها " شيخو " فلا نجد فيها الدليل ، ذلك أنه
 قال : " أيام يلقي نصاراهم سيحهم " ولو كان نصرانيا حقا لقال : " أيام تلقى سيحننا
 أو الهنا . . . " أو غير ذلك لكن الامر كما يبدو ولا يعنى أمية مطلقا ، وهذا قريب مما مر فى
 البيت السابق^(٢) . والحق أن المتأمل فى شعر عدى بن زيد كقوله^(٣) :

وأوتيا الملك والانجيل نقرؤه . . . نشفي بحكمته أحلامنا عللا
 من غير ما حاجة إلا ليجعلنا . . . فوق البرية أربابا كما فعلا

وهى من قصيدة له فى نزول آدم من الجنة لتدلنا على الفارق بين عدى الذى اعتنق
 النصرانية وظهر ذلك فى شعره وان كان أثرها فيه رغم ذلك ضعيفا كما ذهب اليه
 الدارسون^(٤) - ليرينا الفرق بين تأثر عدى وتأثر أمية الذى تجمع هذه الأدلة على
 نفي النصرانية عنه .

(١) القصيدة فى الديوان : ٥١٩ .

(٢) ديوان أمية باختصار : ٥٦ - ٦٥ .

(٣) الحيوان : ١٩٨/٤ ، ١٩٩ .

(٤) عدى بن زيد العبادى : ٦٠ ، ٦١ .

أما اعتناقه لليهودية بعد أن انتفت عنه النصرانية فهو رأى أضعف من الاول - فيما نرى - ومع ذلك فلا مناص من النظر في هذا الرأى فلكل رأيه واجتهاده ، وان كان يلوح من آراء شيخو في التنصير وصاحب يهودية أمية المكر والتضليل على ابنا المسلمين كما اتضح ذلك في كثير مما أصدره من كتب ومقالات في ما طكاه من مجلات .

وجورجى زيدان هو الذى اعتبر أمية يهوديا لانصرانيا بعد أن فند رأى شيخو بالنقد مبينا أن أمية " ما انفك يختلف الى الديور ^(١) والكنايس ، يجالس الرهبان والقسوس ، حتى غلب على ظن البعض ^(٢) أنه مسيحى ، ولا دليل على ذلك سوى اختلافه الى الكنائس ومجالسته القسيسين وذكره الله وبعض أنبيائه فى أشعاره ، ولكن ذلك كان من شأن العرب على اختلاف أديانهم حتى الوثنيين ، فلا يصح اتخاذه دليلا على نصرانيته ولو كان نصرانيا لذكر المسيح فى أشعاره ولو مرة ، كما ذكر " ابراهيم " و " سحاق " و " اسماعيل " والسما والجنة والبعث ، ولما خطر له أن يدعى النبوة ، ولا يتوقع مجئ النبى ، وليس فى تعاليم النصرانية ما يدعو الى ذلك ^(٣) ، فالاقرب والاظهر أن يكون يهوديا ، لأن اليهود كانوا وما يزالون يتوقعون مجئ مسيح أو نبى ، وقد أشار السعدوى الى نصرانيته فقال : ومنهم من زعم أنه مات نصرانيا ، ولم يدرك ظهور النبى ولم يدركه أبوه ، ومنهم من رأى أنه مات سلما ، والذى نراه أنه لم يكن هذا ولا ذاك ^(٤) .

ومع ما فى رده هذا فقد أردفه بأخر يقوى ما يذهب اليه قائلا : وله غير ذلك فى وصف الآخرة وغيرها وقد جاء فى أكثرها على أوصاف تطابق التوراة والزبور ، وبعضها منقول حرفا حرفا ، ولكننا لم نجد بينها شيئا ينطبق على تعاليم الانجيل ، وذلك

(١) قال الدكتور السطلى : كذا " أى وردت عن زيدان " وجمع الديراد يار . ص ٦٥ .

(٢) قال الدكتور السطلى أيضا : كذا بالألف واللام والصواب أن تجرد منهما .

(٣) ذكر هذا وهو باطل بنص القرآن ان كان عيسى قد بشر بأحمد كما أمره الله ،

قال تعالى : " وان قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل إني رسول الله اليكم بمصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد . . . " الصف :

(٤) مجلة الهلال الجزء ١٦ من السنة التاسعة (١٩٠١ م) ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

يضعف قول القائلين بنصرانيته ، الا اذا جاءونا بأدلة تزيل هذا الاشكال ، غير ما قد يتبادر الى الذهن من ضياع أشعاره التي أورد فيها ذكر السيد المسيح أو حواريينه ، فان العبرة في مؤدى النظم في اجماله ، لأن لتعاليم الانجيل نسقا يدل على نصرانية ناظمها ولو لم يذكر السيد المسيح في نظمه ، كما يدل وصف الجنة مثل ما وصفته التوراة على أن الواصف كان يهوديا أو يعتقد اعتقاد اليهود . (١)

ونحن لا نتفق مع هذا الرأي الذي نعدّه غريبا مع استناد صاحبه الى قول المسعودى ، الذى يقوى ما ذهبنا اليه من نفي النصرانية عنه بقوله : "زعموا . . ." ، ولا نكاد نبعد في الرد عليه بما سلف أن ردّ به على من زعم نصرانية أمية ، ان لا وجود لهذا الرأي عند العلماء السابقين الذين لم يكن يعنهم ديانة أولئك الشعراء الجاهليين في قليل ولا كثير ، كما يهتم بذلك شيخو على سبيل المثال ، وقد اتفقت المصادر على أنه أخذ من أهل الكتاب ، وشامهم ، وقرأ الكثير من الكتب ، ومع ذلك فلم نعلم من أشار الى اعتناقه اليهودية ، وانما لانكر أنه علم من علم أهل الكتاب شيئا ، وما علمه منهم أن نبيا سبيعت ، وهذا العلم لا يقوم دليلا على أن صاحبه يهودى الديانة ، والتأثر بالعلم شئ ، والدين شئ آخر .

وقد فنّد رأيه أيضا الدكتور السطلي بأمرين على ما ذكر :

"الاول : أن معظم تلك القوائد التى يظن أنه أخذها من التوراة ولا سيما وصف الجنة ، هي من الشعر غير الموثق فى نسبته إلى أمية ، لأنه فى واقعه لا يتشابه مع التوراة الا فى المعنى العام ، فى حين يتشابه مع القرآن فى المعنى واللفظ والصيغة ، واحيانا يستمد من القرآن عبارات وأشطارا يكاملها ، مما يشير الى وضعه فى عصر متأخر عن عصر أمية . . ."

الثانى : الذى يمكن أن نرد به على حجة زيدان ، هو أن مانجدة من آثار التوراة فى شعر أمية الدينى الموثق ، لا يمكن أن يتخذ دليلا على يهوديته ، لأنه اثر من آثار ثقافته الدينية وصدى لما كان بين أعراب الجزيرة من عقائد واخبار متناقلة

عن الامم البائدة ، والثقافة والتأثر شيء ، والايمان بالعتقيدة شيء آخر ، وليس المدار في تحديد عقيدة الرجل الا على ايمانه الكامل بالتعاليم الاساسية لعقيدة من العقائد ، فان وجد في شعره ايمان بالعقائد الاساسية للنصارى فهو نصراني وزيدان نفسه لا يرى شيئا من ذلك ، وان وجد في شعره ايمان بالعقائد الاساسية لليهود فهو يهودى ، ولو وجد زيدان شيئا من ذلك ، لسبق إلى ذكره ، ودعم رأيه بالأدلة والبراهين (١) .

لقد أتضح لنا الآن أن أمية لا يصح الاعتقاد بديانته لنصرانية أو يهودية ، ولم يبق لنا الا الرأى الاخير وهو القول بحنيفيته . ومع أن نغى اليهودية والنصرانية عنه يكفي بدهاة للقول بتحنفه ، فاننا لا نكتفى بذلك بل لابد لنا من الوقوف على ما يشهد أسر ذلك كى يقوم على بصيرة وبرهان .

ونحن اذا أمعنا النظر أولا في سيرة أمية التى تدل عليها المصادر ، فقد علمنا أنه قرأ الكتب فى الجاهلية ، ولبس المسوح وتعبد بذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرم الخمر ، وشك فى الاوثان وتجنبها ، وطمع فى النبوة عندما علم ببعثه نبي فى العرب ، فلما بعث النبي حسده ولم يسلم . (٢)

وهذه الامور تتفق مع ذلك الاتجاه العام الذى كان عليه الحنفاء ، كما نعلم - فيما مر بنا - وأهم ما يعيننا من هذه الأخبار ، أنه تعبد بذكر ابراهيم واسماعيل والتمس الحنيفية فهذه من أخص ما كان عليه الحنفاء ولا سيما المخلصون منهم ، والذين لم يتعبدوا أو يدينوا بغيرها من يهودية أو نصرانية ، مع علمنا بدخول بعضهم فيها فقد كانوا يبحثون عن دين ابراهيم - ابيهم - الذى ابتعدوا عنه ونسوه ولم يبق لهم منه الا القليل .

ثم تحريمه الخمر كما مر بنا وهذا يتفق مع الحنفاء الذين اجتنبوا هذا العمل القبيح ، ورأوا فيه من الفساد والضرر ما يدفع العاقل أن

(١) ديوان أمية : ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) الاصابة : ٢٥٠ / ١ ، الاغانى : ١٢٢ / ٤ .

يربأ بنفسه من الولوغ فيه .

ثم تجنب الأصنام ، وعدم الاحتفال بعبادتها ، وقد مر بنا مرارا خبر أولئك الأربعة الذين ذكروهم ابن هشام وقد شكوا في دينهم وقالوا : قد علمتم ان قومكم ليسوا على شيء كئيبه عن بطلان دين قومهم وضلالتهم عن دين ابراهيم (١) ، وقد كان الحنفاء لا يعبدون الأصنام بل ولا يابهنون بها ، وما ذاك الا لاقتناعهم ببطلانها . ومع أنهم لم يعبدوا الاوثان فقد علمنا حيرتهم ، وكيف كانوا يجهلون عبادة الله ويتمنون أن يدروا أية وجهه يرضاها الله فيتجهوا اليها .

ثم علمنا أن الحنفاء قد ساحوا في الارض يلتمسون الدين ويبحثون عنه ، كما علم عن أولئك النفر الاربعة الذين اتفقوا على ذلك ، وقد كان أمية مثلهم فيها هو كما تدل أخباره أنه كان جوالا في الارض وكان أكثر رحلاته يلتمس أهل الكتاب ويقرأ كتبهم ويتعلم منهم وأخباره في ذلك مستفيضة . (٢)

وحسبنا من الدليل على تحنفه من أخباره وسيرته ما أشرنا اليه ، فكل هذه الامور تتفق مع ما علمناه عن طائفة الحنفاء وما كانوا عليه وبذا قام لنا الدليل على تحنفه من أخباره .

أما شعره فهو الآخر يزيدنا يقينا الى سلامة مآذبه اليه ، وأول ما يبادرنا فسى شعره أنه يذكر الحنيفية ، وليس ذكرا كذكرة للمسيح أو غيره مما في دين النصارى ، وانما على أنها الدين الحق الذي لا يعترف بما عداه ، ولا شك أنه بذ لك يمدح دينه ويرى بطلان ما سواه ، ويقول : (٣)

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورٌ

ونرى توحيده لله وعدم اشراك أحد معه كقوله : (٤)

إِذَا قِيلَ مِنْ رَبِّ هَذِي السَّمَا . . . فَلَيْسَ سِوَاهُ لَهُ مُضْطَرِبٌ

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ .

(٢) انظر البداية والنهاية : ٢٢١/٢ ، ٢٢٢ ، طبقات فحول الشعراء : ٢٦٣/١ .

(٣) ديوان أمية : ٣٩٣ .

(٤) السابق : ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

ولو قيل ربّ سوى ربّنا . . . لقال العبادُ جميعاً كذِبٌ

وأوضح دليل هن شعره على توحيد الله ونفي العبادة عما سواه قوله : (١)

رضيتُ بك اللهم رباً فلن أرى . . . أدینُ إلهاً غيرك الله ثانياً

فمثل هذا القول لا يشك في توحيد قائله ان هو صريح كل الصراحة على أفراد الله بالعبادة دون أى شريك آخر .

ونحن لا نبعد أنه كان موحداً للكثرة ذلك في شعره ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه

وسلم " آمن شعره وكفر قلبه " ، وقد صح أيضاً أن الرسول قال فيه " كان أمية أن يسلم " (٢)

وهذه بلا شك كما تدل على توحيد قائله فانها تقوى صحة شعره الايماني .

وفي ضوء هذا المعنى يتضح لنا تحنف أمية ، ان الاصل في الحنيفية التوحيد

ونفي الشرك ، ولذا فتوحيد أمية يخالف دين اليهود والنصارى الذين دل القرآن

على فساد دينهم بقوله تعالى " وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح

ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يظاهرون قول الذين كفروا من قبل . . . " (٣) ، ثم أكد

القرآن هذا الشرك بالآية التي تلى هذه فقال تعالى " اتخذوا أبحارهم ورهبانهم

أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا لها واحداً لا اله الا هو

سبحانه عما يشركون " (٤) .

وعلاوة على ذلك فقد استدل بعض المفسرين (٥) على أن في اليهودية والنصرانية

شرك عند تفسيره لقوله تعالى " وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم

حنيفاً وما كان من المشركين " (٦) .

ان ا لاسبيل مع هذه الآيات البيئات الا القول بتحنف أمية .

(١) السابق : ٥٣٩ .

(٢) انظر الاصابة : ٢٤٩ / ١ ، ٢٥١ .

(٣) التوبة : ٣١ .

(٤) التوبة : ٣٢ .

(٥) التفسير الكبير : ٨٠ / ٤ .

(٦) البقرة : ١٣٥ .

وينبغي أن ننبه أيضا على مانجده من ذكر أمية لحجاج بيت الله واخلاصهم له وأداء المناسك* وكل هذا لانجد له عند اليهود والنصارى أى ذكر. ولا حاجة بنا الى استعراض نظرة أمية الى الملائكة والبعث والحساب وما اليها ، لانها مسلمت فى شعره ، وهى لا تختلف عنده عما فى اليهودية أو النصرانية أو الاسلام فيما بعد ، لأنها فى جوهرها واحدة فى جميع هذه الأديان جميعا". (١)

وبعد كل هذا فمن حقنا أن نقول : إن أمية بن أبى الصلت هو أحد أولئك الحنفاء الذين عرفوا فى آخر العصر الجاهلى ، وكانوا يعتقدون بطلان عبادة الاوثان فلم يعبدوها ، واتجهوا مخلصين فى البحث عن دين ابراهيم السليم ، وقد رفض جلهم الدخول فى يهودية أو نصرانية وهؤلاء هم الحنفاء ، أو الموحدون كما قد يطلق عليهم فى بعض الاحيان .

ومع ما انتهينا اليه من أن أمية كان حنيفيا كأحد من عرفوا بذلك لا يفوتنا أن ننبه الى أن أمية مات كافرا كما سنرى ذلك ، وهذا قد يقدر فى سلف من تحنفه ، وكان طبيعة الامر لو كان أمية صادقا فى ذلك أن يكون أول الداخلين فى الاسلام ، عند ما بعث الله رسوله الامين - عليه الصلاة والسلام - ، ولكن المصادر التى بين أيدينا تبين لنا السبب فى ذلك ، ويرى أكثر العلماء أن أمية قرأ فى الكتب أن نبيا من العرب يبعث ، فرجا أن يكون هو ، فلما بعث الله نبيه القرشي صلى الله عليه وسلم حسده فلم يسلم (٢)

وقد يبدو من بعض الروايات أنه أراد أن يسلم فلما علم بما جرى لكفار قريش من قتل فى معركة بدر وكان فى القتلى بعض أقاربه وأخواله حزن عليهم ، ولعل ذلك ما دفعه الى التراجع عن الاسلام والحنق على نبيه. (٣)

* ديوان أمية : ٥١٨ .

(١) ديوان أمية : ٧٠ .

(٢) الشعر والشعراء : ٤٥٩/١ ، الاغانى : ١٢٢/٤ ، الاصابة : ٢٥٠/١ .

(٣) تهذيب ابن عساكر : ١٢٢/٣ .

وتدل المصادر على أنه قال في ذلك يرثي قتلى بدر ويحرض قريش قصيدته : (١)

ماذا ببدرٍ فالعقنقلِ من مرزبةٍ ججاجِ
هلا بكيت على الكرام م بنى الكرام أولى المهاج

وقد أشار بعض الرواة إلى أن أمية نال من النبي في هذه القصيدة ، ولذا نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - عن روايتها . (٢)

وذهب أحد الباحثين المحدثين إلى القول بأن الذي منعه الدخول في الاسلام " موقف قومه ثقيف من الاسلام ألقى عليه العداوة للاسلام والمسلمين " . (٣)

ومع كل هذه الآراء ، فعندى أنها ساعدت جميعا على ابتعاده عن الاسلام ، وأغلب الظن أن طمعه في النبوة أساس كل ذلك ، خاصة وأن المصادر تشير إلى تورطه في التصريح بذلك لعدد من الناس ، ولهذا قيل إنه قال - بعد ما أفلت الأمر منه - وقد سئل عن امتناعه عن اتباع محمد الذي كان ينعته ويخبر عنه ، قال : " ما يمنعني الا الاستحياء من نساء ثقيف أنى كنت أحدثهن انى هو ثم يرينى تابعا لفلان ممن بنى عبد مناف " . (٤)

فهذه الامور كما رأينا كانت من وراء كفر أمية بعد أن كاد يسلم ، وهي تدل أيضا على جانب آخر وهو أن اعتقاده وتحنفه وإيمانه بالحنيفية ثابت في قلبه ، وانما داخله الشك والبعد عن الاسلام من قبل الحسد لمحمد والشك فيه ، خاصة وأنه ربما اوصى غيره باتباع محمد رغم تخلفه هو عن الايمان به والدخول في دينه . (٥)

(١) ديوان أمية : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، طبقات فحول الشعراء : ٢٦٣ / ١ ، وقال شارح الطبقات : مرزبة : جمع مرزيان : معرب من الفارسية وهو عندهم رئيس القوم الفارس الشجاع المقدم عليهم دون الملك . ججاج : جمع ججاج : وهو السيد الكريم ، العقنقل : كتيب رمل ببدر موضع المعركة .

(٢) الاغانى : ١٢٣ / ٤ ، الخزانة : ٢٥١ / ١ .

(٣) عمر فروخ في تاريخ الادب العربي : ١ / ٢١٦ . ط (١٩٨١ م) دار العلم للملايين - بيروت .

(٤) البداية والنهاية : ٢ / ٢٢٤ .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

أمية وابن جدعان (١)

ولأمية أخبار مع ابن جدعان ، وجل هذه الاخبار أنها تجعله يسبق عليه نعمه ورفده ، علاوة على تقريبه له والرفع من مكانته لديه ، وذلك بعد أن تتفتق قريحه أمية الشاعر باطراء ومدوحه والجدود عليه بفرر مشعرة ودرر فكره ، حتى لكان من تلك الأشعار ما طارفي الآفاق ، ولا تزال النفوس منذ ذلك الحين وحتى اليوم تطرب لسماعه . قال : (٢)

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي . . . حَيَاؤُكَ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ . . . عَنِ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ وَلَا مَسَاءُ
وَأَرْضُكَ كُلُّ مَكْرَمَةٍ يَتَّبِعُهَا . . . بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهُمْ سَمَاءُ

وحسبنا أن نقف عند هذين البيتين اللذين يدلان بحق على كرم ابن جدعان دون ريب حتى إن سألته لا يعتريه ما يعترى المستجدي من غيره من ذلة وضعف وانكسار قال : (٣)

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لَا مَرِيءَ إِذْ حَبَوْتَهُ . . . بَخِيرٌ ، وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لَا مَرِيءَ بِذَلِّ وَجْهِهِ . . . إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

ونحن ان نجتزئ من هذه الأشعار في مدح ابن جدعان نرمى الى الإشارة الى طرف من أخبار أمية وأشعاره مع ابن جدعان وهي كثيرة ، ولا سبيل الى ايرادها ودراستها ان هي جانب لا يهمل من حياة أمية .

(١) ابن جدعان كما جاء في الاعلام ٤/٧٦ : عبدالله بن جدعان التيمي القرشي : أحد الاجواد المشهورين في الجاهلية ، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة ، وكانت له جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب فوقع فيها صبي ففرق او هو الذي خاطبه أمية بن أبي الصلت بأبيات اشتهر منها قوله :
أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي . . . حَيَاؤُكَ ؟ إِنْ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
وانظر تاريخ اليعقوبي : ١/٢١٥ ، وخزانة البغدادي : ٣/٥٣٧ ، والمحبر ١٣٧ ، وانظر فهرسه .

(٢) ديوان أمية : ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٣) ديوان أمية : ٤٩٩ .

ولندل أيضا على شاعرية أمية من طرف آخر ، وهذا ما اتفقت عليه المصادر ، فقد ورد عن ابن سلام في اثناء ذكره لشعراء الطائف قوله : ^(١) . . . كان فيهم أى أهل الطائف - أبو الصلت بن أبي ربيعة . وابنه أمية بن أبي الصلت ، وهو أشعرهم وقد قال أبو عبيدة : " اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت " ^(٢) .

وقال الكميت ^(٣) : " أمية أشعر الناس ، قال كما قلنا ولم نقل كما قال " ^(٤) .

وحسب أمية شهادة هؤلاء له ، فلا غرو أنه كان جيد الشعر حتى قيل " إنه من شعراء الطبقة الثانية ، وقيل من شعراء الطبقة الاولى " .

ولا ينقض اجماع هؤلاء الرواة قول عمر فروخ ^(٥) " وشعره كثير التكلف ضعيف البناء قليل الرونق قلق الالفاظ " فنحن سنعلم عند الحديث عن موضوع الانتحال أن شعر أمية وضع عليه الشيء الكثير ، ولا شك أن اجماع مثل اولئك يذهب عندنا بقول المحدثين لأن شعر أمية ضاع واحتجنا في عصرنا الحديث الى جمع كل ما قيل ، ولكن الاوائل كانوا على معرفه . بشعر أمية وديوانه الذى أصدروا حكمهم عليه .

ومع هذه المكانة المرموقة فقد نبه الرواة على أنه كان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب ، وبكثير من العجائب أخذها من الكتب المتقدمة . ^(٦) وقد مثل ^(٧)

(١) طبقات ابن سلام : ٢٥٩ / ١ .

(٢) الاغانى : ١٢٢ / ٤ .

(٣) هو الكميت بن زيد بن حنيس الاسدى ، شاعر الهاشميين في العصر الاموى ، وكان شديد الميل والتعصب لآل البيت وفيهم قال غرر قصائده . وقد كان خطيبا وفارسا وعلى علم بالانساب والاخبار .

وانظر الاغانى : ١ / ١٢ ، جمهرة أشعار العرب : ٩٨٣ . أبو زيد محمد بن الخطاب القرشى تحقيق على محمد الجاوى ط دار نهضة مصر القاهرة الاغانى : ١٢٢ / ٤ .

(٥) تاريخ الأدب : ٢١٢ / ١ .

(٦) شعراء النصرانية : ٢١٩ .

(٧) طبقات ابن سلام ٢٦٢ / ١ ، الشعر والشعراء ٤٥٩ / ١ ، الاغانى ١٢١ / ٤ .

الرواية على ذلك^(١) أنه كان يسمى السماء في شعره صاقوره^(٢) وحاقورة^(٣) وبرقع^(٤).
ومن هذا أيضا ما قاله ابن قتيبة^(٥) أنه يقول في الله عز وجل: (هُوَ السَّادُّ السَّادُّ) فوق الأرض معتد^(٦) إلى غير ذلك مما يشبه هذا ، وقد كانت هذه الأشياء الغريبة والأمر العجيبة التي أخذها أمية من مخالطة أهل الكتاب تجعل علماء اللغة الذين جمعوا اللغة لا يرون في شعره حجة على عربية اللغة لهذه العلة ، فهم لا يستشهدون بشعره ، وربما عدوها منه منكراً^(٧).

ولأنجب أن نقف بالحديث عن شاعريته إلى هنا دون أن نشير إلى أهم أغراضه التي دل عليها شعره ، فنحن لن نستشهد عليها هنا ، وسيرد منها طرف عند الحديث عن أدب الحنيفة حينما نمثل على وجود ذلك الأدب ولا شك أن أهم أغراضه كان الحديث عن خلق السماوات والأرض ، والملائكة واليوم الآخر ما دفع الأصمعي أن يقول عبارته المشهورة^(٨) " ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة . . . " ، وما يدخل تحت هذا إنما هو تمثيل لنزعتة الحنيفية ، ويلسى

(١) الشعر والشعراء ١/٤٦٠ ، الاغانى ٤/١٢١ .

(٢) قال محقق الشعر والشعراء : الصاقورة في اللسان : باطن القحف المشرف على الدماغ . . والفاقورة اسم السماء الثالثة والكلمة عربية لا شك فيها .

(٣) قال المحقق : الحاقورة في القاموس : السماء الرابعة .

(٤) قال المحقق : في اللسان : برقع بالكسر ، وقال أبوعلی الفارسي : هي السماء السابعة . لا ينصرف ثم نقل بعد ذلك (برقع) بفتح القاف ، اسم من أسماء السماء جاء على فعلل ، وهو غريب نادر ، يعني كسر أوله وفتح ثالته .

(٥) الشعر والشعراء ١/٤٦٠ .

(٦) قال المحقق : البيت كله في اللسان ٩/١٩٤ ولكن روايته " السليط يفتح السين وكسر اللام ويعد ها يا " ثم فتح الطاء الاولى ، وقال " قال ابن جنى : هو القاهر من السلاطة قال : ويروى السليط يعني بكسر السين وكلاهما شان ، التهذيب : سليط جاء في شعر أمية بمعنى السليط ، قال ولا أدري ما حقيقته " .

(٧) الشعر والشعراء ١/٤٦١ ، الاغانى ٤/١٢١ .

(٨) الاغانى ٤/١٢٥ .

ذلك مدائحه الشهيرة والتي خص بها كما علمنا عبد الله بن جدعان ، وقد حوت ما رأيناه له من أشعار علاوة على طرف من الهجاء ، وجانب من الرثاء كالذى رثى به قتلى بدر ، وابن جدعان ، ومع ذلك فله قسط من شعر الحكمة والزهد فى الدنيا لا نظنه يخرج عما كان عليه من تحنف ، وكان مما أتى به من أغراض تعد غريبة فى زمانه

الحكايات على لسان الحيوان .

وفاته :

بيد وأن هناك روايات مختلفة حول تحديد سنة وفاة أمية ، فقد قيل كانت وفاته فى السنة الثانية من الهجرة ^(١) وقيل فى السنة الثامنة للهجرة ، ^(٢) وقال ابن حجر ^(٣) ونقله صاحب الخزنة ^(٤) والمعروف أنه مات فى السنة التاسعة ، ولم يختلف أصحاب الاخبار أنه مات كافرا ، وصح أنه عاش حتى رثى أهل بدر ، وقيل انه مات سنة تسع من الهجرة بالطائف كافرا قبل أن يُسلم الثقيون . . .

ومع هذا العرف الذى يذهب اليه ابن حجر - رحمه الله - فانى لا اعتقد ذلك كما يذهب اليه جامع ديوان أمية ^(٤) ، ان مثل أمية فى مكانته وشهرته ثم حسده للرسول لا يعقل أن يبقى بعد بدر سبع سنوات دون أن نرى له موقفا أو نسمع عنه خبرا يسند عليه ، فنحن لا نعرفه ممن تفرهم الأحداث ويتوقعون على أنفسهم ، ولا بن حجر رأيه وانما أميل الى الرأى الآخر الذى يقول بوفاته فى السنة الثانية من الهجرة .

وقد عجبت مما ذكر عند أكثر الرواة من قصص فى وفاة أمية ، وحسبنا أن نذكر رواية ابن سلام ونحن نعلم ما كان فيه من تشدد وحرص فى رواية ونقد ما يذكره من أخبار وأشعار ، قال ^(٥) رواية عن أخت أمية بن أبى الصلت قالت : انى لفى بيت فيه أمية نائم ،

(١) ذكره فى الاعلام ٢٣/٤ عن كتاب الخميس ١/٤١٢ .

(٢) الخزنة ١/٢٥٧ .

(٣) الاصابة ١/٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٤) ديوان أمية: ٨١ وما بعد ها .

(٥) طبقات ابن سلام ١/٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ان أقبل طائران أبيضان فسقطا على السقف ، ففرج السقف فسقط أحدهما عليه ، فسقّ بطنه وثبت الآخر مكانه . فقال الأعلى للأسفل : أوعى ؟ قال : وعى . قال : أقبل ؟ قال : أبى - ويقال / قال / : زكا . قال : لحسا - فرد عليه قلبه وطار ، والتأم السقف قالت : فلما استيقظ قلت : له يا أخى ! أحسست شيئا . قال : لا كما وانى لأجد توصييا ، فما ذاك ؟ فأخبرته . قال : يا أخية أنا رجل أراد الله بى خيرا فلم أقبله قالت : فلما مرض مرضته التى مات فيها ، قالت : فانى عنده ، ان نظرت الى السماء وشق بصره ثم قال :

لبيكما لبيكما هانذا لديكما

لان ذوبراءة فاعتذر ، ولا ذو قوة فانتصر . ثم أغنى عليه ، ثم شق بصره ونظر ، وقال :

لبيكما لبيكما هانذا نالديكما

وقال : لا ذو عشيرة تحمىنى ، ولا ذو مال يفدىنى . ثم أغنى عليه ، فقلنا : قد أودى ! ثم شق بصره ونظر الى السماء فقال :

/ لبيكما لبيكما /

بالنعم محفود ، من الذنب مخضود ، ثم أغنى عليه ، ثم شق بصره وقال :

ان تغفر اللهم تغفر جماً وأى عبد لك لا ألتا

ثم أغنى عليه ، ثم أفاق فقال :

ليتنى كنت ، قبل ماقدد بدالى فى قلال الجبال أرى الوؤولاً

كل عيش ، وان تطاول دهرنا قصره مرة الى أن يـزولا

ثم خفت فمات . . .

وقد وردت هذه القصة ولم نلمح الاشارة الى الوضع فى مثل هذه القصة عند الرواة وليس ذلك بعيب على الرواة ، وربما ورد إليهم الخبر عن يثقون به ، كما أن من عادتهم فى بعض الأحيان أن يوردوا مثل هذه الروايات التى لاتصح مكتفين بأن العقل السليم لا يصدقها ، ومع ذلك فقد كان جميلا التنبيه على مثل هذا ، وأنا لا أشك أن هذه القصة ما وضع من قصص وأخبار ، شأنها شأن كثير مما نسج حول بعض الشخصيات ومنهم أمية .

ونحب قبل أن نختم الحديث عن أمية بن أبي الصلت أن نذكر بعض أمور فاتتنا
ذكرها حتى نقرب من الكثير من أخباره والتي أشرنا الي أننا لانملك الافاضة فيها أكثر
ما ذكرنا ليخلص لنا الحديث الى أدب هذه الحنيفية .

ومن هذه الأمور أن أمية كان يحسن القراءة والكتابة ، وربما كان على علم بشيء
من لغات أخرى كما يدل شعره على ذلك ، وقد ورد عنه مفتخرا بذلك في قومه : (١)

قومي إياي لو أنهم أمم .. ولو أقاموا فتَهزَل النَّعَمُ
قوم لهم ساحة العراق إذا .. ساروا جميعاً والقِطُّ والقَلَمُ

وحسبنا من ذلك كثرة الاخبار التي تدل على ما قرأ من الكتب ، واطلاعه على كتب أهل
الكتاب التي استقى منها الكثير من المعلومات والاخبار .

ولاشك أن أمية بذلك كان من أعلى طبقة مثقفي عصره ، وعلى علم بما يدور من
أحداث ، ولا ريب أن هذه الثقافة لم تكن لتيسر له لو لم يكن له من الصبر وعلم
الهمة ورجاحة العقل وبعد النظر نصيب موفور ، وقد تنبه العلماء الاوائل لذلك
فوصفوه كما قال الجاحظ : (٢)

كان أمية * داهية من دواهي ثقيف ، وثقيف من دهاة العرب ، وقد بلغ
من اقتداره في نفسه ، أنه قد هم بادعاء النبوة ، وهو يعلم كيف الخصال التي يكون
الرجل بها نبيا أو متنبيا اذا اجتمعت فيه * .

ولعل مما يحسن بنا الاشارة اليه ، ما وضع حول أمية من روايات وقصص خيالية
كالتي أشرنا اليها آنفا عند وفاته ، وربما كان مرد بعض هذه الامور خفة أمية في ميزان
الرواة ، فالرجل مات كافرا باتفاق ، وقد مدح المشركين ، وتكدر ببعثه الرسول
وحسده ، فلعل مثل هذه الامور دفعت الى مثل ذلك القصص . ومنه أيضا قصة (٤)

التقائه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، كما يدخل في هذا ماورد من علمه بلغة الحيوان ،
حتى كأنه سليمان الذي علمه الله منطق الطير .

(١) ديوان أمية ٤٦٥ ، ٤٦٦ . ذكر ابياد لانهم كانوا بالحجاز ثم انتقلوا الى العراق
أمم : قريب . القُط : الكتاب او الصحيفة .

(٢) الحيوان : ٣٢٠ / ٢

(٣) ديوان أمية :

(٤) القصة في تاريخ ابن عساكر : ١٢٧ / ٣ .

(٥) الهداية والنهاية : ٢٢٧ / ٢ ، ٢٢٨ ، الاغانى : ١٢٤ / ٤ ، ١٢٥ .

(٧) زهير بن أبي سلمى

ينتمي زهير الى قبيلة مزينة ، وأسم أبي سلمى ربيعة بن رياح ، وليس في العرب سلمى " بضم السين " غيره ^(١) . وتدل المصادر أن والد زهير ، قد غادر قبيلته " مزينة " في الحجاز ونزل في قبيلة " غطفان " بنجد وتوفي أبوه فتزوجت أمة من الشاعر أوس ابن حجر التميمي وكان زهير يروى شعره واستفاد من شاعريته ، كما كان على صلة بشاعر آخر خاله بشامة بن الغدير . ^(٢)

وقد تهيأ له من ذلك شاعرية فذة عرف بها ، ويبدو أن زهيراً كان يتكسب بشعره ، إلا أنه خص به أهل الخير وأرباب الفضل والاصلاح ، وانقطع زهير الى آل سنان بن أبي حارثة خاصة وفيهم سبك أغلى حله وكساهم أثنى درره وقصائده بخاصة هرم بن سنان . ^(٣)

وشهرة زهير وأسرته التي غلب عليها الشعر حتى جعلوا زهيراً أباً لهم وسموها " مدرسة زهير " أمر ذائع معلوم ، والذي يعنينا هنا ما يتصل بزهير هو القول بنزعه الدينية في حياته حتى عد من بين متحنفى العرب الذين كانوا قبل البعثة .

وهذا الأمر لا يسلم به بعض الباحثين ، ومنهم من أفرد زهير بدراسة مستقلة ، ان يذهبون الى القول بعدم اعتناق زهير أى عقيدة غير العقيدة الوثنية . ^(٥)

(١) الاشتقاق : ٣٦ .

(٢) بشامة بن الغدير : شاعر جاهلى مجيد ، لم يصلنا من أشعاره الا بعض مقطعات وأبيات متفرقة ، وانظر : طبقات فحول الشعراء لابن سلام :

٧١٨ / ٢ .

(٣) انظر أخبار زهير وسيرته : الشعر والشعراء : ١٣٧ / ٨ ، الاغانى : ٢٨٨ / ١٠ .

(٤) انظر : مصادر الشعر الجاهلى : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٥) من هؤلاء " د . احسان النصى " فى كتابه " زهير بن أبى سلمى ، حياته وشعره " ٧٦ - ٧٩ . ط . دمشق " بدون تاريخ " ، د . سعد اسماعيل شلبى : زهير بن أبى سلمى شاعر الحق والعدل والجمال . ط دار غريب . القاهرة .

وهذا لا يدفعنا الى التنكر الى اجتهاد هؤلاء الباحثين أو تناسيه حتى يسلم لنا القول بتحريف زهير ، الا أننا نرى أيضا من الباحثين المحدثين من أفردوا زهيراً بدراسات خاصة خرجوا فيها الى القول بتحريف زهير وتألمه (١) .
والذى أهمل اليه هو الرأى الاخير ان له مايسنده عند علمائنا السابقين ويرون ذلك .
فابن قتيبة قال عنه : " وكان زهير يتألم ويضعف فى شعره ، ويدل شعره على ايمانه بالبعث وذلك قوله :

يؤخر فيودع فى كتاب فيدخر . . ليوم الحساب أو يعجل فينقم (٢)

ويروى " أبو عبيدة " بسنده عن " العوام بن زهير " أحد ابناء زهير هذا أن أباه " كان من مترهبة العرب ، وكان يقول : لولا أن تغفدون (٣) لسجدت للذى يحيى الأرض بعد موتها " (٤) .

ونجد " أبا العلاء المعرى " فى رحلته الى عالم الآخرة يجد زهيراً قد بنى له قصر منيف فى الجنة ، ويعجب كيف غفر له وقد مات فى الجاهلية ويسأله : " بم غفر لك وقد كنت فى زمان الفترة والناس همل ، لا يحسن منهم العمل ؟ فىقول : كانت نفسى من الباطل نفورا ، فصادفت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء ، فمن تعلق به من سكان الأرض سلم ، فعملت أنه أمر من أمر الله ، فأوصيت بنى وقلت لهم عند الموت : ان قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركت " محمداً " لكنت أول المؤمنين .
وقلت فى (الميمية) والجاهلية على السكنة (٥) والسفه ضارب بالجران :
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم . . ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

(١) من هؤلاء : " د . عبد الحميد سند الجندى " فى كتابه " زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية " : ٩٦ - ١٠٢ ، وأيضاً " د . فتحية محمود فرج العقدة : الفكرة والصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى . ط ١ (١٤٠٣)
دار العلوم - الرياض . ص : ٣٣ ، ٧٥ .

(٢) الشعر والشعراء : ١٣٩ / ١ .

(٣) تغفدون : تكذبون وتلومون وتضعفون الفعل أو القول .

(٤) جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام : أبى زيد محمد بن الخطاب القرشى : ٧٠ - تحقيق : على محمد البجاوى - ط ١ . دار نهضة مصر - القاهرة .

(٥) السكنة : أى الحالة التى كانوا عليها .

يوخر فيوضع في كتاب فيدخر . . ليوم الحساب أو يعجل فينقم^(١)
 فزهير عند أبي العلاء مؤمن وعامل ، لم يأت سفاهات الجاهلية ، وكان يتطلع
 الى الحق فلو أدركته الرسالة لآمن ، فهو يجعله على شاكلة الحنفاء .
 وما ورد من ذلك أنه " كان يمر بالعضاء^(٢) وقد أورقت بعد ييس فيقول :
 لولا أن تسبني العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد ييس سيحيى العظام وهى
 رميم^(٣) .

وعلى هذا نرى زهيرا عند هؤلاء من المتألهين الحنفاء ، وهم طائفة استرعت
 انتباه أسلافنا من النقاد ، ولذا قال ابن سلام^(٤) : " فكان من الشعراء من ينأله
 فى جاهليته ويتعفف فى شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهم فى الهجاء ..."
 ومع افادتنا من هذه الاشارات القيمة فأننا لا نقف عندها لنرى تحنف زهير
 من خلال شعره وأفكاره من عدمه ، ولا شك أن ذلك يعيننا كثيرا فى تتبع ما كان
 يسيطر على زهير فى حياته ، وما كان يراه فى بيئته وما حوله ، وكيف سلك بغيره كى
 يخرج لنا آراءه فى الحياة والأحياء .

ولا شك أن المتأمل فى شعر زهير يرى نزعة ايمانية وفكرا دينيا وفلسفة عقلية
 نيرة ، تنزع الى الحق وتنفر من الشر ، وتدعو الى الخير وتتنكر للخارجين عليه ،
 كما تأمر بالتدبر والحكمة وتلح فى وجود العدل والأمن والمعاونة ، كل ذلك فى
 جو مفعم بتقدير من ضربوا الامثلة فى اصلاح الاوضاع وحققن الدماء ، مع حكمة
 ناضجة وخيره بالأمر ورجاحة عقل أخرجه تجارب الحياة ومر الأمام .
 " ولعل هذا الفكر الدينى هو المحور الأساسى الذى دار حوله فكر الشاعر
 فى شتى المجالات ، فدائما تصادفنا أفكار قيمة ورائعة ، هى فى جملتها من أعظم

(١) رسالة الغفران : لأبى العلاء المعرى : ١٨٣ ، ١٨٤ . تحقيق : د . عائشة

عبد الرحمن " بنت الشاطىء " ط ٧ . دار المعارف بمصر .

(٢) كل شجر له شوك .

(٣) بلوغ الأرب : ٢ / ٢٧٧ .

(٤) طبقات فحول الشعراء : ٤١ / ١ .

ما ينتفع به في الاصلاح الفردى والجماعى ، فكثير من هذه الافكار يتصل بالبعث واليوم الاخر ، والحساب والعقاب ، كما أنه يقسم بالله في مناسبات متعددة ، ونشعر في حديثه بالرّهبة والتقدير ، وأحيانا نجده يذكر كثيرا من المعانى الدينية كاللتموى والحق والعدل والسماحة وصله ذوى القربى ، والحفاظ على حق الجار ، واغاشة المستجير ، والصبر على المكاره ، والأمانة والعفو عن السئ الى غير ذلك من المعانى الدينية " (١) .

وعلاوة على بيته السابق في الايمان بالبعث والجزاء نجده يقول : (٢)

تالله قد علمت قيس اذا قذفت .. ريح الشتاء بيوت الحى بالعنن (٣)

أن نعم معترك الحى الجياع اذا .. خب السفير ومأوى البائس البطن (٤)

ويدعو الله زهير بأن يهنئ مدد وجهه ما أعطاه من محاسن ، ويدعو اليها ، كما أنه لبيب يقبل النصيحة ولا يضيعها ، وهو أمين كريم قد ترفع عن الغدر والخيانة فيقول : (٥)

هناك ربك ما أعطاك من حسن .. وحيشا يك أمر صالح فكمن

ان توته النصح يوجد لا يُضَيِّعُه .. وبالأمانة لم يغدر ولم يخن

ومد وجهه لا يتلف ماله في اللهو والشراب ولكنه ينفقه لذوى الحاجات الذين

يجدون حاجاتهم عنده : (٦)

أخى ثقة لا تهلك الخمر ماله .. ولكنه قد يهلك المال نائله (٧)

(١) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبى سلمى : ٢٢٠، ٢١ .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى "صعدة الاعلم الشنتجرى" : ٢٨١ - تحقيق :

د . فخر الدين قباوة . ط ٣ (١٤٠٠) دار الآفاق الجديدة - بيروت .

(٣) العنن : جمع عنه ، وهى كخظيرة من شجر ، تزد الرياح عن البيوت . يريىد

اذا اشتدت ريح الشتاء فاشتد البرد حيث تقلع الرياح هذه العنن وترمى بها البيوت .

(٤) المعترك : موضع الازدحام ، خب : جرى ومر على وجه الارض ، السفير : ما انحلت

من ورق الشجر وتناثر ، البطن : النهم ، أو الذى لثق بطنه بظهره من الجوع .

(٥) ديوانه "الاعلم" : ٢٨٢ .

(٦) السابق : ٥٧ .

(٧) أخى ثقة : يوثق بما عنده من الخير لما علم من جوده ، نائله : عطاءه .

ويؤ من زهير بأن المال من عطاء الله ، وأنه لا بد أن يحوزه قدر كما يؤ من بالحظ
 وبأنه قد يقتنى المرء بعد عيلته كما أنه قد يعيل بعد الغنى ، وهو يؤ من أن الاسم
 شر ولكن البر كالغيث نبتة مبارك متزايد (١) :

قد يُقْبَلُ الْمَالُ بَعْدَ حِينِ عَلِيٍّ ال . . مرءٍ وحيناً لِهَلِكِهِ دُبُرٌ
 وَالْمَالُ مَا خَوْلَ الْإِلَهَ فـلَا . . بدله أن يحوزه قَدَرٌ
 وَالجُدُّ مِنْ خَيْرِ مَا أَعَانَكَ أَوْ . . صَلَّتْ بِهِ وَالجِدُّ وَتَهْتَصِرُ (٢)
 قَدْ يَقْتَنِي الْمَرْءُ بَعْدَ عَيْلَتِهِ . . يعيلُ بعد الغنى ويجتبر (٣)
 وَالْأَسْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالِحُ بِسُهُ . . وَالْبُرُّ كَالْغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ (٤)

والواقع أن هذه العقلية المتزنة الحكيمة وهذه النزعة المتدبنة لترى حتى فى
 هجاءه الذى لم يغلب على شعره أو يكتر فيه ، وشعر هجاءه لا يعدو بضع أبيات
 من بعض قصائد ديوانه (٥) ، ولكن الهجاء عند زهير " لم يكن هجاء السفن الحاذق
 الذى يبحث عن مثالب الناس ، ويكشف عن سوءاتهم ، ويضيف اليهم كل سبة بالحق
 وبالباطل . ولذلك لم يتعرض لضعفة فى أصلهم ، أو لآيام دارت فيها الدائرة
 عليهم ، أو لبخلهم وخبيث عاداتهم ، وغير ذلك ، وكل قصائده التى يصح أن تندرج
 تحت فن الهجاء لا تعدو والتهديد والوعيد والسخرية اللاذعة ، وذلك فى ثوب
 موسى بالنصح . أما الابيات التى أقدع فيها فهى نفثة حانق ممتور قد عيـل
 صبره بعد الملاينة والمصابرة (٦) .

وحسبنا الآن بعد ذلك كله وكثير ما يماثله فى شعر زهير ، أن يكون لسيلنا
 الى القول بتحذف زهير شئ من الوجاهة والتقدير والاعتبار .



(١) ديوان زهير " الأعلم " : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٢) الجدود : جمع جد وهو الحظ ، تهتصر : تكسر .

(٣) يجبر : يفتقر .

(٤) الأمر : الكثير الناسى .

(٥) أنظر ديوانه " الأعلم " : ٨٧-٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ .

(٦) زهير بن أبى سلمى : شاعر السلم فى الجاهلية : ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٨) عبید بن الأبرص

من قبيلة بني أسد ، وهو شاعر مفلق من فحول شعراء الجاهلية ، وكان فيما يبد
معاصرا " لأمرئ القيس " الذي قتل (بنو أسد) أباه ، فهددهم بالقتل ،
فأجابه عبید بقوله : (١)

يا ذا المخوفنا يقتل .. ل أبيه اذلالا وحيننا

أزعت أنك قد قتلنا .. ست سراتنا كذبا وميننا

وقد كان شاعر قبيلته بني أسد ، وكان ذا مكانة بينهم ، ويبدو أنه عمر طويلا حتى
بالغ بعض الرواة في ذلك (٢) ، وكان مشاركا لقبيلته فيما ينتابها من أحداث ويفخر
بها ، وكان خاتمة أمره أن قتله " المنذر بن ماء السماء " ملك الحيرة فيما روى عنه
من قتل من يطلع عليه في يوم شؤمه الذي كان من قدر عبید أن يخرج فيه ويكون
ضحية ذلك اليوم المشئوم . (٣)

ويعنيها من أمره ما يتصل بتحننه إذ نجد من يذكره بين الحنفاء ومن كان على
دين فأبو العلاء المعري يضعه في الجنة في قصر منيف مع زهير بن أبي سلمى ،
وقد أعطى بقاء التأبيد (٤) .

وفي بلوغ الأرب نراه من عداد الحنفاء لأن شعره يدل على ذلك (٥) .

وإذا نظرنا في ديوانه لمسنا عنده مانجده عند المتحنفين ، فلفظ الجلالة يسرد
في شعره مرات كثيرة ، ونراه يذكر الموت في عدد من المواضع ، وأنه محتوم لا مفر منه ،

(١) ديوان عبید بن الأبرص : تحقيق وشرح : د . حسين نصار : ١٣٦ . ط ١
(١٣٧٢) مصطفى الحلبي - القاهرة .

(٢) انظر : الشعر والشعراء : ٢٦٨ / ١ ، المَعَمَّرُونَ : لأبي حاتم السجستاني :
٧٥ - تحقيق : عبد المنعم عامر . ط (١٩٦١) دار احياء الكتب العربية -

القاهرة .

(٣) انظر لمزيد من حياة عبید وأخباره : الأغاني : ٢٢ / ٨١ - ٩٥ ، شعراء

النصرانية : ٥٩٦ - ٦١٥ ، مقدمة ديوانه .

(٤) رسالة الغفران : ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٥) ٢٨١ / ٢ .

ومن ذلك قوله (١) :

فأبلغ بنى وأعماقهم .. بأن المنايا هي السواردة
لها مدّة فنفس العباد .. اليها وان كرهت قاصدة
فلا تجزعو الحمام دنا .. فللموت ماتلد الوالدة

ومن يسأل الله يجد حاجته عنده غير محروم ، ومن تعلق بالناس فينا له الحرمان ،
والله هو المأمول لكل خير ومن ظن به غير ذلك فقد أخطأ وضعف رأيه ، كما أن الله
ليس يشركه أحد في أمره وتدبيره ، وهو يعلم ماتخفى القلوب ، واسمعه يقول : (٢)

من يسأل الناس يحرموه .. وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خبير .. والقول في بعضه تلغيب (٣)
والله ليس له شريك .. علام ما أخفت القلوب

ولا شك أن مثل هذه المعاني والتي نص فيها على نفي الشرك عن الله تدلنا
على تحننه وتألّبه كغيره من الحنفاء ، ويقوى ذلك ذكره ليوم القيامة عندما مدح
"حجر بن الحارث الكندي" والد امرئ القيس عندما غزا بني أسد وأخذ سرواتهم
وضربهم وأباح أموالهم عندما امتنعوا عن دفع ما كانوا يجيونه له ، يقول عبيد : (٤)

أما تركت تركت عفوا .. أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم .. وهوا العبيد الى القيامة

ومع وجود مثل هذه المعاني الدينية عنده فشعره مليء بالحكمة التي نراها
في كثير من شعره ، ولا ريب أن من الحنفاء من ضربوا كثيرا من الأمثال السائرة ،
والحكم الذائعة ، وحسبنا أن ندلّ عليها بواحدة مما يروى له عندما قال وهو
يتحدث عن الصبر : (٥)

صبر النفس عند كلّ ملم .. ان في الصبر حيلة المحتال

(١) ديوان عبيد : ٦٢ .

(٢) السابق : ١٥ .

(٣) تلغيب : أى ضعف ، وفي القرآن الكريم " وما سنا من لغوب " .

(٤) ديوان عبيد : ١٢٦ .

(٥) السابق : ١١١ ، ١١٢ .

لا تضيقن في الامور فقد . . تكشف غماؤها بغير احتيال
 ربما تجزع النفوس من الأمر . . له فرجة كحل العقـال
 ولعلّ هذه المعاني الدينية والتأملية ، والحكم التي حفل بها شعر عبيد
 قد حدى بأحد الباحثين أن يقول : " والذي يقرأ شعره - أي عبيد - يشعر
 أنه أمام رجل حضري رقيق عاطفي المزاج ، ندى نفس ميالة الى التقشف والتصوف ،
 مؤمن بالعدل ، كاره للظلم " (١) .

ولذا فليس غريبا - فيما يظهر لي - أن ندخل عبيد بن الأبرص في زمرة الحنفاء
 كما أدخله فيهم بعض علمائنا السابقين .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٠٧/٦ .

(ب) المغفورونعمير بن جندب الجهني

وما يعرف عنه أنه رجل من جهينة ، كان موحدًا ، ترك عبادة الأصنام ^(١) ، وقد ذكر الرواة من أمره أنه ممن عاش بعد الموت ^(٢) ، وذلك فيما نقلوه بأسانيدهم عن رجل من جهينة أن عمير بن جندب اشتكى ، فأغى عليه ، وسجوه وظنوه قد مات ، وأمروا بحفرته أن تحفر ، فبينما هم عنده ، إذ جلس فقال : اني أتيت حيث رأيتموني أغمى عليّ ، فقيل لي : أكل هبل : الا ترى حفرتك تنتثر ، وقد كادت أمك تشكلك .
 رأيت ان حولناها عنك بمحلول ، وقد فنا فيها القصل ، الذي مشى واحزال ^(٣) .
 أتشكر لربك وتصل ، وتدع سبيل من أشرك وأضل ؟ فقلت : نعم ، فأطلق .
 فسأل عن ابن عم له يدعى " القصل " ، فقالوا مرآنا . فذهبوا ينظرون فوجدوه قد مات فدفن في الحفرة ، وعاش عمير حتى أدرك الاسلام على ما قيل ^(٤) .

أبو عامر الأوسى

واسمه عمرو وقيل عبد عمرو بن صيفى المعروف بالراهب ، لأنه كان قد ترهب فى الجاهلية وليس المسوح ، وكان يذكر البعث ودين الحنيفية ^(٥) .

-
- (١) بلوغ الأرب : ٢٦١/٢ .
 (٢) تاج العروس " فصل " : ٦٠/٨ .
 (٣) يقال : احزال البعير فى السير ، اذا ارتفع .
 (٤) انظر : دلائل النبوة : أحمد بن الحسين البيهقى : ٤٧١/١ ، ٤٧٢ ، تحقيق : سيد أحمد صقر . ط (١٣٨٩) المجلس الاعلى للشئون الاسلامية مصر . القاموس المحيط : مجد الدير الفيروزى : ٣٠/٤ . ط ٣ (١٣٥٢) المطبعة المصرية .
 (٥) الاصابة : ١٣٧/٢ " ١٨٦٥ " .

وتدل المصادر أنه علم بمقدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أتاه ،

وسأله : ما هذا الذي جئت به ؟ فقال الرسول : جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

قال : فأنا عليها ، فقال الرسول : لست عليها ، ولكنك أدخلت فيها ما ليس فيها^(١) .

ويبدو أن أبا عامر قد غضب من الرسول فخرج يكيد له مع قريش ، وفي معركة

أحد كان أول من لقي المسلمين في الاحابيش وعبدان أهل مكة ، وكان يعد قريشا

أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، ونادى يامعشر الأوس ، أنا أبو

عامر ، فردوا عليه : يافاسق ، وقاتل المسلمين قتالا شديدا^(٢) .

وتدل الروايات أنه لما لاحظ قوة المسلمين بعد ذلك ذهب إلى قيصر الروم

وتنصر ، وقد أراد أن يعينه قيصر بجند من جيشه يخرج به الرسول عليه الصلاة

والسلام ومن معه من يثرب . ويبدو أن له اتصالات مع أعداء المسلمين في المدينة

من المنافقين حتى ذكروا عنه أنه هو الذي أمر ببناء مسجد الضرار الذي أمر النبي

صلى الله عليه وسلم بحرقه وإزالته^(٣) .

وكانت نهاية أبي عامر أن مات في بلاد الروم دون أن يحقق ما ربه التي كان

يلهت لادراكها^(٤) .

خالد بن سنان العبسي

هو خالد بن سنان بن غيث بن مريطة بن مخزوم بن مالك كما جاء في نسبه^(٥) ،

وكان مقرا لله بالربوبية والالوهية ، ومن بشر محمد عليه الصلاة والسلام ، ناهجا

(١) مجمع البيان للطبرسي : ٦٤/٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الثاني : ٦٧ .

(٣) تفسير الطبري : ٤٦٩/١٤ ، ٤٧٠ . الجامع لأحكام القرآن : ٣٢٠/٧ .

(٤) الاصابة : ١٣٧/٢ .

(٥) السابق : ٣٦٩/٢ " ٢٣٥٧ " .

منهاج المطلة الحنيفية (١) .

وقد أفاضت المصادر عن الحديث عن نبوته حتى رددوا كثيرا ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ذاك نبي أضاعه قومه " ، وأن ابنته قدمت عليه فبسط لها رءوسه وأجلسها عليه ، وأنه لم يكن في بني اسماعيل نبي غيره (٢) ، وشك بعض العلماء في ذلك فذكروه ممن اختلف في نبوته (٣) .

والصحيح الذي ذكره المحققون أنه ليس نبي ، وربما كان وأمثاله قوما صالحين يدعون إلى الخير (٤) .

وقال الجاحظ : " والتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالدا هذا كان أعرابيا وربما من أهل شرج وناظرة (٥) . ولم يبعث الله نبيا قط من الأعراب ولا من الغدادين أهل الوبر . وإنما يبعثهم من أهل القرى وسكان المدن " (٦) .

والذي اشت بهر من أمر خالد هذا هو أطفاه ، لتلك النار التي عرفست " بنار الحرثين " ولعل هذه النار كان للمجوس علاقة بها حتى قيل : " إن العرب افتتنوا بها وكانت ، تنتقل وكادت العرب أن تتمجس ، وتغلب عليها المجوسية " (٧) . وهذه النار مشهورة عند العرب حتى أنشدوا فيها :

وتار الحرثين لها زفير . . يصم لهوله الرجل السميع (٨)

" وكانت تلك النار ببلاد بني عبس ، فإذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء ، وكانت طيء تنفش (٩) بها ابلها من مسيرة ثلاث . وربما ندرت منها العنق

(١) بلوغ الأرب : ٢٧٨/٢ .

(٢) انظر في ذلك الاصابة : ٣٦٩/٢ - ٣٧٤ .

(٣) أديان العرب في الجاهلية : ١٩٣ .

(٤) البداية والنهاية : ٢١٢/٢ .

(٥) شرج وناظرة ما أن لعبس كما في معجم البلدان (٣/٣٣٤ - ٢٥٢/٥) .

(٦) الحيوان : ٤٧٨/٤ .

(٧) مروج الذهب : ٦٧/١ - ٦٨٤ .

(٨) الحيوان : ٤٧٨/٤ .

(٩) أي ترسلها ترى ليلا دون مراقبتها .

فتأتى على شئ فتحرقه ، واذا كان النهار فانما هي دخان يفور ، فبعث الله
 خالد بن سنان فاحتفر لها بئرا ثم أدخلها فيها ، والناس ينظرون ، ثم اقتحم
 فيها حتى غيبتها ، وسمع بعض القوم وهو يقول : هلك الرجل ! فقال " خالد بن
 سنان " : كذب ابن راعية المعز ، لأخرجن منها وجبيئني يندى ! فلما حضرته
 الوفاة قال لقومه : اذا مات ثم دفنتونى ، فاحضرونى بعد ثلاث ، فانكم ترون
 عيرا أبتريطوف بقبرى ، فاذا رأيتم ذلك فانبشونى ، فانى أخبركم بما هو كائن الـى
 يوم القيامة . فاجتمعوا لذلك فى اليوم الثالث ، فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه ،
 اختلفوا ، فصاروا فرقتين وابنه عبدالله فى الفرقة التى اُبت أن تنبشه وهو يقول :
 لا أفعل انى اذا ادعى ابن المنبوش ! فتركوه " (١) .

وكيع بن سلمة الايادى

وكيع بن سلمة بن زهير من اياد ، ويذكر الرواة أنه قد تولى أمر البيت الحرام
 بعد جرهم ، وأنه بنى صرحاً^(٢) مرتفعاً بأسفل مكة ، وجعل فيه أمة يقال لها
 " حزره " وبها سميت " حزره مكة " ، وجعل فى الصرح سلماً يرقاه ويزعم أنه يناجى
 الله تعالى . وكان ينطق بكثير من الخير والحكمة حتى كان العرب يظنونونه صديقاً
 من الصديقين .

ويذكرون أنه لما حضرته الوفاة جمع اياد فقال لهم : " اسمعوا وصيتى ، الكلام
 كلتان ، والا مر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن غوى فافضوه ، وكل شاة

(١) الحيوان : ٤٧٦/٤ ، ٤٧٧ .

(٢) الصرح : هو بيت بينى منفرداً ضخماً طويلاً فى السماء ، وكل بناء عال مرتفع
 فهو صرح .

(٣) موضع فى مكة أدخلت فى الحرم عند توسعته ، وقد يقولون " حزره " بفتح الزاى
 وتشديد الواو ، وهذا تصحيف كما قال ياقوت " معجم البلدان " : ٢٥٥ / ٢ .

معلقة برجلها ، فأرسلها مثلاً (١) .

ومما يروى له مما يصور إيمانه بالجزاء والحساب قوله : " مرضعة وفاطمة . القطيعة
والفجيعة ، وصلة الرحم وحسن الكلم . زعم ريكم ليجزيين بالخير ثواباً ، وبالشر
عقاباً . وان من فى الأرض عبيد لمن فى السماء . هلكت جرهم ورتبت^(٢) إياها ،
وكذلك الصلاح والفساد " (٣) .

واياه عنى الشاعر^(٤) بقوله :

ونحن إياها عبيد إلا لله .. ورهط مناجيه فى السلم
ونحن ولاه حجاب العتيق .. زمان الرعاف على جرهم^(٥)

رثاب الشنى

رثاب بن البراء الشنى من بنى عمرثم من بنى شن من قبائل عبد القيس^(٦) ويذكر
الرواية أنه كان على دين عيسى بن مريم - عليه السلام - قبل بعث النبى صلى الله
عليه وسلم ، ويزعمون أنهم كانوا يسمعون منادياً ينادى من السماء قبل بعث النبى :
خير أهل الأرض ثلاثة : رثاب الشنى ونحيرا الراهب ، ورجل آخر لم يأت بعهد ،

-
- (١) انظر الفاخر: للمفضل بن سلمة بن عاصم: ٢٨٨، ٢٨٩ . تحقيق بعبدالعليم
الطحاوى، ط ١ (١٣٨٠) وزارة الثقافة والارشاد القومى، مصر ،
الحيوان : ١٥١/٦ .
- (٢) رسل القوم : كثروا ، أو كثر أموالهم وأولادهم .
- (٣) البيان والتبيين : ١٠٩/٢ ، ١١٠ .
- (٤) وفيه أنه هو بشير بن الحجير الايادى كما فى البيان والتبيين : ١١٠/٢ .
- (٥) ولاية الحجاب : أى يلون الحجابة وهى سدانة البيت وتولى حفظه ، العتيق :
أى الكعبة وهى البيت العتيق ، زمان الرعاف : يقال انه داء سلطة الله
على جرهم فهلك منهم ثمانون كهلاً فى ليلة واحدة سوى الشبان .
- (٦) الاشتقاق : ٣٢٥ ، ٥٢٦ .

يعنى النبي عليه الصلاة والسلام . وكان لا يموت أحد من ولد " رثاب فيد فسن
الآراء واطشاً (١) على قبره . (٢)

علاف بن شهاب التميمي

من رجال بنى سعد زيد مناه من تميم (٣) وكان يوءم بالحساب والمعاد ،
ويروى أنه قال : (٤)

ولقد شهرتُ الخصمَ يومَ رفاعِةٍ (٥) . . فأخذتُ منه خِطَةَ الْمُقْتَالِ
وعلمتُ أن الله جازٍ عبده . . يومَ الحسابِ بأحسنِ الأعمالِ

عبدالله القضاعي

هو عبدالله بن تغلب بن وبرة بن قضاة ، وكان ممن يوءم باليوم الآخر ،
ويذكر أنه من حكماء العرب وفضلائها الشهيرين . وكان ينهاج في ديانته منهاج
الجنيفية ، ويبدو أنه كان له كلام بليغ وحكم تصوّر ذلك وتدلّ عليه ، إلا أننا لم
نر له شيئاً منها فيما اطلعنا عليه من مصادر (٦) .

(١) الطش : المطر الضعيف .

(٢) المعارف : ٥٨ .

(٣) الاشتقاق : ٢٥٨ .

(٤) بلوغ الأرب : ٢٧٦/٢ ، ٢٧٧ .

(٥) لم أجد هذا اليوم بين أيام العرب .

(٦) بلوغ الأرب : ٢٨٠/٢ ، ٢٨١ .

سيف بن ذى يزن الحميرى

يكنى بأبى مرة ، وهو ملك اليمن الذى استطاع أن يستعين بالفرس لطررد
الأحباش من اليمن عند ما استولوا عليها وغزوا مكة ، فأخرج الأحباش وحكم اليمن
باسم الفرس على ما يتضح من قصته . (١)

وما اطلعنا عليه من أخباره لا يوضح لنا كثيرا كيف كان تحنفه ، والذى حدا
بمن عدّه من الحنفاء ما يروى من تبشيره " لعبدالمطلب بن هاشم " جد الرسول
- عليه الصلاة والسلام - بقرب ظهور نبي قد أظل زمانه ، ويذكر له علامات وأوصافه ،
وببالغ الرواة فى ذلك حتى ليعلم ابن ذى يزن أن عبدالمطلب جدّه ، وأنه سيموت
قبل مبعثه ، وأهم ما كان من سيف هذا أنه كان مغتبطا لظهور هذا النبي ، وستبشرا
بظهوره متمنيا اظهار أمره ، وطاعته فيما جاء به والدخول فى دينه . (٢)

عبدالمطلب بن هاشم

وهو جد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - من جهة أبيه ، وأمه من (بنى
عدى ابن النجار) من يثرب ، وقد ولى أمر البيت ، وعظم بين قومه وعلت منزلته . (٣)
وقد كان ممن يقرب بالخالق والابتداء والاعادة والثواب والعقاب ، وكان " اذا
رأى ظالما لم تصبه عقوبة قال : تالله ان وراء هذا الدار لدارا يجزى فيها المحسن
والمسقى " (٤) .

(١) انظر : السيرة النبوية : القسم الاول : ٦٢ - ٦٩ .

(٢) العقد الفريد : ابن عبد ربه : ٣ / ٦٧ < .

(٣) انظر تاريخ الطبرى : ٢ / ٢٤٦ - ٢٥١ .

(٤) تلبيس ابليس : ٦٤ .

وقد ذكرت بعض الأمور ونسبت الى عبد المطلب ، منها سنّ الدية مائة من
الابل ، وأنه أخرج الخمس من الكنز الذي وجده عندما حفر بئر زمزم التي جعلها
سقيا للحجاج (١) .

وكان فيما يروى يتحدث بحراء ، " فاذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم
المساكين جميع الشهر " (٢) .

ويروى أنه كان يوء من بالملكين (٣) ، ولعل كل ما سبق دفع الى القول بحنيفيته .

عامر بن الظرب

من بني ناج ، بطن من بطون عدوان (٤) ، وهو من حكام العرب وحكائهم
وخطبائها المشهورين ، وأياه عنى الشاعر بقوله (٥) :

ومنا حكم يقضى . . فلا ينقض ما يقضى

وقد عاش وطال به العمر حتى خرف ، وزعموا أنه أمر ابنة له أن تفرع له بالعصا
إذا نسي وخرج عن الصواب (٦) ، وقال في كبره وقد ضعف جسمه (٧) :

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين أربعةً . . والشخصُ شخصين لما شفى الكبر (٨)

(١) نثر الدر : للوزير الكاتب : أبي سعد منصور بن الحسين الأبي : ٣٩٣/١ .
تحقيق : محمد علي قرنة . ط (الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(٢) الكامل في التاريخ : ١٥/٢ .

(٣) نثر الدر : ٣٩٣/١ .

(٤) الاشتقاق : ٢٦٨ .

(٥) هونذوالأصبع العدواني (المعمرن والوصايا) : ٥٦ .

(٦) المعمرن والوصايا : ٥٨ ، البيان والتبيين : ٣٨/٣ .

(٧) حماسة البحتري : ٣٢٦ " أبي عبادة البحتري " . بعناية : كمال مصطفى

ط (١٩٢٩ م) المطبعة الرحمانية - مصر .

(٨) شفى : أى أوهنتني .

لا أسمع الصوت حتى أستدير له .. ليلا طويلا ولوناغاني القمير
 وكنت أمشي على الرجلين معتدلا .. وضرت أمشي على ماتنبث الشجر
 وينسب اليه بعض الأمور منها أنه قضى في الخنثى بحكم الاسلام ، وأنه كان
 يدفع بالناس في الحج ، وحرّم على نفسه الخمر ،^(١) وقال في ذلك^(٢) :

ان أشرب الخمر أشربها للذتها .. وان أدعها فاني ماقت قالسي
 لولا اللذانة والفتيان لم أرها .. ولا رأيتني إلا من مدى الغال
 سئالة للفتى ماليس يملكه .. ذهابة بعقول القوم والمال
 مورثة القوم أضفائاً بلا إحسن .. مزرية بالفتى ذى النجدة الحال
 أقسمت بالله أسقيها وأشربها .. حتى يفرق ترب القبر أو صالي
 وما يروى له من كثير من حكمه ونصائحه :

" رب زارع لنفسه ما حاصده غيره ، ولولا قسم الحظوظ ما أدرك الآخر مع
 الا اول شيئا يعيش به ، ولكن رنق أكل من أجل وعاجل ، ان الذى أرسل الحيا^(٣)
 أنبت المرعى ثم قسمه ، وكلا لكل فم بقلة ، ومن الماء جرعة ، ترون ولا تعلمون^(٤) .
 ومن ذلك " يامعشر عد وان ، ان الخير ألوف عزوف ، ولن يفارق صاحبه حتى
 يفارقه . وانى لم أكن حليما حتى اتبعت العلماء ، ولم أكن سيدكم حتى تعبدت
 لكم^(٥) .

ويوجد من بين هؤلاء الحنفاء بعضا من الصحابة - رضوان الله عليهم -

(١) المعمرون والوصايا : ٥٦ - ٦٠ ، الامثال : أحمد بن محمد الميدانسي :

٣٨/١ ، ٣٩٤ . تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد . ط دار المعرفة

- بيروت .

(٢) المحبر : محمد بن حبيب : ٢٣٩ . بعناية : الدكتور : ايلزه ليختن .
 ط المكتب التجارى - بيروت .

(٣) الحيا : ماء المطر الذى تحيا به الأرض .

(٤) المعمرون والوصايا : ٦٤ .

(٥) البيان والتبيين : ١٩٩/٢ .

تحنفوا في الجاهلية فلما أشرق نور الاسلام لبوا النداء له مسرعين .
وتذكر المصادر من هؤلاء لبيد بن ربيعة العامري ، ^(١) والناطقة الجعدي ، ^(٢)
وأبو ذر الغفاري ، ^(٣) وأبو قيس صرمة بن أبي أنس الانصاري ، ^(٤)

(١) لبيد بن ربيعة : أبو عقيل الشاعر ، كان شريفا كريما في الجاهلية والاسلام ،
وهو صاحب المعلقة :

عفت الديار محلها فمقامها .. بمنى تأبد غولها فرجامها
وقد روى أنه قال في جاهليته :
ألا كل شيء ما خلا الله باطل .. وكل نعيم لا محالة زائل
ويبدو أنه لم يعط الشعر في الاسلام ما كان يبلغ منه في جاهليته . وقد طال
به العمر وتوفي سنة ٤١ هـ .

وانظر : الاستيعاب : ١/١٣٣٥ ، الاصابة : ٥/٦٧٥ ، لبيد بن ربيعة :
للدكتور : يحيى الجبوري .

(٢) أبو ليلى قيس بن عبد الله الجعدي العامري ، وقيل هببان بن قيس ، وكان
شاعرا محسنا من المخضرمين والمعمرين ، وكان في الجاهلية يذكر
ابراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر فيما يروى ، وقال :

الحمد لله لا شريك له .. من لم يقلها فنفسه ظلما

وكان شاعرا مغلبا ، مدح الرسول - عليه الصلاة والسلام - ودعا له .

وانظر : الاستيعاب : ٤/١٥١٤ ، مقدمة شعر الناطقة الجعدي . ط ١
(١٣٨٤) المكتب الاسلامي . دمشق .

(٣) واسمه جندب بن جنادة بن كعب ، وكان أبو ذر يتأله في الجاهلية ،
ولا يعبد الاصنام ، وروى أنه قال : صليت قبل أن ألقى رسول الله صلى الله
عليه وسلم بثلاث سنين ، أتوجه حيث يوجهني الله .

قدم مكة عندما سمع بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأتى قومه فأسلم
بعضهم وعاش في الاسلام وتوفي سنة ٣١ بالريذة .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٤/٢١٩ ، الاصابة : ٧/١٢٥ .

(٤) صرمة هذا من بني عدي بن النجار ، وكان رجلا قد ترهب في الجاهلية ولبس

السوح ، وفارق الاوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من النساء في نفاسهن ،

وهم بالنصرانية ثم اسك عنها ، ودخل بيتا لا تدخله طامت ولا جنب ، وقال

أعبد رب ابراهيم . ولما قدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المدينة أسلم

وهو شيخ كبير : وانظر : السيرة النبوية لابن هشام : ١/٥١٠ ، الاصابة : ٣/٤٢٢ .

وعمر بن عبسة (١) .

وحسبنا أن نكتفى بهذه الاشارات السريعة ، والتي اجتهدنا في الوقوف بها عند من غلبت عليه نزعة التحنف في ذلك الزمان . ان قد تصادفنا ببعض الروايات الموهمة في تحنف غير من أسلفنا ، ولكن المتابعة والدرس تجعل هذه الروايات لا تصمد أمام ذلك ، وتدفعنا الى اطراح غير من أوهانا اليه بعد جهد وحيرة وتقدير . (٢)

(١) عمرو بن عبسة بن عامر السلمى ، يكنى أبا نجيح ، وكان في الجاهلية قد رغب عن آلهة قومه ، ورآها آلهة باطلة ، لا تضر ولا تنفع ، وقد سافر فسى طلب الدين وسأل علماء وأهل الكتاب عن أفضل الدين ، فأعلموه بخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، فبقى يتلمس أخبار مكة ، فلما ظهر له الأمر أتى الرسول وأسلم وعاد الى أهله ، ولما أقام الرسول بالمدينة أتاه بعد ذلك ، وقد نزل الشام ومات بها .

وانظر : الطبقات الكبرى : ٣ / ٤٠٣ ، الاستيعاب في معرفة الاصحاب :

١١٩٢ / ٣ .

(٢) من هؤلاء مثلا : أبو قيس بن الأسلت ، الشاعر الجاهلى من الاوس ، ولعل خلطا حصل في ترجمته مع صرمة بن أبى أنس الانصارى لتشابههما فى (أبى قيس) ، وقد لاحظ ذلك محقق ديوانه . ومنهم عمرو بن حممة الدوسى حكيم العرب وأحد العمرين الذين قرعت لهم العصا كما فى كتاب المعمرين . ومنهم الجارود بن المعلّى . صحابى من عبد القيس ، والذى أوهم الى القول بحنيفيته أنه كان نصرانيا قبل الاسلام .

الباب الثاني

أدب الخنيفة في العصر الجاهلي

الفصل الأول : الانتحال وأدب الخنيفة

الفصل الثاني : شعر الخنيفة

٢ - المعتقدات

ب العبادات

ج التشريعات

الفصل الثالث : نثر الخنيفة

الفصل الرابع : تحليل وتقويم

= الفصل الأول =

الانتحال وأدب الحنيفة

تعد قضية الانتحال من أشهر قضايا الشعر الجاهلي ، وقد تنبه لها العلماء المسلمون ^{في} بداية مراحل جمع الشعر الاولي ، وقد بسط القول فيها وتبعج الحديث عن الوضع والانتحال ^{بين} لفيف من المستشرقين وكثرة من الدارسين فـ في عصرنا الحديث .

ولا ننكر ان الانتحال ظاهرة شائعة بين الأمم جميعا ، وليس شعر العرب الجاهلي المتفرد بذلك ، وقد ذلك كاتب مصادر الشعر الجاهلي على ذلك بالمشكلة الهومرية في الشعر الهومري . (١)

وقد كان الرواة في القرن الثاني والثالث يلاحظون انتشار ظاهرة النحل والوضع فيما يرون ويسمعون من أشعار عند غيرهم ، ومن هنا فطنوا لذلك ، وبينوا أسبابه ، كالعصبية القبلية والرواة الوضاعين ومن لا علم لهم بالشعر . (٢)

وقد أظهر لنا الرواة النقاد لصحيح الشعر من منحوه من طبقتهم الاولي الى سائر الطبقات الاخرى . فهذا المفضل الضبي (ت ١٦٨ أو ١٧٨ هـ) نقد حماد الراوية وأبان تزييفه للشعر ، (٣) وكان الأصمعي (ت ٢١٦) بالمرصاد لخلف الاحمر ونقد روايته (٤) ، وكان ابن سلام من مشاهير العلماء المحققين في ذلك ، بل هو الذي أبان في كثير من المواطن في طبقاته الانتحال وفصل القول فيه بما يفوق به علماءنا السابقين في ايضاح ذلك . فقد تعقب مرويات حماد واتهمه بالوضع وافساد الشعر ، (٥) وكان حادا في نقده لابن اسحاق . الذي حشا

(١) مصادر الشعر الجاهلي : ٢٨٧ - ٣٢٠ .

(٢) طبقات بن سلام : ٤٦/١ .

(٣) معجم الادباء : ياقوت الجموي : ١٦٤/١٩ . ط . دار احياء التراث العربي - بيروت .

(٤) مراتب النحويين : لأبي الطيب اللغوي : ٤٦ . تحقيق : محمد أبو الفضل

ابراهيم . ط (١٩٥٥ م) .

(٥) طبقات فحول الشعراء : ٤٨ .

السيرة النبوية بكثير من غشاء الشعر الذي لا يصح ، فضلا عن الأشعار التي رواها
لقوم لو امتنع عن ذكرها لهم كان خيرا من نسبتها اليهم^(١) . كما كان على مقربيه
من هؤلاء الأعلام وتابع لهم أبو الفرج الاصبهاني الذي رفض روايات ابن الكلبي
عن دريد بن الصمة وبعض أشعاره ، ونبة الي تليفق ابن الكلبي نفسه لها^(٢) .

وحسبنا الاشارة الي ذلك لننبه أن علماء المسلمين الأوائل قد تنبهوا الي ذلك
فوقفوا بالنقد والتحقيق في وجه كل راوية وضاع وأية رواية لا تحمل الصحة والثقة .
فقد واجه هؤلاء العلماء شعرا جاهليا واسلاميا دخله وضع كثير ، فانبروا بكل
أمانة واخلاص ليجهزوا الخبيث من الطيب ، فوجدوا أن هناك الرواة الوضاعيين
فنقدوهم وكذبوا روايتهم ونبهوا عليهم ، كما وجدوا الرواة الثقة الذين يطمئن الي
صدق روايتهم وصحة علمهم فأخذوا عنهم ، وشهدوا بالعدل والثقة لهؤلاء الرواة
وذكروهم .

بذلك اتضح الامر لهؤلاء العلماء فعرفوا الشعر الصحيح من المنحول وأبانوا
ذلك في طريقة حفت بالأمانة والحيطه والحذر حتى تم لهم ذلك ، وكانوا بتلك
الطريقة آية فخر واعزاز لمن يطلب الامانة ويتحرى التحقيق ، كما كانوا آية فخر
للمسلمين على غرة العلم والتاريخ على مر الايام وتعاقب العصور .

والحق ان جهود هؤلاء القم هي التي أخرجت لنا الكثير من الدرر بعد
ذلك العنت وتلك اللأواء ، كالمعلقات ، والمفضليات ، والاصمعيات ، وكثير من
داووين الشعرية ، سواء أكانت داووين شعرا أم داووين قبائل كديوان الهذليين
والحماسات ، والطبقات ، وكتب المنتخبات الي غير ذلك من الكثير من تلك الكتب
التي أخرجوها لنا خالصة من الشوائب والشك على أقصى ما بذلوه من جهد في
ذلك . وهذه الكتب وأمثالها هي التي تحوى في بطونها ما اطمأن الي صحته
هؤلاء السابقون ، مما يدفعنا الي الثقة فيما وثقوه ، وكيف لا نكون كذلك وقد قال

(١) طبقات فحول الشعراء : ٧ ، ٨ .

(٢) الاغانى : ٤٠ / ١٠ .

أشهرهم - محمد بن سلام - في ذلك^(١) " وقد اختلفت العلماء بعد في بعض
الشعر ، كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج
منه " .

وحسبنا هنا ان نخلص الى ما يعنيننا من هذه القضية ، فقد كثر فيها القول
ودونت فيها الكتب* . ويمكن أن نضع ما يتعلق بنا - كما نرى - في أمرين جمعاً
ماله وشيجة بهذه القضية ، ذلك عند شبه المستشرقين ، وشكوك الدكتور
طه حسين .

(١) طبقات ابن سلام ٤/١ .

* انظر: تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي: (ج ١) الباب الثاني.
ط ٤ (١٣٩٤) دار الكتاب العربي - بيروت، مصادر الشعر الجاهلي:
الباب الرابع .

(١) عند المستشرقين

كما تنبه العلماء السابقون الى الانتحال في الأدب الجاهلي ، ومثلوا لكثير منه فقد استفاد المستشرقون من تلك التنبيهات ، وبدءوا يفصلون في الأمر ويعيدون القول فيه عن سوء نية أو غيرها ، ولما كان أدب الحنيفية ذا نزعة ونبوية محضنة فقد بدا أن نذكر من آراءهم ما يعيننا منها هنا ، ويمكن اجمالها فيما يأتي :

١ - ان الشعراء الجاهليين لا يمثلون الدين الجاهلي فيما ورد من أشعارهم ، وانما تظهر عليهم النزعة الاسلامية فليسوا من الجاهلية في شيء .

٢ - في الشعر الجاهلي اشارات الى قصص ديني ورد في القرآن ، واستعمال لكلمات اسلامية .

٣ - التغيير في الشعر الديني باستبدال لفظ الجلالة محل الأضنام .

٤ - رفض كميات هائلة من الشعر ذي الطابع الديني كشعر أمية وورقة .

ولا ريب أن هذه الامور التي رآها المستشرقون متقاربة متداخلة ، ويمكن أن نعدّها من جملة عوامل الشك في صحة الشعر الجاهلي ، ولكنها تنصب على أدب الحنيفية وتخصه بدرجة كبيرة .

وبعد أن تيسر لنا حصر هذه الآراء فاننا سنلقى عليها شيئاً من الايضاح مع مناقشتها ، حتى يتيسر لنا الانتقال الى مثلها في ثنايا هذا الفصل .

ان القول بأن شعر الشعراء الجاهليين ليس من الجاهلية في شيء فهذا ما ذهب اليه مرجليوث في مقاله " أصول الشعر العربي " فقد قال :^(١) ان جو الشرك في مدونات الشعر الجاهلي كان وبكل بساطة غائباً ، ويقول^(٢) في موضع آخر : " وفي الحقيقة ان الدين الوحيد الذي يمكن أن يؤمن به هؤلاء الشعراء

(١) أصول الشعر العربي : مرجليوث . ترجمة د . يحيى الجبوري : ٧١ . ط ٢

(١٤٠١) مؤسسة الرسالة . بيروت .

(٢) السابق : ٧٣ .

الجاهليون هو الاسلام فقط . انهم فيما بيد و موحدون بصرامة ، لأنهم نادرا ما يذكرون الها آخر غير الله ، و اذا ذكروا الها آخر في أحيان قليلة ، فانه ذكر فيه مهانه " واستشهد لذلك بقول عبيد بن الأبرص :

وتبدلوا اليعسوب بعد الههم . . صنما فقرّوا يا جديلا وأعذبوا .

وقد ذهب مرجليوت يبسط الكثير من الأمثلة والأدلة التي تدل على معرفة هؤلاء الشعراء بالاسلام واطلاعهم على القرآن وتعمقهم في معرفة أحكامه وفهمها .

وعلى سبيل المثال من ذلك ما لاحظته من ورود بعض المعاني الاسلامية ،

فرأى عبيد بن الأبرص يشير الى معنى الخير في هذه الدنيا في قوله :

تزد من الدنيا متاعا فانه . . على كل حال خير زاد المزود

ورأى لعبيد عبارة تتضمن علما بالشريعة الاسلامية فيما يخص الميراث في بيته :

قد يوصل النازح النائي وقد . . يقطع ذوالسهم القريب (١)

وأخيرا يلحظ مرجليوت الشك في قصيدة لمهلل بن ربيعة الذي عاش قرنا

قبل النبي ، فهو متقدم بمقدار كاف من الزمن ليستطيع أن يقتبس من القرآن قوله :

قالوا لنا لقد هلك كليب ، وقلت : هل مات بنا الأرض أم أمسكت ميلانها (٢) ،

وهو يعنى قول مهلهل في رثاء أخيه كليب :

نعى النعاة كليبيا لى فقلت لهم . . مات بنا الأرض أم مات رواسيها

ليت السماء على من تحتها وقعت . . وحالت الأرض فانجابت بمن فيها

(١) النازح والنائي : بمعنى واحد وهو البعيد ، يقطع : يعق . ذوالسهم : ذوالسهم :

ذوالسهم والنصيب يعنى القريب ، والمعنى قد يقطع الناس أقاربهم

ويصلون الأبعد ، فلا تمنعك الغربة من مخالطة الناس لأنه قال قبله :

ساعد بارض ان كنت فيها . . ولا تقل اننى غريب .

ولا أدري كيف أتى ذلك الفهم الغريب للبيت عند مرجليوت ! .

(٢) أصول الشعر العربي : ٧٥ . وواضح أن بيتي مهلهل لا يقطع بظهور

نزعة اسلامية فيها ان لم تكن بعيدة عنها .

ولا ريب أن مرجليوث جانب الصواب وأخطأ الطريق في الكثرة الغالبة . مما مثل به أو حاول التدليل عليه .

ونحن هنا لن نتعرض للرد على أغاليط مرجليوث بقدر ما نشير لخطئه السذى طفح وغطى على صوابه في مقاله هذه (١) .

وسوف لا نرد على مرجليوث هنا فى دعواه بأن الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهليين الدينية وانما يمثل الاسلام عند تفصيل هذه النقطة فيما يأتى بعد بأذن الله .

ومما لا نراه يتفق من تلك الأدلة عنده ما رآه من قسم الشعراء الجاهليين بالله مرارا كثيرة ، وقسمهم بالله لا يتغير ، وهذا القسم يسود فى دواوينهم فعلا ، حتى ان عبيد بن الأبرص يقول بلغة قرآنية " انى أقسم بالله ، الحق ، الكريم ، بيده الأمر ، الغفور الرحيم " (٢) .

ومن ذلك ، تلك النظرة التى ينظرها الجاهليون لأعمال الله وصفاته ، فبعيد أن تكون من هؤلاء الجاهليين ، ويمكن رفضها لأنها تحمل بيانات القرآن فى ذلك ، وفى الغالب - كما يزعم - بكل تفصيل (٣) . وما استشهد به على ذلك بقول قيس ابن الحداد ية : (٤)

لا تعز لىنى اسلمى اليوم وانتظرى . . أن يجمع الله شملا طالما افترقا
فهولا يظن أن الجاهليين يعتقدون قدرة الله على جمع الشمل بعد التفريق ،

(١) لبيان المزيد من الرد على مرجليوث . انظر : مقدمة ديوان عبيد
" للمشتشرق لايل " ، وانظر مصادر الشعر الجاهلى : ٣٦٧ - ٣٧٤ ، ومقدمة
د . يحيى الجبورى فى ترجمة " أصول الشعر العربى " .

(٢) أصول الشعر العربى : ٧٢ وهو يشير الى قول عبيد :

حلفت بالله ان الله ذو نعم . . لمن يشاء وذو عفو وتصفاح .

(٣) السابق : ٧٢ ، ٧٣ .

(٤) قيس بن الحدادية الخزاعى : شاعر جاهلى ، كان شجاعا فاتكا كثيرا المغارات

حتى تبرأت منه قبيلته " خزاعة " . وانظر : نوادر المخطوطات " من نسب

الى أمه من الشعراء " (١/٦٨) . تحقيق عبد السلام هارون ط (١٣٩٢)

الحلبى - مصر ، الاغانى : ١٤ / ١٤٤٠ .

كما لا يتصور أن أحدهم يرى أمر الله نافذا لا محاله حيث يشاء سبحانه ،
وأن يقولوا مثل قول الحارث بن حلزة :

فمواهم بالأسود بين وأمر الله . . . بلغ يشقى به الأشقياء^(١)

وقد استنكر أيضا مرجليوث أن ترفع دعوات الجاهليين الى الله تعالى وباسمه ،
وأن الذى يسأله لا يخيب كما يخيب الذى يسأل الناس^(٢) مستشهدا بقول عبيد :

فان خفت لجوع البطن رجلى . . . فدق الله رجلى بالمعاصى

وقوله - أى عبيد - :

من يسأل الناس يحرمه . . . وسائل الله لا يخيب

ولا مجال لسرد كل ما رفضه مرجليوث من نظرات الجاهليين الى أعمال الله وصفاته ،
بعد أن مثلنا لبعض منها ، وحسبنا الاشارة الى رفضه أيضا أن يرى بيتا يدل على
خوفهم من الاثم وأن الله يعاقب عليه ، كما أن الله يعلم ماخفى على الاخرين ،
وهو رب الناس ، وهذه زلة لا تغفر لمثل مرجليوث ، وأن المرء لا يعلم ما يحدث له
فى ما يستقبل من أمره أو زمانه ، الى غير ذلك^(٣) .

وهذا الرأى فى أعمال الله وصفاته وقدرته الذى ذهب الى رفضه مرجليوث
واستبعده على الجاهليين لا ضير علينا من اخضاعه للرأى والدراسة لنرى مدى
صحته ثم الوثوق به . وقد من الله علينا بتنبه السابقين لهذه الظاهرة من قبل
مرجليوث ، ولكنهم لم يذهبوا بها كما ذهب ، بل أعادوا الأمر لملاساته التاريخية
فى ذلك الزمان ، وقد دعوا آراءهم بالآيات البينات من الكتاب العزيز ، وحسبنا
ذلك ، والقرآن هو الحكم المرضى عند هؤلاء الذين يذهب بهم الشك كل مذهب ،

(١) أصول الشعر العربى : ٧٢ . والبيت من أبيات فى وصف غزوة لعمر بن هند ،
وجيشة وهو ما قصد بقوله : هداهم ، الاسودان : التمر والماء ، من سباب
تغليب أحد الاسمين على الآخر وقيل هما رجلان ، بلغ : معناه بالبلغ
بالسعادة أو الشقاء .

(٢) أصول الشعر العربى : ٧٢ ، ٧٣ .

(٣) السابق : ٧٣ .

فهم يشكون في الحوادث والروايات التاريخية ويرفضون شعر الجاهليين الاجزاء منه لا يسمن ولا يغنى من جوع .

لقد كثرت الآيات القرآنية التي تؤكد اعتراف هؤلاء الجاهليين بأفعال الله العظمى وصفاته العليا ، وهذا بلا ريب اقرار منهم بربوبيتهم بالله واعترافهم أنه الرب الخالق للسماء والأرض ، بل هو خالقهم أنفسهم ورازقهم ، وأنه منزل المطر ومنبت الزرع ، وأنه الهادي الى الحق ، الذي له مافى السماوات والأرض ، وهو يدبر الأمر ، ويبيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، كما أنه مسخر الشمس والقمر ومذل البحر لمنافع العباد ، وكل هذا بعض مما ورد في القرآن ، وهو يدل على غيره من الكثير مما يؤمن به ويعتقد الجاهليون عن الله وصفاته وأفعاله جل وعلا .

وحسبنا قوله تعالى : ^(١) " قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والا بصر ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون " ، وما ذكره القرآن من دعائهم لله والتجائهم اليه وقت الشدائد دون سواه قوله : ^(٢) " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الأرض يغير الحق . . . " وعن يقينهم بقدرة الله على تنزيل المطر واحياء الارض به يقول تعالى : ^(٣) " ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون " والآيات كثيرة جدا في هذا المعنى ^(٤) ، وحسبنا ما ذكرنا ، وهذه الآيات التي تناقش المشركين وان لم تهدف الى تذكيرهم ببعض قدرة الله وصفاته فحسب فلا شك ان ما ذكر منها ليدل على أمثالها فيما يفهم من آيات

(٢) يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

(١) يونس : ٣١ .

(٣) العنكبوت : ٦٣ .

(٤) أنظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " سأل " : ٣٣٦ ، " قل " : ٥٧١ - ٥٧٥ .

القرآن البينات .

وأما العلماء السابقون فهذا أحد هم يوضح هذا الأمر ويزيل هذه الشبهة التي يقع فيها مرجليوث ومن شايعه ، فوثنية العرب في الجاهلية لم تنكر الله ولا أفعاله أو صفاته ، فهم يعترفون بالربوبية ويشركون في الألوهية إذ يعبدون غيره ، ويقول^(١) : " وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة الله تعالى . وإنما كانت عبادتهم ضربا من التدين بدین الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام المثلة بها في الهياكل ، لا على ما يعتقد الجاهل بديانات الام وآراء الفرق ، من أن عبدة الأوثان ترى أن الاوثان هي الالهة الخالقة للعالم ، ولم يعتقدوا هذا الرأي صاحب فكرة ولا وازبه صاحب العقل ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى :
" مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى " .

وبهذا يتضح أن الجاهليين ان ورد عنهم شيء من أفعال الله أو قدرته ما يعتقدونه في الله فلا غرابة في ذلك ماداموا قد اعترفوا لله بالربوبية ، وإنما عبدوا تلك الأوثان لتكون واسطة يستشفعون بها عند الله .
ومما يلاحظ على مرجليوث في هذا الصدد أن أكثر شواهد من شعر عبيد ابن البرص ، وعبيد هذا نصت المصادر على تألهه وتحنفه^(٢) ، وهذا الشعر يوءكد ذلك ولا يدفعه . وليس بعيدا أن يقول عبيد مثله .

وأخيرا فلو وافقنا مرجليوث الشك فيما استشهد به ثم ذهبنا الى بعض مصادر الشعر الجاهلي ، فاننا نجد الكثير من الثقات يوردون أمثال هذه الأشعار ، من يطمئن الى صحة روايتهم فهذا " أفنون التغلبي^(٣) يقول^(٤) :
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى . . اذا هولم يجعل له الله واقيا

(١) طبقات الام : ص ٢٤ .

(٢) انظر ماسلف عنه في ذكر الحنفاء .

(٣) هو صريم بن معشر بن زهل ، لقب بأفنون ، وهو شاعر جاهلي مشهور ،

من بني تغلب . وانظر : الشعر والشعراء : ٤١٩/١ ، الاشتقاق : ٣٣٦ .

(٤) المفضليات : ٢٦١ .

(١) وقد كان الله عندهم فوق كل الارباب ولا أعظم من الحلف به ، قال النابغة الذبياني:

حلفت فلم أترك لنفسك ربيبةً . . وليس وراء الله للمرء مذهبٌ

وهذا أحدهم يسند الى الله تعالى الخفض والرفع في المكانة بين القوم كما يدعو

الله ان يرفع من قدر ال شيبان قائلا: (٢)

اذا وضع الهزاهز ال قوم . . فزاد الله الكم ارتفاعا

ولا سبيل لنا الى ايراد المزيد من مثل هذه النماذج فهي كثيرة اخترنا منها

ماندلك به على ما نذهب اليه . (٣)

أما الاشارات الى القصص الدينية الذي ورد في القرآن والذي تضمنه

الشعر الجاهلي وبخاصة الشعر الديني فقد عده مرجليوت مطعنا للشك في صحة

الشعر الجاهلي ، وقد اتخذ هذا الباحث من قوله تعالى: (٤) " تلك من أنبياء

الغيب نوحيا اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . . حجة لجهل

العرب بقصة نوح - عليه السلام - ثم انه يعلق على ذلك بقوله: (٥) " هذا لا يعنى

أن العرب ما كانوا يعرفون قصة نوح ، ولكنه يعنى أن هذه بهذا التفصيل والبيان

كانت مجهولة لديهم " ثم يذكر شاهدا على ذلك قول النابغة الذبياني ففى

مدح النعمان: (٦)

فألقيت الأمانة لم تخننها . . كذلك كان نوح لا يخون

ثم قال: (٧) والمرجع الواضح الوحيد فى وصف (الابين) هو القرآن ، فقد استعمل

(١) ديوانه : ٥٥

(٢) الفضليات : ٣٠٥ ، من شعر مقامس العائذي ، الهزاهز : الحروب .

(٣) لمزيد من ذلك انظر ما سيأتى فى فصل المعتقدات من هذا البحث .

(٤) هود : ٤٩ .

(٥) أصول الشعر العربي : ١١٢ .

(٦) ديوان النابغة : ٢٦٦ .

(٧) أصول الشعر العربي : ص ١٣٤

هذه الكلمة في وصف نوح " في قوله تعالى (١) : " ان قلائم أخوهم نوح الا تتقون
 انى لكم رسول أمين " والذي يبدولى أن هذا لا يعد وقول محقق ديوانه (٢)
 " وهو يدل على أن اشتها نوح عليه السلام بعدم الخيانة كان معروفا بين العرب " .
 وقد بدا لهذا الأمر عند مرجليوث عدد من النماذج كذكر ارم وعاد وشمسود (٣)
 فى قول الشاعر :

لا تحسبنّ الدهر مُخلِدَكم .. أو دائما لكم ولم يــــدم

لو دام دام لتبّع وذوي .. الا صناع من عاد ومن ارم

وذكر من هذا أيضا قصة الفيل المشهورة فى شعر للبيد نسب اندحار هوءلاء الفزاة
 الى الله (٤) ، وأخر تلك النماذج ماورد من قصة موسى وأخيه هارون مع فرعون مصر
 فى شعر لزيد بن عمرو بن نفيل أشهر الحنفاء (٥) .

وهذه الظواهر التى ارتاب فيها الباحث فى الشعر الجاهلى ليست من الشك
 الى مثل مايرى ، فهى لا تزيد عن ذكر لهوءلاء الأنبياء مع الاعتراف برفعة شأن هوءلاء
 الرسل ، واذا كان الشك يظهر جليا فى قصيدة زيد بن عمرو المشار اليها فان
 ماعداها لا يتطرق اليها الشك الى مثل درجتها ، فلماذا نستنكر أن يذكر هوءلاء
 الشعراء بعض هوءلاء الرسل الكرام ؟ ونحن قد علمنا - فيما سبق - أن اليهودية
 والنصرانية قد وجدت فى بعض أماكن متفرقة من الجزيرة

(١) الشعراء : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ديوان النابغة : ٢٦٦ .

(٣) أصول الشعر العربى : ٧٥ .

(٤) السابق : ٧٦ .

(٥) أصول الشعر العربى : ٧٦ . ومنه قوله :

وأنت الذى من فضل من ورحمة .. بعثت الى موسى رسولا ناديا

فقلت له فانهب وهارون فادعوا .. الى الله فرعون الذى كان طاغيا

وقولا له أنت سمكت هــــــذه .. بلا عمد حتى استقرت كما هيا

وقولا له أنت سويت هــــــذه .. بلا وتد حتى استقرت كما هيا

وربما تسربت بعض من أفكارهم الى العرب ، ولا ريب أن اليهود والنصارى على علم بهؤلاء الرسل ، فما المانع - والا مر هكذا - أن يرد ذكر لهؤلاء الرسل والا نبياء ؟ والناطقة الذبياني الذي ذكر نوحاً نراه في شعره يذكر سليمان عليه السلام في أثناء مدحه للنعمان قائلاً (١) :

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه . . ولا أحاشى من الاقوام من أحد
الا سليمان ان قال الاله له . . قم في البرية فاحدثها عن الفند (٢)
وخيس الجن اني قد أذنت لهم . . بينون تدمر بالصفاح والعمد (٣)
وليس هذا الامر مقصوراً على الناطقة وحده ، بل نجده عند غيره من الفحول ،
ما يدل على أن أمر هؤلاء الرسل مألوف ومعروف بين عرب الجاهلية . فهذا
الاعشى الكبير يذكر نوحاً والطوفان عند مدحه اياس بن قبيصة الطائي (٤) ، فيقول (٥) :

جزى الاله ايا ساخيراً نعمته . . كما جزى المرء نوحاً بعدما شاباً
في فلكه ان تبدأها ليصنعها . . وظل يجمع الواحاً وأبواباً
ويذكر الاعشى أيضاً داود عليه السلام ويصفه بصانع الدروع مرتين ، كقوله (٦) :

ودروع من نسج داود في الحر . . ب وسوق يحملن فوق الجمال
وقوله (٧) : وأعدت للحرب أوزارها . . رماحاً أطوالاً وخيلاً زكورا
ومن نسج داود موضة . . تساق مع الحي غيراً فعيرا

(١) ديوان الناطقة : ٨٢ .

(٢) أحدها : أمنعها ، الفند : الخطأ في القول أو الكذب أو ما يعاب .

(٣) خيس : ذلل الجن للعمل ، الصفاح : الحجارة الصلبة العريضة ، العمد : يريد الاعمدة جمع عمود .

(٤) من شيبان بن ثعلبة من طيء ، وكان عامل كسرى على عين التمر وما حولها ، ثم ولي الحيرة بعدما قتل النعمان بن المنذر .

انظر : تاريخ ابن خلدون : ٢٦٥ ، والكامل في التاريخ : ١٧٣ / ١ .

(٥) ديوان الاعشى : ٤١٥ .

(٦) ديوان الاعشى : ٦١ ، وسوق : جمع وسق (بفتح الواو وسكون السين) وهو الحمل .

(٧) السابق : ١٤٩ .

ومادام قد ورد في الشعر الجاهلي ذكر للأنبياء تارة وللأقوام السابقة كعاد وشمود تارة أخرى فلا نستبعد أن من ذكر مثل هؤلاء الأنبياء لا يغيب عليه خبر أقوامهم ، كما أن من علم خبر هؤلاء الأقوام لا يخفى عليه نبأ رسلهم .
وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الأنبياء وأقوامهم قد تم تاريخهم داخل جزيرة العرب وعلى مقربة من أطرافها ، وقد كان من حال العرب التجارة وكثرة الترحال ، ثم لا يكون لهم علم بما حدث في كثير مما يمرون عليه من الديار ! خاصة وأن القرآن يؤكد ذلك نحو قوله تعالى (١) : " وانكم لتمرن عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون " وكقوله عز وجل : (٢) " أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها " . كما أن من غير المتصور في الأذهان أن ترد في القرآن تلك الآيات الكثيرة بل والمعيدة في كثير من الأحيان لقصص تلك الأقوام ورسلمهم لتخاطب قوما يجهلون ذلك وينكرونها ، ان لم يكونوا على علم بحوادث هؤلاء الأقوام ودقائق تفصيلاتها .

ولا ضير علينا أن نورد قولاً للامام ابن جرير الطبري أورده بعد أن انهى الحديث عن قوم صالح - عليه السلام - والذي سبقه بالحديث عن قوم عاد فقال (٣) : " فأما أهل التوراة فانهم يزعمون أن لا ذكر لعاد ولا شمود ولا ليهود وصالح في التوراة ، وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم وقومه . . ولولا كراهة اطالة الكتاب بما ليس من جنسه لذكرت من شعر شعراء الجاهلية الذي قيل في عاد وشمود وأمرهم بعض ما قيل . ما يعلم به من ظن خلاف ما قلناه في شهرة أمرهم في العرب صحة ذلك " .

ويبدو لي أن مرجليوث في أثناء حديثه عن نوح يتعجب أيضا من وضوح الجاهليين للأنبياء في هذه المكانة الطيبة حتى كأنهم عرفوا قدرهم ومنزلتهم

(١) الصافات : ١٣٧ .

(٢) محمد : ١٠ .

(٣) تاريخ الطبري : ٢٣٢/١ .

كما يعرفها المسلمون ، ولا نريد هنا أن نزيد عما ورد في القرآن من تعجب المشركين حين أرسل الله اليهم رجلا من البشر، إذ كانوا يتصورون أن يكون أعلى شأنًا من ذلك كان يكون ملكا أو ينزل معه الملائكة مقترنين .

أمّا التغيير في هذا الشعر الديني باستبدال لفظ الجلالة محل الأصنام وأن الاسلام من وراء ذلك حتى يقضى على تلك الوثنية فقد تصور ذلك بعض المستشرقين وحسبنا في هذا أن نذكر مقاله بلاشير في ذلك ففيه بيان ذلك ورده ، قال (١) :

" ألم يحذف المسلمون كل ما من شأنه التذكير بعبود الوثنية ؟ يعتقد المستشرقون فولد زيهر ، ودورو بنورغ ، وباسيه ، وليال ، ومرجليوت ، بحدوث اصلاحات ذات دوافع دينية أدت الى حذف الصيغ المقدسة وتحاشي الاشارة الى الوثنية واستبدال كلمة اللات بكلمة الله . وفي الواقع فان هذا التطهير ذا المصدر الديني ليس أقل تأكيدا ، فاذا حدث فعلا فهو لم يؤد الى اختفاء تام للصيغ الجامدة والاشارة الى الطقوس الدينية في العصر الجاهلي فان هناك كثيرا من الظواهر لا تزال باقية ، واذا كانت نادرة فان الزمن هنا وهناك عدا عليها . كما أن الشاعر العربي في ذلك الزمن كان أمّا قليل الانشغال بالأمور الالهية أو أنه كان حريصا على عدم مزجها بأموره الدنيوية، أمّا الاستعاضة عن كلمة اللات بكلمة الله فهي غير مقبولة إذ ثبت اليوم أن استعمال كلمة الله كسمية إلهية عليا سابقة للاسلام ."

ومما تراءى للمستشرقين أيضا ما يتعلق بالشعر الديني ، فقد رأى بعضهم أن كمية هائلة من هذا الشعر لا يجب علينا أن نثق به ، وقد رأى ذلك بلاشير

(١) تاريخ الادب العربي " العصر الجاهلي " : بلاشير : ١٨٨/١ . ترجمة د . ابراهيم الكيلاني . ط . دار الفكر .

(٢) قول مرجليوت ص ٧٣ من " أصول الشعر العربي " .

ان صرح في تاريخه العصر الجاهلي بقوله ^(١) : " اننا نفرد دون تردد كمية هائلة من الشعر المدسوس في أساطير وردت في سيرة ابن هشام ، وكتاب التيجان لعبيد بن شربة ، . . كما يتناول أيضا قصائد ذات طابع ديني أمثال قصائد ورقة أو أمية بن أبي الصلت ، . . . " .

وقد كان قريبا من بلاشير ما ذهب اليه المستشرق الايطالي كارلو نالينو في تاريخه للأدب الجاهلي ^(٢) ، وان كان الأخير أقرب الى الاعتراف لأمية بشيء من الشعر .

والذى يمكن لنا قوله هنا أننا نرجى هذه المسألة ، ذلك أنها سترد علينا عند طه حسين وهناك تأخذ حظها من النقاش ان رأيه في هذه المسألة قريب جدا الى رأى هذين المستشرقين .

(١) تاريخ الادب العربي : ١٨٤ .

(٢) تاريخ الادب العربية " كارلو نالينو " : ٩٤ . ط (١٩٥٤ م) دار المعارف

(٢) عند الدكتور طه حسين
 ~~~~~

كان طه حسين أكبر من تبني قضية الشك في الأدب الجاهلي في العصر  
 الحديث ، وقد كان يرى جملة من العوامل تدعو إلى الشك في صحة هذا الشعر ،  
 وكان الدين واحداً من أسباب الانتحال في هذا الأدب ، وهو الذي يعنينا في  
 هذا الموضوع من بين تلك الأسباب المذكورة . وسنحاول أن نحصر آراء طه حسين  
 في هذا الموضوع في عدد من النقاط حتى يسهل حصرها ويتسنى لنا سوق ما لوحظ  
 عليها من نقد وما جوبهت به من تمحيص وود .

وهناك فكرة عامة أوردها الدكتور قبل أن يدخل في التفاصيل في أسباب  
 الانتحال ، وتلك الفكرة حصرها عنوانه <sup>(١)</sup> : "مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتصق في  
 القرآن لا في الأدب الجاهلي" ولا شك أن ما تنطوى عليه الحياة الجاهلية الحياة  
 الاقتصادية ، والعقلية الدينية وغيرها ، وما دنا ترتبط في هذا الموضوع بالحياة  
 الدينية فالذي يدل عليه هذا القول أننا يجب أن نلتصق الحياة الدينية لعرب  
 الجاهليين في القرآن الكريم فقط ، ولا ننظر إليها فيما نعلمه من أدب هؤلاء  
 الجاهليين ، إذ ما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا  
 الأدب الذي يضاف إلى الجاهليين ، ونتيجة البحث عنها في القرآن كما يرى  
 هذا الباحث .

وقد شرح رأيه هذا في الحياة الدينية ، إذ رأى أن : " هذا الشعر الذي  
 يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور  
 الديني القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والسيطرة على الحياة  
 العملية . والا فإين تجد شيئاً من هذا في شعرا مرء القيس أو طرفة أو عنصرة !  
 أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ! .

---

( ١ ) في الأدب الجاهلي : د . طه حسين : ٧٠ ، ط . ١ - دار المعارف  
 بمصر .

وأما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر ، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها الى أن يجادلوا عنها ماوسعهم الجدل ، فاذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا الى الكيد ، ثم الى الاضطهاد ، ثم الى اعلان الحرب التي لا تبقى ولا تذر . أفقتن أن قريشا كانت تكيد لأبنائها ثم تضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثم تخرجهم من ديارهم ثم تنصب لهم الحرب وتضحى في سبيلها بشرتها وقوتها وحياتها لولم يكن لها من الدين الا مايمثله هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين ؟ كلا ! كانت قريش متدينة قوية الايمان بدورها ، ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ماجاهدت وضحت بما ضحت " (١) .

وقبل أن ندخل في مناقشة هذه الفكرة أحب أن أنبه الى أنه نظرا لما كان لكتاب الدكتور طه حسين " في الشعر الجاهلي " والذي أظهره بعد ذلك باسم " في الادب الجاهلي " من ضجة علمية كبرى أحدثها عند ظهوره ، مما حدا بعدد من الباحثين الى مناقشته ونقده بل ونقضه فيما أظهره من كتب أختصت في الرد عليه بالتفصيل ، وبما أن هذه الفكرة السابقة وما سيتبعها من ملاحظات هي من آراء الدكتور طه حسين والتي وردت في كتابه ذلك ، فقد نالت أفكاره هذه في الناحية الدينية نصيبا وافرا من مناقشات أولئك الباحثين الذين تصدوا للرد عليه ، شأنها في ذلك شأن غيرها من أفكاره التي أوردتها في ذلك الكتاب . ونحن هنا لا نريد حصر كل ما ورد على طه حسين من مناقشات وملاحظات في هذه الناحية الدينية . وحسبنا أن نورد من آراء الدكتور طه حسين أهمها على ما يبدو لنا ، وهي التي تتصل مباشرة بموضوعنا وله علاقة بها ، وهي فيما يبدو وجامعة لكل أسباب الشك التي قد ترد حول أدب الحنيفية ، ولعلنا بعرضها ومناقشتها - مستفيدين ممن عارضوا طه حسين - نرتب هذه الفقرة ونقرّب مأخذها .

أما فكرة طه حسين العامة ، والتي مهد بها فيما يبدو وليصل الى أسباب النحل في الشعر الجاهلي والتي مؤداها أن الشعر الجاهلي الموجود في

المصادر لا يمثل حياة الجاهليين الدينية كما يصورها القرآن في القوة والوضوح فهذا ما سبق أن ذكره مرجليوث وأخرنا مناقشته هنا مع هذه لاتفاقها ، ولعل هذا أخذه طه حسين عن مرجليوث . فقد أبطل الباحثون ذلك بأدلة قوية . فالقول بقوة دين الجاهليين نظرا لقوة ما لقيه النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم ليس سديدا ، فانه - عليه الصلاة والسلام - لم يلق معارضة قوية الا من مشركى مكة ومن يهود المدينة ومن كان حول مكة والمدينة من القبائل . . ومكة والمدينة ليست هي كل بلاد العرب . وأهل مكة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهورتهم ، فمن الخطأ الواضح ان يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب وأن يستند في ذلك الى القرآن " ( ١ ) .

ان من الطبيعي أن يشير القرآن الى دين الجاهليين " ويمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسيئاتهم تمثيلا لا يدانيه فيه شعر ولا تاريخ . وكيف لا يكون كذلك وهو انما جاء لنقلهم مما هم عليه الى حال أرقى بدرجات وتهيئتهم لأن يحيوا حياة سالحة تأخذ بهم الى معارج الارتقاء وتحفزهم الى تخطى دوائر الجسود التي كانوا فيها . . . وهل يتأتى له ذلك الا بالدخول فى صميم شئونهم الحيوية وحكاية ما هم عليه من المنكرات الاجتماعية ثم الكسر عليها بالتقبيح والتهجين ، أو بالتعديل والتقويم " ( ٢ ) .

" ان الحديث عن الدين وتصوير العقائد والضراعة للمعبود فقل أن تجده الا عند أمثال أمية بن أبى الصلت وغيره من القلائل الذين تنطوى نفوسهم على سكينه وادعة وتعلق بالخالق والقرآن الكريم وصف الشعراء بقوله : " والشعراء يتبعهم الغاؤون . . . فهو بهذا يحكى الجيلة التي كانت تسيطر عليهم وتستبد بهم ، أفترى مع ذلك أن الشعر كان يجب أن يصور العقائد ويدعو الى الالهة . . .

( ١ ) النقد التحليلي لكتاب فى الادب الجاهلى : أحمد محمد الفمراوى :

١٥٢ ، ١٥٣ . ط ( ١٩٨١م ) .

( ٢ ) نقد كتاب الشعر الجاهلى : محمد فريد وجدى : ٣١ ، ٣٢ . ط ( ١٩٢٦م )

دائرة معارف القرن العشرين بمصر .

وأين الشعر الدينى الذى نجده فى شعر الحطيثة وجريز والفرزدق ؟ وشعـر كل واحد من هؤلاء لا ينطوى الا على هتك الأعراض وتمزيق الحرمات والولوغ فى كرامات الناس، مع أن الدين يحرم عليهم هذا ويحاربه أشد حرب ويعاقب عليه ، بل أين الشعر الدينى فى شعر أعظم الشعراء الاسلاميين وهو حسان ؟ . . . تلك ليست وظيفة الشعر ولا هى مما يتعلق بمهمته ان هو دائما يقوم على العواطف والانفعالات لا على المراء والجدال (١) .

وما دام الشعر كذلك فان " معظم شعر العرب كان فى الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذى يمثل دينا غير الاسلام ولا سيما دين اللات والعزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت الينا بقية من الشعر الذى يحمل شيئا من الروح الدينى ، تجده فى كتاب الاصنام لابن الكلبي وغيره (٢) . ثم ان الشعر الجاهلى الباقي بين أيدينا صور حياتهم الدينية بحجمها الصحيح ففيه الكلام عن التوحيد ، وعن الاصنام وعن عبادة الكواكب ، والنار ، والجن والشجر ومعبودات أخرى ، وفيه تصوير لموقف الدهريين فى انكارهم للبعث (٣) .

ولما كان الدليل سند كل مدع أو منكر كان من الباحثين من أتى بعدد من الابيات غير قليل ثم ساقه خير دليل على ذلك ، وبرهن بما أورد على الناحية الدينية عند عدد من الشعراء ، بل لقد دلل على النزعة الدينية عند امرئ القيس وعنتره الذين زعم طه حسين أنه لا يجد للدين فى شعرهما ذكرا (٤) ، ولولا خوف الاطالة لذكرنا نماذج منها وبهذا تنقض هذه المقولة ولا تكذب لها الصحة بل هى نظرة عجلية فاتها التحرى والدقة وغلب عليها التعميم الذى قد ينخدع به من لم ترسخ به القدم فى دراسة هذا الأدب العربى القديم .

(١) نظرية الانتحال : د . عبد الحميد السلوت : ١١٩ . ط دار القلم . القاهرة .

(٢) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : محمد الخضر حسين : ٤٨ .

(٣) انظر الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٣٧٠ - ٤٣١ .

(٤) الشهاب الراصد : محمد لطفى جمعة : ٨٥ - ٩٢ .



ويعد هذه الفكرة السابقة نرى الدكتور طه حسين يفرد فصلا في كتاب أسباب الانتحال من كتابه ليفصل القول في بيان العوامل الدينية التي كانت من وراء انتحال الشعر ، وقد رأى أنها - أى العوامل - تأخذ اشكالا مختلفة نورها في عدد من النقاط ثم نعقب على كل واحدة منها بالنقد والتمحيص .

١ - أول هذه الأمور عند الدكتور أن " هذا النحل في بعض أطواره يقصد به الى اثبات صحة النبوة وصدق النبي . وكان هذا النوع موجها الى عامة الناس ، وأنت تستطيع أن تحمل على هذا كل ما يروى من هذا الشعر الذي قيل فى الجاهلية ممهدا لبعثة النبي ، وكل ما يتصل بها من هذه الاخبار والأساطير التي تروى لتقنع العامة بأن علماء العرب وكهانهم ، وأخبار اليهود ورهبان النصارى ، كانوا ينتظرون بعثة نبي عربي يخرج من قريش او مكة . وفى سيرة " ابن هشام " وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع " (١) .

- وبهذا فهو ينكر هذه الأشعار والاخبار الممهدة للبعثة النبوية : " وانكارها على هذا الوجه انما تسمعه ممن ربط قلبه على نفي النبوة ، ان ليس من المحتمل عنده أن يقال فيه شعر أو يريد عنها خبر قبل أن يذيعها صاحبها . أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخلق حق فمن الجائز عندهم أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها ، وشأنهم أن يفحصوا كل ما يرد فى هذا الصدد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة ، وكذلك فعل علماء الاسلام فحكموا على جانب ما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالأخبار والأشعار المروية الى قس بن ساعدة " (٢) .

ولا ريب أن هذا الباحث مال ، عن الحق فى هذا الامر ، والقرآن الكريم نفسه ينص صراحة على علم أهل الكتاب بهذا النبي علم اليقين ، وأنه سيبعث بلا ريب حتى ليعرفوه مثل معرفة الرجل ولده : " الذين آتيناهم الكتاب

(١) فى الادب الجاهلى : ١٣٣ .

(٢) نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : ١٨٨ .

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم<sup>(١)</sup> بل ويتوعدون به من حولهم " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به " (٢) وقد بشر النصارى به كما أخبرهم عيسى بن مريم عليه السلام : " واذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل انسى رسول الله اليكم مصداقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " (٣) واذن فهذه الحقيقة ثابتة بنص القرآن . فاذا قال فيها بعض العرب شعرا فليس علينا الا التوثيق لهذا الشعر منتفعين بالجهد الذى بذله القدماء ، أمّا أن ندعى أن هذه القضية حملت على الانتحال ، فانه لا ضرورة لهذا لأن أخبار القرآن عند المسلمين أصدق من أخبار الشعر ، واذا فليس ثمة مجال للباعت على الانتحال ، فهذه من الدكور طه فيها مجاوزة للواقع ومجانبه للحق " (٤) .

٢ - ثم يتطرق طه حسين الى نوع آخر من أنواع هذا النحل وهو شعر الجن ، ويرى الباحث أن سبب هذا أن " فى القرآن ( سورة الجن ) أنبأت أن الجن استمعوا للنبي وهو يتلو القرآن ، فلانت قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، وعادوا فأنذروا قومهم ودعوهم الى الدين الجديد . . . فلم يكذ القصاص والسروراة يقرءون هذه السورة وما يشبهها من الآيات التى فيها حديث عن الجن حتى ذهبوا فى تأويلها كل مذهب ، واستغلوها استغلالا لا حد له ، وأنطقوا الجن بضروب من الشعر وفنون من السجع ، ووضعوا على النبي نفسه أحاديث لم يكن بد منها لتأويل آيات القرآن على النحو الذى يريدونه ويقصدون اليه<sup>(٥)</sup> .

(١) الانعام : ٢٠ .

(٢) البقرة : ٨٩ .

(٣) الصف : ٦ .

(٤) من قضايا الأدب الجاهلى . د . محمد أبو الانوار : ١٣٦ . ط مكتبة الشباب القاهرة .

(٥) فى الأدب الجاهلى : ١٣٣ ، ١٣٤ .

وقد مثل لذلك بشعر يتعلق بالعصر الاسلامي ، ثم بين الغرض من هذا النحل على الجن " وانما هو ارضاء حاجات العامة الذين يريدون المعجزة في كل شيء ، ولا يكرهون أن يقال لهم : ان من دلائل صدق النبي في رسالته أنه كان منتظرا قبل أن يجيء بدهر طويل ، تحدثت بهذا الانتظار شياطين الجن وكهان الانس وأخبار اليهود ورهبان النصارى " (١) .

ومن المعروف أن الجن كان لها ذكر عند العرب ( واننا وكل من له المام بأداب العرب نقرأ الكثير من الشعر المروي عن الجن والانس ، ولم يخطر ببالنا يوما أن المقصود به أن الجن قالتها حقا وصدقا ، وأنها تنشد باللغة العربية والا وزن العربية شعراء في أمور دينية أو سياسية ، ولكننا منذ قرأنا وأدركنا نعلم أن هذا الشعر يتضمن فكرة الشاعر المجهول أو المعلوم الذي نظمها ولم ينسبه لنفسه وأن الجن ليست الا وسيلة لروايته كما فعل شعراء الافرنج مثل غوته ، وشكسبير ودانتي وميلتون فقد انطقوا الجن في دواوينهم بالشعر والنثر وزاد دانتي وميلتون بالخوض في وصف الجنة والجحيم ورويا لنا من شعر الملائكة والأبالسة ما لم يخطر على قلب بشر فهل صدقنا أن الملائكة والشياطين والجن قالت هذا الشعر حقا كما يصدق الطفل حديث ( عقدة الأصبغ ) أو قصة ( الس في أرض الجن ) بل نعد الشعر الذي نسب الى الجن في مقتل سعد بن عبادة ورتاء عمر بن الخطاب من النوع التمثيلي الفطري الذي لم تنضج مواهب العرب في بابه لانهم وان لم ينظموا شعرا تمثيلا فان خيالهم قد اتجه نحو هذا النوع من الأدب ) (٢) .

وكلام الدكتور طه يدل على اقتناع الرواة بأن هذا الشعر للجن وليس له من يضاف اليه (٣) وكأنه يريد " أن ينسب لجميع الذين رووا هذا الشعر وهم

(١) في الادب الجاهلي : ١٣٥ .

(٢) الشهاب الرائد : ٢٠٩ .

(٣) في الادب الجاهلي : ١٣٤ .

أصحاب الرواية مانسبه اليهم ، ولا يظهر عوار هذا الكلام وخلوه من التحقيق العلمى بأكثر من أن ننقل عبارة بن سلام ، وهو أقرب الكتاب اليه لأنه كثيراً ماينقل عنه . قال : ( وكان للشماخ أخوة وهو أفحلهم ومزرد وهو أشبههم به وله أشعار وشهرة ، وهو الذى يقول يرثى عمر بن الخطاب :

جزى الله خيراً من امامٍ وباركتُ . . . يدُ الله في هذا الأديم الممزق الخ . . .  
 فابن سلام من أصحاب الرواية ، بل هو عمرة مقدم ، وليس من المقتنعين بأن الشعر للجن ، ولم يتحدث فى شئ من الانكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر للشماخ ، أما نسبة الابيات الى الجن فقد وردت فى ( طبقات ابن سعد )<sup>(١)</sup> أى أنه اعتمد على الرواية الاخبارية وترك الرواية الأدبية الموثقة .

ثم ان ما زعمه طه حسين من الهام الآيات المتحدثة عن الجن فى القرآن للقصاص والرواية حين قرءوها واستغلال ذلك استغلالاً لا حد له " يوحى أن الجن لم يكونوا معروفين عند الجاهليين حتى نزلت سورة الجن . وهذا خطأ واضح لأن العرب أمة صحراوية متسعة الخيال ، وقد تناقلت فى الجاهلية حديث الجن وعرفت الكثير عن الفول والسعلاة ؟ وفى أشعار لصوص العرب والباديين طرائف من مقابلة الجن ومحادثاتهم ، بل انهم جعلوا لأكثر شعراء الجاهلية ملهمين من الجن ، فجعلوا لامرئ القيس ولعبيد وللأعشى قرناً يعرفون بأسمائهم ، وكل ذلك قبل أن ينزل القرآن الكريم ، وقبل أن يتلو الناس سورة الجن ، فكيف يقول الكاتب لم تكذ تنزل هذه السورة حتى بعثت على الاساطير"<sup>(٢)</sup> . وهذه الظاهرة من أساطير الجن ونقصهم لم تخف على الرواه وقد نبهوا

( ١ ) محاضرات فى الاخطاء العلمية والتاريخية التى اشتمل عليها كتاب فى الشعر

الجاهلى . محمد الخضر حسين : ٢٦ .

( ٢ ) موقف النقد الادبى من الشعر الجاهلى . د . محمد رجب البيومى : ١٢٩ .

ط . جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض .

الى ذلك مع تعليل لهذه الظاهرة التي ألفوا روءيتها عند بعض هؤلاء  
الجاهليين (١).

٣ - من هذه الاشكال التي اتخذها النحل بتأثير الدين \* ما يتصل بتعظيم  
شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش . فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي  
يجب أن يكون صفوة بني هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف . . .  
وأخذ القصاص يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل  
منه بأسرة النبي خاصة ، فيضيفون الى عبد الله وعبد المطلب وهاشم وعبد مناف  
وقصى من الاخبار ما يرفع شأنهم ويعلى مكانتهم ويثبت تفوقهم على قومهم وعلى  
العرب خاصة . . . واذن فالبطون القرشية على اختلافها تنحل الأخبار  
والأشعار وتغرى القصاص بنحلها . ولا أصل لهذا كله الا أن قريشا رهط  
النبي من ناحية ، وأن الملك قد استقر فيها من ناحية أخرى ، فانظر تعاون  
العواطف الدينية والسياسية على نحل الشعر أيام بني امية وأيام بني العباس (٢)  
\* الذى لا شك فيه تاريخيا أن قريش كان لها التقدم والسيادة ، وصلتها  
بالكعبة معروفة ، وثورتها التي وصلت اليها عن طريق التجارة مشهورة ، فأى  
حاجة تلك التي تجعل الرغبة في تعظيم النبي وأسرته سببا لانتحال الشعر ،  
ان النبي قد شرفه الله بالنبوة ، وان قريشا معروفة الشأن بين العرب . . .  
والمتوقع حقيقة أن سيادة قريش ومقامها من السقاية ومكانها من السرفادة  
وولايتها على البيت الحرام ، كل ذلك سوف يجعلها أهلا لأن يقال فيها  
شعر ، فالسبب الذى جعله الدكتور طه مدخلا لانتحال الشعر هو فى  
الحق سبب لتوثيقه وان لم يصل بعضه الينا (٣).

اذن من المعروف أن نسبه عليه الصلاة والسلام كان فى أشرف قريش ، بل فى

(١) أنظر ذلك فى الحيوان : ٢٤٨/٦ - ٢٥٥ .

(٢) فى الادب الجاهلى : ١٣٥ ، ١٣٦ .

(٣) من قضايا الادب الجاهلى : ١٣٩ .

ساداتهم كما نعلم عن أبي طالب ، وعبدالمطلب وهاشم وغيرهم ، وقد وقف أبو طالب مع الرسول وما كان أحد يناله بأذى لذلك ، وقد اعترف به هذه الحقيقة أعداءه صلى الله عليه وسلم كما عرفها له النصارى وعلماءهم ، وقصة أبي سفيان مع هرقل - عظيم الروم - وسوءه عن نسبه عليه الصلاة والسلام ذائعة الصيت <sup>(١)</sup> ، وخير ما يمكن قوله في هذه المسألة .

٤ - " نحو آخر من تأثير الدين في نحل الشعر ، وهو هذا الذى يلجأ اليه القصاص لتفسيره كما يجدونه مكتوباً في القرآن من أخبار الأمم القديمة البائرة كعاد وشمود ومن اليهم فالرواة يضيفون اليهم شعرا كثيرا " <sup>(٢)</sup> .

— وهذا النوع قد كفانا ابن سلام نقده والتنبيه الى وضعه عليهم ، وقد أضاف هذا النوع القصاص كابن اسحاق الذى أورد كثيرا منه فى السيرة <sup>(٣)</sup> . وهذا الكلام ينحصر فى اضافة هذا الشعر لعاد وشمود وغيرهم وانطاقهم به ونسبته اليهم ، ولكن قول الدكتور " لتفسير ماورد فى القرآن من أخبار الأمم القديمة " ربما أوحى بعدم معرفه العرب بهؤلاء الأقبام وخلو الشعر الجاهلى من ذكرهم ولا شك أن هذا غير الصواب فهذا زهير يقول <sup>(٤)</sup> :

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم . . كأحمر عادٍ ثم ترضع ، فتفطم

وكانوا اذا بعثوا وافدا قالوا : لاتكن كوافد عاد <sup>(٥)</sup> ، يريدون فى الشر والشؤم .

٥ - " نحو آخر من تأثير الدين فى نحل الشعر ، وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة .

(١) انظر فتح البارى ١ / ٢١ .

(٢) فى الادب الجاهلى : ١٣٨ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٧ ، ٨ .

(٤) ديوانه " العلم " : ١٩ ، غلمان أشام : أى غلمان شؤم وشر ، والمراد بالاحمر

هنا : أحمر شمود الذى عقر الناقة فلعل زهير غلط فى ذلك ، وقيل بل قاله

مجازا ان المعنى معروف .

(٥) قصص الانبياء : ١٠٧ .

فأرادوا هم أو الموالى أولئك وهو لا<sup>١</sup> أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً  
ويثبتوا صحة الفاظة للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة  
من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لاسبيل  
الى الشك في عربيتها . (١) وقد مثل لذلك لما عزف بمسائل نافع بن الأزرق  
لعبد الله بن عباس<sup>(٢)</sup> ، وذلك الشعر الكثير الذي كثرت حول تفسير القرآن عند  
الرواة وعلماء التفسير .

— وهذه المسألة توحى بأن هناك من طعن في عربية القرآن ، وربما كان الموالى  
من وراء ذلك ، ثم قام المسلمون يضعون شعرا ويدعون سبقه للقرآن لدليل  
على ذلك وجملة الدكتور السابقة " فيها غلو وخطأ : أما الغلو ففي قوله :  
" انهم استشهدوا على كل كلمة منه " ، بين أيدينا التفسيران الكبيران اللذان  
عنيا بهذا الاستشهاد أتم عناية ، وهما تفسير الامام الكبير أبي جعفر  
الطبرى وتفسير الكاتب العظيم أبي عمر الزمخشري ، ومع ما فيهما من الشواهد  
الكثيرة فان ادعاء الاستشهاد على كل كلمة لا يؤيده الواقع ، ان شواهد  
الكشاف عددها ٧٢٧ شاهدا ، وليس هذا عدد كلمات القرآن . . . وأما  
الخطأ ففي ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جئ بها لاثبات عربية  
القرآن ! أكثر هذه الشواهد لشعراء اسلاميين ، وقليل منها ما هو لشعراء  
جاهليين أو مجهولين . . . وليس الاستشهاد لاثبات عربية القرآن كما  
يزعم ، وانما هو لبيان مفهوم الكلمات التي يعدها أحيانا غريبة ، على أن هذا  
المعنى قد يلحظ أحيانا ، وهو أن القرآن ليس يبدع في اللغة وانما جاء بلغة  
العرب لم تشذ فيه كلمة عن مناهجهم " (٣) .

(١) في الأدب الجاهلى : ١٣٨ .

(٢) انظر هذه المسائل في الاتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن

السيوطى : ١٥٧-١٧٥ . ط . دار المعرفة - بيروت . وقد درسته

د . ( بنت الشاطى ) في الاعجاز البيانى للقرآن " القسم الثانى " .

(٣) محاضرات الخضرى في بيانه الأخطاء . . : ٤١-٤٢ .

٦ - " نوع جديد من تأثير الدين في نحل الشعر . فهذه الخصومات بسين العلماء كان لها تأثير غير قليل في مكانة العالم وشهرته ورأى الناس فيه وثقة الامراء والخلفاء بعلمه . ومن هنا كان هؤلاء العلماء حراسا على أن يظهرُوا دائما مظهر المنتصرين في خصوماتهم الموقنين الى الحق والصواب فيمنا يذهبون اليه من رأى . . . فاستشهدوا بشعر الجاهليين على كل شئ . . . وكذب أصحاب العلم على الجاهليين كثيرا سبيل الى احصائه أو استقصائه ، فهو ليس مقصورا على رجال الدين وأصحاب التأويل والمقالات ورجال اللفظة وأهل الأدب ، وإنما هو يجاوزهم الى غيرهم من الذين قالوا في العلم مهما يكن الموضوع الذي تناولوه " (١) وقد مثل الدكتور بكلام عام كالأستشهاد على كل شئ حتى كان هؤلاء الجاهليين قالوا كل شئ ، وما جرى من خلاف بين العلماء والفرق كالمعتزلة وغيرها ، وأدرج الدكتور في هذا كل شئ يرد الى العرب حتى مما استحدثه الروم والفرس .

— أمّا هذه فانها تهمة يلصقها هذا الباحث بعلماء السلف عامة ، في شتى العلوم ، وكأنهم بذلك قد نزعوا الأمانة منهم ، وليس همهم الا الشهرة والمكانة عند الناس ، والعلم عند هؤلاء القدامى تليق وكذب بأيسر الطرق ، فلاأمانة العلم تزجرهم ، ولا حرمة الدين تقف بهم عند حد . كما أن ذلك العصر — كما يستشف من كلام الدكتور — قد خلا من الرواة المحققين والعلماء الثقة والحكام الألمعيين .

" ومن أبسط الردود الواضحة على هذه الفكرة الدور الكبير الذي قام بسببه الرواة والثقة المحققون من نقد وتمحيص لكل لبس دعا اليه موقف لدى رجل يسمح لنفسه بالتزوير والانتحال فيما يقول . على أن الرواة في مجالس الخلفاء والعلماء ولم يكونوا في مملكة من الجهل والغفلة ولكن مقارعة الحجة كانت قوية تكشف عن الباطل وتفضح عواره ، ولم يكن ليفصل فيها خبر مصنوع وهوى مبتدع " (٢)

(١) في الادب الجاهلي : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) من قضايا الأدب الجاهلي : ١٤٣ .



وليت شعري كيف تخفى تلك المنارة الشامخة التي أقامها المسلمون فــــى  
 خدمة السنة المطهرة حتى صفوها من كل شوب . وكيف يذهب أحد الى إنكار  
 النقد في مختلف علومهم وما وصلنا من كتبهم خير دليل على ذلك ، والمجال  
 الادبي نال حظا من ذلك لا ينكره الا مكابر ، وتتبع ابن سلام والمفضل  
 والاصمعي وكثير من العلماء للرواة ثم ترصد هم لما يوردونه بالنقد والتحقيق  
 لا مجال لانكاره عند جمهور الباحثين . واذا كان واقع علماء السلف على  
 ذلك النحو من الخصومة واللد ، وأن الواحد منهم يجد من يأخذ عليه  
 أدنى زلّة يقع فيها ، خاصة وأن عين المخاصم تكشف عن كل سوءة تقع له على  
 خصمه ، فهل هذه الخصومات مدعاة الى الدقة والتثبت والتحقيق بــــين  
 المتخاصمين أم أنها سبيل لا دعاء ، بالا علم للخصم به وانطلاق الى حشد كل  
 غناء دون موازنة ؟ كلا ان ثمره مثل هذه الخصومات كانت خيرا وبركة على العلم  
 في كل عصر ان العرف قد يما وحديثا أن العلم تحقيق لا تلفيق ، ولعل  
 مراد الدكتور عن الخصومة ما عرف بين علماء المصريين - الكوفة والبصرة -  
 من خلافات علمية ، ومثلها ما وقع بين الفرق الاسلامية كالشيعية والمعتزلية  
 وغيرهم .

ومن حسن الحظ أن وصلنا من كتبهم ما يروى كثيرا من هذه الخلافات ، والناظر  
 فيها يجد الكثير من ثمار هذه الخلافات العلمية ، والحق ان هذه ليست  
 خصومات كما تهو لها هذه اللفظة ، وانما هي آراء مختلفة حول بعض المسائل  
 أدى اليه ما عرف بين علماء المسلمين من بعض المسائل كالقياس والاجتهاد ،  
 كما قد يوردى اليها عدم علمهم ببعض الأحاديث عن رسول الله عليه الصلاة  
 والسلام (١) ، وأما الخلافات اللغوية والشعرية فيمكن ارجاعها الى طريقة  
 كل مدرسة ومنهجها في جمع الشعر واللغة ومن ثم اختلفت النتائج وتباينت  
 الآراء (٢)

(١) انظر أمثلة ذلك في : رفع الملام عن الائمة الاعلام : شيخ الاسلام أحمد بن  
 عبد الحلیم " ابن تيمية " .

(٢) انظر : مصادر الشعر الجاهلي : ٤٢٩ - ٤٧٨ .

والحق أن الدكتور قلب الحق منكرا في هذه المسألة ، وإنما هي حجة على التوثيق . والامانة فيما رواه أولئك العلماء من مصنفات ، ومن حق هؤلاء العلماء أن نفخر بهم وأن نذكرهم بفضلهم على من بعدهم في بحث المسائل بأمانة والرجوع الى الحق عند بيانه معا كان لبعضهم من القدرة على أن يستقل برأيه ، دون انكار لما قد يخرج به بعضهم من مسائل تبعد عن الصواب شأن ما يعترى البشر من ضعف ونقص وقصور .

٧ - أما الآن فنصل الى أبعد هذه الانواع أثرا وأعظمها خطرا كما يرى الدكتور ، وقد حدث هذا النوع بعد أن استقر العرب وانتهت الفتوح ، وقد شاع في العرب عند ظهور الاسلام فكرة أن الاسلام يجدد دين ابراهيم فأرادوا أن يثبتوا أن للاسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي عليه الصلاة والسلام ، " ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم قد كان دين العرب في عصر من العصور ، ثم أعرضوا عنه وعبدوا الأوثان ، ولم يبق عليه الا أفراد قليلون يظهرون من حين الى آخر ، وما يروى من أخبار لهؤلاء القلة يشبه أن يكونوا مسلمين لأنهم على دين ابراهيم وهو الاسلام ، ومن هنا يصل الى نتيجة بحثه التي تدل على أن ما روى من أخبار وأشعار لهؤلاء القلة وهم الحنفاء انما وضعت عليهم وضعا ليثبت العرب أن للاسلام قدمة سابقة في بلادهم ، ومن هنا فنعتقد - كما يرى الدكتور - أن هذا الشعر الذي يضاف الى أمية بن أبي الصلت والى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبي أو جاءوا قبله انما نحل نحلا ، ومن هنا لا نستطيع أن نقبل ما يضاف الى هؤلاء الشعراء والمتحنفين الا مع شيء من الاحتياط والشك غير قليل (١) .

— وهذه الفكرة أو النوع من أنواع النحل الديني قد سبق أن رأيناها عند المستشرقين وأخرنا (٢) لاتحادها مع فكرة الدكتور طه حسين هذه ، وقد تنبه

(١) في الادب الجاهلي : ١٤٠ - ١٤٥ .

(٢) انظر أول هذا الفصل .

الدكتور شوقي ضيف الى هذه الفكرة فأوردها مع تحفظ موزون " وأن ماروي من أشعار على السنة اليهود ومن تنصر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغي أن نحترس منه ، وأن لا تتسع في الحكم عن طريقه على ديانات القوم ومعتقداتهم ان يجرى فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغثاء والاسفاف في اللفظ والتعبير " (١) .

ويتضح أن هذا اللون من الانتحال يقع في صميم مايعنيه هذا البحث ، بل هو أكبر أنواعه شكاً في أدب الحنيفية وأبعدها غوراً . وهو بذلك يحتاج منا الى سعة من القول رغم شدة ماتوخينا من الاختصار في ما سبقه من ألوان الشك الديني .

ان اشاعة القول بأن الاسلام يحدد دين ابراهيم لم يخلقها العرب تعصبا للاسلام ، أول للعرب وانما وردت في القرآن الكريم ، من ذلك قوله تعالى : (٢) " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما صينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " وقال (٣) أيضا : " قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه . . . " وقال (٤) أيضا : " وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل . . . " ومن هذه الآيات وأمثالها يتأكد لنا أن الاسلام يعود بالناس الى دين ابراهيم الذي هو دين محمد عليه الصلاة والسلام ، كما أن آيات القرآن لتدل في جلاء على معرفة العرب واليهود والنصارى بابراهيم معرفة جيدة ، وماورد من سيرته وحوادث رسالته من أكبر الأدلة على ذلك .

أما الزعم بأن أخبار هؤلاء الحنفاء قد وضعت عليهم فما لا يمكن الاقرار به ،

(١) العصر الجاهلي : ٣٩٧ .

(٢) الشورى : ١٣ .

(٣) المتحنة : ٤ .

(٤) الحج : ٧٨ .

وكيف يكون الأمر إذا قلبت روايات المؤرخين وأبطلت أقاويل الرواة التي بسني عليها المؤرخون أحداث الحقب التاريخية ؟ ان هذا تهكم وهدم لحقائق التاريخ التي عرفت بدون دليل ، وإذا كنا نعلم أن جاهلية العرب قد وجد فيها من الفوضى والاضطرابات الدينية والاجتماعية وسوء الحال في كثير من نواحي حياتهم شيء غير يسير " فمن الطبيعي أن يكون من بين أبنائهم من كانت فيهم بصيرة نافذة وعقول مفكرة ، فأروا ذلك وأحسوه ، فاتجهوا بنفوسهم نحو التفكير السليم ، والطريق الصحيحة ، يتلمسون النور ويرجون الحق والصواب ، ربما كان في هؤلاء من رزقوا المواهب الفنية والأدبية فصورا مشاعرهم ، وخلجات نفوسهم في صورة من يرى النور ويحدوه الأمل ، وينتظر تحقيق الرجاء ، فكان ذلك ارهاص الخير وبشير الاطمئنان . لذلك لا نستبعد أنه في الجاهلية وبخاصة تلك الفترة التي سبقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة ، قد وجد بين القوم من صفت نفوسهم وسما تفكيرهم فوصلوا بتأملاتهم الدينية الى شيء من الحقيقة في الدين ، وتمنوا أن يتحقق لهم الأمل وتتضح الحقيقة كاملة جليلة " (١) .

وقد سبق أن علمنا أن اليهودية والنصرانية قد عرفتها بعض مناطق متفرقة من الجزيرة وأن النصارى كانوا يعملون على الانحلتهم ، كما علمنا أن نبي الله اسماعيل عليه السلام قد أرسل الى مكة ومن حولها ، وقد انتشرت حنيفية ابراهيم من ذلك وخاصة بعدما رفع اسماعيل وابراهيم قواعد البيت العتيق حين أمرهم الله بذلك . فاذا كان الأمر على هذا فكيف ينكر وجود أناس يحملون بعض الأفكار التي تنطوى عليها بعض هذه الديانات ؟ ولما كانت زيارة ابراهيم لمكة وبنائه للكعبة مما لا مراة فيه " فهل من غرابة بعد هذا أن يأخذ بدينه رجال من العرب الذين اتصلوا به في ذلك العهد ؟ وهل كان دين ابراهيم فوق متناول العقول حتى يستغرب أن يأخذ به رجال

(١) تاريخ الادب الجاهلي ؛ د . علي الجندى : ٣١٩ / ١ ، ٣٢٠ .

من مخالطيه لهم قلوب يفقهون بها ، ولهم آذان يسمعون بها ، ولهم  
ذوق يفرقون به بين الخبيث والطيب ؟ وهل كان دين ابراهيم الا التوحيد  
الذى حوّلت الآثار على أنه وجد من أقدم العهود في مصر والهند والصين  
وسواها ، وأخذ به رجال في تلك الأزمان البعيدة ، فأى غرابة في أن توجد  
منه آثار في بلاد العرب بقيت من عهد ابراهيم ولكن الوثنية تغلبت عليها  
كما هو شأنها في جميع البلدان " (١) .

ان تعليل التحال في أخبار الحنفاء وأشعارهم ليس صحيحا ، وماذا يستفيد  
الاسلام والمسلمون من نحل كهذا والاسلام قد أطبق على أكبر الأجزاء ففى  
القارات الآسيوية والأفريقية والأوروبية ؟ \* وماذا ينفع الاسلام أن يكون للاسلام  
قدمة ومجد في الجاهلية أولا يكون ؟ .. وما تلك القدمة والمجد اللذان  
ينحصران في استلحاق نفر قليل لم يكن لهم في نفوس العرب شيء من المجد  
ولم يكن لهم من أمر العرب في الجاهلية شيء ؟ وماذا ينفع الاسلام أو يضجيره  
أن يكون أمية بن أبى الصلت أو غير أمية قال شعرا وافق أو خالف الاسلام  
حتى ولو كان القائل عاش قبل الاسلام بقرون .. " (٢) .

بعد أن ثبت لدينا قدمة الاسلام لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم تأكد  
لنا أنه من الطبيعي أن يأتى من يحمل شيئا من هذا الأثر أو ما يتفق معه  
من يهودية أو نصرانية فلا مناص لنا من الولوج في الحديث عن ما يمكن أن نشق  
به من شعر حنيفة ورد لهؤلاء الحنفاء أو غيرهم .

(١) نقد كتاب الشعر الجاهلى : ١٣٨ .

(٢) النقد التحليلي : ٢٤١ .

## توثيق شعر الحنيفية

~~~~~

يواجه دارس شعر الحنيفية مشكلة ذات صعوبة كبيرة ، ذلك أن الحنيفية هي الاسلام ، واذا فالشعر الحنيفي ذو نزعة اسلامية واضحة ، ومن المعلوم أن دارس الأدب الجاهلي يقف موقف الحذر والارتياح عندما يقابله شيء من هذا الشعر الديني ، فربما كان من وضع الرواة أو القصاص أو غيرهم في عصور الاسلام المختلفة ولاسيما القرون الثلاثة الاولى ، ومن المسلم به في هذا الصدد أن هناك شعر اسلامي دون شك نسب زورا الى بعض الشعراء الجاهليين ، ونرى كثيرا منه ينسب الى أمية بن أبي الصلت وبعض المشابهين له من الحنفاء وعدى بن زياد العبادي وغيرهم ، وسنذكر بعض تلك النماذج تدليلاً على ذلك في هذا الفصل .

ان " معرفة الشعر الاسلامي وتبليغه من الشعر الجاهلي أمر غير ميسور ، فهناك عقبات كثيرة تقوم دون ذلك ، فليس كل شعر فيه قبس من الدين والتوحيد وحمد الله شعرا اسلاميا . . . وكذلك ليس شرطا أن يكون الشعر الاسلامي مطبوعا بطابع الاسلام ، فإن كثيرا من الشعر الذي نظمه الشعراء المخضرمون من معاصري لبيد ، لم يكن متأثرا بالاسلام ذلك التأثر الواضح مثل شعر الحطيئة ، والناطقة الجعدى ، وكعب بن زهير ، والعباس بن مرداس ، وغيرهم ، واذا كان في القليل من شعراء هؤلاء أقباس من تعاليم الاسلام فان كثرة الشعر الذي نظموه في الاسلام لم يكن بينه وبين الشعر الجاهلي فرق كبير واضح ، ذلك أن أثر الاسلام في شعر شعراء هذه الفترة لم يظهر واضحا الا عند شعراء الانصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة الذين كانوا في حاضرة المسلمين وعلى صلة وثيقة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتوجيه مباشرة ، وقد حملوا راية النضال ضد شعراء قريش . . . وعلى هذا فليس كل شعر فيه ما يدل على الايمان بالله وتوحيده اسلاميا ، وليس كل شعر خلا من نفحات الاسلام جاهليا " (١) .

(١) لبيد بن ربيعة : د . يحيى الجبورى : ٣٨٣ - ٣٨٤ . ط . مكتبة الاندلس . بغداد .

ومع ورود الشك في بعض الشعر الجاهلي فلا مجال لقبول أدنى شك
دون برهان بسنده ، وأما التماهى في التشكيك والرمى به مع التسمية ومجازفة
القول فليس من أصول العلم فى شىء ، كما أن أى دليل قد يتخذه بعض من يشك
فى صحة الشعر وقد قام ما ينقضه لا يمكن الاعتداد به ولا الركون اليه .

وإذا كان شعر الحنيفة على ما ذكر مما دفع الدكتور طه حسين وغيره من رفضه
وسائر شعر التحنفيين كأمية وورقة وسواهم فاننا سنعمد الى طريقة تؤدى بنا الى
توثيق شعر الحنيفة والحنفاء ، وهى فى نفس الوقت تبين لنا ما يمكن أن نعده
من الشعر المنحول ولا يمكن الثقة به . وهذه الطريقة تنحصر فى أخذ نموذج من
هذا الشعر الحنفي عند أشهر من يمثلون هذا النوع ثم اخضاعه للدراسة العلمية
التي تؤدى الى ما يمكن أن نطمئن اليه من حكم على ذلك .

وفى تقديرى أن أمية بن أبى الصلت الثقفى والذي يعد من أشهر الحنفاء
خير من يصلح اختياره لذلك ، ذلك أن أمية مع كونه أحد مشاهير الحنفاء فهو
أكثرهم شعرا دون استثناء ، بل انه أكثر شعراء الجاهلية ذكرا للدين والحنيفية
حتى سماه النقاد شاعر الآخرة* .

والذى نأخذه على أمية وشعره يمكن القول به من ناحية الصحة والشك على غيره
من هذا الشعر الدينى الجاهلي ، غير أن هناك بعض الشعراء الجاهليين
دخلوا فى الاسلام وربما كانوا على شىء من الحنيفية فى جاهليتهم ومع هذا فلن
أعول على ما روى لهم من مثل هذه الأشعار ذلك أن الاسلام سبب الشك فى ما روى
لهم من شعر اسلامى فيما يبدو ، إذ أخذوها منه ، ومن هؤلاء لبيد بن ربيعة
العامرى ، والنابغة الجعدى مثلا .

وقد حظى أمية بن أبى الصلت وشعره بعدد من الدراسات فى العصر
الحديث عند المستشرقين^(١) كما كان أمية موضع العناية من قبل عند القدماء ،

* الأغانى : ١٢٥/٤ .

(١) أنظر تاريخ التراث العربى "العصر الجاهلى" : ٣٣١ ، ٣٣٢ .

وقد دلت المصادر على ذكر ديوانه صنع محمد بن حبيب ، كما وجد ديوانه في
القرن التاسع كما ذكر العيني ، وآه البغدادى فى القرن الحادى عشر الهجرى .^(١)
ومع هذا فلم يصل اليها هذا الديوان فى مابقى من كنوز السلف . وقد تمت فى
فى هذا العصر الحديث محاولات لجمع ديوانه وطبعه مرات مختلفة ،^(٢) وقد كان
الجهد الذى بذله الدكتور عبد الحفيظ السطلى من دراسة وجميع تحقيق لديوان
أمية بن أبى الصلت جهداً اجباراً وعملاً موفقاً يستحق التقدير والاشادة ، وهذا
الجهد لا يقلل من شأن جهود سابقه فى هذا الميدان وان الذى يعيننا هنا
من ذلك الديوان هو ذلك المنهج الذى اتخذه الباحث فى توثيق شعر أمية
ابن أبى الصلت والذى سنأخذ منه فى هذا الفصل ما يعيننا من ذلك التوثيق ،
ومن الملاحظ أن هذا المقياس الذى يتخذ شعر أمية معياراً لشعر غيره من
الحنفاء والذى سنأخذ نحن به قد تنبه له دارس ديوانه مينا " ان شهرة أمية
تقوم بوجه خاص على شعره الدينى ، لأنه أتى بمعان وموضوعات جديدة بالنسبة
الى عامة الشعراء ، وان وجدنا بعض هذه المعانى قد وردت عند غيره من
الجاهليين ، ولا سيما عند أولئك الشعراء الذين عرفوا بالتحنف وطلب الدين ،
فان أمية قد تميز بالكثارة من هذا الشعر ، وجعله الموضوع الرئيسى بين أغراض
شعره المختلفة ، . . ويقاس عليه ما يماثله من شعر دينى لغيره من الشعراء ."^(٣)

والذى نريده ويهمننا من هذه الطريقة أن الباحثين المحدثين قد وقفوا من
شعر أمية على ثلاثة آراء : " الاول يمثله تورانداى ، ويزعم فيه أن شعر أمية
الدينى موضوع بكاملة ، والثانى يمثله كليمان هوار ، ويزعم فيه أن شعر أمية
الدينى موثق كله ، والثالث يمثله الدكتور طه حسين ، ويزعم فيه أن شعر أمية

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت : ١٠٠ - ١١٨ .

(٢) جمعه شولتس وكان أول من نشره . ثم جاء بشير يموت ونشره فى بيروت معتمداً
على نشره شولتس ، ثم حققه الدكتور السطلى ^{فى دمشق} وبهيجة الحديثى فى بغداد ولم
أعثر على هذه الاخيرة .

(٣) ديوان أمية بن أبى الصلت : ٢٤١ .

ابن أبي الصلت من أوله الى آخره موضوع (شك في الديني وغير الديني) ، نحله الرواة في العصر الاسلامي (١) وقد ناقش الباحث هذه الآراء وسنورد أهمها باختصار .

ان ما ذهب اليه توراندراي من نفي الشعر الديني لأمية لا يخلو من التطرف ان ان شهرة أمية تقوم بالدرجة الاولى على شعره الديني ، حتى أصبح شعره الديني ذا طابع خاص يقاس عليه أحيانا شعر سائر الشعراء ، بل أصبح أمية يمثل موضوع الزهد والتأله حتى قال الأصمعي " ذهب أمية في شعره بهامة ذكر الاخرة " . وشهرته بالشعر الديني هي التي حملت بعض العلماء والمفسرين على القول بأن آية من القرآن قد نزلت فيه (٢) ، ولولا شعره الديني لما كان تصديق الرسول له ، وقوله فيه انه " آمن شعره وكفر قلبه " أو " كاد ليسلم " .

فشهرة أمية لا تقوم في الأصل الا على شعره الديني بالذات ، ولا يمكن أن يضيع كل ماله من شعر ديني أصلا ، ثم يوضع له كل مانجه الان من شعر ديني ، ثم اننا نجد شعره الديني ليس على سوية واحدة في الاسلوب وانما نجد الاسفاف والركاكة في بعض القصائد ، ونجد القوة والرصانة في قصائد أخرى ، وهذا الاختلاف في الاسلوب يشير الى وجود قصائد موضوعه على أمية ، لأن الاسفاف والركاكة لا يلائمان عصره كما لا يمكن صدورها عن شاعر واحد .

ولهذا لا معنى لرفض شعر أمية الديني بكاملة ، والقول بأنه موضوع على رأي أندراي ، وانما ينبغي أن نميز في هذا الشعر بين شعر موثق صحيح النسبة الى أمية وآخر متهم فيه سمات الوضع والانتحال (٣) .

وأما كليمان هوار الذي أثبت الصحة لجميع شعر أمية ليتخذ من ذلك حجة على أن مثل هذا الشعر أحد المصادر التي استمد القرآن مادته منها فاتمه

(١) ديوان أمية : ١٢٥ .

(٢) الآية : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه

الشیطان فكان من الغاوين " الاعراف : ١٧٥ .

(٣) ديوان أمية : ١٢٥ - ١٢٧ .

أن وجود بعض الفروق بين ما جاء في الشعر المنسوب الى أمية وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص لا يمكن أن يتخذ دليلا على توثيق هذا الشعر كليا ، بحجة أنه لو كان منحولا لكنت المطابقة تامة بينه وبين القرآن ، فهذا المبدأ فاسد من أساسه لأن من يضع شعرا على غرار القرآن ، لا يمكن أن يطابق مطابقة تامة بين هذا وذاك ، وإنما يحاول جهده إيجاد شيء من الاختلاف ليخفي حقيقة ما وضعه ، ويوهم أن هذا الشعر صحيح لا أثر للانتحال فيه .^(١)

أمّا طه حسين فقد انكر شعر أمية لثلاثة أسباب : الاول لأنه ينكر شعر المتحنفين عامة ، ويرى أن المسلمين نحلوه ليثبتوا أن للاسلام قدمة وسابقة في البلاد العربية . والثاني : لأن هذا الشعر جاء عن طريق الرواية والحفظ ، وهذا يكفي للشك والانكار في رأيه . والثالث : لأن أمية وقف موقفا عدائيا من الرسول والاسلام فكان لذلك أن نهى الرسول - في رأيه - عن شعر أمية فأهمل حتى ضاع .

أمّا انكار شعر المتحنفين لأن المسلمين نحلوه ليثبتوا للاسلام قدمة في الجزيرة فهذا الرأي قد سبق به طه حسين من ربيع قرن ان رفضه جماعة من المستشرقين ، وقد لخص نيكلسون آراء هؤلاء المستشرقين جميعا بقوله " في وسعنا أن نوكد أن جماعة كالنابغة وليبد والأعشى ، قد تأثروا بالثقافة المحدقة بهم . رغم أنها لم تتعمق في حياتهم الا نادرا . فالمشاعر الدينية ينبغي الا تنكسر آثارها الهامة في شعر ما قبل الاسلام ، ولكن المقطعات التي نحن بصددها قد فسرت سابقا بأنها ترجع الى الوضع والانتحال ، غير أن هذا الرأي لم يعد سائدا ، ولا بد من الإشارة هنا وبصورة خاصة لأبحاث فون كريم ، والسير تشارلس ليال ، وولهاوزن ، لأنها أخذت تعتبر :

- ١ - أن المشاعر الدينية المذكورة آنفا ليست في معظمها اسلامية الجرس .
- ٢ - وأن القصائد التي تضم تلك المشاعر الدينية ليست اسلامية الاصل .

(١) ديوان أمية : ١٢٨ - ١٣٠ .

٣ - وأنها النتيجة الطبيعية والضرورية لانتشار اليهودية ، والسححية خاصة ، وان كان انتشارا سطحيا بوجه عام " (١) .

والنتائج التي خرج بها جماعة من المستشرقين كما لخصها نيكلسون لا تكاد تشمل كل ما نسب الى المتحنفين من الشعر ، لأن هذا الشعر المنسوب اليهم ليس على سوية واحدة في أسلوبه وتراكيبه ولغته ومعانيه ، فمنه الاسلامي الذي لا يخفى نحلته ووضع ، وهذا لا ينظر اليه نيكلسون بعين الاعتبار ، ومنه الجاهلي الذي لا ينطوى على روح اسلامية في معانيه ولغته وأسلوبه ، وهذا ينطبق عليه قول نيكلسون ، الا أنه ليس نتيجة " طبيعية وضرورية " لانتشار اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية ، لأن دراسة النوازع الدينية عند عرب ما قبل الاسلام ، تدل على نضج في تفكيرهم الديني بتأثير الحنيفية ، وعمق في نظرتهم الى الله الخالق ، رغم وجود الاصنام والاوثان ، لأنها لم تكن في نظرهم أكثر من وسائل شفاعاة أو تقرب بينهم وبين الله .

ومن هنا لا مجال الى انكار هذا الجانب من شعر المتحنفين بدعوى أن المسلمين نحلوه ليثبتوا أن للاسلام قدمة وسابقة في البلاد العربية ، بل يجب أن تميز بين صنفين من الشعر المنسوب الى شعراء ما قبل الاسلام ، فاذا كان الشعر ذا طابع اسلامي يتبدى في معانيه ولغته وأسلوبه ، فهو منحول في العصر الاسلامي بتأثير لغة القرآن وأسلوبه ، واذا كان الشعر ذا طابع ديني عام لا يظهر تأثير القرآن في معانيه ولغته وأسلوبه ، وانما نجد فيه أفكارا عامة حول التأله ، فهذا لا يستبعد أن يكون نتيجة طبيعية لوجود الأفكار الدينية في عصر ما قبل الاسلام ، ولا سيما تلك الافكار التي تتصل بالتوحيد والبعث والحساب وغير ذلك .

واذا كان المسلمون انتحلوا هذا الشعر المنسوب الى أمية وغير أمية من المتحنفين ، فاننا نجد لكل منهم أخبارا وأشعارا ثابتة تتناقلها كتب الأدب واللغة والتاريخ والسير ، فهل كانوا جميعا أشخاصا ولتدهم خيال المسلمين وانتحل الشعر ونسبه

(١) ديوان أمية : ١٣٢ .

اليهم ليثبت أن للإسلام قدمة وسابقة في البلاد العربية ؟ واين كان يصنع ذلك الشعر المنحول ؟ ومن انفرده بخلق هؤلاء الحكماء والشعراء ؟ وكيف خفيست تلك الحقائق الهامة على كبار النقاد والرواة من القدماء ؟ (١)

اذن فحجة طه حسين في انكار شعر المتحنفين عامة ، وبالتالي انكار شعر أمية جد واهية ، لأنها تغفل ما كان في عصر ما قبل الاسلام من أفكار دينية هامة رغم وجود الأصنام .

أما حجته الثانية التي اكتفى بها للشك في صحة شعر أمية بمجرد وصوله اليها عن طريق الحفظ والرواية فانها ومسألة الرواة ونحلهم للشعر كانت من اكبر حجج طه حسين في انكاره للشعر الجاهلي عامة .

وانا كان بعض الرواة والقصاص قد أدخلوا في شعر الاوائل ما ليس منه - كما ذكر العلماء - فهذا لا يدعو الى الشك في شعر أمية عامة ، لأن اعترافنا بوجود المنحول في شعره ، دليل على وجود الأصل ، ان لا يمكن أن نتصور نحلا واختلاقا دون أن يوجد أصل يقام عليه ، وينحل على غراره . وبهذا لا نجد دليلا يوجب شك طه حسين في شكه هذا في الرواية والحفظ .

أما آخر حجج طه حسين في انكار شعر أمية هي موقفه العدائي من الرسول والاسلام ، ان أن موقف أمية من الرسول كان سببا للنهي عن رواية شعره ، فضاء هذا الشعر بكامله ، وما نجده اليوم منسوباً اليه ، انما هو شعر موضوع .

وهذه الحجة فيها تعميم واسع لا يتفق مع أخبار أمية ، لأن النهي لم يكن الا في قصيدة واحدة من شعر أمية وهي القصيدة التي قالها في رثاء قتلى بدر من المشركين ، وليس في كل ما رجعنا اليه من مصادر أي اشارة تفيد هذا التعميم الذي نقله طه حسين . ثم ان هذا النهي عن هذه القصيدة مشكوك فيه ، غير مسلم به ، فقد نقل البغدادي (٢) عن الزهري أن الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الشهاب الراصد : ٢٢٤ .

(٢) الخزائنة : ١/٢٥١ .

لم يرخص في قصيدة أمية التي قالها في قتلى بدر ولا في قصيدة الاعشى في هجاء
 علقمة بن علاثة . ولكن "ابن كثير" قد أورد الحديث بسند متصل وحكم بضعفه (١)
 وما يؤيد ضعف ذلك الحديث أن ابن هشام وهو أول من روى القصيدة بعد ابن
 اسحاق ، لم يشر الى هذا النهي عن روايتها ، ولو علم بوجوده لكان أحرص الناس
 على ذكره ، لما عرفناه من حرصه على التدقيق في رواية شعر السيرة .

فمن المحتمل أن الا يكون النهي عن القصيدة قد صدر عن الرسول عليه
 السلام ، وانما يمكن أن يكون الناس قد تناهوا عنها لما في القصيدة نفسها من
 اثاره للمشركين وتعرض للرسول والمسلمين . وحتى لو صح النهي من الرسول عن
 هذه القصيدة ، فهذا لا يعنى تعميم ذلك في شعر أمية كله . واذ كانت القصيدة
 الوحيدة التي قيل ان الرسول نهى عنها ، قد حافظ عليها الرواة ونقلوها ، فمن
 باب أولى الا يتعمد الرواة محاربة غير هذه القصيدة من شعر أمية .

ثم ان المسلمين لم يحاولوا القضاء على شعر خصومهم من المشركين ، وسيرة
 ابن هشام أقرب دليل على ذلك ، فقد أورد كثيرا من الشعر الذي قاله شعراء
 من المشركين واليهود ردًا على شعراء المسلمين ، حتى كان ينهي أخبار كل غزوة
 أو سرية بما قيل من شعر فيها ، فيورد شعر المسلمين والمشركين في كل منها على
 حد سواء .

وحسبنا أن نقف عند هذا الحد الذي اقتبسناه من تلك الطريقة التي أحببنا
 الأخذ بها في الرد على من شك في شعر أمية وغيره من الحنفاء لنقول إن ماسلف
 من القول يغنى ويكفي للرد على ما ذهب اليه طه حسين وانراى وكليمان هوار .

ان هذه الطريقة التي تأخذُ بها بعد دفع أقوال طه حسين ومن معه
 خير عون لنا الى بلوغ طريق الهدف الصحيح من دراسة ماورد من الاشعار وذلك
 من ناحيتين :

١ - الاولى : دراسة الاضطراب في رواية الشعر .

٢ - دراسة متن القصائد ونقدها نقدا داخليا لفصل بين الصحيح منها والمنحول^(١).
وسنحاول أن ندرس شيئا من شعر الحنيفية على هذا النحو ولو يسيرا ، ان نجد
ذلك الاضطراب والوضع في كثير منه ، وما نورده دليل على شيوع ذلك في شعر
الحنيفية ان هو ظاهر فيه ، أما عند ايراد نماذج من موضوعات شعر الحنيفة
فاننا سنضرب صفحا عن المشكوك فيه ونبنى دراستنا على ما نعتقد صحته ، ونطمئن
الى الثقة به باذن الله وقدرتة .

الاضطراب في نسبة الأشعار

يعتبر الاضطراب والاختلاف في رواية الشعر ظاهرة عامة في الشعر الجاهلي
والاسلامي ، ومرجع ذلك فيما بيد و وهم الرواة في نسبة بعض الشعر الى غير قائله
أو خلطهم في نسبة بعض الأشعار لاكثر من قائل ، وربما كان هذا الخلط كثيرا
بين الطوائف المتشابهة من الشعراء كالحنفاء مثلا ان ظاهرة التحنف مدعاة
للتشابه فيما بينهم ، أو الصعاليك مثلا . وقد تنبه جامع ديوان أمية لذلك ولا حظ
كثيرا منه في ما ينسب لأمية من شعر فقال مشيرا الى ذلك^(٢) : والموضوعات الدينية
التي غلبت على شعره ، كانت سببا في خلق طبقة ثالثة ممن عرف بأمثال هذه
الموضوعات في شعره ، ولهذا كانت هذه الطبقة أبرز تلك الطبقات لكثرة ما نجم
عنها من تداخل بين ما ينسب الي شعرائها وما ينسب الى أمية من شعر
وقد أورد نماذج من ذلك هذا البيت :

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانَا يَدُومٌ لَهُ . . . وَقَبْلَنَا سَبِّحَ الْجُودِيُّ وَالْجَمْدُ*^(٣)

(١) ديوان أمية : ١٣٩ .

(٢) ديوان أمية : ١٧٥ .

(٣)* الجودي : يقال انه جبل بالجزيرة استوت عليه سفينه نوح ، الجمد :

جبل بنجد .

فقد تتبع جامع ديوان أمية من روى هذا البيت فرأى من يرويه لأمية بن أبي الصلت ومنهم من يرويه لورقة بن نوفل فقال: ^(١) "رواه لأمية كل من ابن د رستويه وابن سيد ، وابن منظور ، والزبيدي . ورواه لورقة بن نوفل كل من الاصفهاني والبلوي والشريشي وياقوت والبغدادي . . وجماعة ثالثة أشارت الى الروايتين معا ، منهم السهيلي . . وابن كثير . . . ، وابو حيان الأندلسي يروى هذا البيت دون نسبة في موضع من كتابه ، ثم يعزوه الى زيد بن عمرو بن نفيل في موضع آخر . . . وانتهى الباحث الى أنه من الصعوبة أن نرجح ان كان هذا البيت لامية أم لورقة . ومن ذلك أيضا هذه الابيات :

منع البقاء تَقَلَّبُ الشَّمْسُ . . . وطلوعها من حيث لا تُـمَسُّ
تبدولنا بيضاءً بازِغَةً . . . وغروبها صفراءً كالـوَرَسِ*
اليوم تَغْلَمُ ما يُجىءُ بِهِ . . . ومغسى بفضلِ قضاءه أَمْسِ

وقد روى هذه الابيان بن عبد البر لأسقف نجران (قس بن ساعدة) وقال : وتروى لتبع الحميري ، وذكرها مع خلاف في البيت الاخير " ابن قتيبة " لأحد تبايعة اليمن ،* ونسبها الجاحظ في البيان والتبيين مرة وفي الحيوان أخرى لأسقف نجران ، ^(٢) وأوردها الحاتمي لروح بن زنباع . ^(٣)

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

ارفع ضعيفك لا يَحْزُبُكَ ضَعْفُهُ . . . يوما فَتُدْرِكُهُ عَوَاقِبُ ما جَئَنِي**
يَجْزِيكَ أَوْ يَثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنَّ . . . أَثْنَى عَلَيْكَ بما فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وقد جاءت منسوبة في الشعر والشعراء ^(٤) لزهير بن جناب ثم قال محقق الكتاب :

(١) ديوان أمية : ١٥٣ .

* الورس : يقال انه نبات يستخدم للصبغ الأصفر والمراد لونها مثله .

(٢) البيان والتبيين : ٣٤٣/٣ ، الحيوان : ٨٨/٣ .

(٣) حليه المحاضرة في صناعة الشعر : ٣٦١/١ .

** بهجة المجالس وانس المجالس : لابي محمد بن عبد البر ٢ / ٣٢٠ . تحقيق محمد

مرسى الخولى ط (١٤٠٢)

*** المعارف : ٦٣٠

**** لا يحز : بضم الحاء اي لا يرجع الى النقص من " الحوز " وهو الرجوع الى النقص

(٤) ٣٨١/١

* البيتان في اللالكى ٢٠٦ ونسبهما لورقة بن نوفل ، وكذلك في الخزانة ٣٩ / ٢ ، وهما في الاغانى : ١٢ / ٣ - ١٤ ، ونسبهما لغريز اليهودى ثم ذكر أقوالا أنها لسعيدة ابن غريز أو لزيد بن عمرو بن نغيل أو لورقة أو لزهير بن جناب أو لعامر المجنون الحرى ، وصحح أنها لغريز أو ابنه ، ثم ذكر قصيدة لورقة فيها البيتان ، وفيه نسب قريش للمصعب خط أنهما لورقة بن نوفل * .

والأمثلة على هذا الاضطراب كثيرة ^(١) ، ونحن نكتفى بما أوردنا ان في—
الدلالة على ما نرى من اضطراب في نسبة الاشعار الى أصحابها ، ومع ذلك فليس
هناك ما يمكن عدّه مطعناً على هذا الشعر الذى تتارجح نسبته بين الجاهليين
ان هو ما تدل عليه الحياة الجاهلية .

(١) انظر فى ذلك مثلاً سيرة ابن هشام : ١ / ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ / ١ ، ٢٢٧ ،

٢٣٢ / ١ .

وديون أمية بن أبى الصلت : ما أنشد لأمية وليس له مع ملاحظة تخريجها :

٥٤٧ وما بعدها .

النقد الداخلي للقوائد (١)

وهذا النقد هو روح الطريقة التي تمكننا من معرفة الشعر الموثق — من الدخيل ، وهي على كل حال وعرة محفوفة بالمصاعب ، ومن دواعي الشك في القوائد ما يرى فيها من اقتباس من نصوص القرآن أو معانيه وأساليبه ، وهذا من أكبر العوامل التي تعين على معرفة ذلك ، إذ لا يظن أحد صدور مثل هذه الألفاظ والمعاني القرآنية من شخص لم يطلع على القرآن على أي مستوى من العلم ، كما أن ضعف نسج الشعر وركاكة معانيه ومعانيه لا يتصور صدورها من هؤلاء الجاهليين الذين أمتازوا بالفصاحة والبيان كما عرف عنهم فما بالك بشعرائهم . وهناك بعض العوامل المساعدة على ذلك كسيرة الشخص وبيئته وغير ذلك . كما أن أقوال العلماء الذين يروون شيئاً من هذه الأشعار على مكانة عظيمة — الأهمية ، فقد تنبهوا إلى هذا الوضع والنحل وأشاروا إلى ما اعتقدوه منه ونبهوا عليه ، فهم أهل الفضل — دون نكران — في ذلك ، ولا يمارى في قيمة ملاحظاتهم إلا من جانب الحق وتنكب عن طريق الصواب .

ومن المعلوم أن الشك دون دليل وبرهان يؤيده لا يؤبه به ، فإذا خلست أي أبيات أو قصيدة من دواعي الشك فقد احتملت الصحة وملنا بها إلى التوثيق ، وسنورد طرفاً موجزاً من ذلك لنرى مصداق ذلك على شعر الحنيفة ، كما سنرى بالمقابل شعراً آخر ما لا يطمئن إلى صحته ، ونميل إلى القول بوضعه .

وحيث إن أمية بن أبي الصلت خير من توفرت عنده المادة الشعرية من هذا اللون الديني من الشعر كان خليقاً بأن نعول عليه ، ومن يطالع ديوانه يـرى مصداق ذلك ، إذ هو حافل بكثير من القوائد الدينية الموثقة .

ولنطبق هذه الدراسة على أحد القوائد أمية التي يرى جامع ديوانه أن هذه القصيدة ما نميل إلى توثيقها .

(١) انظر ديوان أمية : ١٧٦ وما بعدها .

والقصيدة تتحدث عن وصف الطوفان وارسال الحمامة بحثا عن اليايسة، وأولها قوله :

جزى الله الـاجل المرء نوحا . . جزاء البر ليس له كـذاب^(١)

والقصيدة " تصف أصحاب السفينة وما كانوا عليه من جوع وعرى ، ثم تتحدث عن ارسـال الحمامة لتبحث عن اليايسة وعودتها وفي مناقرها قطف دلالة على اليايسة ، وهذه القصة وردت في التوراة ضمن حديث الطوفان ... ثم جمّلت أسطورة الحمامة ، وأضفت عليها خيال الشاعر ، فجاءت بحديث عقد الحمامة وجعلت منه جائزة لها على ما قامت به . ولا يبعد أن يكون أمية قد تأثر في قصيدته بالتوراة ، لما نعرفه من اجماع الرواة على قراءته الكـتب ، ومجالسته الرهبان ، ولا يبعد أيضا أن يكون قد استقى بعض عناصر القصة من أحاديث الناس حولها ، لانه لم تكن شائعة في ذلك العصر لما أضرب القرآن عن تفصيلها ، واكفى فقط بايراد موضع العبرة والعظة فيها .

وأسلوب القصيدة تبتدى فيه شخصية أمية ، لعدم اختلافه عن شعر أمية غير الديني ، فهو بعيد عن ذلك الضعف الذي نجده في بعض القصائد المتهممة ، ولا أثر لمعاني القرآن وأسلوبه الا في بيت ألحقناه بالقصيدة من رواية اللسان وهو :

باذن الله فا شتدت قواهم . . على ملكين وهي لهم وشاب

فعبارة " باذن الله " وردت في آيات قرآنية كثيرة ، مما قد يثير شيئا من التردد حول توثيق هذا البيت ، ولكن ذلك لا يتعدى الى سائر القصيدة ، ولهذا كله نرجح توثيقها لعدم وجود أدلة تميل بها الى الشك وما يدعو اليه من حذر الوضع والاختلاق " (٢) .

ومن ذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلكت . . له الأرض تحمل صخرًا ثقـالا

نحـاها فلما رآها استوت . . على الماء أرسى عليها الجبالا

(١) ديوان أمية : ٣٣٦ .

(٢) السابق : ١٧٨ ، ١٧٩ .

وأسلمت وجهي لمن أسلمت . . له العزْنُ تحملُ عذباً زُلالاً
 إذا هي سِيَقَتِ الي بَلَدَةٍ . . أطاعت فصبت عليها سجالاتاً^(١)
 والابيات وردت في السيرة^(٢) وعند الأصبهاني^(٣) لزيد بن عمرو بن نفيل ، وهـذـه
 الابيات لا تخالف ما عرف عن سيرة زيد الذي لم يعبد الا الله على صورة كان يتمنى
 أن يعلم كيف يأمره الله بها ويحترثه يسجد على راحته ، ومعاني الابيات ليست من
 معاني آيات القرآن الواضحة الا البيت الثاني ان هو كقوله تعالى " والارض بعدد
 ذلك دحاهها"^(٤) ولكنها تخالف الآية بأن الارض استوت على الماء وهذا مالا نفهمه
 من آيات القرآن ، وان الذي في القرآن " وكان عرشه على الماء . . " ، ولعل هذا
 أخذه زيد من مسأله لعلما أهل الكتابان كثيرا ما طاف في الأرض يلتصم الدين
 ويسأل العلماء فرما أخذها عنهم ، ولو تمادى بنا الشك وطرحنا هذا البيت
 فان الأخرى ما شمل الي توثيقة وصحته ان لم يقم لدفع ذلك أى عارض آخر .
 ولننظر أخيرا الي هذه القصيدة الجاهلية الرائعة في صلة الرحم والقربى ومنها :
 لولا أياصرُ قُربى لست تحفظُها . . ورهبةُ اللهِ فيمن لا يُعادي يني^(٥)
 اذاً بربيتك برياً لا انجبار لَه . . انى رأيتك لا تنفك تجري يني
 إن الذي يقبض الدنيا ويسطها . . ان كان أغناك عني سوف يُغني يني
 الله يعلمني والله يعلمكم . . والله يجزيكم عني ويجزي يني
 ماذا على وان كُنتم ذوى رحى . . ان لا أحبكم ان لم تحبوني
 وهذه الأبيات جزء من قصيدة طويلة وردت في العديد من المصادر ، منها

(١) السجال : جمع سجل ، وهي الدلو المملوءة ماء ، فاستعارها لكثرة المطر .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٣١ / ١ .

(٣) الاغانى : ١٢٨ / ٣ .

(٤) النزعات : ٣٠ .

(٥) الأواصر : هي ما عطفك على رجل من رحم أو قرابة أو صهر أو معروف .

المفضليات^(١) والأغاني^(٢) وأمالى القالى^(٣)، وأمالى الشريف المرتضى^(٤)، والعقد العريد^(٥) وغير ذلك معزوة الى ذى الأصبع العدوانى^(٦)، والمعانى التى تحملها هذه الابيات معان اسلامية فيما بيد وللناظر فيها، فخوف الله ورهبته والقراة حالت بين الرجل وبين الاقدام على الانتقام من ذلك القريب، ومثل هذا المعنى وان أقر فى الاسلام بل وأمر به فان مثل هذا معروف عند كثير من الجاهليين، فأما الخوف من الله والاعتراف بقوته والخوف منه الى معرفتهم بكثير من صفاته وأفعاله فأمر غير منكر لديهم، وصلة القراة والرحم وغيرها من مكارم الاخلاق هى معروفة أيضا عند هؤلاء الجاهليين كأكرام الضيف وحماية الجار ونصر المستغيث وما شابه ذلك، وما يقوى الثقة بصحة الأبيات أن القائل قد عرف بالحكمة واشتهر بها فلا وجه للغرابة من صدور مثل هذا القول عن مثله .

أما البيتان الثالث والرابع فقد يخيل الى الناظر فيها تأثر صاحبها بالقرآن فى قبض الدنيا وبسطها كما فى قوله تعالى^(٧): "والله يقبض ويبسط . . . وما شأبها من الآيات، وجزاء الله أيضا مما ورد فى آيات القرآن .

(١) القصيدة : ٣١ ص ١٦٦ - ١٦٤ .

(٢) ١٠٤/٣ .

(٣) ٢٥٤/١ .

(٤) ٢٥١/١ . "وتسمى : غرر الفوائد ودرر القلائد" . تحقيق : محمد أبى

الفضل ابراهيم . ط ٢ (١٣٨٧) دار الكتاب العربى - بيروت .

(٥) ٣٢٨/٢ .

(٦) ذو الأصبع اسمه حرثان ، وسمى ذى الأصبع لأن حية نهشت ابهام قدمه

فقطعها ، وقيل لأنه كان فى رجله إصبع زائد ، وهو ابن الحرث بن محرث بن

شبات من بنى عدوان . شاعر فارسى قديم جاهلى ، له غارات كثيرة ووقائع

وهو أحد الحكماء ويعد من العميرين لأنه عاش عمرا مديدا . ترجمته فى :

الأغاني : ٨٩/٣ ، سمط اللالى : ٢٨٩ ، الموءلف والمختلف : ١١٨ ،

أمالى المرتضى : ٢٤٤/١ وغيرها .

(٧) البقرة : ٢٤٥ .

ومثل هذا أيضا لا يعد غريبا ان ورد عند الجاهليين فقد سبق أن اقترار الجاهليين بأفعال الله وقدرته أمر ثابت بنص كثير من آيات القرآن وكما سيأتى مزيد بيان لذلك ، والجزاء عند هذا الشاعر من المحتمل ان يريد به جزاء الآخرة كما عرف عن ايمان بعض الجاهليين بذلك ، ولو فرضنا استبعاد ذلك فلا مفر من الاعتقاد - أى عند هذا الشاعر - بجزاء الله فى الدنيا ، واخيرا فان اجماع العلماء السابقين على ايرادها خالية من اشارات النحل الى شىء منها ليعمد هذا دليلا كافيا وقائما بنفسه على صحة الأبيات ، وقد قال النقاد فى ذلك :^(١)

" . . فأما ما اتفقوا عليه ، (أى من الشعر) فليس لأحد أن يخرج منه " .

وبعد هذه النماذج المحدودة التى تسمى الى كثير غيرها مما نشق به من هذا الشعر الدينى نجد أنفسنا أيضا فى عدد من المواضع وقد جابهتنا بعض المصادر بشىء منه مما ترتب النفس فى قبوله بل وتضرب الشكوك من حوله ان هو ما نظنه من صنع الوضاعين واختلاق بعض الرواة .

ومن هذا النوع الأخير من الشعر الموضوع نطالع شعرا كثيرا ، فمن ذلك مثلا القصيدة الياثية التى تروى لأمية بن أبى الصلت ،^(٢) ومن أبياتها :

عند ذى العرش يُعرضون عليه . . يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتية وهو رب رحيم . . انه كان وعده مأتيا
يوم تأتية مثلما قال فردا . . لم يذرفيه راشدا وغويا
أسعيدُ سعادةً أنا أرجو . . أم مهانُ بما كسبتُ شقيا
ربَّ إن تعفُ فالمعافاةُ ظننى . . أو تعاقبُ فلم تعاقبُ بريئا

والقصيدة كما يظهر من قول جامع ديوان وردت فى عدد من المصادر المختلفة ،^(٣) ومع ذلك فلا يوثق بصحة هذه القصيدة لأمية ، وماذا لك الا لهذا السطو

(١) طبقات فحول الشعراء : ٤ / ١ .

(٢) ديوان أمية القصيدة (٩٩) : ٥١٥ .

(٣) انظر تخريج القصيدة فى ديوان أمية : ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

- ولا نقول التأثر - على كثير من الآيات وبخاصة ماورد في سورة مريم .
ولننظر في هذه الأبيات ، فالاول يقابلنا فيه "ذى العرش ، يعرضون عليه ،
يعلم الجهر " وهذه ما ترد في القرآن ، فوصف الله تعالى " بذي العرش " مألوفة
في عدد من الآيات ، كقوله تعالى : (١) " وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد " ،
ويوم العرض على الله ما ورد في القرآن الكريم ، قال تعالى (٢) : " وعرضوا على ربك
صفا .. " أمّا قوله : يعلم الجهر والكلام الخفيا . فهي من معاني الآيات
القرآنية كقوله تعالى (٣) : انه يعلم الجهر من القول ... " ، وقوله تعالى (٤) : لا ماشاء
الله انه يعلم الجهر وما يخفى .. " . وكل هذه المعاني السابقة نراها في بيت
واحد من القصيدة فكيف تتجمع كل هذه المعاني لمن لم يطلع على القرآن ؟ !
أمّا البيت الثاني فان عجزه نص كامل لجزء من آية في سورة مريم " جنات عدن التي
وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا " (٥) ، أما البيت الثالث فقد هتك
الزيف وأجلى الحجة ان نصر على انه قد علم أن الله قال ذلك ، أى أنه قد قرأ القرآن
وعلم فيه قوله : " وكلهم آتية يوم القيامة فردا " (٦) فدل على علمه بذلك وكفى
بذا شاهد . أمّا البيتان الاخيران فهي كذلك ما لا شك في نحله أيضا
ان هي معان اسلامية ، فالناس يوم القيامة شقي وسعيد ، وكل نفس بما كسبت مجزية
كما تغليب حسن الظن في الله والاعتراف بجرائم الاعمال ما هو معلوم عند عامة
المسلمين . وبهذا فالآبيات التي استعرضناها والقصيدة بصفة عامة هي معان
وآيات قرآنية صبت في قوالب من الشعر ولا يساورنا أدنى شك أن قائلها قد عرف
الاسلام وتعلم القرآن ، وهذا بالطبع لا يتأتى لشاعر جاهلي ، وبذلك فالقصيدة
موضوعة بكاملها فيما تبين لنا من أدلة .

(٢) الكهف : ٤٨ .

(٤) الأعلى : ٧ .

(٦) مريم : ٩٥ .

(١) البروج : ١٤ ، ١٥ .

(٣) الانبياء : ١١٠ .

(٥) مريم : ٦١ .

النثر والانتحال

من المعلوم أن النثر هو ذلك القول الحسن في تركيبه المعنى في أسلوبه ،
الناصح بيانه ، والذي يقصد به الى التأثير في الآخرين عند سماعه أو قراءته وهو
غير الشعر الذي يحتاج الى الوزن والقافية ، كما أنه غير الكلام المؤلف بين الناس
في حياتهم ، إذ لا يتكفون فيه التحسين ولا البيان ولا التأثير ، وإنما يعنيه منه
أن يفهم كل منهم مراد الآخر بحد يسه .

والحديث عن النثر هنا يمضى بنا الى النثر الجاهلي وما دار حوله من شك
وما يمكن أن نستمدّه مما نراه من نثر ينسب الى هؤلاء الجاهليين .

وقد تعاور الباحثون ذلك بين منكر لهذا النثر ومعترف به ، وأشهر من تنكر
لوجود هذا النثر فيما بيد والسيو مرسيه (أستاذ مدرسة اللغات الشرقية في
باريس) والذي يرى أن النثر الغني لا يتصور صدورّه من أولئك العرب الجاهليين
الذين كانوا يعيشون حياة أوليه ، مع اعترافه بوجود الخطابة في هذا العصر (١)
وعلى شاكلة هذا العالم الفرنسي سار الدكتور طه حسين ، إلا أنه قد أقـر
للجاهليين بنثرًا - كما قال - إلا أنه لم يتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئًا اغناء ،
وإنما الخطابة فن إسلامي خالص ، إذ أن أهل البادية كانوا في حرب وغـزـو
وخصومات ، وهذا يدعو الى الحوار والجدل ، ولكنه لا يدعو الى الخطابه ، كما يرى
أن الخطابة تحتاج الى الاستقرار والاطمئنان الى الحياة المدنية المعقدة (٢) .

وقد ردّ على منكري النثر الجاهلي بما لا يدع مجالاً للقول بانكار هذا النثر ،
ذلك وأن ما زعم من أولية حياة العرب في القرن الخامس للميلاد لا توجب النثر الغني
وكان هذا النثر موجوداً عند أكثر الأمم المجاورة للعرب قبل الميلاد بخمسة قرون
ثم لا يكون للعرب بعد الميلاد بخمسة قرون ! وقد فات منكري النثر الى أنه كانت

(١) النثر الغني : د . زكي مبارك : ١٠ / ٣٣٣ ، ٣٤٤ . ط ٢ . مطبعة السعادة
بمصر .

(٢) في الأدب الجاهلي : ٣٣١ ، ٣٣٢ .

هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبي عليه الصلاة والسلام حتى يتهم بأنه
لفسق القرآن * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب
المبطلون * (١)

ومع ما سبق من أدلة (٢) فلا يمكن القول بانكار الخطابة على الجاهليين ، بل
على العكس من ذلك فقد ازدهرت عند الجاهليين ازدهارا عظيما * إذ لم ينقصهم
شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة الى الحرب مرة والسلم
السلم أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب خيامهم ومن أسواقهم ومن
ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لظهور براعتهم وتفننهم في المقال
وحوك الكلام . واسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فطروا عليه من خلاصة ولسن
وبيان وفصاحة وحضور بديهة * (٣) ومن خير ما يدل على ذلك ما نراه من ذلك الجم
الغفير من خطباء الجاهلية الذين ذكرهم الجاحظ ، حتى ليخيل اليانا أن بطون
كل قبيلة وعشائرها كانت لا تخلو من خطيب . (٤)

وأخيرا فانه لا يمكن تصور نزول القرآن الكريم معاهله فصاحة وبيان على أمة
لسانها في اسفاف ورعونه ، ثم يكون مع ذلك بلسانهم كما دل القرآن على ذلك .
ولا سبيل للاطالة في ذلك فانه نراه هو أن للعرب نشرا كثيرا قد اعتنوا به وعسرف
بينهم على ما كان له من صور مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان .
ومع الاعتراف بهذا النثر فمن المتفق عليه بين الباحثين أن هذا النثر الجاهلي
لم يصل اليانا على صورته التي وضعه عليها الجاهليون ، إذ ان (المدة) الزمنية
بين عصره وعصر التدوين غير يسيرة ، والنثر أكثر ضياعا من الشعر الذي وصل عن
طريق الرواية ، وهذا النثر لم يدون فلا شك أنه لم تصلنا أصوله الصحيحة وهذا
ما تنبه له القدماء حتى قال أحدهم * ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٢) وهي لزكي مبارك : النثر الفني : ٣٤ .

(٣) شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ٤١٠ .

(٤) انظر البيان والتبيين : ٣٥٨/١ - ٣٦٠ .

ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره (١) ، ولعل الامثال الجاهلية خير ما يمكن ظنه من قول الجاهليين المحتفظ بأصله وان كانت وحدها لا تكفي لتصوير بعض ابعاد صور هذا النثر واتجاهاته وأساليبه .

وهذا النثر الجاهلي الذي يروى منحولا ونحن نقر ذلك لا يخلو من فوائد عظيمة ، ان هو يهدي الى سابقة ويومئ الى أصله وله العديد من الدلالات عليه ، ونحن عندما نبحث عن النثر الجاهلي لا يمكن لنا اغفال هذا المنحول اغفالا تاما فانه لا يخلو من فائدة . واذا اجازت الرواية الشفهية في الشعر لسهولة حفظه فانها تكون عسير القبول في النثر لوقوع روايته بالمعنى ، ولكن (من هم الذين رووا هذا النثر ونقلوه الى عصر التدوين ، أليس هم جماعة من الجاهليين عاشوا حتى الاسلام بزمن غير قليل فاذا لم يكونوا قد رووه بلفظه كما قال أصحابه فانهم رووا معناه بأساليبهم ، وهي أساليب لا يمكن أن ندعى أنها ليست بجاهلية ، فقد ظلت صيغ الجاهليين وأساليبهم مسيطرة على الشعر والنثر في الاسلام وبزمن ليس بالوجيز ، وهؤلاء الرواة الذين أخذ عنهم العلماء الرواية كانوا يعيشون في البادية ، فاذا رووا شيئا فانما يروونه بأساليب الجاهليين ولغتهم ، وحتى لو ذهبنا الى القول بأنهم لا بد أن يكونوا قد تأثروا بأسلوب القرآن الكريم فان القرآن الكريم أهم مصدر يمكن الاهتداء به على أساليب الجاهليين في نثرهم) (٢) .

وما نراه في العديد من مصادرنا الأدبية التي تحفل بكثير من ألوان هذا النثر كالبيان والتبيين والأمالى والعقد الفريد ، ومقولة " ... فلم يحفظ من المنشور عشره " تدل على حفظ شيء من النثر الجاهلي حتى عصر التدوين وان كان قليلا جدا .

(١) العمدة : ٢٠ / ١ . طبعة دار الكجيل ، بيروت .

(٢) أدب ما قبل الاسلام : محمد عثمان علي : ١٩١ . ط ١ (١٤٠٣) المؤسسة العالمية للدراسات والنشر والتوزيع - توزيع عالم الكتب - بيروت .

" وكيف يمكن القول برفض كل النصوص النثرية التي وصلت إلينا عن الجاهليين والقول بأن هذا النثر الذي يضاف إليهم قد حاول قليلا أو كثيرا تقليد ما كان للعرب قسي جاهليتهم من نثر ، إذ من الثابت الواضح أن الذي يقلد لا بد أن يجد شيئا أمامه يقلد عليه ، فهو من فراغ ^{لا يقلد} والا أصبح مبدعا لا مقلدا ، ومعنى هذا أن هؤلاء المقلدين وجدوا أمامهم نصوصا تمثل النثر الجاهلي فقلدها ، . . فهو مع هذا اعتراف ضمنى بوجود النثر الجاهلي الذي صحب هذه النصوص التي وضعها هؤلاء المقلدون " (١) .

ولا ينبغي أن يتصور أحد أن معنى ذلك أن ما يروى من قصص وخطب جاهلية ومناظرات وغيرها صحيحة من دون نحل وانما هذا المنحول قد توفر لمن نحله علم كثير به حتى وضعه بصورة تقارب من أصله الذي قد علم عنه . وإلى هذا ذهب أحد الباحثين وتصور أننا " أن لم نغال ورجحنا صحة طائفة من الخطب الجاهلية التي انتهت إلينا ، نجد أن هذه النصوص القليلة لا تكفى وحدها لتحديد معالم الخطابة الجاهلية والا بانة عن خصائصها . الا أننا مع ذلك نستطيع أن نقف على كثير من مميزات الخطابة الجاهلية بالرجوع إلى الخطب التي يرجح انتقالها لأنها صورة عن الخطابة الجاهلية والذين اقتعلوها راعوا محاكاة صورة النثر الجاهلي . كذلك تعطينا الامثال الجاهلية صورة صادقة عن النثر الجاهلي وخصائصه . . " (٢) .

وبعد كل هذا فما نجد من نثر جاهلي يمكن أن نعه من أدب الحنيفية فسندحتكم إلى هذه النظرة السابقة مقرين بالوضع فيه وانما نوره لما له من دلالة على ناحية من نواحي هذا النثر أو أغراضه ، سايرين علماء السلف الذين أوردوا نماذج من ذلك ، كما أن من حق الناظر في هذا البحث أن يرى ولو بعضا من ذلك ، وسنورد شيئا من ذلك عندما نورد النماذج من الشعر ثم النثر فيما يأتي من معارض هذه الدراسة .

(١) السابق : ١٩٢ .

(٢) الخطابة العربية في عصرها الذهبي : د . احسان النص : ص ٨٠ ط ٢ . دار المعارف بمصر .

الفصل الثاني

شعر الحنيفة

يأتى هذا الفصل تجسيدا لما قصدنا اليه من بيان لمظاهر الحنيفية فى الأدب الجاهلى ودرءا لما قد يتبادر الى الذهن من أننا نعنى بذلك ما قد يروى لمتحنفى العرب من شعر ونثر ، والذين قد عرفنا جانبا طيبا عن أخبارهم ومعتقداتهم وشرائعهم فيما سبق . وقد يظن أننا نقصد به ذلك الشعر الدينى الذى وجد فيه ذكر الله - جل وعلا - وما ينطوى عليه من وصفه سبحانه ببعض صفاته العليا ، أو ذكر لقدرته العظيمة على كل شئ ، وخلقه لما نراه فى هذا الكون من عظيم الأكوان وعجيب المخلوقات .

ومع اعترافنا لما يستحقه شعر الحنفاء ونثرهم من دراسة ، ومعه صنوه من هذا الأدب الدينى عند الجاهليين^(١) فاننا لا نقصد بعنوان هذا الفصل لا هذا ولا ذاك وان ورد فى هذا الفصل شئ من أدب الحنفاء أو الشعر الدينى ، ذلك أن الأطر التى وقع فيها البحث فى قضية الانتحال^(٢) لا تسمح لنا بالأخذ من مثل هذين النوعين الا بعد أخذ نوع من الحذر والحيطه غير يسير .

ان هذا الفصل يتكون من شقين : أولهما الشعر ، والاخر هو النثر وسنرى هذه الحنيفية ومظاهرها التى تتكون منها وما يتفرع عنها ، على قدر ما اطلعنا عليه من دواوين الشعراء الجاهليين وكتب المجموعات الشعرية وكتب اللغة والمعاجم اضافة الى ما نراه فى بعض كتب التفسير وأسفار التاريخ .

وقد كنا نتمنى أن نرى فى أدب الحنفاء ما يشغى النفس ويثلج الصدر من اظهار هذه الحنيفية فى كل جوانبها سواء فى المعتقدات أم فى العبادات أم فى

(١) انظر مقدمة البحث .

(٢) انظر فصل الانتحال من هذا البحث : ٢٠٦ ، ١٩٥ .

التشريعات وغيرها مما يمكن أن تنطوى عليه ، غير أنه من المؤسف أن ما وصلنا من أدب هؤلاء القوم لا يفي بكثير مما عرف من آثار هذه الحنيفية وبقاياها فى العصر الجاهلى ، ولعل مانال الكثير من أدب الجاهليين من الضياع على ما قال ابو عمرو بن العلاء^(١) . فى عبارته المشهورة " وما أتاكم مما قالته العرب الا أقله ولو أتاكم كاملا لاتاكم علم وشعر كثير " ^(٢) . وكان لأدب الحنفاء منه أكبر الحفظ وأوفر النصيب ، خاصة وأننا نعلم أن هؤلاء الرجال كانوا قلة من جهة ، وقصد شغلهم البحث عن الدين بكثرة التنقلات وقطع الأسفار البعيدة عن التفرغ لا عطاء الناس فكرة عما يريدونه وما ينبغى أن تكون عليه الحياة فى قالب فنى يشتهرون به ويذاع بين الناس ، وان وصلنا شئ من ذلك رغم هذه الظروف .

ولا شك أن هذين العاملين كافيان للذهاب بكثير مما قالوه ولم يصلنا منه الا قلة ، وهذه القلة تحتاج الى تمحيص كبير ، ان لا يمكن قبول كل ما روى لهؤلاء من شعر أو نثر فى بطون المصادر المختلفة .

ومع ما كان يقوم به الحنفاء من بحث عن دين ابراهيم الذى ضل عنه قومهم كما يُنقن ذلك لبعض الحنفاء فلا يستبعد تأثير الحنفاء فى غيرهم ان نرى كثيرا من المعانى التى ترد فى أدب الحنفاء لها ما يماثلها عند غيرهم ، وينبغى أن يكون وأردا هنا أن دين العرب قبل الشرك هو دين ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - ولما ظهر الشرك بدأ الانحراف والتبديل فى هذه الملة ، ومع ذلك بقى كثير من الشعائر والاحكام وان لم تخل هذه البقية من تحريف صغير أو كبير فى بعض أمور منها . وسيوضح لنا شئ من ذلك فيما سيرد معنا من نماذج قادمة

(١) هو أحد أشهر علماء البصرة ، وكان عالما بكلام العرب ولغاتها وغريبها ، وكان من جلة القراء فى البصرة والموثوق بهم ، مع زهد وعفاف ، ويقال مات فى طريق الشام متجها اليها .

وانظر : طبقات النحويين واللغويين لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى : ٢٨-٣٤ . تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم . ط ١ (١٣٧٣ هـ) الخانجى بمصر .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٥٨ .

بإذن الله وقدرته . ولا يغيب عن البال أننا بما سنورده من آثار الحنيفية فسوى حياة الجاهليين كما نطق بذلك أهديهم لا ندعى لهم التمسك بهذه الحنيفية تماما ، ان هم كفار لا ريب، ولولا ذلك لما بعث الله فيهم رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما نلصق من خلال النصوص هذه الحنيفية وأثرها وما تبقى منها بعد ذلك الرّجح من الزمان . ثم ما نراه من اقرار الاسلام لبعض هذه البقايا مما دفع المستشرق (قولد تزيهر) الى القول " بأخذ الاسلام - على رأيه - من قوانين أهل مكة وأحكامها ، وأخذه من فقه أهل المدينة ، وهو في نظره أقل تطورا من فقه أهل مكة ، ولذلك فان فقه مكة كان من جملة المنابع التي عرف منها الفقه الاسلامي " (١) .

ولا ريب أنّ ما أقره الاسلام إنما هو من دين ابراهيم " الحنيفية السمحة التي أوحى الله الى نبيه بالسير عليها " ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين " (٢) .

ويرجع الفضل في معرفتنا بعضا من أحكام وعبادات الجاهليين الى اقرار الاسلام لذلك أو التعرض لها بالنهي والتحريم أو تقويم بعض منها كما يتضح ذلك في أسباب نزول بعض الايات البيّنات أو بعض من الأحاديث النبوية في ثنايا أسفارها (٣) . والتي كثيرا ما تسعفنا في شرح كثير من الآيات وتبيين جملة من المعضلات ، وفي مختلف جوانب التشريع الاسلامي .

وليعلم الناظر في هذا البحث أن ما سيرد معنا من نماذج في المعتقدات والأحكام والعبادات وغيرها يكاد ينطبق على عموم الجاهليين وان تفاوتوا في ذلك ، في أنحاء جزيرتهم ، ويمكن القول إن هذه الأمور التي ترجع الى الحنيفية وجدت عند الجاهلية القريبة من الاسلام ايضا ، وبخاصة في مكة ويشرب وما حولهما

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٤٨٣/٥ .

(٢) النحل : ١٢٣ .

(٣) انظر المفصل في تاريخ العرب : ١٥/٦ .

من بلاد الحجاز وإن خرجت في بعض المناطق البعيدة كنجد والبحرين ومشارف الشام وغيرها عن طريق الاتصال الذي لا ينقطع بمكة ويشرب مع مثل هذه الأجزاء من بلاد العرب .

(أ) المعتقدات

يعيش الانسان في هذه الحياة ويرى ما يحيط به ، ويلاحظ المخلوقات الكثيرة
سواه ، ويستعري انتباهه عظمة الأسرار المودعة هذه الكائنات ، فالشمس بنورها
وحرارتها تغطي الأرض حيوية وحركة ، والقمر بضياءه وتدرج منازلها ، والأرض بجبالها
وأنهارها وبحارها ، والنباتات بأشكالها ومانافعها ، والحيوانات بشراستها
واستئناسها ، الى غير ذلك من الآيات التي يعج بها عالمه . يرى ذلك كلّه
ثم يعود الى نفسه فيتضائل أمام هذه المخلوقات ، ويرى عجز نفسه فيخشى عليها
الشرور مما يزخر في هذا العالم من الكائنات ، ثم يبدأ يلتمس المعين له مما
تكنفه حياته من المخاوف وما يحدّق بها من الشرور ، ويظل مجهداً نفسه حتى
يطمئن ويأمن وتصلح له الحياة على الأرض .

ان الانسان ليرى قدرة عليا تهيم على هذا الكون فيحاول التقرب اليها
علّها تعينه على حياته حتى يطمئن وتقرّ له الحياة ، ومن هذه الناحية كانت
فكرة المعتقدات التي تتداخل مع فطرة الانسان على الدين ، بل ان الدين مبني
على ما فيه من معتقدات بدرجة كبيرة .

ولما كان الدين مبنيًا على هذه المعتقدات فلا جدال في أن أمما كثيرة عرفت
السبيل الى معتقدات دانت بها ونظرت الى حياتها حسب ما تلميه عليها تلك
المعتقدات . ويمكن القول ان المعتقدات ما يتيقنه الانسان ويتصوره عمّا
وراء الطبيعة من عوالم خفية توثر في عالمه ، وأثر الكائنات التي يراها في عالمه
عليه ، وهذا مثل مانسوية - نحن المسلمين - بالعقيدة ، وان كنا لن نطالب
الجاهلين بأن يكونوا على مثل ما نعتقده في الكون والحياة وماوراءها .

وقد تيسر لنا بحمد الله الوقوف على جانب من معتقدات الجاهليين ، ولله
مظاهر كثيرة كالايمان بالله ، ووصفه بكثير من صفاته العليا وقدرته الكـبرى ،

والتأمل في آياته والايمان بالرّسل والايمان بالملائكة ، والايمان بالبعث والحساب
والجزاء على الأعمال ، ونظرتهم الى القضاء والقدر .
وسنحاول فيما يأتي أن نتناول كل ذلك في نطاق أشعار الجاهليين
تأصيلا للدراسة في هذا الموضوع .

(١) النظر والتأمل :

يعيش الانسان على الأرض ، وتتفتح عينه على آفاق بعيدة في عالمه ، ويسترعى
انتباهه وسيطر على مشاعره آيات الكون العجيب ، وما أكثر هذه الآيات ! فالسماء
بارتفاعها ، والنجوم اللآلئة تزينها ، والشمس بنورها وحرارتها ، والقمر بضياءه
وتدرجه في منازلها ، والأرض بجبالها وكثرة نباتها وحيوانها ، وما فيها من الأنهار
وشاسع البحار ، يرى المرء كل ذلك ، ويشعر بعظمة الخلق في هذه الكائنات ،
ويتراءى له سرّ الابداع في هذا العالم رغم كل هذه الضخامة وازدحام هذه الكائنات ،
فيدرك من وراء ذلك القدرة التي أوجدت هذا العالم وأحكمت ما فيه من تلكم
الكائنات والمخلوقات .

لقد دلت هذه الآيات والمخلوقات على الخالق ، وكشف اتقان صنعها
وتناسقها عن عظمة هذا الخالق وحكمته وقدرته ، وأنه لا بد أن يكون فاعلا وقادرا
على ما يشاء من الخلق والتدبير .

والانسان كما هو معلوم مغطور على الايمان بالله ، ولكنه عند ما يرى آيات الله
الكثيرة في الكون يزيد ايمانا بالله ويقدرته العظيمة على كل شيء .

وقد كان العرب في جاهليتهم يؤمنون بالله ويعتقدون أن له كثيرا من
الصفات والافعال كما نطق بذلك كثير من شعرهم وأخبارهم .

وقد وردت آيات كثيرة من القرآن الكريم في الحث على التأمل في آيات الكون ،
ومن ذلك قوله تعالى " أولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيئوا ظلاله عن اليمين

والشمائل سجدا لله وهم داخرون" (١) وفي آيات أخرى: " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت " (٢) . وقد رأينا فى شعر الجاهليين شيئا من هذا التأمل ، وطرفا من الوقوف أمام هذه الآيات خاصة عند المتحنفين .

وبجانبا للتأمل فى آيات الله نلاحظ تأملا آخر عند الجاهليين ، ذلك هو التأمل والنظر فى مصير الأمم السابقة وقصصهم ، وكيف انتهى بهم الأمر الى الفناء ، مع ما عرف لتلك الام من أمجاد ، وما ذاع فى تاريخها من حوادث ، وكيف خلست منهم الديار ، وبقى ما شادوه من حضارات ! .

ويضاهب قصص الأمم السابقة ذكر رسلها وأنبيائها ، وقد كان لهم شأن مع اقوامهم ، وما اشتهر وعرف عن هؤلاء البشر الكرام .

وقد دفع التأمل فى الام السابقة الجاهليين الى التفكير كثيرا فى الموت والفناء ، وكيف يأخذ الموت الأمم لا يبقى على أحد ؟ وكيف تبقى الأرض والجبال والديار وقد رحل عنها أهلها ؟ وما دام هناك موت محقق فكيف ينبغى للانسان أن يستغل عمره القصير قبل أن يختطفه الموت ؟ ثم من يبقى ليرث هذا العالم . والبشر فى فناء متلاحق لا يبقى منهم أحدا ؟ .

ليس غريبا أن نجد فى شعر الجاهليين شيئا من ذكر الأقسام السابقين (٣) ، وبالرغم من ذكر القرآن لكثير من قصصهم ومآلهم حفظ لنا الشعر الجاهلى فيما بلغنا منه جزءا طيبا - على قلته - من ذلك ، حتى على خلاف آو وفاق فى تفاصيل ذلك القصص عن القرآن الكريم .

ان الذى بيد ومن هذا التأمل فى آيات الله ومخلوقاته ، وقصص الأمم السابقة ومصيرها كان له أثر على أولئك الجاهليين فى اهتدائهم الى الايمان بالله ،

(١) النحل : ٤٨ .

(٢) الفاشية : ١٧ - ٢٠ .

(٣) انظر ما سبق فى فصل الانتحال : ١٧١ -

وان هم أشركوا به غيره في العبادة ، ولعل هذا التأمل - وقد كان قويا عنده الحنفاء أكثر من غيرهم - قادهم الى نبذ عبادة الأصنام ، ثم البحث عن دين يُوحّد الله فيه بالعبادة .

وقد تراءى لنا أن نجمع بين التأمل في آيات الله وذكر الاقوام السابقين لما بينهما من جامع التأمل والتفكر واعادة النظر ، ولما كان التأمل في آيات الله يزيد في الايمان به فكذلك العبرة بالأمم السابقة تدعو الى الايمان بالله ، وذلك مما يعلم من مصير الاقوام الذين كذبوا رسلهم ، وخالفوا أوامر الله ، وكيف انتقم الله منهم ، وهذا مصير يحق بكل من عصى الله وخالف رسله .

ومن الشعر الذي ورد فيه التأمل في آيات الله قول أمية بن أبي الصلت :^(١)

ان آيات ربنا ثاقبات .. لا يمارى فيهنّ الا الكفور

خلق الليل والنهار فكل .. تستبين حسابه مقدر

ثم يجلو النهار ربّ رحيم .. بمهاة شعاعها منشور^(٢)

فآيات الله في هذا الكون واضحة بائنة لا تخفى على أحد ، ولا يستطيع أحد أن ينكرها ويتجاهلها الا أن يكون معاندا كافرا ، ومن هذه الآيات العظيمة تداول الليل والنهار ، فالنهار بضياءه وحركة الحياة فيه دائبة ، والليل يقبل بظلامه وسكونه ، وكل ذلك يجرى بقدر وحكمة من الله . وفي النهار تأتي هذه الشمس الساطعة لتجلو النهار وتذهب الليل بضياءها وحرارتها ، بما ترسله من أشعتها الى الأرض لتبعث اليها الحركة والحياة بعد ذلك الليل الساكن البهيم .

ونرى حنظلة بن أبي عفراء^(٣) يركز تأمله في القمر ، ويتابع هذه الآية العجيبة

(١) ديوانه : ص ٣٩١ .

(٢) المهاة : الشمس سميت بذلك لصفائها ، والمها من الأجسام الذي يرى باطنة من ظاهرة .

(٣) هذا على رأى صاحب الاغانى (١٠٣/٩ ط بيروت) وفي المحبر (٢٣٨) أنها

لقبيصة بن اياس ، أو اياس بن قبيصة ، وفي معجم البلدان (٥٠٦/٢)

لحنظلة بن أبي غفر ، عم اياس بن قبيصة .

- ٢ - وسِجَالٌ هَوَاطِلٌ مِنْ غَمَامٍ .. ثُرْنٌ مَاءٌ وَفِي جَوَاهِنٍ نَارٌ^(١)
- ٣ - ضَوْءُهَا يَطْمَسُ الْعَيُونَ وَأَرَعَا .. دَشِيدَانٌ فِي الْخَافِقِينَ تُطَارُ
- ٤ - وَقَصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوْتِ الْخَيْبِ .. سَرٌ وَأُخْرَى خَلَّتْ فَهِنَّ قِفَارُ
- ٥ - وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاكُ .. وَبِحَارٍ مِيَاهُنَّ غِيَاكُ
- ٦ - وَنَجُومٌ تَلُوحُ فِي ظُلْمِ اللَّيْلِ .. لَيْلٍ نَرَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
- ٧ - ثُمَّ شَمْسٌ يَحْتُهَا قَمَرًا لِلَّيْلِ .. لَيْلٍ وَكُلُّ مَتَابِعٍ مَسَاكُ
- ٨ - وَصَغِيرٌ وَأَشْمَطُ^(٢) وَكَبِيرٌ .. كَلَّمَهُمْ فِي الصَّغِيدِ يَوْمًا مَرَارُ
- ٩ - وَكَثِيرٌ مِمَّا يُقَصِّرُ عَنْهُ .. حِدُوسَةُ الْخَاطِرِ الَّذِي لَا يَحَارُ
- ١٠ - فَالَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى اللَّهِ .. هُوَ نَفْسًا لَهَا هَدَى وَاعْتَبَارُ

وقد ظهر لنا أن آية بن أبي الصلت " أكثر من ذكر هذا التأمل في آيات الله ،
وحسبنا ما ذكرنا له ولغيره ليدلنا على أمثاله^(٣) .

أما قصص السابقين وأخبار من تقدم من النبيين والمرسلين فهي أكثر، بل توعد
علم العرب بها ، كما تدل على شيوع القصص بينهم .

فهذا " عبد المطلب " يذكر إبراهيم الذي بنى كعبة الله ، وأنهم في بلد الله
الحرام من عبد إبراهيم فكأنهم آل الله وخاصته^(٤) :

نحن آل الله في كعبته .. لم يزل ذاك على عهد إبراهيم

(١) جواهين : باطنهن وداخلهن .

(٢) الأشمط : يريد كبيرا قد ابيضت لحيته وعلاه الشيب .

(٣) ديوانه : ٤٦٩ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ . وانظر قصيدة لزهير في ديوانه (صنعسة

الأعلم) ص ١٦٧ وما بعدها ، وقد شك الأصمعي فيها ، وانظر ديوان عبيد بن

الأبرص : ٦١ . تحقيق حسين نصار ط ١٣٧٧ مصطفى الحلبي - القاهرة

(٤) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٤٩ / ١ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

ط حجازي - القاهرة ، المعرب للجواليقي : ٦١ ط دار الكتب .

ويجيء " الاعشى " فيدعو لعمد وجه - اياس بن قبيصة الطائي (١) - بجزء خير من الله كما جازى عبده ورسوله (نوحا) ، وقد كان هذا الجزاء بعد فترة طويلة من عمر نوح قضاها في دعوة قومه ، وهذا الجزاء تمثل في انجائه من الغرق على حلي سفينته التي صنعها بيده وجمع ألواحها وأبوابها حتى جعل منها فلكا ماخرا على الماء بقدره الله : (٢)

جَزَى الْإِلَهُ أَيَا سَآخِرٍ نِعْمَتِهِ .. كَمَا جَزَى الْمَرْءَ نُوحًا بَعْدَ مَا شَابَا
فِي فُلْكَهٖ اذ تَبَدَّاهَا لِيَصْنَعَهَا .. وَظَلَّ يَجْمَعُ الْوَاحَا وَأَبْوَابَهَا
ونجد ذكرا آخر لنوح عند أمية بن أبي الصلت في مواضع من ديوانه (٣) ، فهو يذكر أيضا انجاء الله لنوح من الغرق في السفينة ، ويشير الى من كان معه من المؤمنين به ، والحيوانات وان لم يذكرها ، وهم عراة لا لبوس لهم تقيهم اللوايح ، وقد فاض الماء حتى غطى الأرض ، وهم في أمواج خضر تصطفق بهم كاللهضب : (٤)

جَزَى اللَّهُ الْأَجَلَ الْمَرْءَ نُوحًا .. جَزَاءَ الْبِرِّ لَيْسَ لَهُ كِذَابٌ
بِمَا حَمَلَتْ سَفِينَتُهُ وَأَنْجَبَتْ .. غَدَاةً أَنَا هُمْ الْمَوْتُ الْقُلَابُ (٥)
وَقِيَهَا مِنْ أُرُوفَتِهِ عُرَاهُ .. لَدَيْهِ لَا الظَّمَاءُ وَلَا السَّفَابُ (٦)

(١) اياس بن قبيصة الطائي (كما في الاعلام) مختصرا من أشرف طيبي
وفصحاءها وشجعانها في الجاهلية . اتصل بكسرى ابرويز فولاه الحيرة ، ثم
نحاه وولى النعمان أبا قابوس ، وولاه الحيرة بعد قتل النعمان ، وفي أيامه
كانت وقعة (ذى قار) الشهيرة بين العرب والفرس .

وانظر تاريخ بن خلدون : ٢ / ٢٦٥ ، شعراء النصرانية : ١ / ١٣٥ .

(٢) ديوان الأعشى الكبير : ٤١٥ .

(٣) ديوان أمية : ٥٣١ ، ٥٣٢ .

(٤) ديوان أمية : ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٥) القلاب : كما قال محقق الديوان : داء يأخذ البعير فيشتكى منه قلبه ،
فيموت من يومه ، وهو هنا الموت الأكيد المحقق .

(٦) الأرومة : الاصل ، السقاب : الجياح ، الواحد ساغب أو سغب أو سفبان .

- وان هُم لالبوسى لهم تقيهم .. وان صخرُ السلام لهم رطاب^(١)
 عشية أرسل الطوفان تجبري .. وفاض الماء ليس له جراب^(٢)
 على أمواج أخضر ندى حبيبك .. كأن سعار زاخره الهضاب^(٣)

ويذكر " امرؤ القيس " عاداً وشمود ، ويقسم ان لا يجتمع بين جشم حـتى يقتلوا ، فاذا القتلى على كثرتهم كعاد أو شمود .^(٤)

- كلا يمين إلا لله يجمعنا .. شىء وأخو النابى جشما
 حتى تزور السباع ملحمة .. كأنها من شمود أو إرم^(٥)
 ونرى " الاعشى " يذكر عاداً وشمود وأقواماً غيرهم وكيف أودى بهم الدهر .^(٦)
 ألم تروا إرمًا وعادا .. أودى بها الليل والتهار

- (١) السلام : الحجارة ، الواحدة سلمة ، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة من قديم الزمن ، وذلك معنى قوله رطاب .
 (٢) الجراب : جوف البئر من أعلاها الى أسفلها ، والمعنى ليس له حدود تحده لكثرتة واتساعه .
 (٣) حبيبك : مفردها حبيبه ، وهو ما يرى على الماء من حروف اذا مرت به الرياح . السعار : هو حر النار ، واستعاره لشدة الموج .
 (٤) ديوان امرؤ القيس : ٢٠٨ .
 (٥) الملحمة : موضع القتال ، وانما يريد القتلى ، فيقول كاني بهم قد صاروا كأولئك الموتى من عاد وشمور ، ارم : مدينة عاد وقيل غير ذلك .
 (٦) ديوانه : ٣٣١ . وقد علق محقق الديوان هنا بقوله : " وليس حديث الشاعر الجاهلى فى مثل هذه المواضع غريباً ، فهو مألوف كثير ، فالشاعر الجاهلى - كما رأينا فى كثير من المواضع - كان يمثل الرجل المثقف ، الذى يحيط بكل معارف عصره ، من تاريخ وأساطير وأنسب ، وهو مع هذا رجل حكيم ، يمتاز من بين سائر الناس ، بأنه أعمق غوراً وأصح نظراً .
 لذلك كان من المألوف أن يعرض الشاعر لحديث مثل هذه الأمم البائسة ، حين يتحدث عن تفاهة الدنيا ، وعن غورها بالناس ، ليصل من ذلك الى أن كل شىء يصير الى الزوال والغناء ، فهو لا يقصد من ذلك الا استنباط العظة والعبرة " .

بَادُوا فَلَمَّا أَنْ تَنَادَوْا .. قَفَى عَلَى إِثْرِهِمْ قَدَارٌ^(١)
 وَقَبْلَهُمْ غَالَتِ الْمَنَائِكَا .. طَسَمَا وَلَمْ يُنْجِهَا الْحَذَارُ
 وَحَلَّ بِالْحَيِّ مِنْ جَدْبَيْنِمْ .. يَوْمَ مِنَ الشَّرِّ سَتَّطَارُ
 وَأَهْلُ غَمْدَانَ جَمَعُوا .. لِلدَّهْرِ مَا يَجْمَعُ الْخِيَارُ^(٢)
 فَصَبَّحَتْهُمْ مِنَ الدَّوَاهِي .. جَائِحَةٌ عَقَبَهَا الدَّمَارُ
 وَقَدْ غَنَوْا فِي ظِلَالِ مُلْكِكَ .. مُوَيْدٍ عَقَلْتُمْ جَفَّارُ^(٣)

ونلاحظ " الاعشى " أيضا يذكر خبر سد مأرب ، وما بُنى به من الرخام حتى
 أحكم فلا يذهب منه الماء ، وقد استفادوا منه ان سقى لهم مزارعهم التي قسموا
 ماءه بينهما ، وقد كانوا في نعمة غامرة ساعد عليها ذلك السد ، فلما اجترف السيل
 سد هم فرقهم في صحراء قاحله ، ولم يقدروا عند ذلك على الانتفاع بشيء من هذا
 السد المنجرف حتى ولو كان نزرا .^(٤)

قَفَى ذَاكَ لِلْمُوْتَسِي أُسْوَةٌ .. وَمَأْرِبُ قَفَى عَلَيْهَا الْعَرِمُ
 رَخَامٌ بِنْتُهُ لَهُمْ حِمٌّ .. إِذَا جَاءَهُ مَاءُهُمْ لَمْ يَكِرِمُ^(٥)
 فَعَاشُوا بِذَلِكَ فِي غِبْطَةٍ .. فَجَارَ بِهِمْ جَارِفٌ مِنْهُمْ^(٦)

- (١) تَادُوا : تفاعلوا من الأيد وهو القوة أى تعاونوا على ذلك . قدار : هو
 ابن سالف الذى تولى قتل الناقة فعذبهم الله بذلك ويضرب به المثل
 فى الشؤم عند العرب فأمره معروف عندهم .
 (٢) غمدان : قصر مشهور باليمن ، وأهله التابعه ملوك اليمن . ما يجمع الخيار :
 يعنى من الأموال والمتاع النفيس فى حياتهم .
 (٣) غنوا : أى أقاموا ، مويد : قوى ، جفار : أى واسع .
 (٤) ديوان الاعشى : ٩٣ .
 (٥) يرم : يذهب ويسبح .
 (٦) منهزم : أى له صوت عند تصدعه وانهدامه .

فَطَارَ الْقَيْسُولُ وَقِيلَاتُهَا .. بِيَهْمَاءٍ فِيهَا سَرَابٌ يَطْمُ (١)
فَطَارُوا وَلَمْ يَقْدِرُوا .. نَ مِنْهُ لِشَرِبِ صَبِيٍّ قَطْمِ

ويدل "النابغة" على أن الموت قد قضى على حمير والتبابعة كما أباد ذانواس
وأذينة: (٢)

وَلَقَدْ أَرَى أَنِّ الذِي هُوَ غَالَهُمْ .. قَدْ غَالَ حَمِيرَ قَيْلِهَا الصَّبَاحَا (٣)
والتبعين وذا نواس غزوة .. وعلا أذينة سالب الأرواحا (٤)

وأما "داود" عليه السلام فقد كثر الحديث عن دروعه واشتهاره بصناعتها ،
ويعدّها العرب من أجود الدروع ، وتكون موضونة ، وهي التي تصنع من حلقتين
حلقتين مما يزيد في صلابتها وحماية لابسها ، وإذا ضربت فيها السيوف البواتر
فهي تثلمها دون أن تخرقها . يقول بشامة بن عمرو : (٥)

وَمَنْ نَسَّجِ دَاوُدَ مَوْضُونَةً .. تَسْرَى لِلْقَوَاضِبِ فِيهَا صَلِيلًا (٦)

(١) القيسول : جمع قيل ، وهو لقب ملوك حمير . بيهما : صحراء مطموسة المسالك .

يطم : يقال طم الشيء إذا كثر حتى علا وغلب .

(٢) ديوان النابغة الذبياني : أجمع وتحقيق : محمد الطاهر بن عاشور ،

ط . الشركة التونسية ، والشركة الوطنية الجزائر .

(٣) غال : رزأ وأصاب ، الصباحا : أي الكثير الغارة على أعدائه ، والغارة تكون

في ابتداء الصباح .

(٤) التبعان : تبع أسعد أبو كرب وتبع حسان ، من ملوك اليمن .

ذو نواس : من آذوا اليمن ، صاحب أهل الأخدود ، أذينة : ملك كان

بالجزيرة ومشارف الشام من عاملة العمالقة .

(٥) هو بشامة بن الغدير (كما في الشرح مختصرا) شاعر جاهلي ، خال زهير

ابن أبي سلمى ، كان ذا مال وحزم ، وكانت غطفان تستشيريه عند الغزوات .

انظر طبقات فحول الشعراء : ٢ / ٧١٨ ، ٧١٩ ، البرصان والعرجان والعميان

والحولان : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٣٥٧ ، تحقيق : عبد السلام

هارون . ط (١٩٨٢ م) وزارة الثقافة والاعلام - العراق .

(٦) المفضليات : ٥٩ .

وهذه الدروع يصطحبونها معهم في الحروب ويحملونها على الجمال ، واذ ازدحمت
بها العير في الاماكن الضيقة احدكن رءوس ساميرها التي تربط حلقاتها فلها صوت
كحفيف الحصاد حين تهزه الريح : (١)

وَمِنْ نَشَجِ دَاوُدَ مَوْضُونَكَةً .. تُسَاقُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعَيْرًا
اِذَا اَزْدَحَمَتْ فِي الْمَكَانِ الْمَضِي .. حَتَّ التَّرَاحِمُ مِنْهَا الْقَتِيرَا *
لَهَا جَرَسٌ كَحَفِيفِ الْحَصَا .. وَصَادَفَ بِاللَّيْلِ رِيحًا دَبُورًا

وهذا السؤال يشير الى سعة ملك داود :

وَأَتَتْنِي الْأَنْبَاءُ عَنْ مَلِكِ دَاوُدَ .. دَفَقَتْ عَيْنِي بِهِ وَرَضِيَتْ (٢)

وأما سليمان بن داود فقد أمره الله أن يمنع البرية عن الفند ، وسخر له
الجن يعملون له في البناء ثم هو سلط عليهم باثابة المطيع وعقاب العاصي كما
يقول "النابغة" عند تشبيهه للنعمان بسليمان معتذرا اليه مادحا له : (٣)

وَلَا أَرَى أَحَدًا فِي النَّاسِ يُشَبِّهُهُ .. وَلَا أَحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ
الْأَسْلِيمَانَ اِنْ قَالَ إِلَّا لَهُ لَهُ .. قُمْ فِي الْبَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْعَنْدِ (٤)
وَخَيْسِ الْجِنِّ إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَهُمْ .. يَيْنُونُ تَدْمُرُ بِالصَّفَاحِ (٦) وَالْعَمَدِ (٧)

ويذكر "الاعشى" سليمان عليه السلام باقامة الأبنية المحكمة كحصن الأبلق

(١) ديوان الاعشى الكبير : ١٤٩ .

* حت : حك ورد . القتير : رءوس السامير التي تربط أجزاء الدرع وحلقاته .

(٢) الاصعيات : ٨٦ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني : ٨٢ .

(٤) الفند : ضعف الرأي والعمل .

(٥) خيس : خيس الدابة : أى ذللها للعمل أو الركوب .

(٦) الصفاح : الحجارة الصلبة العريضة .

(٧) العمدة : جمع عماد ، وهو الأعمدة التي يقف عليها حمل السقف .

بتيماء في إحدى مدائحه ويقول : (١)

فَمَا أَنْتَ إِنْ دَامَتْ عَلَيْكَ بِخَالِدٍ .. كَمَا لَمْ يُخَلِّدْ قَبْلَ سَاسَا وَمُورِقِ (٢)
 وَكِسْرَى شَهْنَشَاهُ الَّذِي سَارَ مُلْكُهُ .. لَهُ مَا اشْتَهَى رَاحَ عَتِيقٌ وَزَنْبِقُ (٣)
 وَلَا عَادِيًا لَمْ يَمْنَعِ الْمَوْتَ مَالَهُ .. وَحِصْنٌ بِتَيْمَاءَ الْيَهُودِيَّ ابْلَقُ (٤)
 بَنَاهُ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ حِقْبَةَ .. لَهُ أُنْجٌ عَالٍ وَطَى مُوشِقُ (٥)

وحسبنا أخيراً ان نذكر شعراً عن قصة أصحاب الفيل المشهورة فهي ما لا يشك

أحد في علم العرب بها ، وهذا " أمية بن أبي الصلت " يصور طرفاً منها فيقول : (٦)

حَبَسَ الْفَيْلَ بِالْمَغْفَسِ حَتَّى .. ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ (٧)

(١) ديوان الاعشى : ٢٦٧ .

(٢) ساسان : ملك الفرس . مورق : قالوا انه ملك الروم . كذا قال محقق الديوان .

وفي تاج العروس " ورق " ٨٢/٧ قال : " ومورق كمقعد " اسم ملك الروم .

قال الاعشى :

فَأَصْبَحْتَ قَدْ وَدَعْتَ مَا كَانَ قَدْ مَضَى .. وَتَقَلَّبِي مَامَاتِ بْنِ سَاسَانَ هَوْرَقِ .
 أَرَادَ كِسْرَى بْنِ سَاسَانَ .

(٣) شهنشاه : كلمة فارسية معناها : ملك الملوك . راح : خمر .

الزنبق : نبات له زهر طيب الرائحة .

(٤) عادي : هو أبو السموءل وكان يهودياً .

(٥) الأنج : البيت بيني طولاً وهذا نوع من أنواع البناء .

الطى : هو بناء جوانب البئر بالحجارة والاجر وهذا البناء هنا للأبلىق .

(٦) ديوان أمية : ٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٧) المغفس كما قال معجم ما استعجم (٤/١٢٤٨) : موضع طرف الحرم ، وهو

الموضع الذي ربح فيه الفيل حين جاء به ابرهة " وقال ياقوت (معجم

البلدان : ٤/٥٨٣) : " موضع قرب مكة في طريق الطائف . مات فيه أبو رغال

وقبره يرجح لانه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك " وأرى أن هذا هو

الصحيح ولم يبينه محقق ديوان أمية . يحبو : فسره محقق ديوان أمية بعدم

التحرك هزلاً وهذا خطأ منه فالحبو : الزحف والتحرك على اليدين والبطن

والبعير يحبوا اذا زحف وهو بارك على الارض كما في اللسان (حيا) ١٤/١٦١ .

العقر : أن تقطع إحدى قوائم البعير قبل نحره كيلا يشرد عند النحر ، وقد

نهى عنه الاسلام لما فيه من تعذيب للحيوان .

لا زِمًا جَلَقَةَ الْجِرَانَ كَمَا قُطِّتْ .. رَمِنَ صَخْرٍ كَبَّكَ مَحْدُورًا (١)
 حَوْلَهُ مِنْ مَلُوكٍ كُنْدَةَ أَبْطَا .. لَ مَلَاوَيْتُ فِي الْحُرُوبِ صُقُورُ
 خَلَّفُوهُ ثُمَّ أَبَدَ عَرَّوَا جَمِيعًا .. كَلَّمَهُمْ عَظْمُ سَاقِهِ مَكْسُورًا (٢)

(٢) الأيمان بالله :

يقع الايمان بالله قبل كل إيمان بما سواه ، بل يكاد يقع الايمان بغيره تبعاً للايمان به ، وايمان الجاهليين بالله دل عليه القرآن الكريم ، فقد علموا أنه - جل وعلا - خلق السماوات والأرض * ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله * . (٣)

بل قد أقرّوا لله بانزال المطر * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله (٤) ، وهم يعترفون له سبحانه بخلق أنفسهم * ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنتى يوءفكون (٥) .

ولا شك أن هناك آيات كثيرة على شاكلة الآيات السابقة يقر فيها الجاهليون بالايمان بالله ، وقد رته على كثير من الأمور العظيمة التي لا يقوم بها أحد الا الله ،

(١) الجران : باطن العنق ، فاذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل : ألقى جرانه بالأرض . قطر : ألقى من علو على قطره ، أى جانبه . ككب : جبل خلف عرفات لمن يستقبل بها البيت . محوور : الذى ألقى من علو الى أسفل يريد " حجراً محووراً " ولعل المعنى فيما بيدولى - أن الفيل ثبت مكانه لأنه صخرة انحدرت ولزمت مكانها . ولم يبين معناه محقق الديوان .

(٢) ابذعروا : تفرقوا .

(٣) العنكبوت : ٦١ .

(٤) العنكبوت : ٦٣ .

(٥) الزخرف : ٨٧ .

فهو الذى سخر الشمس والقمر^(١) لمنافع العباد ، كما أنه هو الذى يرزقهم من السماء ويملك السمع والأبصار ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر^(٢) . كما أنه هو الذى بيد وء الخلق ، ويهدى الناس الى اتباع الحق^(٣) . بل قد اعتقدوا أنه لو لم يشأ الله لما أشركوا فى عبادته أحدا سواه^(٤) ، الى غير ذلك من الآيات حول هذه المعانى .

أمّا الشعر الجاهلى فإنه حافل بايمان الجاهلين بالله واعتقادهم بوجوده ، فالاعشى "ميمون بن قيس" يرى أن الله الذى بيده الأمر فما أصلحه الله كان صالحاً^(٥) :

إِنَّمَا نَحْنُ كَشَيْءٍ فَاسِدٌ . . . فَإِذَا أَصْلَحَهُ اللَّهُ صَلَّحَ

ويوافقه فى هذا الاتجاه طفيل الغنوى بقوله^(٦) :

لَعَمْرِي لَقَدْ خَلَى ابْنُ جَنْدَعٍ ثَلْمَةً . . . وَمِنْ أَيْنَ إِنْ لَمْ يَرَأْبِ اللَّهُ تَرَابٍ

وهذا طرفة بن العبد مع ما عرف به تبذّر ومجون يرى أن الله هو الذى يمنح الرجال الخصال النبيلة والسوءد والشرف فلو شاء جعله ذاك شأن ومكانه كما لهذين الرجلين^(٧) :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ . . . وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدٍ

١) العنكبوت : ٦١ .

٢) ~ يونس : ٣١ .

٣) ~ يونس : ٣٤ / ٣٥ .

٤) ~ الانعام : ١٤٨ .

٥) ديوان الأعشى الكبير : (٧/٣٦) ص ٢٨٧ .

٦) ديوانه : ٣٦ .

٧) ديوانه : تحقيق : لطفى الصقال ، درية الخطيب : ٤١ ، مجمع اللغات بدشق ١٣٩٥ هـ

قال الأعمى فى شرحه : قيس ابن خالد : هو قيس بن خالد بن عبد الله ذى الجدين ، من بنى شيبان ، عمرو بن مرثد : ابن عم طرفه ، وذكر له قصة مع طرفه لما سمع هذا البيت وانظر ديوان طرفه : ٤١ ، ٤٢ .

وقيس بن الخطيم يرى أن ما أرادَه الله للإنسان وقدره له فهو الذي يناله ،
أما ما يتمناه المرء فانه وإن أحبه فلن يأتيه منه الا ما أرادَه الله :^(١)

يُحِبُّ الْمَرْءُ أَنْ يَلْقَى مُنَاهُ . . وَيَأْتِي اللَّهَ الْأَمَائِشَاءُ

ومثله الحارث بن حلزة الذي يرى السعادة والشقاء من أمر الله :^(٢)

فَمَهْدَاهُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ اللَّهِ . . بِبَلِّغِ يَشَقِي بِهِ الْأَشْقِيَاءُ

ومن الايمان بالله وصفه بالقدرة على ما يعجز عنه البشر فهو عند أوس بن حجر قادر
على انزال المطر في غير ما اعتادوه من مواسم الامطار :^(٣)

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مَزْنَةً . . وَعَفَّرَ الظُّبَاءَ فِي الْكِنَاسِ تَقَمُّعًا^(٤)

ويؤء من سلامة بن جندل بقدرة الله على جمع أمر الناس وتفريقهم ، كما أنه
القادر على جبر العظم الواحد الذي فرقه الكسر وأضعفه :^(٥)

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا حَجَّيْنِ عَلَيْكُمْ . . وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْقِدُ وَيُطْلِقُ

هُوَ الْجَابِرُ الْعَظْمَ الْكَبِيرَ وَمَا يَشَأُ . . مِنَ الْأَمْرِ يَجْمَعُ بَيْنَهُ وَيُفَرِّقُ

والله هو الذي يقي الانسان ولا حيلة له ان لم يقه الله كما قال أفنون التعلبي :^(٦)
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقى . . اذا هولم يجعل له الله واقيا
أما حاتم الطائي فقد كان متلافا للمال ، لا يدخر لغيره ، واشق في اجراء الله

في كل يوم رزقا فلا ينبغي الاقتار :^(٧)

فَلَا تَلْتَمِسْ رِزْقًا بِعَيْشٍ مُقْتَبِرٍ . . لِكُلِّ غَدٍ رِزْقٌ يَعُودُ جَدِيدٌ

(١) ديوان قيس بن الخطيم : تحقيق : د . ناصر الدين الاسد : ١٥٥ . ط ٢ (١٣٨٧)

دار صادر . بيروت .

(٢) شرح القصائد السبعة الطوال الجاهليات ، محمد بن القاسم الانباري : ٤٨٩ ،
تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ ، دار المعارف بمصر .

(٣) ديوانه : ٥٧ .

(٤) الكناس : محل ما تأوى فيه الظباء ، تقمع : تطرد عنها القمعة وهو ذباب أزرق ،
والمعنى : أن الله أنزل المطر في غير وقته المألوف ، ففي الحر والذباب لسم
يخف ولم يذهب أمطروا .

(٥) ديوانه : ١٠٩ ، ١٨٤ . تحقيق فخر الدين قباوة ط ١ ، ١٣٨٧ المكتبة العربية
حلب .

(٦) الفضليات : ٢٦١ .

(٧) ديوان حاتم بن عبد الله الطائي : ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الرِّزْقَ غَابٍ وَرَائِحٌ . . وَأَنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ سَوْفَ يُعِيدُهُ

وعشدة النابغة الذبياني نراه يقر له بالحفظ والوقاية : (٢)

فَإِنَّ وَقِيَّتَ بِحَمْدِ اللَّهِ شَرَّتْهَا . . فَانجَى فَرَارَ إِلَى الْأَطْوَادِ فَاللُّوبِ . (٣)

وهو الذي يسوق الغيت والسحب المبكرة : (١)

أَقُولُ وَأَنَّ شَطَّتْ بِي الدَّارَ عَنْكُمْ . . إِذَا مَالَقِينَا مِنْ مَعَدِّ سَافِرَا

أَلِكْنِي إِلَى النَّعْمَانِ حَيْثُ لَقِيْتَهُ . . فَأَهْدَى لِهَ اللَّهُ الْغِيُوتَ الْبَوَاكِرَا (٤)

ومع ما عرفوه لله من أفعاله وقد رته فالله عالم الغيب ومطلع على خفايا النفوس وسرائر

الاعمال . وذا زهير يخاطب أولئك المتحاربين الذين عقد الصلح بينهم على

التسك به وعدم اضرار خلافه فالله مطلع على كل ذلك : (٥)

فَلَا تَكْمُنَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ . . لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يُعْلَمِ

يَوْمَ خَرُّ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيَدَّخِرُ . . لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يَعَجَّلُ فَيُنْقَمِ

والله يعطى ويمنع ويعز ويذل ، فهو الذي منح مدوح الأعشى الأموال ، وقوة السلطان

فكم رفع حاجات الفقراء وأصلح معاشهم ، وأخرب ديار من يناوئيه ، كما أنسه

الله تعالى مطلع على الأسرار والخفايا : (٦)

فَأَقَلَّتْ قَوْمًا وَأَعْمَرَتْهُمْ . . وَأَخْرَبْتَ مِنْ أَرْضِ قَوْمٍ دِيَارَا (٧)

عَطَاءُ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهَ . . يَسْمَعُ فِي الْغَامِضَاتِ السَّرَارَا (٨)

(١) ديوان النابغة : ١١٨ .

(٢) ديوانه : ٥٣ .

(٣) وقيت : يخاطب بني فزاره ، شرتها : شدتها ، والضمير عائد إلى الجياد فسي

بيت سابق . الأطواد : أي الجبال ، اللوب : جمع لابة وهي الحرة ، أي الأرض

ذات الحجارة .

(٤) ألكني : فعل أمر من ألكه : إذا بلغ عنه الوكعة وهي الرسالة . والمعنى : ألك عنى .

(٥) ديوان زهير " العلم " : ١٨ .

(٦) ديوان الأعشى : ٩٩ .

(٧) أقللت قوما : حملتهم ورفعة حاجتهم ، أعمرتهم : أعطيته دارا .

(٨) السرار : المناجاة الخفية .

وهذا المثقب العبدى (١) لا يدري ما يكون له في ما يستقبله لأن ذلك من علم الله :

وَمَا أَدْرِي أَنَا لِمَ تَمَّتْ أَرْضًا .. أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيَّتَهُمَا يَلِينِي

الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ .. أَمِ الشَّرُّ الَّذِي قَدْ يَبْتَغِيَنِي

ويفتخر الحارث بن حلزة في معلقته بما أوقعه قومه بأعدائهم من كثرة القتل على
الذين حانت دماءهم في علم الله وقدره : (٢)

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ .. وَمَا إِنَّ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءً (٣)

وهناك جانب آخر يضاف الى ايمان الجاهليين بالله ، يدل على معتقدهم

الجاهليين فيه ، ذلك هم القسم بالله فيما بينهم ، ولا شك أن القسم من الأمور

العظيمة عند الجاهليين وان أكثروا المقسوم بهم فيما نعلم عنهم (٤) . ويؤكد ذلك

قوله تعالى " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبيعك الله من يموت " (٥)

وهذا امرؤ القيس يقسم بالله في شعره على لسان صاحبتة فيقول : (٦)

فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكٌ خَيْلَةٌ .. وَمَا إِنَّ أَرَى غَفِكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي

ويقسم عامر المحاربي (٧) بالله إن شرب أعداء قومه للخمر بعد أن جنوا على قومه

الحرب وتخاذلوا عنهم شراب شؤم : (٨)

فَمَا إِنْ شَهِدْنَا خَمْرَكَ إِذْ شَرِبْتُمْ .. عَلَى دَهْشٍ وَاللَّهِ شَرِبَةَ أَشْأَمًا

(١) المثقب (بكسر القاف المشددة) عائد ، ويقال عائد الله بن محصن بن ثعلبه

ابن عبد الله من بني عبد القيس ، شاعر فحل جاهلي قديم كان زمن عمرو بن هند

وانظر : طبقات فحول الشعراء : ٢٧١ / ١ ، ترجمته في مقدمة ديوانه .

ديوان المثقب العبدى : تحقيق : حسن كامل الصيرفي ١٣٤٣ هـ / ١٣٩١ م عند المخطوطات

(٢) شرح القصائد السبعة الطوال الجاهليات : ٤٩٥ .

(٣) الحائنين : من قدر الله أجله وحينه فليس له بقاء .

(٤) انظر : ايمان العرب في الجاهلية : ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) النحل : ٣٨ .

(٦) ديوانه : ١٤ .

(٧) عامر المحاربي : من بني محارب بن خصفة بن قيس عيلان . وانظر

المفضليات : ٩١ .

(٨) المفضليات : ٣١٩ .

ومما يدل على اعتبارهم القسم بالله نوعاً من أيمانهم التي يتداولونها قول زهير: (١)

تَعَلَّمَنَّهَا لَعْمُرُ اللَّهِ ذَا قَسَمًا . . فَاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَأَنْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ (٢)

لَيْتَنَ حَلَلْتَ بِجَوْ مِنْ بَنِي أَسَدٍ . . مِنْ دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكَ

لِيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقُ قَدِيعٌ . . بَاقِي ، كَمَا دَنَسَ الْقَيْطِيَّةَ السَّوْدَكَ (٣)

ومع ماورد من إقسامهم بالله فقد يأخذ القسم صورة فيها صفة من صفات الله

كالعزير في قول حاتم الطائي: (٤)

وَتَوَاعَدُ وَاوْرَدَ الْقُرْيَةَ غُدُوَّةً . . وَحَلَفَتْ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ لِنَحْبِيسٍ

ويصفه عبيد بن الأبرص بالمنعم الغفور: (٥)

حَلَفْتُ بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ ذُو نِعَمٍ . . لِمَنْ يَشَاءُ وَذُو عَفْوٍ وَتَصَفَّاحٍ

ويحلف النابغة بمن مسح كعبته المشرفة في اعتذاره الى النعمان ماوشى به

خصومه عنه فيقول: (٦)

فَلَالَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ . . وَمَاهُرَيْقٍ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ

مَا قَلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمَّا أُتِيَتْ بِهِ . . اذَنْ فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي الَّتِي يَدِي

وينبغي أن يعلم أن الجاهليين وان أقسموا بغير الله ، كالقسم بالاصنام

أو الأباء أو غيرها فانهم كانوا يعدون القسم بالله أكبر وأعظم من القسم بسواه

فهذا أوس بن حجر يجعل الله أكبر من اللات والعزى في قسمه: (٧)

وَاللَّاتِ وَالْعَزَى وَمَنْ دَانَ دِينُهَا . . وَبِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ مِنْهُمْ أَكْبَرُ

(١) ديوان زهير "الاعلم" : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) اقدر بذرعك : أى قدر بخطوك ، والذرع : قدر الخطو . والمعنى لا تكلف

نفسك ما لا تطق منى . وانظر ابن تنسلك "الانسلاك" : الدخول فى الامر ، والمعنى : لا تدخل نفسك فيما لا يعينك .

(٣) القدح : أقبح الشتم والهجاء . القبطية : ثياب تصنع بمصر ، الودك : الدسم .

(٤) ديوان حاتم : ٢٧٨ .

(٥) ديوان عبيد بن الأبرص : القصيدة (٢٤) .

(٦) ديوان النابغة : ٨٥ ، ٨٦ .

(٧) ديوان أوس بن حجر : ١٥٣ .

ومثله النابغة الذبياني الذي لا يرى بعد الله شيء يمكن أن يعتدّ بالحلف به
في اعتذاره للنعمان (١) ملك الحيرة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً . . . وليس وراءَ الله للمرءَ مذهبٌ

أمّا ورود لفظ الجلالة في الشعر من غير قسم فهذا كثير، ومنه قولهم :

(الحمد لله) كقول امرئ القيس : (٢)

أَرَى إِبْلِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَتْ . . . ثِقَالًا إِذَا مَا اسْتَقْبَلَتْهَا صُعُودُهَا

وقولهم (عمر الله) كقول عروة الصعاليك : (٣)

قَعِيدِكَ عَمْرُ اللَّهِ هَل تَعَلَّمِينِي . . . كَرِيمًا إِذَا اسْوَدَّ الْأَنَامِلُ أَزْهَرًا (٤)

ومن مظاهر ايمانهم بالله ماورد في أشعارهم من دعاء الله ، وماذاك الا لعلمهم
باجابته الدعاء ، وقد كان الجاهليون يلجئون الى الله وقت الشدائد ولا يدعون
مع الله احدا عند ذلك ، فاذا ما فرجت كربتهم عادوا الى شركهم . قال تعالى :
" فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر
اذا هم يشركون (٥)

(١) ديوان النابغة : ٥٥ .

(٢) ديوان امرئ القيس : ٣٤٧ .

(٣) ديوان عروة بن الورد : ٣٤ .

(٤) قعيدك : أنكرت ، ان اسود الأنامل : يريد : شدة السنة أو شدة البرد ،

أزهرا : أبيض والمراد كريم ، فيما بيدولى .

(٥) العنكبوت : ٦٥ . وفي قصة مقتل زهير بن جذيمة العبسي وابنه شاس

بعكاظ عند قريش والتقاءه بخالد بن جعفر بن كلاب فلما حفر زهير خالد :

قال خالد : اللهم أمكن يدي هذه الشقراء القصيرة من عنق زهير بن جذيمة

وأعني عليه . فقال زهير : اللهم أمكن يدي هذه البيضاء الطويلة من

عنق خالد ثم خلل بيننا . فقالت قريش : هلكت والله يا زهير .

الاجناسي : ٩٢ / ١١ .

ومن الدعاء في شعرهم قول عنترة العبسي يدعوا على جماعة من خصمه بالجسـد
وقله الماء حتى يقحطوا ، فيسأل الله الا يسقوا المطر فيقول : (١)

قَدْ أَوْعَدَ وَنِي بِأَرْمَاحِ مُعَلَّبِيَّةٍ . . سُودٍ لُقْطَنَ مِنَ الْحُومَانِ أَخْلَاقِ
لَمْ يَسْلِبُوهَا وَلَمْ يُعْطُوا بِهَا ثَمَنًا . . أَيْدِي النَّعْمِ فَلَا أَسْقَاهُمُ السَّاقِي (٢)

وهذا عمرو بن كلثوم يهجو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ويعيره بخالسه
الذي كان يعمل حدادا بيثرب : (٣)

لَحَى اللَّهُ أَدْنَا نَا إِلَى اللُّؤْمِ زُلْفَةً . . وَالْأُمْنَا خَالًا وَأَعْجَزْنَا أَبَا
وَأَجْدَرْنَا أَنْ يَنْفَخَ الْكَيْرُ خَالَهُ . . يَصُوغُ الْقُرُوطَ وَالشُّنُوفَ بِيَثْرِبَا (٤)

ومما يروى عن سبب هروب النابغة الذبياني من النعمان - ملك الحيرة- ، أن

عبد القيس بن خفاف التميمي ومرة بن سعد بن قريع السعدي عملا هجاء فسى
النعمان على لسانه- (أى لسان النابغة)- وَأَنْشِدَ النَّعْمَانَ . . . وَمِنْهُ :

قَبِّحَ اللَّهُ ثُمَّ ثَنَى بَلَعَيْنِ . . وَارَثَ الصَّائِغِ الْجِنَانَ الْجَمُّولَا
مَنْ يَضُرُّ الْأَدْنَ نِي وَيَعْجِزُ عَنْ ضُ . . سَرَّ الْأَقَاصِي وَمَنْ يَخُونُ الْخَلِيلَا (٥)

(١) ديوان عنترة بن شداد العبسي : تحقيق ود راسة : محمد سعيد مولى :
٢٨٦ . ط ٢ (١٤٠٣) ، المكتب الاسلامى .

(٢) أوعد ونى : هدد ونى . معلبة : المشدودة بالعلباء ، وهى عصبة فى العنق .
يعنى أنها رماح خلقت وتكسرت فشدت بالعلباء ، سود : وصفها بالسواد
لقد مها . الحومان : موضع . لم يسلبوها : لم تكن عندهم من سلب
سلبوه فهم ليسوا أهل حرب ، أى جبناء . أيدى النعمان : يريد لا يقبضون
أيدىهم عن أخذ شئ مروا به خيانة وسرقة كالنعمان الذى ما يمر بشئ الا
التقمة .

(٣) الاغانى : ٥٩/١١ .

(٤) القروط : جمع قرط . ما يتزين به فى أسفل الأذن ، الشدوف : جمع
الشف : وهو ما يتزين به فى أعلى الأذن وقيل هما بمعنى واحد .

(٥) الاغانى : ١٣/١١ .

ويدعو دريد بن الصمة بوقاية الله للخنساء من الزواج بعثله تهكما بها فيما

يروى من ردها خطبة دريد لها : (١)

وَقَاكَ اللهُ يَا بِنَةَ آلِ عَمْرِو . . مِنَ الْفَتَيَانِ أَشْبَاهِي وَنَفْسِي

ونرى عروة الصعاليك يدعو الله بأن يلحقو ذلك الصعلوك الكسول ، يرضى من العيش

ببقايا الموائد التي لم يبق منها الا المشاش ، وينكر عليه هذا الاسفاف مع امكانه

الحصول على ما هو افضل من ذلك : (٢)

لَحَى اللهُ صَعْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ . . مَعْنَى فِي الْمَشَاشِ الْفَاكِلَ مَجْزَرٍ

وفي حادثة الغيل المشهورة عند ما رأى عبد المطلب أنه لا قبل له بمجابهة جيش

ابرهة ، فقام عبد المطلب الى الكعبة ، وأخذ بحلق بابها ، وقام معه نفر من قريش

يدعون الله ، ويستنصرونه على ابرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلق

باب الكعبة : (٣)

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمِي . . سَنَعُ رَحْلَهُ فَأَمْسَحَ حِلَالَكَ (٤)

لَا يَغْلِبُنَّ صَلِبُهُمْ . . وَوَمِحَا لِرُؤْمِهِمْ عَدَّوْا وَحَالَكَ (٥)

إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقَبِي . . سَلْتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَكَدَاكَ

ويروى أيضا شعر آخر قاله عكرمه بن عامر بن هاشم يدعو فيه على الأسود بن

مقصود الذي أرسله أبرهة قبل جيشة ، فذهب الى مكة ، وساق أموال قريش وفيها

ابل عبد المطلب الى الاحباش . (٦)

وانا كان جاهليو العرب يدعون الله في جلب الخير ودفع السوء فلا ريب

أن ذلك يدل على خوفهم من الله ، وتوقعهم اصابة نفته على من عصاه ،

(١) ديوان دريد بن الصمة : جمع وتحقيق محمد خير البقاعي ط ١٤٠٠ هـ دار قتيبة دمشق .

(٢) ديوان عروة بن الورد : ٣٧ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٥١ / ١ .

(٤) الحلال : جمع حله ، يريد جماعة البيوت والقوم المحليين .

(٥) محالهم : قوتهم وشدتهم .

(٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام : ٥١ / ١ .

وجزاء من بغى وظلم بغير حق ، فكانوا يخشون الله ويتقونه فيما يخشون عقاب الله عليه .

هذا المتلمس الضبعى يقول :

(١)
وَأَعْلَمُ عِلْمَ حَقِّ غَيْرِ ظَنِّ . . . وَتَقْوَى اللَّهِ مِنْ خَيْرِ الْعِتَابِ

ويتحلم ذوالاصبع العدوانى ويصبر على ما يجد من ابن عمه ، وقد كان ابن عمه هذا مغاضبا له ، يؤذيه ويتلمس له النقائص وربما وشى بها لأعداء ذى الاصبع ، ولولا تقوى الله والرحم الذى بينهم لبراه بريالاجبارله (٢) :

وَلَا يَرَى فِى غَيْرِ الصَّبْرِ مَنْقِصَةً . . . وَمَا سِوَاهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفِيَنِى
لَوْلَا أَيَّاصِرُ قُرْبَى لَسْتُ تَحْفَظُهَا . . . وَرَهْبَةُ اللَّهِ فِيمَنْ لَا يُعَادِىَنِى
إِذَا بَرَيْتَكَ بَرِيًّا لَا أَنْجَبَارَكَ . . . إِنِّى رَأَيْتَكَ لَا تَنْفُكُ تَبْرِيَنِى
إِنَّ الَّذِى يَقْبِضُ الدُّيْنََا وَيَسْطُهَا . . . إِنْ كَانَ أَغْنَاكَ عَنِّى سَوْفَ يُغْنِيَنِى
وَاللَّهُ يَعْلَمُنِى وَاللَّهُ يَعْلَمُكُمْ . . . وَاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عَنِّى وَيَجْزِيَنِى
مَاذَا عَلَىَّ وَإِنْ كُنْتُمْ ذَوِى رَحْمِى . . . إِنْ لَا أَحْبَبُّكُمْ إِنْ لَمْ تُحِبُّونِى

أما زهير - شاعر الحق - فمع ما عرف به من حب للخير ومن ينهض بالاصلاح

فى الفتن التى عاصرها فىرى أن التقوى تعين على الحق والتقرب الى الله . (٣)

بَدَأَ لِى أَنْ اللَّهَ حَقٌّ فَزَادَنِى . . . إِلَى الْحَقِّ تَقْوَى اللَّهِ مَا كَانَ بَادِيَا

وهذا البيت من قصيدة مختلف فى نسبتها الى زهير ، وما بها من معان اسلامية لا تختلف عما يعلمه عامة الجاهليين من الايمان بالله ، ومعرفة أحوال الام الغابرة التى ذكر طرفا منها . والبيت السابق يقوى نسبه الى زهير ما يروى أن زهيراً كان

(١) ديوان المتلمس الضبعى : تحقيق : حسن كامل الصيرفى : ١٧٢ . ط معهد المخطوطات ١٣٩٠هـ

(٢) المفضليات : ١٦٢ .

(٣) ديوان زهير " الاعلم " : ١٦٨ .

(٤) جاء فى رواية " الاعلم " ١٦٧ " قال الأصمعى ليست لزهير ، ويقال هى لصرمة

الانصارى . وقال محقق الديوان : وفى شرح ثعلب أن هذه القصيدة

رواها حماد لزهير .

يقول : " ما خرجت في ليلة ظلما ، الأخشيت أن يصيبني الله بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم " (١) أي عند ما هجا بني حصن من غطفان .

وإذا نظرنا الى إيمان المتحنفين بالله وما روى لهم تبين لنا عمق الايمان بالله واعتقاد وجوده ، ونعته بصفات العظمة والخلد ، وتنزيهه عن أن يعبد معه آلهة أخرى ، إذ هو أهل العبادة والتقرب من غير شريك ، والاعمال خالصة له . ان الله عند هؤلاء الحنفاء ليس كمثل شيء مهما كان ، يقول أمية : (٢)

بِدِّ يَنْكَرُ رَبًّا لَيْسَ رَبُّ كَمِثْلِهِ . . وَتَرَكُ أَوْثَانَ الطَّوَاغِيِّ كَمَا هِيََا

وما خلا الله باطل مهما كان عظيما عند لبيد في بيته المشهور : (٣)

الَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ . . وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

والله هو الباقي وهالك ما سواه وله كل شيء كما قال أمية : (٤)

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ غَيْرُ رَبِّنَا . . وَلِلَّهِ مِيرَاثُ الَّذِي كَانَ فَا نِيَا

وَلِيٌّ لَهُ مِنْ دُونِ كُلِّ وَلَا يَسَّةٍ . . إِذَا شَاءَ لَمْ يَمْسُوا جَمِيعًا مَوَالِيَا

وَإِنْ يَكُ شَيْءٌ خَالِدًا وَمُعَمَّرًا . . تَأَمَّلْ تَجِدْ مِنْ فَوْقِهِ اللَّهَ بَاقِيَا

لَهُ مَا رَأَتْ عَيْنُ الْبَصِيرِ وَفَوْقَهُ . . سَمَاؤُ الْإِلَهِ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوِيَا

والله أسلمت له الارض بما فيها من صخور عظيمة ، وهو الذي مدّ الارض ، ثم أرسى عليها الجبال ، كما أن الله هو الذي ينطيمه السحاب ويسير بأمره سلّمة له أنسى يأمرها أن تصب ماءها أطاعت له كما يقول زيد بن عمرو بن نفيل : (٥)

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ . . لَهُ الْاَرْضُ تَحْمِلُ صَخْرًا ثِقَالَا

دَحَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ . . عَلَى الْمَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَا

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ . . لَهُ الْمُنُّ تَحْمِلُ عَذْبًا زَلَالَا

(١) ديوان زهير " الا علم " : ١٤٦ .

(٢) ديوان أمية : ٥٤٢ .

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة : ٢٥٦ ،

(٤) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥٢٨ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام : ٢٣١ / ١ .

إذا هي سَبَقَتْ إِلَى بَلَدَةٍ .. أَطَاعَتْ فَصَبَّتْ عَلَيْهِ سَجَّالًا
ويرى أمية بن أبي الصلت أن الله هو الذي ينعم عليهم بالخير في الصباح والمساء
وذلك لا ينقص من خزائنه المليئة : (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُسَانَا وَمُصَبِّحَنَا .. بِالْخَيْرِ صَبَّحَنَا رَبِّي وَمَسَانَا
رَبِّ الْحَنِيفَةِ لَمْ تَنْفَدْ خَزَائِنُهَا .. مَمْلُوءَةٌ طَبَقَ الْآفَاقِ سُلْطَانَنَا

أمّا عبيد بن الأبرص فيرى أن الله هو الذي يعطى سائله ، ومن سأل الناس
يحرّموه ، وأن الله هو الذي به يدرك كل شيء فيقول :

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ .. وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَخِيئُ
بِاللَّهِ يُدْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ .. وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِهِ تَلْفِيْثٌ (٢)

(٣) الايان بالملائكة :

الملائكة خلق من خلق الله يقومون بمهامهم في عالم مغيب عن بنى البشر
بوجه عام ، ولا ينقض ذلك نزولهم في بعض حالات على الانبياء لحكمة أرادها الله ،
ولمّا كانت الملائكة كذلك ذهبت عقول الناس في حيرة من تصور أشكالها .

والذي تدل عليه آيات القرآن الكريم أن العرب كانوا يعرفون الملائكة ، وان
اختلفت درجة هذه المعرفة فيما بينهم ، ولا نظن أن هذه الايات الكثيرة التي
تذكر الملائكة تخاطب قوما لا علم لهم بها ، ولا عبرة برأى من يذهب الى أن الجاهليين
لم يكونوا يعرفون شيئا عن الملائكة ، لأن الاعتقاد بالملائكة من عقيدة الديانة
اليهودية ثم النصرانية . (٣)

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥١٦ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص : ١٥ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٣٨/٦ .

ولا شك أن هناك من كان يعبد الملائكة كما دل عليه قوله تعالى : " ويسوم
يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون " (١) .
وغير بعيد أن تكون هذه العبادة على شاكلة عبادة الأصنام ، وأن عابديها
أرادوا أن تقربهم الى الله زلفى ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون قرابة ونسبا بسبب
الله والملائكة ، وأنهم بنات الله - تعالى عن ذلك - ومن اعتقد ذلك فلا ريب
أن يطمع في شفاعة هؤلاء المقربين له .

ويدل على زعم المشركين أن الملائكة اناء ، وأنهم بنات الله كثير من الايات (٢) ،
ولولا اعتقاد المشركين الايمان بالملائكة لما ألحوا في مطالبة الرسول - صلى الله
عليه وسلم - أن ينزل عليهم الملائكة ويأتيهم بهم حتى يصدقوه ويتبعوه . (٣)
والذى يستشف من هذه المطالبة أن هؤلاء المشركين يعتقدون للملائكة مكانه
حسنة ومنزلة عالية عند الله ، فيزعمون أنهم لو أتوهم من عند الله لصدقوهم بذلك ،
وان كان في طلبهم هذا تعنت ومكابرة لا تخفى .

ويبدو أن بعض العرب " اعتقد في أشخاص الملائكة والأرواح التدبير لأهل
الارض فيما دون الامور العظام من اصلاح حال العابد في نفسه وولده وماله " (٤) .
وقد ترامت اليينا أبيات محدودة من الشعر الجاهلى فيها ذكر للملائكة
ولا أدرى كيف خفى ذلك على كاتب الشعراء الحنفاء* فلم يذكر شيئا من ذلك ،

-
- (١) سبأ : ٤٠ .
(٢) قال تعالى " فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة اناسا
وهم شاهدون " . الصافات : ١٤٩ ، ١٥٠ .
وانظر الزخرف : ١٩٠ ، الطور : ٣٩ ، النجم : ٢٧ ، النحل : ٥٧ .
(٣) قال تعالى : " وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون . لو ماتنا تينا
بالملائكة ان كنت من الصادقين " . الحجر : ٦ ، ٧ .
وانظر الاسراء : ٩٢ ، المؤمنون : ٢٤ ، الفرقان : ٢١ .
(٤) أديان العرب فى الجاهلية : ١٢٦ .
* هو د . أحمد جمال العمري فى كتابه الذى صدر عن دار المعارف بالقاهرة .

وفى صنيعه هذا ما قد يوهم أنه يرى أن العرب لا تعرف شيئاً عن الملائكة — مجازة لمن رأى ذلك ، على أن الحنفاء خاصة كان فى شعرهم شئ من ذلك كما سنراه .

فعلقمة الفحل يرى أن الملائكة فى السماء ، فهم أهل مكانة رفيعة فيشبهه مدوحه بملك منهم تنزل من جوالسما فيقول : (١)

فَلَسْتَ لَا نِسِيَّ وَلَكِنْ لِمَلَأِكِ (٢) . تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

ويأتى " الأعشى " ليذكر لنا الملكين الكاتبين ، قال ابن قتيبة : " وهـو

(أى الأعشى) ممن أقرّ بالملكين الكاتبين فى شعره . قال يمدح النعمان :

فَلَا تَحْسَبْنِي كَافِرًا لَكَ نِعْمَةٌ . . عَلَى شَاهِدِي يَا شَاهِدَ اللَّهِ فَاشْهَدِ (٣)

قوله " على شاهدى " يريد على لسانى . " يا شاهد الله " يريد الملك الموكـل

به وكان هذا من ايمان العرب بالملكين بقية من دين اسماعيل صلى الله عليه وسلم . (٤)

وجاء فى اللسان (٥) .

وكان أهل الجاهلية يسمون الملائكة عليهم السلام جنا لاستتارهم عن العيون

قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام .

وسخر من جن الملائك تسعة . . قياما لديه يعملون بلا أجر

(١) جاء فى لسان العرب (ملك) . ٤٩٦ / ١٠ : " أن البيت ورد فى شعر رجل من

عبد القيس جاهلى يمدح بعض الملوك ، قيل هو النعمان ، وقال ابن السيرافى

هى لأبى وجزة يمدح عبد الله بن الزبير " والراجح لى أنها لعلقمة الفحل

ان وردت فى ديوانه من قصيدة له ص ١١٨ ، وقد ذكرت له أيضا فى

المفضليات : ٣٩٤ يمدح الحارث بن أبى شمر الفسائى .

(٢) وفى رواية : ولكن كألكا ، وانظر ديوان علقمة : ١١٨ .

(٣) ديوان الاعشى الكبير : ٢٤٣ . والبيت فيه :

فلا تحسبنى كافرا لك نعمة . . على شهيد شاهد الله فاشهد

(٤) الشعر والشعراء : ٢٦٦ / ١ .

(٥) لسان العرب : " جنن " ٩٧ / ١٣ .

أمّا أمية بن أبي الصلت فيذكر الملائكة ، وأنّ السماء مقاعد لهم ، وهم عباد
الله ، أشداء لكنهم ذلك مطيعون لله : (١)

بِإِذْنِ اللَّهِ فَاشْتَدَّتْ قُوَاهُمْ .. عَلَى مَلَائِكِينَ وَهِيَ لَهُمْ وَشَابِجٌ (٢)
وَفِيهَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَوْمٌ .. مَلَائِكُ ذُلُّوا وَهُمْ صِعَابٌ (٢)

ونرى " ورقة بن نوفل " يذكر لنا أسماء بعض الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل ،
وذلك عندما أخبرته أم المؤمنين خديجة - رضی اللہ عنہا - بما حدث له - صلى الله
عليه وسلم في غار حراء ، ثم أخبرها أنه يأتيه الناموس الذي أنزل على موسى . قال : (٣)

ان يَكُ حَقًّا يَا خَدِيجَةُ فاعلمي .. حَدِيثُكَ أَيُّنَا : فَأَحْمَدُ مُرْسَلُ
وَجِبْرِيكُ يَأْتِيهِ وَمِيكَالُ مَعَهُمَا .. مِنَ اللَّهِ وَحَيُّ يَشْرَحُ الصَّدْرَ مُنْزَلُ (٣)

واخيرا نرى " أمية بن أبي الصلت " يشبه السماء والملائكة حولها ببحر سلطت
عليه الريح فتركه أملس لا تموج فيه :

فَكَأَنَّ بَرْقِعَ وَالْمَلَائِكُ حَوْلَهَا .. سِدْرٌ تَوَاكَلَهُ الْقَوَائِمُ أَجْرَدٌ (٤)

-
- (١) ديوان أمية : ٣٤٠ .
(٢) الوثاب : بلغة حمير الفراش ، ويريد به هنا المقاعد .
(٣) خزنة الأدب : ٣٩٦ / ٣ .
(٤) ديوان أمية : ٣٥٨ ، جاء في لسان العرب (برقع) برقع ٩ / ٨ عن معنى البيت :
" قال بن برى : شبه السماء بالبحر لملاستها لا لجريها ، الا ترى قوله :
تواكله القوائم . أى تواكلته الرياح فلم يتموج ، فلذلك وصفه بالأجـرد
وهى الملاسة " .
برقع : من أسماء السماء ، قيل السابعة ، وقيل الزابعة .
السدر : اسم للبحر لم يسمع الا في شعر أمية .
تواكلته : تركته . القوائم : الرياح .
أجرد : أملس لا عوج فيه .

(٤) الاستبشار بظهور النبي :

علمنا أن عرب الجاهلية كانوا في فترة طال انقطاع الرسل فيها اليهم ، ولم ينذر آباؤهم أحد ، وظل العرب في جاهليتهم لا يعلمون ما يكن لهم القدر ، ولا ينتظرون أن يبعث منهم رسول لو قدر أن يبعث ، ولكن أهل الكتاب كانوا يعلمون أنه سيبعث نبي وبلغ من علم كثير من علماءهم ، أنه قد اطل وقرب زمان خروجه ، وأين مخرجه ومهاجره ، بل قد بين القرآن أنهم " يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " (١) .

وقد كان اليهود يخوفون العرب بخروجه ، ويزعمون أنه منهم ، وسيقتلون به العرب ، " ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، بثسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. " (٢) .

ويبدو أنه لم يكن يعلم ظهور نبي من الجاهليين الا الطبقة المثقفة كالحنفاء ، وقد ورد أنه لا يعرف في العرب من تسمى بمحمد قبله صلى الله عليه وسلم - الا ثلاثة طمع آباؤهم - حين سمعوا بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - ويقرب زمانه وأنه يبعث في الحجاز - أن يكون ولدا لهم .

وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أحيحة ابن الجلاح والآخر حرمان بن ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم من الكتاب الا اول فأخبرهم بمبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر كل واحد منهم : أن ولد له ذكر أن يسميه محمدا ، ففعلوا ذلك (٣) .

(١) الانعام : ٢٠ .

(٢) البقرة : ٨٩ ، ٩٠ .

(٣) الروض الأنف : ١٥١ / ١ ، ١٥٢ .

وفي الشعر الجاهلي - الذي اطلعنا عليه - لم نجد أحدا يسأل عن هذا الرسول ويستبشر بظهوره غير من ذكرنا من أهل الكتاب أو الحنفاء ، وهذا أمر بين لا يعوزه ايضاح أو مناقشة .

ونرى " أمية بن أبي الصلت " ، وقد طمع في هذه النبوة يروى له شعر يتمنى فيه أن يأتيهم نبي فيخبرهم بما يحدث لهم بعد انقضاء هذه الحياة وفناء الناس ، وقد علم أن الموت محقق على كل صغير وكبير وسيلحق الآخرين بالأولين : (١)

أَلَا رَسُولٌ لَنَا مَنَا فَيُخْبِرُنَا .. مَا بَعْدَ غَايَتِنَا مِنْ رَأْسِ مُجْرَانَا (٢)

بَيْنَا يُرَبِّينَا آبَاءُنَا هَلَكُوا .. وَبَيْنَمَا نَقْتَنِي الْإِوْلَادَ أَفْنَانَا (٣)

وقد عَلِمْنَا لَوْ أَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنَا .. أَنْ سَوْفَ تَلْحَقُ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا

وقد عَجِبْتُ وَمَا بِالْمَوْتِ مِنْ عَجَبٍ .. مَا بَالُ أَحْيَانُنَا يَكُونُ مَوْتَانَا

وقد أكثر " ورقة بن نوفل " من الاستبشار بظهور النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كان على علم بما في أسفار أهل الكتاب من ذلك ، وعند ما قصت عليه السيدة خديجة - رضی الله عنها - ما ذكره لها غلامها " ميسرة " من قول الراهب الذي مروا به في رحلتهم الى الشام ، وما كان يظله - عليه الصلاة والسلام - ، فجعل " ورقة " يستبطن الأمر ، وقال في ذلك : (٤)

لَجَجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرِ لَجُوجًا .. لَهُمْ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا (٥)

وَوَصَفِي مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفِي .. فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَا

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥١٧ .

(٢) مجرانا : المجرى : مكان الجرى .

(٣) يربينا : أي يربينا .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام : ١/١٩١ ، ١٩٢ ، تاريخ الاسلام للذهبي : ٦٨/٢ ،

خزانة الادب : ٣/٣٩٢ ، ٣٩٣ .

(٥) لججت لجوجا : اذا تماديت في الامر ولم أرجع عنه .

النشيج : البكاء مع الصوت .

- ببطنِ المَكِّيِّينِ على رَجَائِسِي .. حَدِيثُكَ أَنْ أَرَى مِنْهُ خُرُوجًا (١)
- بِمَا خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسَمٍ .. مِنَ الرَّهْبَانِ أَكْرَهُ أَنْ يَعُوجًا (٢)
- بِأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَسُودُ فِينَا .. وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَاجِبًا
- وَيُظْهِرُ فِي الْبِلَادِ ضِيَاءَ نُورٍ .. يُقِيمُ بِهِ الْبَرِيَّةُ أَنْ تَمُوجًا (٣)
- فِيَلْقَى مَنْ يُحَارِبُهُ خَسَارًا .. وَيَلْقَى مَنْ يَسَالِمُهُ فُلُوجًا (٤)
- فَيَالِيَّتِي إِذَا مَا كَانَ ذَاكُم .. شَهِدْتُ فَلَنْتُ أَوْلَهُمْ وُلُوجًا
- وَلَوْجًا فِي الَّذِي كَرِهَتْ قُرَيْشُ .. وَلَوْ عَجَّتْ بِمَكْنِهَا عَجِيجًا (٥)
- أَرْجَى بِالَّذِي كَرِهُوا جَمِيعًا .. إِلَى ذِي الْعَرْشَانِ سَفَلُوا عُرُوجًا
- وَهَلْ أَمْرُ السَّفَالَةِ غَيْرُ كُفْرٍ .. بِمَنْ يَخْتَارُ مِنْ سَمَكِ الْبُرُوجِ
- فَانْ يَبْقُوا وَأَبَقَ تَكُنْ أُمُورٌ .. يَضِجُ الْكَافِرُونَ لَهَا ضَجِيجًا
- وَلِنْ أَهْلِكَ فَكُلُّ فَتَى سَيَلْقَى .. مِنَ الْأَقْدَارِ مُتَلَفَةً خُرُوجًا (٦)

ونرى له قصيدة أخرى كهذه توردها له المصادر ، تخبره خديجة الصادقـه
بما وقع لـ " محمد " في رحلته الى بصرى مع غيرها ، وما قاله الرهبان عنه ، وأنه
الرسول المنتظر ، سيرسله الله كما أرسل رسله هودا وصالحا وموسى وابراهيم ،
وسيعلو أمره ويتبعه حيا لوئى بن غالب ، ثم هو مستبشر وفرح ان هو عاش حتى
يدركه ، وان لم يظهر فانه سيهجر مكة الى غيرها من أرض الله العريضة ، يقول :
(٧) أَبُوبِكْرٍ أَمْ أَنْتَ الْعَشِيَّةُ رَائِحٌ .. وَفِي الصَّدْرِ مِنْ اضْمَارِكَ الْحَزَنَ قَادِحُ

(١) المكئين : ثنى مكة وهى واحدة لان لها بطاحا وظواهر .

الامثلة كثيرة فى كلام العرب بمنحوذلك .

(٢) يعوج : أى انعطف ومال ان كان مستقيما من الماضى (عاج) أى يخاف أن
يتغير هذا الأمر بعد هذه الدلائل .

(٣) تموج : تضطرب .

(٤) فلوجا : مفرده فلج : وهو الظفر والغوز .

(٥) عجت : ارتفعت أصواتها .

(٦) المتلفة : أى المهلكة ، حروج : كثيرة التصرف .

(٧) الهداية والنهاية : ٢/٢٩٧ ، خزانة الأدب : ٣/٣٩٥ ، ٣٩٦ .

- لِسُقْرَةَ قَوْمٍ لَا أَحَبُّ فِرَاقَهُمْ .. كَأَنَّكَ عَنْهُمْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ نَارِحُ
 وَأَخْبَارِ صَدِيقٍ خُبِّرْتَهُ عَنْ مُحَمَّدٍ .. يُخَبِّرُهَا عَنْهُ إِذَا غَابَ نَاصِحُ
 فَتَاكَ الَّذِي وَجَّهَتْ يَأْخِرَ حُرَّةٍ .. بَعَوْرٍ وَبِالنَّجْدِ بَيْنَ حَيْثِ الصَّاحِصِ (١)
 إِلَى سُوقِ بَصْرَى فِي الرِّكَابِ الَّتِي غَدَتْ .. وَهَنَّ مِنَ الْأَحْمَالِ قُعُصْدَ وَالسِّحِ (٢)
 يُخَبِّرُنَا عَنْ كُلِّ حَبْرٍ يَعْلَمُ بِهِ .. وَلِلْحَقِّ أَبْوَابٌ لِهِنَّ مَفَاتِحُ
 بِأَنَّ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ مُرْسِلٌ .. إِلَى كُلِّ مَنْ صُمَّتْ عَلَيْهِ الْأَبَاطِحُ
 وَطَنِي بِهِ أَنْ سَوْفَ يُبْعَثُ صَادِقًا .. كَمَا أُرْسِلَ الْعُبْدَانُ هُوْدُ وَصَالِحُ
 وَمُوسَى وَابْرَاهِيمُ حَتَّى يَرَى لَهُ .. بَهَاةً وَمَنْشُورًا مِنَ الذِّكْرِ وَاضِحُ
 وَيَتَّبَعَهُ حَيًّا لُؤَيٌّ بْنُ غَالِبٍ .. شَبَابُهُمْ وَالْأَشْيُونُ الْجَحَاجِحُ (٣)
 فَإِنَّ أَبَقَ حَتَّى يُدْرِكَ النَّاسُ أَمْرَهُ .. فَإِنِّي بِهِ مُسْتَبَشِرُ الْوَدِّ فَارِحُ
 وَإِلَّا فَإِنِّي يَا خَدِيجَةُ فَاغْلِمِي .. عَنِ أَرْضِكَ فِي الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ سَائِحُ

وحسبنا ما أوردنا له وان كان له قصائد أخرى غير ما ذكرنا تدور في فلك هاتين
 القصيدتين . (٤)

ونرى أخيراً أحد اليهود المعاصرين لدعوة الإسلام الأولى ويدعى "أوس بن
 زبسي" يعترف بصحة دين "محمد" - صلى الله عليه وسلم - وان لم يدخله ، وقد
 كانت له امرأة من بنى قريظة أسلمت وفارقتة ، ثم نازعتها نفسها إليه فأنته وجعلت
 ترغبه في الإسلام فقال لها : (٦)

كَعَنِي إِلَى الْإِسْلَامِ يَوْمَ لَقَيْتُهَا .. فَقُلْتُ لَهَا لَبَلٌ تَعَالَى تَهْوِي

(١) الصحاصح : جمع صحصح ؛ وهو الأرض المستوية الجرداء ذات حصى صفار .
 "اللسان" .

(٢) دوالح : جمع دالحة ؛ وهو من يمشى بحمله وقوياً ثقله .

(٣) الجحاجح : جمع جحجح ؛ وهو السيد السمع الكريم .

(٤) انظر خزانة الادب : ٣ / ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٥) انظر اسمه ونسبه في الاغانى : ٢٢ / ١٠٧ وما بعدها .

(٦) السابق : ٢٢ / ١١٥ .

فَنَحْنُ عَلَى تَوَارَةِ مُوسَى وَدِينِهِ . . . وَنَعْمَ لَعَمْرَى الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ
كَلَّا نَا يَرَى أَنَّ الرِّسَالَةَ دِينُهُ . . . وَمَنْ يُهْدِ أَبْوَابَ المَرَاشِدِ يَرشُدْ

(٥) الايمان بالبعث :

يدخل الايمان بالبعث وما يتبعه من حساب وجزاء في عالم الآخرة ، والبعث هو اعادة الأجسام حية بأرواحها بعد الموت لما يجرى بعد هذا الاحياء من أمور .
والذى يفهم صراحة من القرآن الكريم أن أكثر الجاهليين كانوا لا يعتقدون ببعث ولا نشور ، وأن ليس ثمة دار أخرى بعد هذه الدار ، واستغربوا هذا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وسخروا منه وأقسموا بالله لا يبعث الله من يموت .^(١)
والذى دفعهم الى هذه الدهشة وهو أن يكون ثمة بعث مارأوه من فناء هذه الأجساد في الارض لا يبقى منها شيء ، فكيف تعود لما كانت مرة أخرى ؟
كما عبّر عن ذلك قائلهم :^(٢)

أَلَا مَنْ مَبْلَعُ الرَّحْمَنِ عَنِّي . . . بَأَنِّي تَارِكُ شَهْرِ الصِّيَامِ
إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايِلَ مَكْبِيئِهِ . . . فَقَدْ شَبِعَ الْأَنِيمُ مِنَ الطَّعَامِ
أَيُوعِدُ نَابِئُ كِبْشَةَ أَنْ سَنَحْيَا . . . وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَائِ وَهَامِ
أَتَشْكُوكُ أَنْ تَرَدَّ المَوْتَ عَنِّي . . . وَتَحْيِينِي إِذَا بَلَيْتَ عِظَامِي

غير أن هناك أموراً وجدت عند بعض الجاهليين توحى الى ايمان بعضهم بالبعث ، وفضلاً عما نراه من اشارات مبشرة في بعض أشعارهم الى الآخرة ، وكل هذا يدفعنا الى القول بايمان بعضهم بالبعث ، ولا شك أن من آمن منهم بالبعث على ما دلت عليه الأخبار والأشعار كانوا قلة ، وخاصة اذا قسناهم بثلة المنكريين .

(١) انظر أكثر الآيات التي تحدثت عن البعث في المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) سيرة بن هشام : ٢٩/٢ ، رسالة الغفران : ٤٢٢ . وهى لشداد بن الاسود .

ولا شك أن عدم تصورهم لحياة أخرى بعد مماتهم قد جعل الحياة قصيرة
 في تفكيرهم ، وكأنها فرصة سرعان ماتذهب ولن تعود ، فجعلوا يتسابقون الى اللهب
 والملذات ، ويسرفون فيها ، وكأنما بفنائهم يحرمون مما كانوا به ينعمون .
 ولذا فليس غريبا أن يقول طرفة (١) :

كريم يروى نفسه في حياته .. ستعلم إن متنا غدا أينما الصدى

وقيس بن الخطيم يريد أن لا يأتيه الموت وفي نفسه حاجة يطمح اليها
 الا وقد نالها وحاز عليها (٢) :

متى يأت هذا الموت لأتلف حاجة .. لنفسي الآ قد قضيت قضاءها

ثارت عدياً والخطيم فلم أضرع .. ولاية أشياخ جعلت فداءها

ولما كان أكثر العرب لا يعرفون البعث فلا يتصور أن عبادتهم الأصنام لا يمكن
 ان تكون الا بدافع من ذلك البعث أو توقعه ، فمع اعتقادهم أنها تقربهم من الله
 زلفى ، فقد " كانت العرب فى الجاهلية تدعو فى مصالح الدنيا فقط ، فكانوا
 يسألون الابل والغنم والظفر بالعدو ، ولا يطلبون الاخرة ، ان كانوا لا يعرفونها
 ولا يؤمنون بها " (٣) .

ومما وجد عند الجاهليين من أمور تدل على البعث ذبحهم النعم عند قبر
 الميت ، وذلك أنه " اذا مات فيهم الرجل الشريف الجواد عقروا عند قبره ، وكانوا
 يقولون : ان صاحب القبر كان يعقرها للأضياف يقربهم أيام حياته ، فيكافأ عليه
 بمثل صنيعه .

ويقال انما كانوا يعقرونها لتطعمها السباع والطيور عند قبره فيدعى مطعمها
 حيا وميتا .

(١) ديوان طرفة : ٣٥ .

(٢) ديوان قيس بن الخطيم : ٤٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٤٣٢ / ٢ .

ويقال بل كان من مذهبهم أن هدى الميت يصيب من ذلك الطعام (١) .
والذى يبدو أنهم فعلوا ذلك عند القبر لا اعتقاد لهم فيما بعد الموت ، وأن
الموت ليس نهاية ذلك الميت .

ومثل العقيرة البلية : وهى الدابة يموت صاحبها فيحفرون لها حفرة
ويشدد رأسها الى خلفها وتترك هناك لا تعلف ولا تسقى حتى تموت جوعا وعطشا ،
وربما عقلوها وحبسوها على القبر حتى تموت ، وكانوا يزعمون أن الناس يحشرون
ركباننا يوم القيامة على البلايا ان عملوا ذلك ، وإلا يحشر صاحب القبر ماشيا ان لم
تبل له بلية (٢) . وقد نهى الاسلام عن ذلك (٣) .

وقد ورد شعر جاهلى يؤكد ذلك ، فقد روى أن "خزيمة بن أشيم الفقعسى"
أوصى ابنه سعدا عند موته فقال :

يَا سَعْدُ إِمَّا أَهْلِكَنَّ فَاثْبَتْنِي .. أَوْصِيكَ إِنْ أَخَا الْوَصَاةِ الْأَقْرَبُ
لَا أَعْرِضُ أَبَاكَ يَحْشُرُ بَعْدَ كُمْ .. نَقْبًا يَخْرُجُ عَلَى الْيَدَيْنِ وَيُنْكَبُ
وَاحْمِلْ أَبَاكَ عَلَى بَعِيرٍ صَالِحٍ .. وَتَقِ الْخِيَانَةَ إِنَّ ذَلِكَ أَصُوبُ
فَلَقَلَّ لِي مِمَّا جَمَعْتَ مَطِيئَةً .. فِي الْحَشْرِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ أَرْكَبُوا (٥)

(١) غريب الحديث : أبى سليمان الخطابى : ٣٦٥/١ . تحقيق : عبد الكريم
الغرباوى . ط . جامعة أم القرى .

(٢) انظر لسان العرب (بلى) ٨٥/١٤ ، تاج العروس : ٤٤ ، ٤٣/١٠ .

(٣) فى غريب الحديث للخطابى : ٣٦٨/١ . الحديث " لا اسعاد ولا عقر
فى الاسلام " ، والاسعاد هو مشاركة النساء للمرأة التى مات قريبا بالبكاء .

(٤) النقب : مأخوذ من النقب فى الأقدام اذا حفى وتخرق القدم من السير .
والشاعر يريد أن لا يكون ماشيا فى الحشر فتنقب قدماه .

(٥) غريب الحديث للخطابى : ٣٧٠/١ ، الملل والنحل (على هامش المفصل

لابن حزم) : ٢٣٠/٣ .

ويقول أحدهم موصيا ابنه بذلك : (١)

أَبْنِي زَوِّدْنِي إِذَا فَارَقْتَنِي .. فِي الْقَبْرِ رَاحِلَةٌ بِرَحْلِ قَاشِرٍ (٢)
لِلْبُعْثِ أَرْكَبُهَا إِذَا قِيلَ أَطْعِنُوا .. سَتَوْثِقِينَ مَعًا لِحَشْرِ الْحَاشِرِ
مَنْ لَا يُوَافِيهِ عَلَى عَثْرَاتِهِ .. فَالْخَلْقُ بَيْنَ مَدْفَعٍ أَوْ عَاشِرِ

وهذا " أبو زيد الطائي*" يشبه رجلا أثر فيهم الغزو بهذه البلايا التي

أثرت فيها حرارة السموم كما أثر فيها فقد الماء والعلف : (٣)

بَدَّلَ الْغَزْوُ أَوْجَهَ الْقَوْمِ سُودًا .. وَلَقَدْ أَبْدَىٰ وَأَ وَّلَيْسَتْ بِسُودٍ
فِي ثِيَابِ عِمَادُ هَنَّ رَمَاحُ .. عِنْدَ جُوعٍ يَسْمُو سَمَ الْكَبُودِ
كَالْبَلَايَا رءُوسُهَا فِي الْوَلَايَا .. مَانَحَاتِ السَّمُومِ سَفْعِ الْخُدُودِ (٤)

أما الأشعار التي ورد فيها ذكر للبعث أو ما يدل عليه فمنها قول " حاتم طي"

يخاطب زوجه بأنه ميت وأنه مجزي بما اكتسب لأن كل شخص مرتين بعمله :

وَأَنْتِي وَإِنْ طَالَ الثَّوَاءُ لَمَيِّتٌ .. وَيَضْطَمِنِي (٥) مَا وَى بَيْتٌ مَسْقَفٌ
وَأَنْتِي لِمَجْزِي بَمَا أَنَا كَاسِيَةٌ .. وَكُلُّ أَمْرٍ رَهْنٌ بَمَا هُوَ مُتَلِفٌ (٦)

-
- (١) هو عمر بن زيد المتمني ، بلوغ الأرب : ٣٠٩ / ٢ .
(٢) رحل قاتر : هو الجيد الوقوع على ظهر البعير ، وقيل اللطيف منها وقيل الذي لا يستقدم ولا يستأخر وكلها متقاربة .
* أبو زيد هو المنذر بن حرملة من طيء . كان جاهليا قديما ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، ويقال مات نصرانيا وكان من المعمرين .
انظر : الشعر والشعراء : (١) / ٣٠١ ، المعمرين والوصايا : ١٠٨ .
(٣) جمهرة أشعار العرب : ٧٤٠ ، ٧٤١ ، " وقد تركت منها بيتا بعد الأول " .
(٤) الولايا جمع ولية : هي البرذعة التي تكون تحت رحل الدابة ، والمعنى هنا أن هذه البلايا التي تبقى حتى تموت على القبر ، كانوا يضعون هذه الولايا على رأسها عندئذ .
(٥) يضطمني : أى يضمنى .
(٦) ديوان حاتم : ٢٢٥ .

ونرى "زهيرا" في معلقته المشهورة يوصي أولئك المتعاهدين على ترك الحرب بعد أن سعى الأختيار وأولو النهي في الصلح بحفظ العهد ، وعدم كتمان خلافه ، فإله مطلع على ما يكتتم ، وسيجازى ذلك المخالف ان عاجلا فينتقم الله منه ، أو يدخره له كي يجازيه يوم القيامة :

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ . . لِيُخْفِيَ وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيَدْخَرُ . . لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمُ (١)

وعلى غرار منه تلقى "علاف بن شهاب التميمي" يوء من بالجزء وأنه على
الاعمال الحسنة :

وَلَقَدْ شَهِدْتُ الْخَصَمَ يَوْمَ دِفَاعِهِ . . فَأَخَذْتُ مِنْهُ خِطَّةَ الْمُفْتَالِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ جَازٍ عَبْدَهُ . . يَوْمَ الْحِسَابِ بِأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ (٢)

ونرى النابغة الذبياني يدعو للنعمان بن المنذر عندما مرض بأن يلقي خيرا اذا واروه تحت الأرض ، ورزى الناس بموته فحرموا خيره فكأنه ذهب حظهم وخيرهم :

لَكَ الْخَيْرُ (٣) إِنْ وَارَتْ بِكَ الْأَرْضُ وَاحِدًا . . وَأَصْبَحَ جَدُّ النَّاسِ يَطْلَعُ عَاشِرًا (٤)

ثم نرى السموئل يذكر لنا أنه ميت وأنه سبعت بعد موته ، ثم يذكر لنا أنه سيأخذ صحيفة فيها أعماله ، ثم هو خائف أيكون له الفضل بالأعمال الصالحة أم عليه ، ثم هو خائف خوفا شديدا في ذلك أن يناله جزاء أعماله السيئة .

-
- (١) ديوانه (صنعة العلم) : ١٨ ، شرح ثعلب : ١٨ .
(٢) المحبر : ٣٢٢ للأخمس بن شهاب ، بلوغ الأرب : ٢٧٦/٢ .
(٣) لك الخير : قال محقق الديوان : (ذلك الخير ان وارت بك الارض) دعاء للنعمان ، وهو جملة يقولونها عند الاخبار بخبر مكدراً أو مشفق أو عند توديع مسافر يقصد به التفاؤل ودفع التشاؤم) .
(٤) ديوانه : ١١٦ ، ومعنى الشطر الأخير من البيت : أن الناس سيصيبهم السوء اذا فارقه النعمان لذهابه بما ألف الناس من خيره وفضله . وقد علق المحقق على هذا البيت بقوله : (هذا يقتضى الايمان بالحياة الآخرة جرى فيه النابغة على عقيدة النعمان ان كان النعمان متنعرا .

يقول "السموءل" (١) :

لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْعُرَنَّ إِذَا مَا . . رَقِيبٌ أَقْرَأَ عُتْوَانَهَا وَقَرِيهَتْ
 أَلَى الْفَضْلِ أُمِّ عَلَى إِذَا حُسُو . . سَبَّتْ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مُقِيَّتْ (٢)
 مَيْتَ دَهْرٍ قَدْ كُنْتُ ثُمَّ حَيِيَّتْ . . وَحَيَاتِي رَهْنٌ بِأَنْ سَأْمُوْتُ
 وَأَتْتَنِي الْأَنْبَاءَ أَيُّ إِذَا مَا . . مَتَّ أَوْرَمَ أَعْظَمِي مَبْعُوءُ
 هَلْ أَقُولَنَّ إِذَا تَدَارَكَ حِلْمِي . . وَتَدَاكَ عَلَى إِنِّي دُهِيَّتْ (٣)
 أَبْغَضِلُ مِنَ الْمَلِيكِ وَنُعْمِي . . أَمْ يَدَسُّبُ قَدَمَتَهُ فَجَزِيَّتْ (٤)
 (٥)

ويذكر "قصر بن ساعدة" ان الاموات سبعثون وهو يخاطب من يبكي الموتى ،
 وسيفزعون من ذلك البعث ، وسيعودون بعد هذا البلى خلقا جديدا ثم يجزون
 ان خيرا فخير ، وان شرا فشر وان جاء التعبير عن هذا المعنى فى تصويـر
 بيانى خالب (٦) :

يَا نَاعِي الْمَوْتِ وَالْأَمْوَاتِ فِي جَدَثِ . . عَلَيْهِمْ مِنْ بَقَايَا بَرِّهِمْ خِـرْقُ
 دَعُهُمْ فَإِنَّ لَهُمْ يَوْمًا يُصَاحُ بِهِمْ . . فَهُمْ إِذَا انْتَبَهُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فَرَقُوا
 حَتَّى يَعُودُوا وَإِلْحَالٍ غَيْرِ حَالِهِمْ . . خَلَقًا جَدِيدًا كَمَا مِنْ قَبْلِهِ خُلِقُوا

(١) لقد شك الدكتور جواد على فى كتابه المفصل فى تاريخ العرب (٥٧٤/٦ ،
 ٥٧٥) فى صحة هذه الابيات ، ومثلها . شوقى ضيف فى العصر الجاهلى (٣٨٩)
 لما تحمله من معان دينية يزاها اسلامية ، ثم ناقش د . جواد ذلك وذكر
 ان هذه المعانى موجودة فى التوراة واخيرا أنكر صحة هذا الشعر ليهودى
 جاهلى . وهذا اجتهاده غير أننا لا نرى ذلك ، فكيف يكون غريبا هذا
 من رجل مشهور بين اليهود وهم أهل كتاب ومثل معانى الشعر موجودة
 فى التوراة ؟ ويضاف الى هذا ورود هذا الشعر من رواية الأصمعى (الثقة)
 وقد عرف عنه التشدد فى قبول الأشعار المنحولة .

(٢) المقيت : الحافظ للشئ والشاهد له .

(٣) تدارك : تتابع .

(٤) تداكا : دافع وزاحم يريد اذا تقاسمته الهموم والهواجس .

(٥) الاصمعيات : ٨٦ .

(٦) خزنة الأدب : ٨٢/٢ . البداية والنهاية : ٢٣٦/٢ ، شعراء النصرانية

منهم عُرَاةٌ ومنهم في ثيابِهِمْ . . . منها الجَدِيدُ ومنها المُنْهَجُ الخَلْقُ
 وَأَنَا نَجْدٌ أُمِيَّةٌ بِنِ أَبِي الصَّلْتِ " من أكثر شعراء الجاهلية ذكرا للبعث
 والحساب كما عرف عنه ، حتى سموه شاعر الآخرة ، فهو يذكر أن الناس يوقفون
 للحساب وكل يجازى بعمله فيكون منهم السعيد والشقي . (١)

يُوقَفُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ جَمِيعًا . . . فَشَقِيٌّ مُعَذَّبٌ وَسَعِيدٌ
 والجزاء من جنس العمل خيرا كان أو شرا فليحذر المرء أن يشوب الخير بالشر
 حتى ينجو . (٢)

لَا تَخْلَطَنَّ خَبِيثَاتٍ بَطَيِّبَةٍ . . . وَأَخْلَعُ ثِيَابَكَ مِنْهَا وَأَنْجُ عُرْيَانَا
 كُلُّ امْرِئٍ سَوْفَ يُجْزَى قَرْضَهُ حَسَنًا . . . أَوْ سَيِّئًا وَمَدِينًا كَالَّذِي دَانَا
 والأديان باطلة يوم القيامة إلا دين الحنيفية :

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بَوْرًا (٣)

وأخيرا فهذا " أعشى قيس " يرى أن مدد وجهه مع ما اتصف به من كرم وقوة ووفاء
 كما في القصيدة ، تقى يراقب ربه ، وما الراهب المعتكف في هيكله أمام صليبه ،
 تارة ساجدا وأخرى متضرعا بأتقى منه يوم الحساب اذا خرجت النفوس من قبورها
 ونفضت عنها الغبار* :

وَمَا أَيْلَىٰ عَلَىٰ هَيْكَلٍ (٤) . . . بِنَاهُ وَصَلْبٍ فِيهِ وَصَارًا (٧)

يُرَاحُ (٨) مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيحِ . . . لِكَ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جَوَارًا (٩)

(١) ديوانه : ٣٧٩ . (٢) السابق : ٥٢٠ .

(٣) السابق : ٣٩٣ .

* ديوان الاعشى : ١٠٣ .

(٤) أيلى : صاحب أيل ، وهي العصا التي يدق بها الناقوس .

(٥) الهيكل : موضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان .

(٦) صلّب : صوّر فيه الصليب .

(٧) صار : سكن .

(٨) يراح : راح بين العملين تداول هذا مرة وهذا مرة .

(٩) جوار : هو التضرع الى الله بالدعاء .

بأعظم منه تُقَى في الحساب .. اذا النسمات^(١) نَفَضْنَ الغبارا
 واخيرا فغير بعيد ان يكون "بشر بن أبي خازم" قد اراد البعث الذي يرى
 أنه يوم طويل :^(٢)

فَعَفَوْتَ عَنْهُمْ عَفْوً غَيْرَ مُسْتَرَبٍّ .. وَتَرَكْتَهُمْ لِحِسَابِ يَوْمٍ سَرْمَدٍ :

ومهما يكن الايمان بالبعث والاخرة عند بعض هؤلاء الجاهليين فلا يتصور
 أنهم يرونه كايان المسلمين به ، وانما يختلف عنه كثيرا ، وربما تصوروه بتخيلات فيها
 نعيم وعذاب تشبه الاساطير ، فالقرآن عند ما نبه المشركين لذلك أجابوا أن ذلك
 أساطير الأولين ، وهم في شك من تلك الحياة الأخرى . وصدق الله : " بل ادرك
 علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ، وقال الذين كفروا
 أهذا كنا ترابا وآباؤنا انما لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل
 ان هذا الا أساطير الأولين " .^(٣)

(١) النسمات : فسرهما محقق الديوان بقوله : " النسيم نفس الريح اذا كان
 ضعيفا وأولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد " ، وقد وهم د . محمد حسين
 رحمه الله وأبعد النجعة ان ظن النسيم مفرد من النسمات وليس كذلك
 فالنسيم مفرد الجمع أنسام كما في اللسان (نسيم : ١٢ / ٥٧٣) ، ومفرد
 النسمات : نسمة ، وهي نفس الروح وعلى هذا اضطرب شرحه للبيت بأن
 المدوح أعظم تقى في الحساب من الراهب اذا تحركت الريح هينة ، ولا معنى
 فيما أفهم لهذا التقى المحدود بهبوب الريح ، وكيف يقارن بتقى الراهب
 الذي يتراوح وقته كله بين سجود وجوار ؟ ، والذي أراه أن معنى البيت :
 أن مدوح الأعشى أعظم تقى من هذا الراهب يوم القيامة حين تعلم
 الحقائق واذا الأرواح تخرج من القبور حية تنفض ماعلق بها من تراب
 وغبار الأرض على رأى هذا الشاعر .

(٢) ديوان بشر بن أبي خازم : تحقيق عزة حسن ط مديرية احياء التراث القديم
 دمشق ١٣٧٩

(٣) النمل : ٦٦ - ٦٨ .

(٦) عدم التطهير :

كان التطهير أمرا واحدا من أساطير كثيرة عرفها العرب، فمنها ضرب الثور
إذا عافت البقر الماء ، ويظنون أن الحية تركب قرني الثور ، وهي التي صعدت
البقر عن الماء كما قال أشاعرهم :

انى وقتلى كليباً ثم أعقله .. كالثور يضرب لماً عافت البقر^(١)

ومنها كي الصحيح من الابل وترك المريض كما قال النابغة في اعتزازه مما رمى به :

لكلفتنى ذنب امرئ وتركته .. كذى العرّيكوى غيره وهو رافع^(٢)

ومنها تعليق الحلى والجلاجل على اللديغ حتى لا ينام - فيما يرون - فيسرى

فيه السم ، وكانوا يرون أن المرأة المقلاقموهى التى لا يعيش لها ولد اذا وطئت

دم القليل الشريف عاشى ولدها ، وكانوا يزعمون أن الرجل اذا أحب امرأة واحبته

فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام ، وان لم يفعل ذلك فسد حبهما ،

وغير هذا كثير من الأساطير عندهم^(٤) .

أمّا التطير والتشاؤم فهو ما اعتادوه من الغال السئ فى نظرهم بالسوانح

أو البوارح من الطيور أو الحيوانات أو غيرها ، وقد دل على ذلك قول الأعشى :

ماتعيفُ اليومَ فى الطيرِ الروحِ .. من غرابِ البينِ أو تيسِ برح^(٦)

وقد حرّم الاسلام هذه الخرافة الشركية^(٧) ، إذ أنها كانت تشنى القوم عن

(١) لسان العرب : "عيف" ٢٦٠/٩ .

(٢) ديوان النابغة : ١٦٨ .

(٣) العرّ: داء يصيب مشافر الابل فيسيل منه سائل ، ويفتح العين "العمر" هو الجرب .

(٤) انظر بلوغ الأرب : ٣٠١/٢ وما بعدها .

(٥) ديوان الأعشى : ٢٨٢ .

(٦) تعيف : من العيافة وهي زجر الطير والتشاؤم بها . الروح : جمع رائح ، أى الرائحة فى شأنها . البين : الفراق ، وكانوا يتشاءمون بنعيقة فهو نذير بالفراق .

(٧) انظر : قرّة عيون الموحدين : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : ١٣٩ .

ط . انصار السنة المحمدية ، لاهور .

أعمالهم وتفسد كثيرا من أمورهم ، وهى فى واقع الأمر لا تقدم شيئا لذلك المتشائم أو تؤخره ، بل انها لا تعلم من ذلك خبرا البتة .

ومع ذلك فقد وجدنا من بين اولئك العرب من لم يرفع بذلك رأسا ولم يصنع له أذنا ، وهو لاء لم يكثرثوا لذلك بل سخروا منه . ولعل مرجع ذلك أنهم أعطوا عقولهم ، ولا حظوا عدم اتفاق هذه الأمور لما نيظ بها فاطرحوها .

وذا الحارث بن حلزة ينهى هذا القطير ، وقد انثنى وقعد بعد أن أزمع

الأمر ومضى فيه ، ويقول : (١)

يا أيها المزمع ثم انثنى .. لا يثنيك الحارثى ولا الشاحج (٢)

ولا قعيد أعقب قرنوه .. هاج له من مربيع هائج (٣)

بيننا الفتى يسعى ويسعى له .. تاح له من أمره خالرج

يترك مارقح من عيشه .. يعيش فيه هائج هامج (٤)

وخرج النابغة الذبياني مع قوم يريدون الغزو ، فلما أراد والرحيل رأى النابغة

جرادة ذات ألوان على ثوبه فتطير بها وترك الغزو ، فلما رجعوا قال قائلهم

معرضا بشأن النابغة : (٥)

تخبر طيره فيها زيان .. لتخبره وما فيها خبير

أقام كأن لقمان بن عباد .. أشار له بحكمته مشير

تعلم أنه لا طير الآ .. على متطير وهو الثور

بلى شئ يوافق بعض شئ .. أحاييناً وباطله كسير

(١) الحيوان ٤٥٠/٣

(٢) الحادى : مقلوب لحائد وهو فى الطيرة ما استقبلك ، والسانح ما ولاك ميافته ،

والبارح ما ولاك مياسرة . الشاحج : الغراب المسن الذى غلظ صوته .

(٣) القعيد : ما أتاك من خلفك مما يتطير منه ، أعضب قرنه : أى مكسور قرنه .

(٤) رقع من عيشه : اصلحه ، والترقيح الاصلاح والقيام عليه حتى ينمو .

(٥) الحيوان : ٤٤٧/٣ . والقائل هو زيان بن سيار الغزارى .

ولعل قريبا من التطير ما عرف عند العرب بالتعشير : وهو فيما زعموا أن الرجل اذا أراد أن يدخل قرية فخاف وباءها ، يقف على بابها أو قربها قبل أن يدخل ، ثم ينهق كما ينهق الحمار عشر مرات ثم يدخلها ، يرون أنه عندئذ لا يصيبه وباءها .

وقد سخر "عروة الصعاليك" من ذلك وقال : (١)

لَعَمْرِي لئِن عَشَرْتُ مِنْ خَشِيَةِ الرَّبِّ . . نَهَاكَ الْحَمِيرُ إِنِّي لَجَزُوعٌ .

(١) - ديوان عروة بن الورد : ٤٧ .

العبادات *

وقفنا فيما سبق على طرق من معتقدات بعض الجاهلين التي تعد من الحنيفية، وليس غريباً بعد هذا أن نجد شيئاً من العبادات التي تدخل في هذه الملة، وإن كانت هذه العبادات ليست على صورتها النقية التي جاءت من عند الله، نرى ذلك واضحاً في ثنايا أخبار الجاهلين وما يروى لهم من فنون أدبية .

ولا غرو أن تبني العبادات وشعائر الدين على أساس ما يعتقد به أرباب هذه الشعائر الدينية إلى حد كبير، وإن أضيفت إليها موروثة الآباء والمجتمعات .

وفي حديثنا عن هذه العبادات سنميل بها إلى ما يقرب من سنن الفقهاء فسي تناولهم لمسائل العبادات في كتب الفقه الاسلامي، رغبة في التيسير، وجرياً على النسق المعهود في المعالجة .

سنن الفطرة :

وهي كما في الحديث الصحيح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " عشر من الفطرة :
 (١) قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم،
 ونتف الأبط وحلق العانة، وانتقاص الماء، (٢) . . . والمضمضة (٣)، وفي الصحيح عن أبي هريرة :
 " الفطرة خمس : الختان، والاستحداد، (٤) وتقليم الأظافر، ونتف الأبط، وقص الشارب (٥)،
 ويتتبع هذه الأمور فيما رجعنا إليه تبين لنا أن هذه الأمور لم تطمس نهائياً بين عرب الجاهلية، بل بقي بعضها واضحاً كالختان والسواك، وإعفاء اللحية، ولا شك أن ذلك من بقايا الحنيفية، وأما سوى تلك من هذه السنن فيروى أن العرب كانت تعمل بها، وتحافظ عليها، وإن اعترى بعضها شيء من التحريف بزيادة أو نقصان، فلما جاء الاسلام أقر ذلك (٦) .

- (١) البراجم : هي العقد التي في ظهور الأصابع يجتمع فيها الوسخ، واحدتها برجمة .
 (٢) انتقاص الماء كما فسره وكيع : يعني الاستنجاء .
 (٣) رواه مسلم شرح النووي : كتاب الطهارة ج ٣ ص ١٤٧ .
 (٤) الاستحداد : حلق شعر العانة وإزالتها .
 (٥) نفس المصدر والجزء ص ١٤٦ .
 (٦) المحبر : ٣٢٩، بلوغ الأرب : ٢ / ٢٨٧ .

فأما اللحية فقد أسبلوها ، وفي الحديث : " يارويقع لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أنه من عقد لحيته ، أو تعلق وترا ، أو استنجى برجيع دابة ، أو عظم فإن محمداً منه برئ " رواه ابوداود

قالوا : " وكانوا يفعلون ذلك في الحروب ، كانوا يعقدون لحاهم ، وذلك ممن زى الأعاجم يفتلوننها ويعقدونها " (١) وقال الشاعر (٢)

مَسَحُوا لِحَاهُمْ ثُمَّ قَالُوا سَالِمُوا . . . يَا لَيْتَنِي فِي الْقَوْمِ إِذْ مَسَحُوا اللَّحَى

ومن الطهارات والأغسال التي دلت عليها المصادر عندهم : غسل الميت وتكفينه ، ثم دفنه في قبره ، هذا " الأفوه الأودي " (٣) يصور لنا ذلك بقوله : (٤)

الْأَعْلَانِي وَأَعْلَمَا أَنَّنِي غَرَّرٌ (٥) . . . فَمَا خِلْتُ يُجِدِينِي الشَّقَاقُ وَلَا الْحَذَرُ

وَمَا خِلْتُ يُجِدِينِي أَسَاتِي إِقْبَرُ بَدَتْ . . . مَفَاصِلُ أَوْصَالِي وَقَدْ شَخِصَ الْبُصْرُ

وَجَاؤًا بِمَاءٍ بَارِدٍ وَيُغْسَلُ . . . فَيَا لَكَ مِنْ غَسَلٍ سَيَتَّبِعُهُ غَيْبِرٌ (٦)

وتشير المصادر إلى أن " أبا لهب " لما مات بالعدسة (٨) تركه ابنه ليلتين أو ثلاثاً لا يدفنه حتى انتن في بيته ، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون تخشى عدواها

(١) مختصر سنن أبي داود : ١ / ٣٧ . ط . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة .

(٢) أمالي القالى : ١ / ١٨٣ . والمعنى انهم اصطلحوا ومسحوا لحاهم على ذلك ، وكان مسح اللحية كالعهد أو اليمين في الصدق والوفاء عندهم . وهذا الشاعر لا يريد ذلك الصلح .

(٣) الأفوه الأودي : هو صلاة بن عمرو بن مالك . وكنيته أبوريعة ، كان سيئ السند أود (مذبح) في منطقة نجران ، كان يعد من حكماء العرب ، وشعره موضع التقدير . وانظر في ترجمته : الشعر والشعراء : ١ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، الطرائف الأدبية : عبدالعزيز الميمني : ٣ . ط دار الكتب العلمية . بيروت .

(٤) غرر : الغرر التعرض بالنفس للخطر .

(٥) الشقاق : غلبة العداوة والخلاف .

(٦) غبر : يريد الغبار من تراب القبر .

(٧) الطرائف الأدبية - بها ديوانه : ١٥

(٨) العدسة : هي بثرة تخرج في مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تقتل صاحبها غالباً . النهاية ٣ / ١٩٠ . لأبي السعادات بن الاثير ، تحقيق : طاهر احمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي . ط . المكتبة الاسلامية .

حتى قال لهما رجل من قريش ويحكما ألا تستحيان أن أبا كما قد انتن في بيته لا تغيانه
فقالا نخشى هذه القرحة . قال : فانطلقا فأنا معكما فما غسلوه الا قد فا بالماء عليه
من بعيد مايسونه ، فاحتملوه فدفنوه . (١)

وكانوا يضعون في ماء الغسل مايساعد على النظافة من سدر أو شنان (٢) ، ثم ينظف
به جسد الميت ، ويذكر لنا " امرؤ القيس " ما حدث لبني آكل المراة عند ما أخذت " بنو
تغلب " ثمانية وأربعين نفسا منهم ، فقد م بهم على " المنذر " وضرب رقابهم ، وأن هؤلاء
القتلى لم يعمل لهم مايعمل للأموات من غسل بماء وسدر وانما خرجوا بدمائهم . (٣)

مُلوكًا مِنْ بَنِي حَجْرٍ بِنِ عَمْرٍو .. يُساقُونَ الْعَشِيَةَ يُقْتَلُونَنا
فلو في يومِ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا .. ولكنْ في ديارِ بَنِي مَرِينَا
ولم تُغْسَلْ رءُوسُهُمْ بِسِدْرٍ .. ولكنْ في الدِّمَاءِ مَزْمَلِينَا (٤)

أما الغسل من الجنابة فقد دلت عليه بعض الأخبار ، قال الزجاجي : " الحنيف في
الجاهلية من كان يحج البيت ويفتسل من الجنابة ويختتن " (٥) . وجاء عن أبي سفيان
ابن حرب أنه لما نجا بقافلته وماكان لقريش في معركة بدر من الفشل والفجيعه ،
حلف ألا يقرب رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم . (٦)

(١) القصة في الاغانى : ٢٠٥ / ٤ - ٢٠٦ ، وانظر اللسان (عدس) ١٣٢ / ٦ .

(٢) شنان : مفرد أشنان : من الحمض يستعمل في غسل الايدي . اللسان (أشن)

٠١٨ / ١٣

(٣) ديوان امرؤ القيس ص ٢٠٠ ، والقصة في الاغانى ج ٩ ، ص ٧٨ - ٠٨١

(٤) السدر : ورق شجر النبق . مزملينا : ملغفين

(٥) لسان العرب (حنف) ٥٨ / ٩

(٦) انظر غزوة السويق في سيرة ابن هشام : ٤٤ / ٢ ، الاغانى : ٣٥٧ / ٦ : وقد علق

السهيلي في الروض : على حادثة ابي سفيان هذه بقوله " في هذا الحديث

ان الغسل من الجنابة كان معمولا به في الجاهلية بقية من دين ابراهيم

واسماعيل كما بقى فيهم الحج والنكاح ، ولذلك سموها جنابة ، وقالوا : رجل

جنب ، وقوم جنب لمجانبتهم في تلك الحال البيت الحرام ومواضع قربانهم ،

ولذلك عرف معنى هذه الكلمة في القرآن ، أعنى قوله " وان كنتم جنبا فاطهروا ، =

وجاء عن أبي عمرو بن العلاء أن العرب " كانت إذا أرادت أن تنشُد قصيدة
الملتَمَس توضعوا لها :

تُعَيِّرُنِي أُمَّي رَجَالٌ وَلَنْ تَكْرِي . . أَخَا كَرَمٍ إِلَّا بَأْنَ يَتَكْرَمَا (١)

= فكان الحدث الأكبر معروفا بهذا الاسم فلم يحتاجوا الى تفسيره . وأما الحدث
الاصغر وهو الموجب للوضوء فلم يكن معروفا قبل الاسلام ، فلذلك لم يقل فيه
وان كنتم محدثين فتوضئوا كما قال " وان كنتم جنبا فاطهروا " بل قال " فاغسلوا
وجوهكم وأيديكم الى المرافق " الآية ، فبين الوضوء وأعضائه وكيفيته والسبب
الموجب له كالقيام من النوم والمجئ من الغائط وملامسة النساء ، ولم يحتج في
أمر الجنابة الى بيان أكثر من وجوب الطهارة منها " كما في أديان العرب في
الجاهلية ص ٧٠ - ٧١ ، على أننا رجعنا للسهيلى ولم نعثر فيه على هذا
التعليق .

(١) طبقات النحويين واللفويين : ٣٣ . وقد أُوهم هذا القول الى الظن بمعرفة
الجاهليين للوضوء ، ورأيت محقق ديوان الملتَمَس وقد أورد هذا وهو
يتحدث عن شاعرية الملتَمَس (الديوان : ٣٨) وعلق عليه قائلا " وهذا الخبر ان
صح - دليل على مكانة هذا الشاعر وشعره " .
والذى يظهر لي من هذه المقولة أنها لا تعنى الوضوء بالماء ، وانما المراد
الوضوءة التي تظهر على الشخص عندما يسره قول أو أمر فيفرح له ويظهر السرور
على وجهه ، وسياق العبارة يقوى ذلك والله أعلم .

الختان :

ونجد الختان قد شاع وعرف بين العرب. وقد ذكر ذلك "أبو عبيدة" والزجاج (١) وقال الجاحظ : "الختان في العرب في الرجال والنساء من لدن "ابراهيم و"هاجر" الى يومنا هذا" (٢).

وما يدل على انتشاره بينهم أنهم كانوا يعيرون ويعييون على من لم يفعله ، وفي غزوة حنين عندما كان أحد الأنصار يسلب قتلى "ثقيف" إذ كشف عن عبد يسلبه فوجده أغزل (٣) أي لم يختن ، فصاح بأعلى صوته أن "ثقيفا" غزل ، فقام "المغيرة بن شعبة" فأخذ الانصاري وكشف له عن قتلى "ثقيف" ليبين له أنهم مختونون ، ثم أعلم "المغيرة" الانصاري بأن الأغزل غلام لهم نصراني ، وانما فعل "المغيرة" ذلك خشية أن يشاع ذلك عنهم في العرب فيعيروا به (٤).

وما وصلنا من شعرهم في ذلك ما روى لا مرئ القيس عندما دخل على قيصر الروم ، وكان دخل معه الحمام فرآه أقلف ، فقال يعيره بذلك وواصفا سوءته :

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ كَانِبَةٍ .. إِنَّكَ أَقْلَفٌ (٥) إِلَّا مَا جَلَا الْقَمَرُ (٦)

إِذَا طَعَنْتَ بِهِ مَالَتِ عِمَامَتُهُ (٧) .. كَمَا تَجَمَّعَتْ تَحْتَ الْفَلَكَةِ (٨) الْوَيْسُرُ (٩)

ونجد الاعشى الكبير أيضا يهجو أحد خصومه بأن أمه غير مختونة ، وأنها صاحبة

(١) لسان العرب (حنف) ٥٠٧/٩ : ٥٠٨

(٢) الحيوان : ٢٧/٧

(٣) الاغزل : ذو العزلة ، وهي القلغة التي يزيلها الختان من ذكر الصبي .

(٤) انظر القصة في السيرة النبوية لابن هشام : ٤٤٨/٢ "غزوة حنين" .

(٥) أقلف : أي بين القلغة : وهي جلدة الذكر التي ألبستها الحشفة ، وهي التي تقطع من ذكر الصبي بمعنى الغرله .

(٦) جلا القمر : تقول العرب للصبي اذا كان قصير الغرله ، قد ختنه القمر .

(٧) عمامته : يشبه القلغة بالعمامة .

(٨) الفلكة : يريد فلكة المعقول وهي مستديرة .

(٩) ديوانه : ٢٨٠

بظر ، والبظر : مابين الاسكتين من المرأة ، وهو الذى يخفض فى النساء ، وجمعه بظور . (١) يقول الاعشى : (٢)

أتانى ما يقول لى ابن بظرى .. أقيس يا ابن شعلبة الصباح (٣)

ومما يقوى ذلك أن الختان لم يقتصر على الرجال قول * النابغة الذبياني * يذكر بأس قومه فى الحرب ، وأنهم يغلبون ويصيون نساء أعدائهم : (٤)

فأصبن أبكاراً وهن بآمة .. أعجلنهن مظنة الأعذار (٥)

ويبدو أن العرب كان منهم من يؤخر الختان حتى يبيع الولد أو الجارية قليلاً (٦) وتدل

المصادر على أن العرب كانت تعبر بعضها بقولهم * يابن مقطعة البظور * حتى ولو لم تكن أمه كذلك ، إذ كانوا ينظرون إلى المرأة التى تخفض النساء نظرة ازدراء واحتقار (٧)

(١) لسان العرب (بظر) ٠٧٠ / ٤

(٢) ديوانه : ٣٩٥

(٣) شعلبة الصباح : يريد به الذى يفرو يجبن كما يفر الشعلب ، وانما ذكر الصباح لان اكثر غاراتهم تكون وقت الصباح .

(٤) ديوانه : ٠١١٠

(٥) فى معنى البيت قال شارح الديوان : * فأصبن : أى خيل الجيش ، أبكاراً أى : سبوا الابكار فتزوجوهن * بآمة * أى بعيب يريد اللحم الناتئة . ويروى بامه : بكسر الهمزة فميم مشددة أى نعمة وحضارة عيش ، أى سبوهن قبل الخفاض أى أصبن جوارىكم صغيرات الاسنان قبل وقت الاعذار .

* مظنة * اسم زمان مشتق من الظن يطلق على الزمان والمكان والمصدر وهو هنا الزمان . * الاعذار * الختان وهو للجارية يسمى خفاضاً بكسر الخاء المعجمة . ولعلمهم لم يكونوا يختنون الجوارى الا اذا قارن البلوغ .

(٦) انظر النهاية فى غريب الحديث : ١٩٦ / ٣ ، مجد الدين بن محمد بن الاثير تحقيق محمود محمد الطناحى . ط المكتبة الاسلامية ، لسان العرب

(عذر) ٠٥٥١ / ٤

(٧) نهاية الارب : ١٠٠ / ١٧ ، لسان العرب (بظر) ٠٧٠ / ٤

ويسوقنا الحديث عن الختان الى ما يستتبعه عند العرب من ذبح حيوان عنـد الختان ، وهذا ما يعرف عندنا نحن المسلمين بالعقيقة ، فقد كانت العرب تفعله ، فيروى أن " عبدالمطلب " جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عَقَّ لبنينا عليه الصلاة والسلام - على عادة العرب ، وأمر بجزور فنحرت واطعمها قريشاً. ^(١) وفي الحديث عن " بريدة " قال " كنا في الجاهلية اذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها ، فلما جاء الاسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران " . ^(٢)

وقد كانت العرب تسمى ذلك العذار والاعذار ، وهو عندهم طعام الختان ووليمته . ^(٣) والعقيقة عند أهل اللغة : هو الشعر الذى يكون على رأس الطفل المولود ، وانما سماوا الحيوان المذبوح (عقيقة) لأنه يذبح عندما يحلق شعر المولود ^(٤) ، وقـد عيروا من لم تحلق عقيقته فكأنهم بذلك يعيرون من لم يذبح لولده لأنه لم يحلق شعره هذا " أمروء القيس " يوصى " هنداً " الا تنكح هذا الرجل الذى لم يحلق عقيقته حتى شاخ ويصفه باللؤم والشح : ^(٥)

يَاهِنْدُ لَا تَنْكِحِي بَوْهَةً .. عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَبَا
مُرْسَعَةٌ وَسَطُ أَرْفَاقِهِ .. بِهِ عَسَمٌ يُتَتَفَى أَرْبَابَا
لِيَجْعَلَ فِي رَجُلِهِ كَعْبَهَا .. حَذَارُ الْمَنِيَةِ أَنْ يُعْطَبَا ^(٦)

- (١) السيرة الحلبية على برهان الدين الحلبي : ١ / ١٢٨ ، ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٤ ، الاشتقاق : ٠٨ .
- (٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود : للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحقيق آبادى ج ٨ ص ٤٥ ، ط دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٣٨٨ هـ .
- (٣) البخلاء : ٢١٤ ، لسان العرب (عذر) ٤ / ٥٥١ ، وأنشد فيه :
كل الطعام تشتهي ربيعه .. الخرس والاعذار والنقيعه
- (٤) تاج العروس (عقق) ٧ / ١٥ ، ١٦ .
- (٥) ديوانه : ص ١٢٨ .
- (٦) بوهة : أى أحق . أحسب : الأحسب الذى أبيضت جلده من داء ففسدت شعرته فصار أحمر وأبيض والمعنى كأنه لم تحلق عقيقته . مرسعة : مقيمة . =

وقال " زهير بن أبي سلمى " (١) :
 أذ لك أم شتيم الوجه (٢) جاب (٣) .. عليه من عقيته عفاء (٤)

= الارتفاع : أصول الفخذين من باطن وهما ما اكتنفاً أعلى جانبي العانة عند
 ملتي أعلى بواطن الفخذين .

العسم : يمس في المرفق والرسغ تعوج منه اليد والقدم . والمعنى لا تنكحسى
 هذا الاحق اللثيم الذي لم تزل عليه شعر عقيته من بخله ، ومع ذلك فيه راء
 العسم وهو كالحمقى الذين كان من عادتهم في الجاهلية أن يعلقوا كعسب
 الارنب في الرجل كالمعانة يزعمون أن من علقها لم يضره عين ولا سحر لأن الجن
 تمتطي الثعالب والظباء والقنافذ وتجتنب الارنب لأنها تحيض .

(١) ديوانه ، الاعلم : ص ١٢٨ .

(٢) أم غير شتيم الوجه ، والشتيم الكريه الوجه .

(٣) جاب : جاف غليظ .

(٤) عفاء : يقال للشعر اذا طال ووخى عفاء .

السواك :

ونجد أيضا من هذه السنن الباقيه السواك ، وقد كثر الحديث عنه عند الجاهليين وبخاصة في وصف ثغور النساء ، وكيف يجلينها بأعواد السواك . وكان العرب يأخذونه من عدد من الاشجار ، منها البشام ، والاسحل ، والضرر وهو شجر له حب أخضر طرى ، والعتم وهو الزيتون البرى .

ومما ورد من ذلك قول * أبى نويرة الإيادى * فى وصف نساء جالسات وهن يقضمن

(١)

مساويك من شجر الضرم :

واكناتٍ يقضمن من قُضْبِ الضَّرِّمِ .. مٌ وَيَشْفَى بَدَلَهُنَّ الْهَيْامُ (٢)

(٣)

ويقول طفيل الغنوى فى وصف محبوبته :

إِذَا هِيَ لَمْ تَسْتَكْ بَعْدَ أَرَاكِفٍ .. تَنْخُلُ فَاسْتَاكْتُ بِهِ عَوْدُ إِسْجَلٍ

وهم يشوصون به الفم حتى يجلو بياض الأسنان ويرى تحديدها كما قال * امرؤ القيس * (٤)

تَرَاءَتْ لَنَا يَوْمًا بَجَنْبِ عُنَيْزَةٍ .. وَقَدْ حَانَ مِنْهَا رَحْلَةٌ فُكْلُوسٌ (٥)

بِأَسْوَدٍ مُلْتَفِّ الْفَدَائِرِ وَارِدٍ .. وَذِي أَشْرِ (٦) تَشَوْفُهُ (٧) وَتَشَوْصُ (٨)

(٩)

ويصف أصابع محبوبته بالنعومة ويشبهها بمساويك الاسحل :

(١) الأصمعيات : ١٨٦ .

(٢) واكنات : جالسات مطمئنات ، يقضمن : من القضم وهو الاكل بأطراف الاسنان

والضرروس . قضب : جمع قضيب يريد بها أعواد السواك . الضرم : شجر طيب

الرائحة .

(٣) ديوانه : ص ٦٥ تحقيق محمد عبدالقادر أحمد ، ط دار الكتاب الجديد ١٩٦٨

(٤) ديوانه : ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٥) فكلوس : أى بعد وذهاب .

(٦) ذو أثر : يعنى الثغر ، والتأشير تحديد اطراف الاسنان .

(٧) تشوفه : تجلوه .

(٨) تشوص : تستاك .

(٩) ديوانه : ص ١٧ .

وَتَعْطُوهُ بِرُخْصٍ غَيْرِ شَنْ كَأَنَّهُ . . . أَسَارِيْعٌ طَبِيٌّ أَوْ مَسَاوِيْكُ إِسْحَاجِلٍ (١)

ومثله النابغة الذبياني في وصف المتحررة - زوجة النعمان - في قوله (٢)

تَجَلُّوْ بِقَادِ مَتَى حَمَامَةٍ أَيْكَةٍ . . . بَرْدًا أَسْفَلِثَاتَهُ بِالْإِثْمُودِ (٣)

وأخيرا فهذا المخيل السعدي يقول في وصفه للقينة أنها تجرى السواك على أسنانها

المفلجة كما أنها عفيفة : (٤)

تَجْرِي السَّوَاكَ عَلَى غُرِّ مَفْلَجَةٍ . . . لَمْ يَفْرَهَا دُنُسٌ تَحْتَ الْجَلَابِيْبِ (٥)

وفي تقديرى أن ما للسواك من فوائد كان ذا أثر في المحافظة على بقاءه واستعماله

بين العرب ، إذ هو منظف للأسنان ومطهر للفم .

(١) الششن : الغليظ الجافي .

أساريع : دواب بيض تكون في الرمل ولعله من ديدان الأرض . ، طبي : المراد به أسم رطبه ، والمراد أنه شبه نعمة أصابعها وبياضها بهذا الدود أو مساويك الاسحل البيضاء .

(٢) ديوانه : ٠٩٧ .

(٣) تجلو : تظهر وتصلق وأراد تستاك . * قادمى حمامة * شبه أصبعيها في الطول وسواد الحناء عليهما حين تأخذ بهما السواك بقادمى جناح الحمامة ، وهما الريشتان اللتان في مقدم الجناح وهما سوداوان في هذا الحمام عند الشاعر أيكه : هي الغيضة من الشجر الملتف بعضه على بعض .

بردا : أراد أسنانها مثل البرد .

(٤) المفضليات : ٠١٢٠ .

(٥) الغرّ : البيضاء ، يعنى الثنايا . المفلجة : ذوات الفلج وهو تباعد ما بينهما

لم يفرها : لم يلصق بها ، يريد أنها عفيفة .

ثانيا : الصلاة :

يعتبر التقرب إلى الآلهة والخضوع لها ودعاؤها من مظاهر الأديان عامة على اختلاف معبوداتها ، ولا شك أن الجاهليين كان لهم نصيب من هذا مع معبوداتهم ، بل قد ذبحوا لها وتمسحوا بها طلبا لحصول الخير ودفع الضرر .

وقد دلت الأخبار على وجود صلاة عند الجاهليين ، وليس مرادنا أنها كصلاة المسلمين ، بل المقصود أنهم عرفوا " الصلاة " على هيئة مخالفة للصلاة عند المسلمين .^(١)
وفي القرآن الكريم " وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية " ^(٢)

والذي يعلم من نهى الاسلام عن الصلاة في أوقات النهى لما في ذلك من مشابهة لسجود الكفار ففي الحديث عن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا نبي الله أخبرني عن الصلاة ؟ قال : " صل صلاة الصبح ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس وترتفع ، فانها تطلع بين قرني شيطان ، وحينئذ يسجد لها الكفار ، ثم صل فان الصلاة مشهودة محضوره حتى يستقل الظل بالرمح ثم أقصر عن الصلاة فانها حينئذ تسجر جهنم ، فاذا أقبل الفیء فصل فان الصلاة مشهودة محضوره حتى تصلى العصر ، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب فانها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار " ^(٣) والذي يستشف من هذا أن هناك سجودا في صلاة الكفار وإن فهم من الآية ان بها صغيرا وتصفيقا .

ثم إننا نجد في الجاهليين من كان يقوم بصلاة ، ولا نستبعد أن يكون الحنفاء منهم

(١) هذا مانعيل اليه وان كان هناك من يرى أن لفظه الصلاة اسلامية . وانظر تاج

العروس " صلا " ١٠ / ٢١٣ .

(٢) الانفال : ٣٥ .

(٣) تطلع بين قرني شيطان . قال النووي : يدني رأسه إلى الشمس في هذه الاوقات

ليكون الساجدون لها من الكفار ، كالساجدين له في الصورة وحينئذ يكون له ولشيئته تسلط ظاهر وتمكن من أن يلبسوا على المصلين صلاتهم فكرهت الصلاة حينئذ صيانة لها كما كرهت في الاماكن التي تأوى اليها الشياطين . مشهودة محضوره : تشهدا وتحضرها الملائكة .

يستقل الظل بالرمح : أن يكون الظل جانب الرمح فلا يبقى على الارض منه شيء وهذا يكون حين الاستواء . والحديث رواه أحمد : ٤ / ١١١ .

حتى ولو لم تتضح لهم كيفية الصلاة كيف تكون . وفي الصحيح عن " عبادة بن الصامت " قال : قال " أبوذر " يابن أخى صليت سنتين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال : قلت : فأين كنت توجه ؟ قال : حيث وجهنى الله . (١)

والذى تراءى لنا من صلوات الجاهليين ووقفنا عليه أنه كانت له صلاة على العموم كما ذكرنا وان فسرت بالدعاء عند علماء اللغة فان الدعاء هو أعظم ما فى الصلاة إذ هو روحها ، ومن تلك الصلوات : الصلاة على الميت ، وصلاة الاستسقاء .

ومما ورد من شعر الجاهليين فى صلاتهم :

تركتُ المدام وعزقُ القيان . . . وأدمنتُ تصلياً وابتهاً (٢)

ونرى الاعشى فى قصيدته التى مدح بها " الرسول " يوصى بالصلاة فى الصباح والمساء :

وصل على حين العشيات والضحى . . . ولا تحمدر الشيطان والله فاحمداً (٣)

وغير بعيد أن تكون بنت أعشى قيس كانت تدعوه فى صلاتها عندما أراد السفر وقد أرسلت له من يثنيه عن سفره فأبى فلجأت الى الدعاء له بالسلامة مما تخشاه عليه ، وقد صور لنا ذلك بقوله : (٤)

تقول بنتى وقد قرئت مرتحلاً . . . يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا

واستشفعت من سراة الحى ذا شرف . . . فقد عصاها أبوها والذى شفعاً

مهلاً بنتى فإن المرء يبعثه . . . هم إذا خالط الخيروم والضلعا

عليك مثل الذى صليت فاعتصنى . . . يوماً فإن لجنب المرء مضجعاً (٥)

(١) صحيح مسلم بشرح النووى : ٣٣ / ١٦ .

(٢) تاج العروس : ٢١٣ / ١٠ ، وقد أورد هذا البيت محتجا به على من زعم أن (تصليه)

لا تأتى من الفعل (صلى) ، وتصليه أى صلاة وقال ان البيت من الشعر القديم .

(٣) ديوان الاعشى الكبير : ١٨٧ . وفى بعض المراجع (سبى) محل (صل) وهى

بمعناها إذ كانوا يقولون سبى أى صلى . وانظر لسان العرب (سبى) ٤٧٣ / ٢

(٤) ديوانه : ١٥١ .

(٥) الخيروم : وسط الصدر ما يضم من الحزام . والضلعا : الاضلاع .

ونجد " زيد بن عمرو بن نفيل " - أحد الحنفاء - كان يتوجه في صلاته الى الكعبة
ويروى أنه كان يقول : (١)

لبيك حقا حقا ، تعبدا ورقا ، البر أرجولا الخال ، وهل مهجر كمن قال (٢) ثم
يقول :

عَدْتُ بِمَا عَاذَ بِهِ اِبْرَاهِمُ . . . سَتَقْبِلُ الكَعْبَةَ وَهُوَ قَائِمٌ
يَقُولُ أَنْفَى لَكَ عَانَ رَاغِمٌ . . . مَهْمَا تُجَشَّمْنِي فَإِنِّي جَاشِمٌ (٣)

ثم يسجد

ويروى أن رجلا جاهليا من كلب ، قال لأبيه : (٤)

أَعْمَرُوْا إِنِّ هَلَكْتُ وَكُنْتُ حَيًّا . . . فَإِنِّي مَكْتَرُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي
وَأَجْعَلُ نِصْفَ مَالِي لَابْنِ سَلْمَى . . . حَيَاتِي إِنِّ حَيِّتُ وَفِي مَاتِي

وقد كانت العرب تكفن موتاهم ، ويصلون عليهم . وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على
سرير ثم يقوم وليه فيذكر محاسنه كلها ويشئى عليه ثم يقول : عليك رحمه الله ثم يدفن . (٥)

وما ورد من شعرهم في الكفن قول الاعشى سميا الكفن بالجنن

وهالكِ أَهْلِ يَجْنُونُوهُ
كأخَرَ فِي قَفْرَةٍ لَمْ يَجْنُنْ (٦)

وقال امرؤ القيس :

على حرج كالقري يحمل أكفاني (٧)

(١) الاغانى : ٣ / ١٢٤ .

(٢) البر : الطاعة والخير . الخال : الخيلاء . المهجر : السائر في الهاجرة
أى المبكر بعد الزوال . قال : أقام في القائلة وهي الظهيرة .

(٣) عان : خاضع مطيع .

(٣) جاشم : أى قائم بالامر ومتكلفه على مشقته .

(٤) المحبر : ٣٢١ .

(٥) السابق ٣٢١

(٦) ديوان الاعشى الكبير ص ٦٥ .

(٧) اللسان ج ١٣ ص ٣٥٨ - كفف .

اما الاستسقاء فقد كان من عادة أهل مكة * أنهم اذا أجدبوا وقحطوا واشتدت بهم الحاجة ، خرج من كل بطن منهم رجل ، ثم يفتسلون بالماء ويتطيون ، ثم يلتصون الركن ويظوفون بالبیت العتيق سبعا ، ثم يرقون أبا قبيس فيتقدم رجل منهم ، يكون من خيارهم ، ومن رجال الدين فيهم ، ممن يتبركون به ، فيدعو الله ويستغيث ، طالبا الرحمة والغوث بالمتوسلين اليه . ويذكرون أن عبدالمطلب كان ممن استسقى لأهل مكة ولغيرهم مرارا* (١) وقد وردت لهم اشعار في ذلك (٢)

ومع ذلك فقد كان لهم أمر ابتدعوه في استسقاتهم ، فقد جاء أن عرب الجاهلية ، كانوا اذا تتابعت عليهم الازمات ، واشتد الجذب ، واحتاجوا الى الامطار ، جمعوا بقرا ، ثم يعقدون ويعلقون بها حطبا من شجر السلع والعشر ، ثم يصعدون بها الى جبل وعر ، ويشعلون فيها النار ، ويضجون بالدعاء والتضرع في طلب السقيا ، وكانوا يرون ذلك من أسباب نزول الغيث. (٣) وقد صور ذلك * أمية بن أبي الصلت * فقال : (٤)

سِنَّةٌ أَزْمَةٌ تُخِيلُ بِالنَّوَا .. سِ تَرَى لِلعِضَاهِ فِيهَا صَرِيْرَا
 إِنْ يَسْفُونَ بِالدَّقِيقِ وَكَانُوا .. قَبْلُ لَا يَأْكُلُونَ خَبْرًا فَطِيْرَا
 وَيَسْوِقُونَ بِأَقْرَسِ السَّهْلِ لِلطَّو .. دِمَهَازِيلَ خَشِيَّةٌ أَنْ تَبُوْرَا
 عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَنْ .. نَابِ عَمْدًا كَيْمَا تَهَجَّ البُحُوْرَا
 فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِم .. ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيْرٍ صَبِيْرَا
 فَرَأَاهَا الْإِلَهَ تَرْتَدُّ شَمَّ بِالْقَطِّط .. رِ وَأَمْسَى جَنَابُهُمْ مَطَّوْرَا
 فَسَقَاهَا نَشَاطَةً وَكَفَّ الْعَمِيْر .. سِتِّ مَنَّةٍ إِنْ رَادَعُوهُ الْكَبِيْرَا
 سَلَعٌ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرٌ مَ .. عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ البَيْقُوْرَا (٥)

(١) السيرة الحلبية : ١/١٨١ .

(٢) دلائل النبوة ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي . تحقيق د . عبدالمعطي

قلعجي . ط دار الكتب العلمية . بيروت سنة ١٤٠٥ ، ص ١٧ - ١٩ .

(٣) الحيوان : ٤/٤٦٦ ، نهاية الارب في فنون الادب : ١/١٠٩ ، ١١٠ .

(٤) ديوانه : ٣٩٧ - ٣٩٩ .

(٥) العضاة : أعظم الشجر وما عظم وطلال منها . يسفون : يأخذون الدقيق أكلا غير =

ويقول الورل الطائي ساخرا من ذلك الفعل: (١)

لا دَرْدُرُ رُجَالٍ خَابَ سَعِيهِمْ .. يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعُشْرِ

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُورًا مُسَلَّمَةً .. ذَرِيعةٌ لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ (٢)

ويذكر العباس بن مرداس السلمى (٣) استسقاءهم في الجاهلية ، وأنهم كانوا يختارون

أفضلهم حسبا ممن يرجى الخير على يديه ، ويشبه هؤلاء الرجال بوفد عادالذين

أرسلوهم ليستقوا لهم ، يقول: (٤)

= معجون ، والسفوف : اقتماح كل شيء يابس . الفطير : ما عجل خبزته من ساعنة ،

ولم يترك حتى يختمر . باقر : أى البقر . الطود : الجبل . مهازيل : أى ضعاف

نحاف ، هزلتها الازمة .

الشكر : جمع شكير : وهو الشعر القصير بين الشعر الطويل . تهيج البحور :

أى تثيرها .

كلها : اما كل الاذنان ، أو كل البقر . الصبير : السحاب يثبت يوما ولييلة

ولا يريح ، كانه يصبر أى يحبس . رآها : أى الارض . ترشم : ارشمت

الارض أى بدا نباتها .

القطر : المطر . النشاص : السحاب المرتفع .

واكف الغيث : أى الهاطل من المطر الغزير .

السلع والعشر : ضربان من الشجر .

عالت : أى حملت حملا ثقل عليها فهو عائل : أى ثقيل : والمعنى أن البقر

اثقلت بما حملته من السلع والعشر .

البيقور : أى البقر ويقال أيضا : بقروياقر وبقير وياقور وياقورة وكلها اسماء

للجمع .

(١) الحيوان : ٤٦٨/٤ ، نهاية الارب فى فنون الادب ١/١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) سلعة : أى وضع فى اذنانها وعراقيبها من حطب السلع .

(٣) العباس بن مرداس السلمى : شاعر مخضرم ، ممن حرم الخمر على نفسه ، وهو

ابن الخنساء الشاعرة ، وكان من سادات قومه ، اسلم ، وكان من المؤلفين

قلوبهم وهو فارس العبيد - حصانه - مات فى خلافة عمر . وانظر فى ترجمته :

تهذيب التهذيب ٥/١٣٠ ، طبقات ابن سعد : ٤/١٥ ، خزنة الادب : ١/١٥٢

(٤) ديوانه : تحقيق يحيى الجبورى ط (١٣٨٨) وزارة الثقافة والاعلام - العراق .

في كلِّ عامٍ لنا وفدٌ نُسَيِّرُهُمْ .. نَخْتَارُهُمْ حَسْبًا مِنَّا وَأَحْلَامًا
 كانوا كوفدٍ بني عادٍ أضلَّهُمْ .. قَبِيلٌ فَاتَّبَعَ عَامٌ مِنْهُمْ عَامًا
 عادوا فلم يجدوا في أرضِ قومِهِمْ .. إِلَّا مَفَانِيهِمْ فَفَرَّوْا وَآرَامًا^(١)

والذي يدل عليه قول أبي طالب فيما صح لابن هشام من قصيدته - أنهم كانوا يستسقون
 الله ببركته عليه الصلاة والسلام فيقول :^(٢)

وأبيضٌ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ .. شِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(٣)
 يلونُ به الهَلَّافُ من آلِ هَاشِمٍ .. فَهَمَّ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلِ^(٤)

(١) وفد عاد : هم الذين ذهبوا يستسقون لقومهم المطر عندما أجذبوا ، وكانت
 العرب تضرب بها المثل فيقولون الا تكن كوافد عاد ، يريدون في الاتيان
 بالشر والبلاء . ولهذا الوفد قصة في هلاك عاد . وانظر البداية والنهاية :
 ١٢٦/١ وما بعدها .

مفانيهم : المنازل التي كان بها أهلها . آرام : أي مستأصلة .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٧٦/١ .

(٣) شمال اليتامى : أي ملجأهم ومغيثهم والقائم بأمرهم .

(٤) الهَلَّافُ : هَلَّوْفٌ مفردٌ وهو العجوز الكبير المسنن ، والمراد الضعفاء والفقراء .

(١)
ذلك :

والله لا يذ هبُ شيخى باطلا .. حتى أبيه مالكا وكاهلا

القاتلين الملك الحلاحلا .. خير معد حسبا ونائلا

ولما نال من بنى أسد - قتله أبيه - بمن كان معه من حمير ومن تبعه ممن طالبهم نضرته
من القبائل ، ورأى أنه بر يقسمه ووفى بنذره قال فى ذلك : (٣)

قولا لِدَوْدَانَ عبيد العصا .. ما غزكم بالأسد الباسل

قد فرت العينان من مالك .. ومن بنى عمرو ومن كاهل

ومن بنى غنم بن دودان إذ .. نقدف أعلاه على السافل

نطعنهم سلكى ومخلوجه .. لفتك لامين على النابل

إذ هن أقساط كرجل الدبا .. أو كظا كاظمة التأهل

حتى تركناهم لدى معرك .. أرجلهم كالخشب الشائل

حلت لي الخمر وكنت امرأة .. عن شربها فى شغل شاغل

فاليوم أسقى غير مستحقب .. إثمًا من الله ولا واغل (٤)

(١) ديوانه : ١٣٤ والقصة فى الاغانى : ٨٧ / ٩ وما بعدها .

(٢) كاهل : أبو فخذ من بنى أسد ، الحلاحلا : السيد الكريم .

(٣) ديوانه : ١١٩ - ١٢٢ ، وانظر شعراء النصرانية : ١٨ .

(٤) عبيد العصا هم بنو أسد وسبب التسمية فيما روى أن حجرا والد امرئ القيس

كان فى بنى أسد ، وله عليهم اتاوة فى كل عام ، وفى سنة من السنين أبت بنو

أسد ذلك . وضرىوا جباته ، فلما علم حجر بذلك سار اليهم بجيش فهزمهم

وأخذ ساداتهم فجعل يضربهم ويقتلهم بالعصا فسموا عبيد العصا . وانظر

الاجانى ٨٢ / ٩ ، ٨٣ . قرت عينه : اذا رضى واستراح مما كان يتجشمه ويخشاه .

يروى فى البيت (كرك ، رذك) بدل لفتك ، السلكى : الطعنة المستقيمة

مخلوجه : أى تصرف مرة كذا ومرة كذا حتى يصح صوابه . والمعنى : يذ هب

الطعن فيهم ويرجع كما ترد سهمين على رام رمى بها .

هن اقساط : أى الخيل قطع وفرق . رجل الدبا : القطعة من الجراد

كاظمة : موضع قرب البصرة مما يلي الخليج . الخشب الشائل : الملقى بعضه على =

و" عنتره العبسي " يخاف أن تدركه العنية ولما يدر الدائرة على خصومه - بنى ضمضم -
وقد كانوا معتدين عليه ، ان شتموه ولم يكن سبهم ، وأندروا دمه عندما لا يجد ونسه
يقول في ذلك : (١)

ولقد خَشِيتُ بَانَ أَموتَ وَلَمْ تَدُرْ . . . لِلحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمِ
الشَّامِي عَرَضِي وَلَمْ أَشْتَمَهُمَا . . . وَالنَّازِرِينَ إِذَا لَمْ أَقْبَهُمَا دَمِي
إِنَّ يَفْعَلًا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا . . . جَزْرَ الخَامِعَةِ وَنَسْرَ قَشْعَمِ (٢)

وذا " زهير " يمدح فتية بوفائهم ما نذروا ، كما أنهم كرما ، يقدمون شواء اللحم للضيف
والمحتاجين ، كما أن هؤلاء الفتية يسرفون في شرب الخمر ، وهم سادة مخدمون ولكن
هذه الخمر لا تذهب بأحلامهم فلا تغير حميد صفاتهم ، يقول : (٣)

قَدْ أَشْهَدُ الشَّارِبِ المَعْدِلَ لَا . . . مَعْرُوفَةٌ مُنْكَرٌ وَلَا حَصْرٌ
فِي فَتْيَةٍ لَيْتَنِي المَآزِرُ ، لَا . . . يَنْسُونَ أَحْلَامَهُمْ إِذَا سَكَّرُوا
يَشُوونَ لِلضَّيْفِ والعُقَاةِ وَيَسُوونَ . . . فَوْنُ قِضَاءِ إِذَا هُمْ نَذَرُوا (٤)

ونرى " عبد قيس بن خفاف " يوصي ابنه (٥) بتقوى الله والوفاء بالنذر ، كما يحثه على

= بعض فترتفع أطرافه ، يشبه أرجل القتلى وقد انتفخت وامتدت به . مستحسب :
محتمل ومستحق . الواغل : الداخل في القوم يشربون ولم يدع .

(١) ديوانه : (٢٢١ ، ٢٢٢) .

(٢) ابنى ضمضم : (حصين ومرة من تبيان من بنى مرة .

الجزر : اللحم المجزور . الخامعة : الضبع سمي بذلك لانه يخمع في مشيته
أى يضلح . القشعم : السن .

(٣) ديوانه (العلم) : ٢٤٤ .

(٤) المعدل : الذي أكثر الناس عدلة ولومه ، لاستهتاره بالخمرة . لامعروفه منكر :

أى لا تسوء أخلاقه في حالة سكره . الحصر : البخيل الذي لا يتفق مع القوم .

ليتني المآزر : أى ثيابه لينة كريمة ، لا يشدها للعمل ، فله من يخدمه ، والمعنى :
هم سادة أشرف مخدمون . العقاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .

(٥) هو من بنى عمرو بن حنظلة من البراجم ، يروى أنه حمل دية من قومه فأسلموه

فأتى حاتما الطائي فحملها عنه . وانظر معجم الشعراء للمرزبان : ٣٢٥ ، والشعر
والشعراء : ١٦٥ / ١ .

الاستثناء في قسمه عند المجادلة أو يخرج من يمينه بما يحللها له .

اللَّهُ فَاتَّقِهِ وَأَوْفِ بِنَذْرِهِ . . . وَإِذَا حَلَفْتَ مَارِيًّا فَتَسْحَلِ

ومن الوفاء بالنذر أن عمرو بن كلثوم حلف لا يذوق دسما حتى يموت وقال : (٢)

مَعَاذَ اللَّهِ يَدْعُونِي لِحِنْتٍ . . . وَلَوْ أَقْفَرْتُ أَيَّامًا قَتَلَارَا

وذا جرات العود يذكر في شعره النذر حيث قال : (٣)

وَجَدْتُ بِشَاشَةً لَمَّا التُّقِينَا . . . لِأَقْضَى مَا عَلَيَّ مِنَ النَّذْرِ

(١) المفضليات : ٣٨٤ ، الاصمعيات : ٢٢٩ .

(٢) المحبر ص ٤٧١ وانظر القصة فيه .

(٣) نيل الامالى للقالى ص ١٠٢ .

رابعاً : الاشهر الحرم وتعظيم مكة وشعائر الحج :

تعد مكة من أشهر البقاع التي يعرفها العرب ، وكانت من أكبر مراكز العرب التجارية ، كما أنها أعظم بلادهم قداسة وشرقاً ومهابة . ان فيها الكعبة المشرفة التي تعظمها وتطوف بها العرب من عهد خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - كما انها محط رحالهم ، ومقصد هم ، يتوجهون اليها في كل عام ، ويقضون بها فترة من الزمن ، ويؤدون بها كثيراً من المشاعر ، ويحجون فيها ويعتصرون .

وكانت بجانب ذلك مأوى الخائفين ، وأمن المذعورين ، يؤمنونها من نواحي جزيرتهم ويتفخرون بما يعظمونه منها ، ويتنافسون في شرف القيام بها .

ولما كانت " مكة " بهذه المنزلة من العرب ، فقد كانوا يرون الحج والعمرة من أشهر عباداتهم ، ويؤدون فيها من الشعائر ما ورثوه من دين ابراهيم واسماعيل ، وان أضافوا اليها بعض الامور التي لم تكن منها ، فقد آن لنا أن نتحدث عن هذه العبادة ، وهي الحج والعمرة وما يدخل فيهما .

ولما كان الحديث عن الحج والعمرة مرتبطاً بمكة وقدسيتها عند العرب فاننا سنتحدث عن تعظيم حرمة مكة عندهم وما كان من ذلك ، ولما للحج عندهم من قدسية . كان كثير من العرب يعظم الاشهر الحرم ، ويراهم ذات بال ، مما نجده مقروناً عندهم بالحديث عن الحج .

وكل ذلك سنعرض له في ضوء الطريقة التي تسلكها هذه الدراسة ، حيث تستقى كل هذه الروى مما انبت في شعرهم في هذا النطاق .

أ - تعظيم الأشهر الحرم :

كان من العرب من يعظم الأشهر الحرم ، ومقتضى ذلك عند هم ترك القتال فيها ، حتى كان من وتر بأحد عشيرته لا ينهض لقتل غريمه في أى وقت من هذه الشهور ، وإنما ينتظر انقضاء الشهر الحرام ثم يفعل ما بداله . وليس هذا التحريم عاما في العرب وان عرفه كثير منهم ، فقد كان هناك من لم يكن يقرب ذلك ولا يحرمه ، ولا يعظم حرمة الحرم ، وهذا شأن بعض اللصوص والفتاك ، الذين كانت الغارات والاعتداءات مصدر رزقهم ، وقد ذكرت لنا المصادر من هؤلاء (طيء) و (خثعم) ، وكثير من أحياء قضاة ويشكر والحارث بن كعب . (٢)

ومما يدل على تعظيمهم للأشهر الحرم ، ما حدث في حرب الفجار المشهورة وإنما سميت بذلك لأنها في الأشهر الحرم . (٣)

ويؤكد عمل العرب بهذا التحريم ما ذكره الله بقوله : " ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين .

انما النسبي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم (٤)

فالآيتان تدلان على ما كان يفعله العرب من أمر النسبي ، وذلك أنهم استثقلوا أن تمر بهم ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها لان معاشهم منها ، وهذه الثلاثة هي شهر ذى القعدة وذى الحجة والمحرم . فيحلون المحرم ويستحلون الفارة والقتل فيه ويؤخرون حرمة الى شهر " صفر " فيحرمونه مكانه حتى تكون العدة كاملة كما علموا ذلك من

(١) المحبر : ٣١٩ ، لسان العرب (حرم) : ١٢ / ١٢١ .

(٢) الحيوان : ٢ / ٢١٦ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام القسم الاول ص ١٨٤ .

(٤) براءة : ٣٦ ، ٣٧ .

شريعة ابراهيم - اربعة أشهر - ولذلك قال تعالى " ليواطئوا أي يوافقوا عدة ما حرم الله فيكون ما حرموه موافقا لما حرمه الله تعالى ، وهذا هو النسئ . (١)

وفي قصة وفد عبد القيس عند ما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم - كما في الصحيح - انهم قالوا له : " انا نأتيك من شقة بعيدة ، وبيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، ولا نستطيع أن نأتيك الا فى شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة . (٢)

وعلى الرغم مما احدثوه فى الا شهر الحرم من (نسئ) بقيت الا شهر الحرم عند هم معظمة ، واقتضى هذا أن يكون لهم نساء يشرعون لهم ذلك ويبيّنونه ، وخاصة فى الحج عند ما يفرغون منه ويجتمعون بالنساء حتى ينصرفوا عن بيته . (٣)

وبجانب هؤلاء النساء المحتالين فقد كان من العرب نساء متطعون ، كانوا يجعلون لهم ثمانية أشهر كلها حرم ويعرفونها باليسل ، عرف ذلك العرب ، ومنهم قوم من قيس وغطفان . (٤)

ومما ورد من شعرهم فى ذكر اليسل قول زهير بن أبى سلمى : (٥)

تَرْتَضِ فَإِنْ تَقَوِ الْمُرُورَةَ مِنْهُمْ .. وَدَارَاتُهَا لَا تَقُومُ مِنْهُمْ إِذَا تَخَلُّ
فَان تَقَوِ يَامَنْهُمْ فَإِنَّ مُحَجَّجًا .. وَجَزَعُ الْحِسَا مِنْهُمْ إِذَا قَلَّمَا يَخْلُو

(١) تفسير ابن كثير : ٩١ / ٤ وما بعدها . وما ذكرناه هو المشهور ، وقد قيل فى النسئ غير ذلك ذكره ابن كثير أيضا عند تفسير الآيات . وهذا ضرب من النسئ والاخر تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية ، فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوما أو أكثر قليلا حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته ، ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع : " ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض " ، وكانت حجة الوداع فى السنة التى عاد فيها الحج الى وقته .

(٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ١ / ١٨٣ .

(٣) سيرة ابن هشام : ١ / ٤٤٤ .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ / ٨٦ ، سيرة ابن هشام : ١ / ١٠٢ ، ١٠٣ ، لسان العرب

(بسل) ١١ / ٥٥ .

(٥) ديوانه : (الاعلم) : ٣٤ .

بلادُ بها نادتهم وألفتهم .. فإن تقويا منهم فأنهما بسَل (١)

وقال الأَعشى : ميمون بن قيس : (٢)

أجارتكم بسَل علينا مُحَرَّمٌ .. وجارتنا حل لكم وحليلهم (٣)

ونجد النابغة الذبياني يتخوف أن يموت النعمان بن المنذر عندما علم بثقل مرضه عليه ، ويرى أن الامن الذي ساد الناس بوجود النعمان كأمنهم في الاشهر الحرم ، ان الناس بها آمنون لا يخشون قتلا ولا اعتداءً ، فان هلك النعمان فلا أمن ، كأنهم في شهر حلال .

فإن يهلك أبوقابوس يهلك .. ربيع الناس والشهر الحرام (٤)

وإذا كان النابغة مدح " النعمان " بحفظ أمن الناس ، فقد هجا " الأعشى " رجلا يقال انه أسره ، والمهجو عند الشاعر ليس من أهل الاشهر الحرم وان ذكر شهرا محرما ، وكان من عادة أهل الشهر الحرام أن يعظموه بما يفعلون فيه كما قالوا : " شهر بنى أمية " لشهر ذي الحجة كما سيأتي ، أو (رجب مضر) الذي كانت تعظمه وتكثر فيه من الاكرام

(١) تريض : تلبث ولا تعجل بالذهاب. المروراة : موضع كان فيه يوم المروراة . الدارة

كل أرض واسعة بين جبلين ، نخل : موضع بنجد من ارض غطفان وقيل غيره وانظر معجم البلدان : ١١٢/٥ . تقوى : أى تخلو .

محجرا : موضع ، جزع الحسا : الجزع : منعطف الوادى ويقال جانبه ، والحساء : جمع حسي وهو ماء قد رفع الرمل عنه وقصره هنا ضرورة .

فأنهما بسَل : أى حرام على ان خلت منهم ، وفي سيرة ابن هشام ١٠٣/١ " فان تقويا منهم فأنهم بسَل " . يقول : ساروا في حرمهم .

وقد يأتى البسل فى اللفظة بمعنى الحلال ومنه بيت المتلمس الضبعي :

حنت إلى نخلة الفصوى فقلت لها .. بسَل عليك ألا تلك الدَّهَازيسُ

ديوان المتلمس ص ٨٥ تحقيق حسن الصيرفى ط. معهد المخطوطات. وانظر

اللسان " بسَل " ٥٥/١٤

(٢) ديوانه : ٢٢٥ .

(٣) حليلها : زوجها .

(٤) ديوان النابغة : ٢٣٣ .

والاحتفاء حتى سموه بها . ويقول " الاعشى " ان هذا المهجو أقل شرفا من بنى العبيد
وبنى الشهر الحرام : (١)

بنو الشهر الحرام فلست منهم .. ولست من الكرام بنى العبيد
ونرى " عوف بن الأوص " (٢) يذكر بنى أمية ويسمى شهر الحج بهم ، (وكانت مشايخ
قريش تعظمه فنسبه الى بنى أمية . وخص بنى أمية لتقدمها في فخرها على سائر قريش
في الجاهلية) ، يقول عوف : (٤)

وشهر بنى أمية والهدايا .. إذا حبست مضر جها الدماء
وهذا " زهير بن أبي سلمى " يذكر أن الأشهر الحرم قد انتهت ودخلت شهور الحل ،
ودخل وقت الغزو فليكن لهم رجل ذا عقل ورأى يبرم أمرهم . يقول (٥)

إن الركاب لتبتغي ذا ميرة .. بجنوب نخل إذا الشهور أحلت
فإذا أصيب أحد هم يوتر ثم دخلت عليه الأشهر الحرم انتظروا حتى تنقضي ، ثم يكون
الغزو للنار ، هذا تأبط شرا يتوعد العوص من يجهله بقتالهم عند انسلاخ الأشهر
الحرم ، مع ما عرف به من الصعلكة وكثرة الغارات ، وكان قد خرج مع رفاق له فأغاروا
على العيص ، فأخذوا بعض نعمهم ، ولكنهم اتبعوهم فأدركوهم ففروا وقتلوا أحد أصحابه
يقول : (٦)

لنعم الفتى ثلثم كان رداؤه .. على سرحه من سرح دومة شانيق

(١) ديوانه : ٢٢٩ .

(٢) هو عوف بن ربيعة بن جعفر بن كلاب . والأوص لقب أبيه ، ويكنى أبا يزيد ، شاعر
جاهلي ، شهد يوم شعب جبلة ، شهد يوم شعب جبلة ، وهو شيخ كبير فقام
بتدبير أمر قومه . وانظر : سمط اللالكى ٣٧٧ ، الحيوان : ١٣٦/٥ .

(٣) شرح المفضليات للتبريزي : ٦٤٣/٢ ، ٦٤٤ .

(٤) المفضليات : ١٧٤ .

(٥) ديوانه : ١٦٣ .

(٦) الاغانى ج ٢١ ، ص ١٣٨ .

فَعَدُّوا شَهْرَ الْحُرْمِ ثُمَّ تَعَرَّفُوا . . قَتِيلَ أَنَسٍ أَوْ فَتَاةً تُعَانِقُ (١)

وقد كان شهر رجب يحظى بتعظيم وحرمة كبيرة عند الجاهلية حتى قالوا " فإذا دخل شهر رجب قلنا : منصل الأسنة ، فلا تدع رمحا فيه حديدة ، ولا سهم فيه حديدة الا نزعناه وألقيناه شهر رجب " . (٢) وسموه أيضا (منصل الأل) ، والأل : الاسنة وانما سموه بذلك لانهم ينصلون أسنة الرماح ، أى ينزعونها ، يقول الاعشى :

فَأَعْطَاهُ حِلْسًا غَيْرَ نَكْسٍ أَرِيَّهُ . . لَوْ لَمَّ بِهِ أَوْفَى وَقَدْ كَادَ يَذْهَبُ
تَدَارَكُهُ فِي مُنْصِلِ الْأَلِّ بَعْدَمَا . . مَضَى غَيْرُ دَأْدَاءٍ وَقَدْ كَادَ يَعْطَبُ (٣)

وأخيرا نجد " جذل الطعان " (٤) يفخر بانه من النسأة على العرب ، وهم الذين كانوا

(١) سرحة : مفرد سرح وهو شجر كبير عظام طوال ، يشبه الرجل به فى تمام خلقتة وطول قامته . المعنى : سوف أمهلكم حتى تنتهى الا شهر الحرم ، ثم أغزوكم حتى لن يمكنكم أن تتبينوا ماجرى لكم ، وتميزوا بين قتلكم ومن سلبت نساءه منكم .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخارى : ٩٨

(٣) الحلس : القدح الرابع فى الميسر وكان الرجل ربما أكرم ضيفه بأن يهبه السهم من السهام فى الميسر فيكون له ربحه ، غير نكس : غير مكسور الرأس . أريته : جمعه وألزمه . لوأما : يقال سبهم لأم عليه ريش لوأم أى يلائم بعضه بعضا . وكان السهم اذا انكسر جبروه وربطوه لأنه عزيز عليهم . أوفى : وفى به وأنجزه وقد كاد يذهب أى الضيف الذى أعطاه السهم .

منصل : اسم فاعل من انصل أى نزع ، الأل (بتشديد اللام) الحديدة المسننة التى تكون فى رأس السهم ، ومنصل الأل : شهر رجب ، كانوا ينزعون فيه الأسنة من الرماح لأنه شهر حرام لا يقاتل فيه . الدأداء : واحدة الدأدىء وهى الثلاث الليلية من آخر الشهر ، وقيل هى الليلة التى يشك فيها أمن الشهر الماضى أم الداخل . العطب . التلف . ومعنى البيتين سخرية بحارثة بن وعلسة الذى أعطى جاره القدح وهو على وشك الرحيل ، وقد ذهب الشهر الحرام الذى يمنعهم من قتل هذا الطريد الذى أجاره .

(٤) جذل الطعان هو عمير بن قيس أحد بنى فراس بن نعمن وانما سمي بذلك لثباته فى الحرب كأنه جذل شجرة واقف ، وقيل لانه يستشفى برأيه كما تستريح الجرباء الى الجذل فتحثك به . معجم الصحراء ٢٤٣

ينسأون الشهور على العرب ، فيحلون الشهر من الا شهر الحرم ويحرمون مكانه آخر
من أشهر الحل ويؤخرونه ، كما يفخر أيضا بشرف قومه وشجاعتهم : (١)

لقد علمت معداً أن قومى . . كرام الناس أن لهم كراما
فأى الناس فاتونا بوتوس . . وأى الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسين على معد . . شهور الحل نجعلها حراما ؟ (٢)

ومن تعظيمهم للحرم أن يقسموا بربه كما قيل :

قتلوا كليباً ثم قالوا ارتعوا . . كذبوا وربّ الحلّ والإحرام (٣)

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٤٥ ، معجم الشعراء : ٢٤٣ .

(٢) أى أبا كرام وأخلاقا كراما ، الوتر : طلب النار . لم نعلك لجاما يريد لسم
تغد عنهم ونكفهم كما يقزع الفرس باللجام .

نقول اعلكت الفرس لجامه اذا رددته عن تنزعه فمضع اللجام كالعلك من نشاطه .

(٣) شعراء النصرانية ٢ / ١٧٥ والبيت لمهلل أخو كليب ابني ربيعة .

ب - تعظيم حرمة مكة :

كان كثير من العرب يعرف لمكة قدسيتها ويعظمها ، ويرى أنها بلد حرام ، لا تسفك فيه الدماء ولا يحل الغزو والظلم فيها ، وانما يستثنى من هؤلاء من روى أنهم لا يعرفون للشهر الحرام ولا لمكة حرمة ولا تعظيماً ويستحلون فيها البغي والعدوان كطيء وخثعم .^(١) وحسبنا دليلاً على ذلك ما ورد في القرآن الكريم ، فقد أشار الى ذلك في غير موضع ، منها قوله تعالى " وان جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً . . ." ^(٢) ، وقوله عز وجل " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . ." ^(٣) ، ومنها أيضاً " أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم " ^(٤) ، وقوله تعالى " أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب اليه ثمرات كل شئ رزقاً من لدنا . . ." ^(٥) .

ويفهم من هذه الآيات أن مكة بلد آمن وأن العرب تعرف ذلك لها وذلك تعظيماً لحرمتها . جاء في معنى قوله تعالى " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد " أنها " حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرّ ثم لجأ الى الحرم لم يتناول ولم يقرب . وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقرب . وكان الرجل اذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحتمه ومنعته من الناس حتى يأتي أهله ، حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية " ^(٦) .

والذي تدل عليه كثير من المصادر أن من سنة الجاهليين اذا أحدث الرجل حدثاً ثم لجأ الى الحرم لم يهج ، وكان اذا لقيه ولى الدم في الحرم قيل هو ضرورة فلا تهجه ، فلما جاء الاسلام أخذ القاتل وقتل وتقطع يده ولا يمنع الحرم من ذلك .^(٧)

(١) أيمان العرب في الجاهلية : ١٢ .

(٢) البقرة : ١٢٥ .

(٣) المائدة : ٩٧ .

(٤) العنكبوت : ٦٧ .

(٥) القصص : ٥٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٩٣ / ١١ .

(٧) النهاية في غريب الحديث : ٢٢ / ٣ ، تفسير ابن كثير : ٩٠ ، ٨ / ٣ ، الجامع

لاحكام القرآن : ٣٠٠ / ١٣ ، كُضِبَارِ مكة للازرقى : ١٣٩ / ٢ ، ١٤٠ .

وقد ورد في أشعار الجاهليين ما يؤيد ذلك ، فمن مظاهر تعظيمهم للحرم القسم
بالبيت ان هو ركيزة الحرم ، فهذا زهير يقول : (١)

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ . . . رَجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمِ

(٢)

وهذا عوف بن الاحوص يقسم بالبيت والمشاعر :

وَإِنِّي وَالَّذِي حَجَّتُ قُرَيْشًا . . . مَحَارِمَهُ وَمَا جَمَعَتْ حِرَاءُ

وشهر بنى أمية والهدايا . . . إِذَا حُبِسَتْ مُضْرَجُهَا الدَّمَاءُ

ونرى النابغة يقسم بالبيت الذي يتوسع به وبما يذبح على الانصاب ، ثم يشير الى

أمن الطير العائذة بالحرم ان لا تغزع من الركبان الذين يفدون ويقتربون منها : (٣)

فَلَا لَعَمْرُو الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ . . . وَمَا هُرِيقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ

وَالْعُؤْمُنُ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَمَسُّحُهَا . . . رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّنَدِ (٤)

وهذا أحد سادات قريش يخاطب صاحبها له يسمى (أبو مطر) ويرغبه الى العيش معه

في مكة التي من أسمائها صلاح ، حيث يعيش فيها مع ندمائها آمنًا لا يخاف أن يغزوه

جيش ان لا يقدم أحد على غزوها مهابة أن يصيبه عقاب الله ، ومكة بلد لا يخضع لحكم

أحد ولا سيطرته فيرغبه الى الامن والحرية ، يقول : (٥)

أَبَا مَطْرٍ هَلُمَّ إِلَى صَالِحٍ . . . فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قُرَيْشٍ

وَتَأْمَنُ وَسَطَهُمْ وَتَعِيشُ فِيهِمْ . . . أَبَا مَطْرٍ هُدَيْتَ بِخَيْرِ عَيْشٍ

(١) ديوانه : (العلم) : ١٤٠ .

(٢) المفضليات : ١٧٤ ، حراء : جبل بمكة هو الذي فيه غار حراء الذي كان أول

نزول الوحي على نبينا صلى الله عليه وسلم فيه .

(٣) ديوان النابغة الذبياني : ٨٥ ، ٨٦ .

(٤) هريق : لغة في أريق أى سالت الدماء من القرابين . الانصاب : حجارة

الاصنام . الغيل والسند : قال محقق الديوان : جمتان بين مكة ومنى .

(٥) القائل : حرب بن أمية يخاطب أبا مطر الحضرمي ، وقيل هى للحارث بن أمية ،

وانظر لسان العرب (صلح) ١٧٢ / ٢ ، ديوان أمية بن أبى الصلت : ٥٥٢ ،

شعراء النصرانية : ٢٣٥ .

وَتَسْكُنُ بَلْدَةً عَزَّتْ لِقَاحًا . . . وَتَأْمَنُ أَنْ يَزُورَكَ رَبُّ جَيْشِ (١)

ولما كانت العرب لا تعتدى على من تقلد قلادة لأنه يريد الحرم بحج أو عمرة ، وربما

تقلد هذه القلادة من شجر الحرم بعد أدائه مناسكه حتى يصل الى دياره دون أن

يعتدى عليه أنكروا على من اعتدى على من كان مقلدا وعيبروا من أخفروه كما قال الشاعر: (٢)

أَلَمْ تَقْتُلَا الْحَرْجِيْنَ إِذَا أُعْوَرَاكُمَا . . . يَمْرَانِ بِالْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمُضْفَرَا (٣)

ولولا الليل ودخول قريش في الحرم لشد * خدش بن زهير* (٤) وقومه على قريش شدة

صادقة يكون لهم فيها الظفر كما قال: (٥)

يَاشِدَّةَ مَا شَدَدْنَا غَيْرَ كَانِبَةٍ . . . عَلَى سَخِيئَةِ لَوْلَا اللَّيْلِ وَالْحَرَمِ (٦)

(١) صلاح : على وزن قظام اسم من أسماء مكة المكرمة ، الندامي : جمع نديم وهو

الذي يرافقك ويشاركك ، القاح : أى لم يدنوا للملوك ولم يملكوا .

(٢) هو خديفة بن أنس الهذلي . كما فى ديوان الهذليين : ١٩ / ٣ ، وانظر أيضا

تفسير الامام الطبرى : ٤٧٠ / ٩ (ط محمود شاكر) .

(٣) الحرجان : مثنى حرج (بكسر الحاء وسكون الراء) وهى الودعه التى يتعلقونها

من شجر ونحوه دلالة على قصد الحرم أو العودة منه . وعنى بالحرجين الرجلين

أعوراكما : أى أمكنكما من أنفسهم ، يقال أعور الفارس : اذا بدا فيه موضع

خلل للضرب .

يمران : يفتلان ، من أمر الحبل اذا فتلته ، اللحاء : قشر الشجر ، المضفرا :

الذى صنع على هيئة ضفائر .

(٤) خدش بن زهير بن ربيعة من بنى عامر ، شاعر جاهلى من شعراء قيس المجيد بين

شهد حروب الفجار وسجل كثيرا من حوادثها وكان يفخر بجده عمرو المقلب

بفارس الصخيا . وانظر الاغانى : ٦٠ / ٢٢ - ٧٤ ، حماسة ابن الشجرى : ٣١ ،

الشعر والشعراء : ٦٤٥ / ٢ .

(٥) الاغانى : ٦٠ / ٢٢ .

(٦) الشدة : يريد بها الهجوم . سخيته : اسم يطلق على قريش وانما سميت به لانهم

يكترون أكلها ، وهى طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقعة^{سبي} وفوق الحساء

وقيل تعمل من دقيق وسمن . والمعنى أننا هجمنا على قريش هجمة صادقة ، ولم

ينقد هم منا الا هجوم الليل واعتصامها بالحرم .

ج - الحج والعمرة :

عرفت العرب الحج والعمرة من قديم الزمان ، وترجع هذه الأقدمية الى بنينا الخليل واسماعيل - عليهما السلام - للبيت العتيق ثم دعاء الناس ليحجوا اليه .
وكثير من آيات الله البينات تدلنا على قيام العرب بهاتين الشعيرتين ، وان كانوا قد أ دخلوا فيها بعض المبتدعات . ومن ذلك قوله تعالى " ثم افيضوا من حيث أفاض الناس . . . " (١) لينبه على ما أحدثته قريش من عدم الوقوف بعرفة والاكتفاء بالحرم ، وأن الاسلام يأمر قريشا أن تقف مع الناس بعرفات . وقوله تعالى أمرا من أراد الحج بالاستعداد له من زاد ومتاع وعدم الاقدام على سؤال الناس ، أو أهل مكة لانهم حجاج بيت الله ، ان كان يفعل ذلك بعض العرب فنهى الله عنه " وتزودوا فان خير الزاد التقوى . . . " (٢) . وكقوله سبحانه : " فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكرم آباءكم أو أشد ذكرا . . . " (٣) .

فقد كانوا اذا فرغوا من شعائر الحج تذاكروا وتفاخروا بآبائهم فأمرهم الله بذكره ، وترك تفاخر الجاهلية . الى غير ذلك من الآيات التي تدل على شيء من أمور الجاهليين في الحج ، وحسبنا منها ما أسلفنا .

وسنمضي - بعد النظرة الفاحصة في شعرهم الدال على ذلك - على ترتيب شعائر الحج من أولها حتى آخرها ، ان هو أقرب تناولا لها مع الاشارة الى ما أحدثه الجاهليون في بعضها من المبتدعات .

كان حج الجاهليين يبدأ بإهلالهم عند أصنامهم ان يبدأون بها ويصلون عندها ويلبون (٤) ويسمى ذلك الالهلال ، وهو رفع الصوت بالتلبية (٥) وبه بدءوا منسكهم

(١) البقرة : ١٩٩ .

(٢) البقرة : ١٩٧ .

(٣) البقرة : ٢٠٠ .

(٤) تاريخ اليعقوبي : ١ / ٢٢٥ .

(٥) لسان العرب (هـ) : ١١ / ٧٠١ .

ودخلوا فيه ، وكانوا يسوقون الهدى الى الكعبة ويلبدون شعورهم عند استعدادهم للاهلال كما سنرى ذلك .

أما التلبية فقد كان لكل قبيلة تلبية ، ترتبط بأصنامها وباسمها ، تباير تلبيات الآخرين ومع ذلك فهي مشوبة بالشرك ، ان يشركون الله تعالى مع أصنامهم فيها . وقد ذكرت بعض المصادر كثيرا من هذه التلبيات ، (١) من ذلك :

أن نسك قريش كان لا ساف وأن تلبيتهم : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك ، الا شريك هولاك ، تملكه وما ملك " ، وكانت تلبية من نسك للعزى " لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، ما أحبنا اليك " ، وكانت تلبية من نسك لآلات : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك كفى بيتنا بنية . ليس بمهجور ولا بليه . لكنه من تربة زكية . أربابه من صالحى البرية " . ، ومن تلبياتهم أيضا تلبية قبيلة همدان ان يقولون :

لَبَيْكَ رَبَّ هَمْدَانٌ .. من شاحطٍ ومن دانٍ (٢)

جَنَّاتِكَ نَبْغَى الْإِحْسَانَ .. بِكُلِّ حَرْفٍ مَدَّعَانَ (٣)

نَطْوَى إِلَيْكَ الْغَيْطَانَ .. نَأْمُلُ فَضْلَ الْغُفْرَانِ (٤)

وكانت تلبية بجيلة :

لَبَيْكَ عَنْ بَجِيلَةٍ .. الْفَخْمَةَ الرَّجِيلَةَ (٥)

وَنِعْمَتِ الْقَبِيلَةَ .. جَاءَتْكَ بِالْوَسِيلَةَ (٦)

تُؤَمِّلُ الْغَضِيْلَةَ

(١) انظر ذلك فى المحبر: ٣١٣ - ٣١٥ ، تاريخ اليعقوبى : ٢٢٥ / ١ ، رسالة

الغفران : ٥٣٥ - ٥٣٧ .

(٢) الشاحط : البعيد ، والدان : القريب .

(٣) الحرف : الناقة الضامرة الصلبة ، هذعان : المنقادة السهلة .

(٤) الغيطان : جمع غوط والمراد الاراضى الشاسعة .

(٥) الرجيلة : القوية على المشى .

(٦) بالوسيلة أى تتوسل اليك بعبادتها تلك .

وأما تلبية بكر بن وائل :

لبيك حقاً حقاً .. تَعَبُّدًا وِرْقًا

جئناك للنصاحه .. لم نأت للرقاحه (١)

وقد أشار " الطفيل الغنوي " الى تلبية الحجيج بقوله : (٢)

وربّ التي أشرفن في كل مذنب .. سواهم خوصاً في السريح المخدم (٣)

يزرن إلا لا يُنحبن غيره .. بكلّ ملبٍ أشعث الرأس محرم (٤)

ثم إننا نجد أن الجاهليين كانوا يطوفون بالبيت سبعة أشواط ، غير أن الناس فسى

الطواف كانوا على نوعين : (٥) أحدهما (الحس) والآخر (الحلة)

والحس : هم قريش وما ولدت ، وإنما سموا الحس لتشدد هم في دينهم اذا التحس

هو التشدد في الدين عند أهل اللغة . (٦) وكان تشدد هم على ما روى أنهم اذا زوجوا

امراً لمن كان من الحلة شرطوا عليه أن يكون أولاده منهم - أى من الحس - وكانوا يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم ، وانما أحرموا بالحج لا يأكلون السمن والزبد ، ولا يأتقون

، ولا يلبسون الوبر والشعر ولا يستظلون الا بالأدم ، وكانوا لا يخرجون من الحرم فسى

يوم عرفة ان يقولون لا ينبغى لنا أن نعظم شيئاً غير الحرم من الحل . (٧)

وهؤلاء الحس هم أهل الحرم كما يرون أنفسهم - ويطوفون في ثيابهم .

أما الحلة وهم من سوى الحس ، فقيل : كانوا يطوفون بالبيت عراة الا أن تعطيتهم

(١) النصاحه : الاخلاص ، وقد نصح فلانا ولفلان نصحا ونصاحه أى اخلص له .

الرقاحه : الكسب والتجارة : يقال هو رافحة أهله ، أى كاسبهم . والرقاحسى : التاجر .

(٢) ديوانه : ٧٣ ، ٧٤ .

(٣) مذنب : مسيل ما بين تلعتين . سواهم : الضامرة . خوص : غائرة العيون .

السريح المخدم : نعال الابل التي تشدها السيور .

(٤) لا ينحبن غيره : أى لا يقصدن سواه ، والنحب هو السير السريع .

(٥) وهناك نوع ثالث هم الطلس ، وهم وسط بين الحلة والحس ، وانظر المحبر : ١٧٩ وما بعدها .

(٦) لسان العرب (حس) ٥٧ / ٦ .

(٧) سيرة ابن هشام : ١٩٩ / ١ - ٢٠٣ ، تاريخ مكة : ١٨٠ / ١ ، ١٨١ .

الخمسة ثيابا ، فيعطى الرجال الرجال ، والنساء النساء . . فمن لم يكن له من العرب
صديق بمكة يعيره ثوبا ، ولا يسار يستأجره كان دونه أحد أمرين : إما أن يطوف بالبيت
عريانا ، وإما أن يطوف في ثيابه ، فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه فلم يمسه أحد . وكان
ذلك الثوب يسمى اللقى .^(١) وقيل ان هذا الطواف وما فيه من عرى أو لقي إنما يكون
بعد رجوع الحجاج من عرفات ، فأما قبل صعودهم إليها فقد كانت الحلة يطوفون
في ثيابهم .^(٢)

وقد وصلتنا أشعارهم مشيرة لذلك :

فأما ما كان من أمر الطواف وهم عراة فقد روي أن النساء يضعن ثيابهن كلها إلا درعا
مفرجا يبقى عليها فقالت امرأة من العرب وهي كذلك :

اليومَ يَبْدُ وبعضُهُ أو كَلَّه . . وما بَدَا منه فلا أحلُّه

وأما ثياب اللقى التي ينزعها الحلة فقد ذكرها ورقة بن نوفل بقوله^(٤)

كفى حَزَنًا كَرَى عليه كَانَهُ . . لَقَى بين أيدي الطائفين حَرِيمٍ

وقد أبطل الاسلام هذه المحدثات ، وحرّم الطواف بالبيت والناس عراة .^(٥)

وهذا زهير يقسم بالبيت الذي يطوف الناس حوله :^(٦)

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حوله . . رجالٌ بنوه من قريشٍ وجُرهم

وكانوا يتمسحون بأركان البيت كما قال النابغة الذبياني :^(٧)

(١) الجامع لاحكام القرآن : ٣٥٩/٧ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٢/١ .

(٣) سيرة ابن هشام : ٢٠٢/١ ، الروض الأنف : ١٣٣/١ ، وقد قيل ان اسم هذه
المرأة ضباعة بنت عامر بن صعصعة .

(٤) أخبار مكة للزرقي : ١٧٨/١ ، الجامع لاحكام القرآن : ١٨٩/٧ .

(٥) عن أبي هريرة قال بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر
" لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان " صحيح مسلم بشرح النووي

٠١١٦،١١٥/٩

(٦) ديوانه (بشرح ثعلب) : ١٤ .

(٧) ديوانه : ٨٦،٨٥ .

فلا لعمرُ الذي سَحَّتْ كَعْبَتَهُ . . وما هريقَ على الانصابِ من جَسَدِ (١)

ولا يكون تسميح البيت الا مع طوافه

ومن شعائر الحج والعمرة عند الجاهليين السعى بين الصفا والمروة ، وكان بها الصنمان المشهوران "أساف ونائلة" على ما يروى (٢) ، غير أن السعى فيما يبدو كان لمن لم يهمل لصنم معين في حجه (٣) ، أو على من لم يهملوا من عند صنمهم كما في حديث الانصار في حجة الوداع ان كانوا يتخرجون من السعى بين "الصفا والمروة" لانهم كانوا يهملون لمناة حتى سألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن تخرجهم فأمرهم بالسعى (٤) .
وقد أشار الى السعى أبو طالب في قصيدته : (٥)

وأشواط بين المروتين الى الصفا . . وما فيهما من صورة وتماثل (٦)

وكان الجاهليون يذهبون الى "عرفة" في حجهم ويقفون بها يوماً ثم ينصرفون منها ، ولا يستثنى منهم الا قريش ومن كان من الاحماس الذين يتبعون قريشا في طريقه أداء مناسكهم ، فقد كانوا لا يخرجون الى عرفات وانما يقفون بالمزدلفة ، على مشارفها التي تلى عرفة ، ويزعمون بذلك أنهم أهل الله فلا يخرجون من الحرم ، كما يرون بهذا انهم لا يعظمون شيئاً من الحل كتعظيمهم للحرم (٧)

وقد أشار الى ذلك قائلهم : (٨)

أظنكم من أسرة قَمْعِيَّةٍ . . اذا نسكوا لا يشهدون المَعْرِفَا

(١) هريق : أى سال .

(٢) معجم البلدان (اساف) ١٧٠ / ١ ، ١٧١ ، الجامع لاحكام القرآن : ١٢٩ / ٢ .

(٣) انظر الجامع لاحكام القرآن : ١٨٩ / ٢ ، تاج العروس (شعر) ٣٠٤ / ٣ .

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي : " بيان أن السعى بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج الآية " ٢٠ / ٩ وما بعدها .

(٥) سيرة ابن هشام : ٢٧٤ / ١ .

(٦) الاشواط : السعى بين الصفا والمروة . المروتين : يريد الصفا والمروة ، فغلب أحدهما . التماثل : التماثل وهي الاصنام .

(٧) تاريخ مكة : ١٨١ / ١ ، سيرة ابن هشام : ١٩٩ / ١ .

(٨) شرح اشعار الهذليين : ٦٣٨ / ٢ ، تحقيق : محمود شاكر ، عبد الستار أحمد

فراج . طالمدنى . القاهرة .

وقد كان فعل قريش هذا مما ابتدئته في الحج عما كان عليه من أصول صحيحة ،
ولما جاء الاسلام أبطل الله عملهم هذا وأمرهم أن يذهبوا الى عرفة كما يفيض الناس ،
فقال تعالى : " ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . . (١) "

وقد كان الجاهليون يقفون بعرفة حتى تدنو الشمس للغروب وتكون على الجبال
كالعمائم ثم يتجهون الى " مزدلفة " (٢) ، وقد جعل الاسلام النزول من عرفات بعد
غروب الشمس مخالفا لما كان عليه المشركون .

وقد ورد من أشعار الجاهليين ما يدل على وقوفهم بعرفات ، وقصد جبلها ،
ويسمى (الأل) (٣) ، اذ هو من أبرز معالم عرفات ، ويغص الجبل وما حوله بالحجيج
يوم يقفون بها .

فهذا الطفيل الغنوي يقسم برب الابل ، التي تشرف من مكان لا آخر وقد أنهكها
طول السفر ، وهي لا تقصد الا جبل عرفة (الأل) عليها الحجاج المحرمون ، يلبون
وهم شعث الرأس فيقول : (٤)

وَرَبِّ الَّتِي أَشْرَفْنَ فِي كُلِّ مُدْنٍ نَسِيبٍ . . . سَوَاهِمَ حُوصَا فِي السَّرِيحِ الْمَخْدَمِ
يَزِنَنَّ إِلَّا لَا يَنْحَسِبَنَّ غَسِيرَةَ . . . يَكُلُّ مَلَبَّ أَسْعَثِ الرَّأْسِ مُحَرَّمِ
وهذا " النابغة الذبياني يحلف " للنعمان " (ملك الحيرة) بابل الحجيج

المصطحبة في طريقها ، و . . . الذاهبة لزيارة عرفة للحج ، يدفع بعضها بعضا
فيقول : (٥)

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً . . . وَهَلْ يَأْتَمُنْ ذُو أُمَّةٍ وَهُوَ طَائِعٌ (٦)

-
- (١) البقرة : ١٩٩ ، وانظر تفسير الطبري عند تفسير الآية : ١٦٦/٢ .
(٢) تاريخ مكة للأزقي : ١٨١/١ .
(٣) انظر معجم البلدان : ٢٤٢/١ ، ٢٤٣ .
(٤) ديوان الطفيل الغنوي : ٧٣ ، ٧٤ ، وقد سبق شرح البيت ص ٦٩٣ .
(٥) ديوان : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٦) ذو أمة : بضم الهمزة وكسرها : أى نعمة وقيل ذو قصد واستقامة ، وهو
طائع : أى غير مكره فلا داعي به الى الحلف الكاذب .

بُصَّطِحَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ . : . يَزْرَعْنَ إِلَّا لِأَسِيرُهُنَّ التَّدَافُوعَ (١)
 سَمَامًا تَبَارَى الرِّيحَ خُوصًا عِيُونُهَا . : . لَهُنَّ رِذَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِعِيعَ (٢)
 عَلَيْهِنَّ شُعْتُ عَامِرُونَ لِحَجَّتِهِمْ . : . فَهِنَّ كَأَطْرَافِ الحَنِئِ خَوَاضِعَ (٣)

وكان الجاهليون يقفون بعرفة في اليوم التاسع فإذا ما أرادوا الانصراف منها كانوا ينتظرون انصراف رجل كان يلي الاجازة بهم منها ، فإذا بدأ تابعوه ثم انصرفوا منها ، وكان ممن ولي هذه الاجازة على ما ذكر الرواة الغوث بن مـ و ويسمونه صوفة ، ثم انتقلت في آل صفوان بن الحارث بن بنى سعد . (٤)

وقد أشار الى هذه الاجازة - أى الافاضة من عرفة - أوس بن مفرأ السعدى مفتخرا بها لأنها كانت في قومه بنى سعد : (٦)

وَلَا يَرِيمُونَ فِي التَّعْرِيفِ مَوْقِفَهُمْ . : . حَتَّى يُقَالَ أَفِيضُوا آلَ صَفْوَانَا (٧)
 مَجْدًا بِنَاهُ لَنَا قَدْ مَا أَوَائِلُنَا . : . وَأُورْثُوهُ طَوَالَ الدَّهْرِ أَخْرَانَا

(١) مصطحبات : أى ابل الحجيج مصطحبة ، لَصَافٍ : موضع في بلاد بنى يربوع قوم التابعة .

ثبرة : واد في بلاد بنى مالك بن حنظلة من تميم منهم بنو يربوع ، سيرهن التدافع : أى يسرن بدفع بعضهن بعضا حرصا على سرعة الوصول .

(٢) سماما : طير يشبه السمانى سريع الطيران واحده سماه يشبه به سرعة الابل تبارى الريح : تغالبه ، خوصا : جمع خوصاء ، أى غائرة من فرط التعب ، رذايا : جمع رذية ، وهي الضعيفة ، أى منهن ما أنهكه السير فيترك في الطريق ويؤخذ رحلها .

(٣) شعنت : غبر الرؤوس . عامدون لحجتهم : قاصدون لحجتهم . الحنى : جمع حنيه وهي القوس ، وقد روى بعد هذا البيت قوله : الى خير دين نسكه قد علمته . : . وميزانه في سورة المجد ماتع

(والشرح بتصريف قليل من الديوان)

(٤) سيرة ابن هشام : ١١٩/١ - ١٢١ ، تاريخ مكة : ١٨٦/١ ، ١٨٦ .

(٥) أوس بن مفرأ بن عوف بن كعب بن سعد ، شاعر جاهلى ، قيل انه أدرك الاسلام وكان يهاجى النابغة الجعدى لمدة طويلة . وانظر طبقات فحول الشعراء :

٧٩ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥٧٢ . الشعر والشعراء : ٢ / ٦٨٧ .

(٦) الأبيات هكذا فى الشعر والشعراء : ٢ / ٦٨٧ ، والسيرة لابن هشام : ١ / ١٢١ ، البيت الأول ، وفى لسان العرب : ٩ / ٢١٠ (آل صوفانا) وصوفان وصوفه بمعنى واحد .

(٧) يريمون : يبرحون ويقيمون به ، التعريف : وقوفهم بعرفة .

ويتجه الحجاج الى مزدلفة ليقفوا ليلتهم فيها ، وبها يجتمع الحجاج من حمس

(١)

وحلة ، وقيل بذا سميت المزدلفة (جمع) .

وكان الجاهليون يوقدون ناراً في بعض مواضع من المزدلفة ليراها الحاج القادم

من عرفة على ما روى ، ثم يبيتون بها " حتى اذا كان في الغلس ، وقفت الحلة والحص

على قزح ، فلا يزالون عليه حتى اذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها

عمائم الرجال في وجوههم دفعوا من مزدلفة ، وكانوا يقولون : أشرق شبير كيما تخير " ،

ثم ان العرب كان لهم من يفيض بهم من " مزدلفة " الى " منى " ، وكانت قبيلة " عدوان "

(٥)

تلى ذلك ويتوارثونه حتى جاء الاسلام .

وقد ورد من شعرهم ما يصور ذلك ، فقد ذكروا لنا من أسماء الذين يتولون هذه

الافاضة (ابي سيارة) ، وكان يفيض بالناس على حمار أسود ، حتى ضربوا المثل به

فقالوا " أصح من غير أبي سيارة " ، ويذكرون أنه أفاض بالناس أربعين سنة وفي ذلك

(٦)

قال شاعرهم :

نَحْنُ دَفَعْنَا عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ . . . وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنِي فَزَّارَةَ (٧)

حَتَّى أَجَازَ سَالِمًا حِمَارَهُ . . . مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ يَدْعُو جَارَهُ (٨)

(١) لسان العرب (جمع) ٨ / ٥٩ - ٦٠ ص ١٠٠ صبح الأعشى في صناعة الانشا . أبو الحباس

القلقسندي : ١ / ٤٠٩ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . الحيوان .

(٣) قزح : هو القرن الذي يقف عنده الامام بالمزدلفة عن يمين الامام ، وهو

الميقدة ، كانت توقد فيه النيران في الجاهلية ، وهو موقف قریش في الجاهلية

وانظر معجم البلدان : ٤ / ٣٤١ .

(٤) أي اسرعى ياشمس بالاشراق على شبير حتى نسرع الى النحر .

(٥) سيرة ابن هشام : ١ / ١٢٢ .

(٦) السيرة : ١ / ١٢٢ ، مجمع الأمثال : ١ / ٤١٠ ، الأغاني : ٣ / ٩٣ ، ولم يذكروا

القائل .

(٧) موالیه : بني عمه لأنه من عدوان ، وعدوان وفزارة من قيس عيلان .

(٨) يدعوا جاره : أي يدعو الله - عز وجل - بقوله : اللهم كن لي جاراً

ممن أخافه

- ونرى " ذا الأصبع العدواني " يفتخر بهذه المأثرة لقومه ، وهي الفاضلة بالحجاج الى منى فكانهم يشرعون لهم الطريقة التي يأتونها ويتبعونها فيها : (١)
- ومنهم كانوا السادا . . . والموفون بالقرض (٢)
- ومنهم حكما يقضي . . . فلا ينقض ما يقضي (٣)
- ومنهم من يجيز الناء . . . س بالسنة والفرض (٤)
- ويذكر " أبو قيس بن الأسلت " رجلا اسمه (البخترى) وينعته بالبيان والفصاحة : (٥)
- وكان البخترى غداة جمع . . . يدافعهم بلقمان الحكيم
- ويقول " أبو طالب " في قصيدته : (٦)
- وليلة جمع المنازل من منى . . . وهل فوقها من حرمة ومنازل
- ويعد رحيل الحجاج من مزدلفة يقصدون منى ، وبها يؤدون كثيرا من الشعائر التي يفعلها الحاج ، ومنها ذبح الهدى ، وحلق الشعر ، ورمي الجمار .
- هذا " الأعشى " يحلف برب ابل الحجاج التي تتجاوز الجبال من طريقها الى منى : (٧)
- حلفت برب الراقات الى منى . . . اذا مخرم " جاوزته بعد مخرم (٨)
- ومثله " طرفة " اذ يقول : (٩)

-
- (١) الأغاني : ٣ / ٩٢٢٩٠ ، سيرة ابن هشام : ١ / ١٢١ .
- (٢) منهم : أى من قومه عدوان . القرض : الجزاء .
- (٣) يريد حكيم العرب عامر بن الظرب وقد سلفت له ترجمة فى فصل الحنفاء من هذا البحث .
- (٤) أبو قيس بن الأسلت : شاعر جاهلي أوسي . كان سيد قبيلته وقائدها يوم بعث وعرف بنخوته وشجاعته واختلف فى ترجمته مع أبى قيس صرمة بن أبى الأنصاري ، وقد اختلف فى اسلامه : وانظر الاصابة : ٣٣٤ / ٧ ، الأغاني :
- ١١٧ / ١٧ .
- (٥) ديوانه : تحقيق د . حسن محمد باجودة : ٨٩ ط . مكتبة التراث ، القاهرة .
- (٦) سيرة ابن هشام : ١ / ٢٧٤ . (٧) ديوانه : ١٧٣ .
- (٨) الراقات : ابل الحجاج ، مخرم : منقطع انف الجبل .
- (٩) ديوانه : ١٧٠ .

حلفتُ برَبِّ الرَّاغِصَاتِ إِلَى مَنِيٍّ . . . يُبَارِئِنَ أَيَّامَ المَشَاعِرِ والنَّهْضِ (١)
 أما الهدى فقد كان الجاهليون يعتنون به ، إذ يقدونه بعلامة يعرف بها أنه
 هدى ، كأن يعلق برقبته فلادة أو شابها ، أو أن يقذعوها بالمياصم في
 موضع من بدنها ، وربما أسالوا دمها يشق بجرحها يكون كالعلامة بها .
 وقد أشار إلى ذلك عارق الطائي (٢) وهو يخاطب " عمرو بن هند " بقوله (٣) :
 حَلَفْتُ بِهَدْيٍ مُشْعَرٍ بِكَرَاتِهِ . . . يَخْبُ بِصَحْرَاءِ الغَبِيْطِ دَرَادِقَهُ (٤)
 لئن لم تُغَيِّرْ بَعْضَ مَا قَدْ صَنَعْتُمْ . . . لِأَنْتَحِينَ العَظْمَ ذُو أَنَا عَارِقَهُ (٥)
 ويقول " أبو قيس بن الأسلت " إنهم يسوقون هديهم معلمة بالجلول التي يلتقونها
 عليها ، ولكنهم ييقون مناكبها مكشوفة : (٦)

- (١) يبارين : يعارضن بعض وتفعل مثلما تفعل الأخرى في أيام المشاعر ، والنهض في العودة أو إلى مكان آخر في تنقلات المشاعر حيث ينهضون من محل الآخر .
- (٢) هو عارق أجا الطائي واسمه (قيس بن جروة بن سيف بن مالك بن عمرو ابن أمان ، هكذا في معجم الشعراء : ٣٢٦ ، وله ذكر في اللسان : (تلح ٣٦/٨ ، ٣٧) ، عرق : ٢٥٠/١٠ ، وتاج العروس : ١١/١٧ ، (عرق) .
- (٣) عمرو بن هند ملك الحيرة في الجاهلية عم امرئ القيس الشاعر ملك بعد أبيه واشتهر في وقائع مع الروم والغساسنة وأهل اليمامة ، وكان شديد البأس والفتك ، وقتله عمرو بن كلثوم في قصة له . وانظر الكامع في التاريخ ١٥٤/١ ، ١٩٧ ، تاريخ ابن خلدون : ٢٦٥/٢ .
- (٤) المشعر : الذي عليه علامة يعرف بها أنه هدى كفلادة أو وسم . بكراته : جمع بكرة وهي الشابة من الأبل يخب : من الجنب وهو خطو فسيح ، الغبيط : موضع . درادق : جمع دردق كجعفر وهي صغار الأبل والضمير عائد إلى الهدى .
- (٥) انتحين : من الانتحاء وهو التعرض ، ذوصفة للعظم ، عارقة : اسم فاعل من عرقت العظم إذا أكلت ما عليه من اللحم .
- (٦) ديوانه : ٨٨ .

- (١) نَسَوُقُ الْهَدْيِ تَرَسُفٌ مُذْ عِنَاتٍ . : . مَكْشَفَةُ الْمَنَاكِبِ فِي الْجُلُولِ
- (٢) ونرى النابغة يحلف بالله الذي تساق له الهدايا :
- (٣) حَلَفْتُ بِمَا تَسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا . : . عَلَى التَّأْوِيبِ يَعْصِمُهَا الدَّرِينِ
- (٤) بِرَبِّ الرَّاكِضَاتِ بِكُلِّ سَهْبٍ . : . بِشُعْثِ الْقَوْمِ مَوْعِدَهَا الْحَجُونَ
- (٥) وهذه الهدايا التي تساق بقر كثيرة كما رأها " الأعمش " ؟
- (٦) إِنِّي لَعَمْرُ الَّذِي حَطَّتْ مَنَاسِمُهَا . : . يَخْدَى وَسِيقَ إِلَيْهَا الْبَاقِرُ الْغَيْلِ
- وهذه الهدايا انما تساق للذبح حتى تضرجها الدماء :
- (٧) وشهر بني أمية والهـدَايَا . : . إِذَا حَبِسَتْ مُضْرَجَهَا الدَّمَاءُ
- (٨) ومنى تذبح بها الهدايا وتنحر كما قال " شاس بن عبدة " :
- (٩) حَلَفْتُ بِمَا ضَمَّ الْحَجِيجَ إِلَى مَنَى . : . وَمَا شَجَّ مِنْ نَحْرِ الْهَدْيِ الْمُقْلِدِ
- وبيد وأن الجاهليين كانوا يذبحون عند أصنامهم وان ذبحوا في حجهم ،
 ويفهم من القرآن الكريم أن الجاهليين كانوا لا يأكلون من هديهم وذبائحهم ،

-
- (١) ترسف : تمشى كالمقيدة ، الجلول : ماتجلل به الدابة ليحميها .
- (٢) ديوانه : ٤٦ .
- (٣) التأويب : سير النهار كله الى الليل ، يعصمها : يحفظها . الدرين : ماجف من الأعشاب والمرعى .
- (٤) سهب : مفرد سهب في الأرض الواسعة . الحجون : قال محقق الديوان " خارج مكة " وهذا وهم منه وانما هو جبل من أعلى شمال مكة عنده مرفان أهلها كما ذكر ياقوت .
- (٥) ديوانه : ١١٣ .
- (٦) المناسم : جمع منسم وهو طرف الخف ، تخدى : تسرع في السير مع اضطراب ، الباقر : أى البقر ، الغيل : جمع غيول ، وهى - العيل - الكثيرة .
- (٧) البيت لعوف بن الأحوص في المفضليات : ١٧٤ ، مضرجها : أى لطحها وانتشر عليها ١ .
- (٨) شأس هو أخو علقمة بن عبدة الفحل وهو شاعر مقل ويروى أن شأسا قد أسره الحارث بن أبى شمر الغسانى ، فذهب أخوه علقمة فمدح الحارث وطلب أخاه فأخرج له عنه فى مفسدة مشهورة ، والبيت فى شعراء النصرانية : ٥٠٩ - من قصيدة لئناس . (٩) الشجج : سيلان الدم من كثرة ما يذبح من الهدى .

ورخص الله للمسلمين ذلك بقوله : " فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير " (١) .

وأما خلق شعورهم ، فكان الجاهليون لا يتركون ذلك ، وربما رأوا ألا يتم نسكهم إلا به ، والذي تدل عليه الروايات أن العرب كانوا لا يخلقون جميعا فى منى ، وإنما بعضهم يفعلها ، ولعلمهم " قريش " ومن وافقهم من الحرس ، وأما غيرهم فيخلقون عند أصنامهم ، وقد جاء أن الأزد وغسان " إذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يخلقوا إلا عند مناة " (٢) ، وكانت قضاة ولخم وجذام تحج لصنم الا قيصر وتحلق عنده . (٣)

ومما جاء من أشعارهم بذلك قسم زهير بالأماكن التى ينزل فيها الناس من منى ، حيث تحلق الشعور : (٤)

فأقسمت جَهْدًا بالمنازلِ من منى . . . وما سَحِقَتْ فيه المقاديمُ والقملُ (٥)
وقد ورد أن " عَيْرْت هوازن وبنو أسد بأكل القرة ، وذلك أن أهل اليمن إذا حلقوا رؤوسهم بمنى وضع كل رجل على رأسه قبضة دقيق ، فاذا حلقوا رؤوسهم سقط الشعر مع ذلك الدقيق ، ويجعلون ذلك الدقيق صدقة ، فكان ناس من أسد وقيس يأخذون ذلك الشعر بدقيقه فيرمون الشعر وينتفعون بالدقيق ، وأشد لمعاوية بن معاوية الجرمي : (٦)

(١) الحج : ٢٨ ، وانظر فى تفسير ابن كثير : ٤١٢/٥ ، الجامع لأحكام

القرآن : ٤٦/١٢ .

(٢) أخبار مكة للأزرقي : ١٢٥/١ ، معجم البلدان : ٢٠٥/٥ .

(٣) الأصنام : ٤٨ ، معجم البلدان : ٢٣٨/١ .

(٤) ديوانه : (ثعلب) : ٩٩ ، (الأعم) : ٣٢ ، ٣٣ .

(٥) سجفت : حلقت ، المقاديم : جمع مقدم أى مقدمة الرأس . القمل : أراد به الشعر الذى فيه القمل .

(٦) لسان العرب ٩١/٥ عن ابن الكلبي وانظر تاج العروس (قرر) ٤٨٦/٣ .

(٧) كذا فى اللسان والتاج ، وفى معجم البلدان (٢٣٨/١) معاوية بن دراع الجرمي .

أَلَمْ تَرَجِرْ مَا أُنْجِدْتُ وَأَبُوكُمْ .. مع الشعرِ في قصِّ اللَّيْلِ شَارِعُ
 إِذَا فُرَّةٌ جَاءَتْ يَقُولُ أَصَبَّ بِهَا .. سوى القملِ إِنِّي من هُوَازِنِ ضَارِعٍ*
 وأما الجمار فكانوا يرمونها في حجهم كما نطقت بذلك أخبارهم وأشعارهم ، وربما
 كانت الجمرات أكثر من ثلاث لما وضع في منى من الأصنام . (١)

ونجد الشنفرى يذكر لنا جمار منى عندما أخذ بثأر أبيه من قاتله : (٢)
 قَتَلْنَا قَتِيلًا مُهْدِيًا يَطْلُبُ سَيْدِي .. جَمَارَ مِنَى وَسَطَّ الْحَجِيحِ الْمَصَوَّتِ
 ويقسم بالأنصاب التي عند الجمار شاعر آخر مع قسمه بربه فيقول : (٣)

فَأَقْسِمُ بِالَّذِي قَدْ كَانَ رَبِّي .. وَأَنْصَابٍ لَدَى الْجَمْرَاتِ مُفَرِّرٍ (٤)
 والحجاج يذهبون إلى الجمار ، ويتوافون عندها ، ولا تكون الموافاة إلا لرميها كما
 قال شاعرهم : (٥)

لَأُدْرِكُهُمْ شَعَثَ النَّوَاصِي كَأَنَّهُمْ .. سَوَابِقُ حُجَّاجٍ تَوَافَى الْمُجَمَّرَا (٦)
 وقد وردت في بعض أشعارهم إشارات إلى أمور تتعلق بالحج ، توميء إلى أخذ العرب
 بها .

فمنها تلييد الشعر على الرأس بما يجعله مجتمعا حتى يحين حلقه كما في بيت
 (الشنفرى) الذى المحنا إليه منذ قليل وهم يرون أنهم مخلصون في حجهم لله ، لم
 يقصدوا به غيره ، ولم يبتغوا ثوابه من أحد سواه ، كما أنهم خاضعون له :
 إِنِّي أَعُوذُ بِمَنْ حَجَّ الْحَجِيحُ لَهُ .. وَالرَّافِعُونَ لَدِينِ اللَّهِ أَرْكَانَا

* لسان العرب : ٩١/٥ .

(١) تاريخ مكة للزرقى : ١٢٦/٢ .

(٢) الفضليات : ١١١ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الثانى : ٣٥ .

(٤) مفر : مفرده أمفر : وهو لون يميل إلى الحمرة ، ليس بناصع الحمرة وليس إلى

الصفرة ، أى لون الأنصاب مفر مما لطخت به من الدماء .

(٥) لسان العرب : ١٤٦/٤ ، ١٤٧ . والبيت لحذيفة بن أنس الهذلى .

(٦) المجرم : موقع حصى الجمار .

مسلمين اليه عند حجهم . . لم يبتغوا بثواب الله أثمنا (١)

كما أنهم يرفعون أيديهم بالدعاء ، سائلين الله ، ولم يرتكبوا شيئا مما يحظر عليهم في الحج ككتف شعر أو قص ظفر أو حلق رأس ، كما أشار الى ذلك أمية بن أبي الصلت بقوله : (٢)

شاحين أباطهم لم ينزعوا تفتا . . ولم يسئلوا لهم قملا وصئبانا (٣)

وعند ما يحرمون فليسوا على حالتهم قبل دخولهم في النسك ، فلا يقربون النساء ويتعدون على اللهو والمجون فهم قد اتجهوا الى ربهم ، يرجون برة واحسانه ، وقد عزموا على هذه الطاعة التي تدخل في الدين فلا سبيل الى تنيسها ، يقول النابغة الذبياني : (٤)

قالت أراك أخوا رحل وراحلة . . تفشى متالف لن ينظرك الهرا
حياك ربي فانا لا يحل لنا . . لهو النساء وان الدين قد عزمنا (٥)
مشعرين على خوص مزممة . . نرجو الاله ونرجو البر والطعما (٦)

وكانوا اذا دخلوا في حجهم تركوا البيع والشراء ، ويرون ذلك يشوب عليهم حجهم ، وانما يريدون أن يخلصوا في عبادتهم فلا يدخلوا عليها ما يشغلهم عنها ، وربما استشف هذا من قول الممزق العبدى (٧) وهو يفتخر بشجاعة قومه الذين لم يشتغلوا

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٥١٨ .

(٢) السابق : ٥١٨ .

(٣) شاحين : جادين مسرعين ومقبلين ، التفت : نتف الشعر ، وقص الأظفار وما يحظر على المحرم . يسئلوا : ينزعوا من السل وهو النزع ومراده هنا الحلق . قملا وصئبانا : يريد الشعر الذي يكون به القمل والصئبان .

(٤) ديوانه : ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٥) حياك ربي : أى أكرمك بالتحية وهى السلام ، الدين قد عزمنا : أى جد وتعين ان نوبنا عملا من الدين . يريد به دين الحنيفية لأن الحج من أعمال الحنيفية .
(٦) مشعرين : جادين ، مزممة : أى معلقة فيها الأزمة والزام : ما يشد في أنف البعير أو خشاشه من خيط ونحوه لتقاد به وتذل . الطعما : جمع طعمه وهى العطية ، يريد نرجو فضل الله من رزق وخير .

(٧) الممزق العبدى اسمه شأس بن نهار من شعراء عبد القيس ، وهو ابن أخت =

بالتجارة بعد (١) حجهم :

وإِنَّ لِكَيْبِزًا لَمْ تَكُنْ رَبَّ عَكَّةَ .. لَدُنْ صَرَحَتْ حَجَّاجُهُمْ فَتَفَرَّقُوا (٢)

وفي تلبية بكر بن وائل يقولون : (٣)

لبيك حقًا حقًا .. تَعْبُدُ أَوْرَقًا

جئنَاكَ لِلنَّصَاحَةِ .. لَمْ نَأْتِ لِلرَّقَاحِ

أى جئنا لا خلاصنا اليك نريد الحج ولم نأت نطلب التجارة .

وهذا النابغة الذبياني يصرح لنا بتحريمهم للبيع اذا دخلوا في مناسكهم ، وذلك في قصة نفور دابته من امرأة من نساء الحرم ، وقد طلعت عليه هذه المرأة في صورة أجفلت ناقته حتى كادت تسقطه من على رحله ، ان صاحت هذه الحرمية وهم راحلون تسأل عن يشتري جلودا مذبوغة تبيعها ، فأجابها النابغة بأنهم قد تركوا البيع وانقطع وقته فهم داخلون حجهم . (٤)

كَادَتْ تُسَاقِطُنِي رَحْلِي وَمِيثِرَتِي .. بَدَى الْمَجَازِ وَلَمْ تُحَسِّسْ بِهِ نَعْمًا (٥)

= الشاعر المثقب العبدى ، سعى بالمعزق لقوله :

فان كنت ماكولا فكن خيراكل .. والا فأدركنى ولما أمـرق

وانظر المؤلف والمختلف : ١٨٥ ، المفضليات : ٢٩٩ .

(١) المفضليات : ٣٠١ .

(٢) لكينز : اسم قبيلة الشاعر ، عكة : جلد صغير يتخذ من صفار الغنم يوضع فيه

السمن فى الغالب صرحت حجاجهم : خرجت من منى ، والمعنى : ان لكيزا لم

تكن ممن يتجر فى السمن ، بل هم رجال بأس وشدة ، كما ذكر فى المفضليات .

(٣) رسالة الغفران : ٥٣٦ . وقد اشرنا الى هذا مع شرحه فيما مضى .

(٤) ديوانه : ٢١٩ .

(٥) تساقطنى : صيغة المفاعلة هنا للمبالغة فى قوة الفعل ، والمعنى كادت تساقطنى

ميثرتى : الميثرية حشية كالوسادة تجعل على الرحل . ذى المجاز : موضع

بناحية عرفة من الشمال بفرسخ . كانت به سوق مشهورة تبدأ فى مستهل

ذى الحجة وتستمر ثمانية أيام وبعدها يحرم البيع عندهم ، لم تحسس به نعما :

أى لم تشعر بابل وهم النعم فتتشط للسير معها .

من صوتِ حُرْمِيَّةٍ قَالَتْ وَقَدْ ظَعَنُوا .. هل في مُخْفِيكُمْ من يَشْتَرِي أَدَمًا (١)
 قُلْتُ لَهَا وَهِيَ تَسْعَى تَحْتَ لَبَّتِهَا .. لَا تَحْطِمْكَ أَنْ الْبَيْعَ قَدْ زَرَّمَا (٢)

-
- (١) حرمية : نسبة الى الحرم ، أى امرأة من أهل الحرم . مخفيكم : أى المخفون الذين ليست لهم أثقال كثيرة . أدم : جلدًا مدبوغًا .
- (٢) اللبّة : موضع القلادة من الصدر من كل شيء ، وهى فى الابل اللهزمة التى فوق الصدر ، وفيها تنحر الابل . قد زرما : قال محقق الديوان : يعنى أنهم صاروا فى ليلة التروية فحرم البيع عليهم وكان هذا من حكم الجاهلية ، وقد ابطله الله بقوله تعالى " ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم " اى فى مدة الحج . وابتغاء الفضل هو طلب الرزق ، اى الربح من التجارة .

التشريعات

تحتاج حياة الناس الى ما ينظم شئونها ، كما يلزمها دستور يضم ما ينبغى ان تكون عليه احكام الامة في حياتها العامة ، ومنه تتبع القوانين التي تأخذ بها كل امة في تنظيم امورها ، ثم تشتهر هذه القوانين وتذاع بين الناس حتى لا يخرجوا عليها أو يشقوا عصا الطاعة على مجتمعهم الذي رضي أن يأخذ بهذه القوانين في أحكامه ، وتسرى هذه القوانين في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وان خضعت أو سارت وفق ما تؤمن به من المعتقدات أي امة من الامم .

وتتجلى فائدة هذه الاحكام وتلك القوانين في ضبط أمور الناس ، حتى لا يقع خلاف في أمر من الأمور ، ثم ينتج عنه اضطراب وفوضى تقود الى النزاع والقتال ، فهي تريح الناس عند اختلافهم أن يجدوا ما يعودون اليه ليحكم بينهم ، ثم يحسم الخلاف ويقطع ما يخشى من سوء العاقبة . وبذلك يستتب الامر وتصلح حياة الناس ، ويأمنون الا تضيع حقوقهم ولا تهدر دماؤهم ، فتعطي بذلك الحياة سعيدة هائلة ، تسعى الى الافضل وترتقى الى الامام عند ما يجد أفرادها ذلك الامن والنظام . ويقدر خروج الامم على انظمتها تقع الخلافات والحروب والفتن ، مما يعرقل سير الامة ويؤخر تقدمها عن غيرها من الشعوب .

وقد حاولت البشرية في تاريخها الطويل أن تضع لحياتها نظاما تسير عليه ، وتشرع احكاما تنظم بها تعامل أبنائها فيما بينهم ، ونحن نعلم من ذلك القانون الروماني وشريعة حمورابي على سبيل المثال وغيرهما في ما عبر من الزمان .

ولاريب أن هذه القوانين أو التشريعات تكون واضحة مشتهرة اذا وجدت في امة تخضع لسلطان حكم موحد ، فهذا السلطان يفرض القوانين ويطبقها في حكمة ، ويعاقب من يخالفها ، ويسرى ذلك في حدود سلطته ، على مقدار ما يتمتع به ذلك السلطان من قوة وحكمة في تنفيذ احكام سلطته . وتقل هذه القوانين وينحصر سلطانها انحصارا شديدا بين الامم أو الامة التي لا تخضع لسلطة واحدة ، ان أن للسلطات والحكومات أكبر الاثر في سن الشرائع وتطبيق القوانين .

والذى يبدو من أمر العرب فى حكمها وقوانينها أن لها أحكاما دانت بها ، وخضعت لها ، فالذين عاشوا فى ظل الحكومات المستتبه والمشهوره فى جنوب الجزيرة العربيه كحكومة معين " وسبأ " و " حمير " خضعوا لقوانين هذه الممالك وأحكامها ، وغير بعيد عنهم من عاشوا تحت حكم المناذرة والفساسنة فى اطراف الجزيرة الشماليه ، ان تعاملوا بما تفرضه عليهم هذه السلطات من قوانين ، وكل ذلك انما يتم ويترد بمقدار ما يكون لهذه الحكومات من قوة وحكمة فى اخضاع من حولها لسلطانها .

أما وسط الجزيرة وأكثر أقاليمها الأخرى فلم تكن تخضع لحكومة منظمة أو سيادة مهيمنة فى العصر الجاهلى فيما نعلم ، الا ما كان من شأن القبائل العديده التى كان لكل منها رأيها وسلطانها بين أفرادها ، وكان من أثر ذلك كثرة الحروب بين القبائل ، وحتى بين أبناء القبيلة الواحدة ، ان كان أوار هذه الحروب لا يخمد حتى يجد من يشعل له تارة أخرى .

ومع ما كان لهذه القبائل من أحكام وقوانين ولو فى أى مستوى كان الا أنها تعدد أحكاما يتعامل بها ، عرفها أبناء القبائل وحاولوا السير عليها . وقد أشار القرآن الى معرفة الاحكام بين الجاهليين فقال تعالى " أفحكم الجاهلية يبغون " (١)

وقد شاع ذكر حكم العرب فى جاهليتهم ان " كان للعرب حكم ترجع اليها فى أمورها وتتحاكم فى مناظرتها وموارثها ومياها ودائها ، لأنه لم يكن دين يرجع الى شرائعه ، فكانوا يحكمون أهل الشرف والصدق والامانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة " (٢) .

وقد حفلت المصادر بذكر هؤلاء الحكام (٣) ، كما عينوا حكم بعض القبائل منهم (٤) ، وقد عدوا لنا على سبيل المثال : " عامر بن الظرب العدواني " ، و " الافعى الجرهمي " ،

(١) المائدة : ٥٠ .

(٢) تاريخ اليعقوبى : ١ / ٢٢٧ .

(٣) انظر تاريخ اليعقوبى : ١ / ٢٢٧ ، المحبر : ١٣٢ وما بعدها ، بلوغ الارب :

١ / ٣٠٨ وما بعدها ، البيان والتبيين : ١ / ٣٦٢ .

(٤) المحبر : ١٣٢ وما بعدها ، تاج العروس (حكم) ٨ / ٢٥٣ .

و" أكنم بن صيفي " و" الاقرع بن حابس " ، و" عامر الضحيان " ، و" قس بن ساعدة الايادي " ،
وعمر بن حمه الدوسي وكثير غيرهم* .

ومع ما كان للعرب من أحكام وقوانين كثيرة ، طبقوها في حياتهم ، سواء كانت من قرائح حكاهم ، أم ما أخذوه عن غيرهم أم توارثوه عن اسلافهم ، فقد كان من بين هذه الاحكام والتشريعات مانعه موافقا لأحكام الحنيفية ، وهو ما وضع في بعض كتب التراث : (من حكم في الجاهلية حكما فوافق حكم الاسلام)^(١) ، وهو الذي يعنينا في هذا البحث من بين سائر أحكامهم ، مما نص عليه شعرهم أو دل عليه أو يسعفه .

وسنمضي في هذه التشريعات والأحكام الجاهلية على نحو ما ورد من تحريمهم لبعض القبائح والمنكرات كالخمر والزنى والميتة ، ثم نخرج على ماورد من أحكامهم في القتل والدماء ، ونمر بطرف من معاملاتهم الموافقة للحنيفية ، ثم نختم ذلك بالحدِيث عن النكاح والارث وما ينطوي تحت ذلك من أمور بحول الله وقدرته فيما يلي من مباحث .

* تاريخ اليعقوبي : ٢٥٨/١ .

(١) المحبر : ٢٣٦ ، المعارف : ٥٥١ ، ٥٥٢ ، بلوغ الارب : ٥٢/٢ ومابعدها .

تحريم الخمر :

انتشر شرب الخمر بين الجاهليين انتشارا واسعا ، ففصت أنديتهم بأفخر
دنانها ، وانتشر في الاسواق تجارها ، وأنفقوا في سبيلها كثيرا من أموالهم ، وأسرف
بعضهم في شربها حتى عدها " طرفة بن العبد " واحدة من ثلاث لولاها لما حفل
بالحياة ، وما اهتم بالهوت فهو القائل : (١)

ولولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الفتى . . . وَجِدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُوْدِي
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ . . . كَمَيْتٍ مَتَى مَا تَعَلَّ بِالْمَاءِ تَرِيْدِي (٢)

وقد بقيت فيهم الخمر حتى جاء الاسلام بتحريمها المتدرج في طريقة الاسلام الحكيمه
لعلاج ذلك الداء الويل .

ومع ذلك الانتشار والوصف للخمر الذي ذاع في شعر الجاهليين ، دلت المصادر
على وجود أناس بينهم حرما الخمر ، وترفعوا بأنفسهم عن تعاطيها لما يخشونه
مغبة احتسائها ، ان تذهب بالعقل ولا يعي شاربها في سكره ما يدور حوله وما قد
يحدث له ، وبعضهم حدث له أثناء سكره فعلة شنعاء أعقبتها بتحريمها على نفسه
كالذي يروونه عن قيس بن عاصم (٤) وقد سكر فغمز عكته ابنته ، فلما علم بذلك حرما (٥)
ومثله عبد الله جدعان - أحد أجواد قريش وساداتها - وقد شربها مرة ومعه " أمية بن
أبي الصلت " فضربه على عينه ، فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب ، فلما
علم بما حدث منه حرما على نفسه . (٦)

(١) ديوانه : ٣٣٢ .

(٢) لم أحفل : لم أعظمه بمبالاة به ، قام عودي : معناه مت والعود هم الزوار للانسان
في مرضه ، سبقي العاذلات : أي شربه قبل لومهن ، الكميت : الخمر الحمراء
التي تضرب الى السواد .

(٣) المحبر : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٤) قيس بن عاصم المنقري من سادات بنى تميم في الجاهلية والاسلام ، استعظمه
النبي عليه الصلاة والسلام على صدقات قومه ، وهو من عقلاء العرب وحكمائهم
وشعرائهم ، وانظر في ترجمته الاصابة : ٤٨٣ / ٥ .

(٥) المحبر : ٢٣٨ .

(٦) بلوغ الارب : ٩٠ / ١ .

وقد كان محرّموا الخمر من ذوى العقول النيرة ، والآراء الصائبة ، وأهل الحكمة والرأى بين الجاهليين ، وأكثر من روى ممن حرم الخمر كان من سادات القوم وشرفائهم ، بل من حكاهم وحكمائهم ، من مثل " عبدالمطلب بن هاشم " ، و" الوليد بن المغيرة " ، و" قيس بن عاصم " ، و" عامر بن الظرب " ، و" صفوان بن أمية الكنانى " . كما كانت ثلثة منهم من الحنفاء الذين عرفنا كثيرا منهم ، كورقة بن نوفل ، و" زيد بن عمرو بن نفيل " ، و" قس بن ساعدة الايادى " وغيرهم .

ومما ورد من شعرهم فى ذلك قول قيس بن عاصم وقد سكر فى جاهليته وكانت بقربة أخته أو بنته - على ما يروى - فغمز عكنتها ^(١) فهربت منه ، فلما صحا وأعلم بفعله حرمها على نفسه وقال : ^(٢)

وجدتُ الخمرَ جامحةً وفيها .. خصالٌ تفضحُ الرَّجَلَ الكريماً
فلا واللهِ أشربها حياتي .. ولا أدعولها أبداً نديماً
ولا أعطى بها ثمناً حياتي .. ولا أشفى بها أبداً سقيماً
فان الخمرَ تفضحُ شاربيها .. وتجشّمهم بها أمراً عظيماً
اذا دارتُ حميّاها تعلتُ .. طوالعُ تُسِفُه الرَّجَلَ الحليماً ^(٣)

ونجد " دريد بن الصمه " يدعو على نفسه بالشلل ان شرب خمرا حتى يقتل ابن زبياع : ^(٤)
شلت يميني ولا أشرب معتقة .. اذا أخطأ الموت أسماء بن زبياع ^(٥)

(١) أى : ما انثن من بطنها وانطوى من السمن .

(٢) الاغانى : ٨٤ / ١٤ ، وفى الامالى ٢٠٤ / ١ ، أورد الاولين منها بخلاف بسيط ونسبها لصفوان بن أمية الكنانى .

(٣) حميّاها : سورتها وشدتها واسكارها .
تعلت : أى علت فى مهلة .

(٤) ديوانه : ٩٠ ، وهذا ليس تحريماً مؤكداً من دريد بن الصمة ، وانما هو مثل اتينابه لتحريمهم الخمر فى مدة ، وهى هنا حتى يقتل ابن زبياع .

(٥) أسماء بن زبياع الحارثي أغار عليه دريد فى نفر معه ومع أسماء طعنيته ، فأرادوا انتزاعها فقاتلهم دونها وقتل منهم وجرح واختلف هو ودريد فأخطأ دريد وطعنه أسماء فأصابه عينه وانهمزم دريد فقال هذا البيت ، وانظر الاغانى : ٣٥ / ١٠ .

و" حاتم طي" يرجو أن يموت ولم يقع في فجور أو خمر ، كأنه يرى الخمر من أنواع الفجور وغير بعيد أن يصدر ذلك من حاتم الجواد ، فقد كان له من رزانة العقل وحب الخير والاحسان ما يبعده عن الخمر ومبازل المتاع . يقول حاتم :^(١)

وإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ أَنْلِ . . . متاعاً من الدُّنْيَا فَجُورًا وَلَا خَمْرُ

وحسبنا أن نختم ذلك برأى " عامر بن الظرب العدواني " إذ يفصل أضرار الخمر . فهي متلفة لما بيد شاربيها من مال إذ تستنفده ، ثم تحوجه الى سؤال غيره فيطلب ماليس في يده ، كما أنها تذهب بالعقول في حالة السكر ولا أقبح من ذلك للفتى إذا عاش بغير عقله ، وعلاوة على ذلك فإنها تورث الاحقاد بين الناس وتشر البغضاء بينهم ، كما أنها تنقص هيبة الفتى الكريم الشجاع عند ^{الناس} وتزرى به . يقول عامر ^(٢) في ذمها :

سَأَلَةَ لِلْفَتَى مَالِيسَ فِي يَدِهِ . . . ذَهَابَهُ يُعْقُولِ الْقَوْمَ وَالْمَالِ

أَقْسَمْتُ بِاللَّهِ أَسْقِيهَا وَأَشْرَبُهَا . . . حَتَّى يَفْرَقَ تَرْبُ الْقَبْرِ أَوْ صَالِي

مُورِثَةَ الْقَوْمِ أَضْغَانًا بِلَا إِحْسَنِ . . . مُزْرِيَةً بِالْفَتَى ذِي النَّجْدَةِ الْحَالِي

(١) ديوانه : ٢٦٥ .

(٢) أمالي القالى : ١ / ٢٠٤ .

تحريم الزنى :

عرف الزنى عند كثير من الجاهليين ، وسمحوا لأنفسهم باصطياد اللذة كلما سنحت الظروف ، وقد ساعد على انتشاره كثرة البغايا اللائى حطمن معقل الحياء وجعلن الرايات على الدور ليهتدى اليها الملهوثون المحاريج ، كما أن تجارة الاماء والتكسب ببغيهن يسرت الفاحشة فى بعض مجتمعاتهم .

ومع هذا فلا ينكر ان الجاهليين قد جعلوا الاعتداء على نساءهم وقربياتهم عارا لا يطاق حمله ولا السكوت عليه حتى ولو أدى الى الموت والفناء . والذى يبدو من أخذ بعضهم النساء فى الحروب انما كان حفزا للرجال على الاستماتة حتى لا يغلبوا فتؤخذ نساؤهم فيقع عليهم الغار والشنار ، وذلك أدعى للنصر وأقرب لاستبسال الرجال واستنزال حماستهم حتى تتم لهم الغلبة والنصر .

وقد كان بعضهم يستريب بولادة الانثى ، ويتوارى بوجهه عن الناس عندئذ حتى يرى رايه فى ذلك الحدث المخيف كما أشار القرآن الكريم الى ذلك . وقد حدا بهم الخوف من الزنى أن وأد بعضهم بناته فى الجاهلية .

غير أن ذلك ليس شاملا كل العرب ، فقد كان منهم من رأى الزنى قبيحة يترفع الكريم بنفسه عنها ، وكان الحرائر من النساء يرين ذلك ، وقد ورد فى مبايعة النبى - صلى الله عليه وسلم - للنساء بعد فتح مكة عندما ذكر أن من شروط المبايعة أن لا يزينين . فقالت : هند بنت عتبة - زوج أبى سفيان - أو تزنى الحرة؟^(١)

وذكر الطبرى عند تفسيره لقوله تعالى " ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن " أنهم كانوا يرون الزنا حلالا فى السر هراما فى العلن .^(٢)

ويروى أن عبد الله بن عبد المطلب - والد النبى صلى الله عليه وسلم دعت امرأة الى نفسها ، ولكنه أبى ذلك عليها ، وزعموا له شعرا فى ذلك .^(٣)

(١) تفسير الطبرى : ٥١٢ / ٨ .

(٢) الانعام : ١٥١ .

(٣) انظر السيرة النبوية : ١ / ١٥٥ - ١٥٧ .

ومن شعرهم في تحريم الزنى قول عفيف بن معدى كرب. (١)

وَقَائِلَةٌ هَلُمَّ إِلَى التَّصَابِيِ . . . فَقُلْتُ عَفْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَا

ويذكر مقيس بن صبابه (٢) تركه للخمر مع تركه للزنى إذ حرمه على نفسه كما قال: (٣)

رَأَيْتُ الْخَمَرَ طَيِّبَةً وَفِيهَا . . . خَصَالَ كَلِّهَا دَنْسٌ دَمِيمٌ

فَلَا وَاللَّهِ أَشْرَبُهَا حَيَاتِي . . . طَوَالَ الدَّهْرِ مَا طَلَعَ النَّجُومُ

إِذَا كَانَتْ مُلَيْكَةً مِنْ هَوَائِي . . . أَحَالَفَهَا فَحَالَفَنِى الْهُمُومُ (٤)

سَأَتْرُكُهَا وَأَتْرِكُ مَا سِوَاهَا . . . مِنَ اللَّذَاتِ مَا أَرَسَى يَسُومُ (٥)

ويذكر لنا "عنترة العبسى" ابتعاده عن الفاحشة ، وأنه لا يأتي النساء خيانة وباطلا بل بنكاح بائن يدفع فيه مهرا لوليها لقاء معاشرتها ، ويتعدى ذلك الى ذكر بعض أخلاقه النبيلة التي تنبىء عن الطهر والعفاف . فهو لا يزور النساء الا بحضور أزواجهن عند هن ، فمتى غزو أو تركوهن ألق عن تلك الزيارة . وهو حيي يحفظ حرمة جاره فلا يرسل بصره في تتبع نساء جيرانه حينما تبتدو منهن فرصة تمكنه من استمتاع نظره بهن عند ما يخرجن أو يدخلن في البيوت ، يقول عنترة: (٦)

مَا اسْتَمْتُ أَنْشَى نَفْسَهَا فِي مَوْطِنٍ . . . حَتَّى أَوْفَى مَهْرَهَا مَوْلَاهَا

أَغْشَى فَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا . . . وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا

وَأَغْضَى طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي . . . حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَا وَهَاهَا

إِنِّي أَمْرٌ وَسَمِحٌ الْخَلِيقَةَ مَا جِدْتُ . . . لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

(١) أمالى القالى : ٢٠٥/١ ، عفيف هذا اختلف فيه فقيل : عفيف (بالتصغير مع الشدة) وقيل عفيف (على وزن أمير) ، واشتبه بينهما في الصحبة ، وقيل أنه ليس صحابيا . وانظر الاصابة : ٥١٥/٤ - ٥١٧ (٥٥٩٠ ، ٥٥٩١) ، تاج العروس : ٢٠٣/٦ (عَف)

(٢) مقيس بن صبابه الكنانى من بنى سهم ، قيل أنه أسلم ثم ارتد فأهدر النبى - صلى الله عليه وسلم دمه وقتل يوم فتح مكة . وانظر سيرة ابن هشام : المجلد الثانى ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، معجم الشعراء : ٤٦٧ .

(٣) المحبر : ٢٤٠ ، معجم الشعراء : ٤٦٧ .

(٤) مليكة : بغى كانت تأتيه فتركها ، كما فى المحبر .

(٥) يسوم : جبل فى بلاد هذيل ، وقيل قرب مكة ، وانظر معجم البلدان : ٤٣٧/٥

(٦) ديوانه : ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

التتره عن أكل الميتة :

يفهم من القرآن الكريم فيما ورد عن الميتة أن هناك من كان يأكلها من عرب الجاهلية وقد صرح بذلك في قوله تعالى " وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء " . (١)

(٢)

ثم أن الاسلام حرمها كما نص القرآن " حرمت عليكم الميتة " في غير ما موضع .

بيد أننا نجد من الرواة ما يدلنا على أن في العرب من كان لا يأكل الميتة (٣) ، وليس

في ذلك ما ينقض بعضه بعضا ، اذا العرب لم يكونوا على صورة واحدة في جوانب حياتهم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في مختلف أصقاع بلادهم . فمن ذلك حصل التباين بينهم في بعض الامور والأحكام والعادات وغيرها .

وفي تقديرى أن من عافوا أكل الميتة أخذوا ذلك من حنيفية " ابراهيم " التى هى أصل دينهم ثم بقيت في بعضهم .

ولعل الذى دفع بعضهم الى أكلها الفاقة والعدم ، وقد كانت موارد الجزيرة قليلة في كثير منها ، وغير بعيد أن ثوبهم أيام عصية وربما سنون عجاف يطلبون فيها امساک الرّمق فلا يحصلون عليه .

(٤)

وقد ورد في شعرهم في ذلك قول حارثة بن أوس الكلبى :

(٥)

لَا أَكُلُ الْمَيْتَةَ مَا عَمَّيَّرَتْ . . . نَفْسِي وَإِنْ أَبْرَحَ امْتَلَقِي

ويهبجو " أعشى قيس " علقمة بن علاثة (٦) وقومه بأكلهم الوقائص وهى الميتة ، كما

(١) الانعام : ١٣٩ .

(٢) البقرة : ١٧٣ ، المائدة : ٣ ، النحل : ١١٥ .

(٣) المحبر : ٣٢٩ .

(٤) هو حارثة بن أوس كما في المحبر ، شاعر جاهلى ، وقيل ابن شراحيل بن كعب

الكلبى ، قيل انه والد زيد بن حارثة الصحابى الجليل وقيل انه أسلم . المؤلف

والمختلف : ٩٩ ، الاصابة (١٥٢٨) / ١ ، ٦١٥ ، ٦١٦ .

(٥) البيت في المحبر : ٣٢٩ ، أبرح : أقام وبقى .

(٦) علقمة بن علاثة العامرى من الصحابه ، كان من أشرف قومه في الجاهلية ، ومنافرته

مع عامر بن الطفيل معروفه ، وقيل انه ارتد بعد اسلامه ثم عاد لاسلامه =

يذكرهم بمخالفتهم سنن آبائهم ، فقد كانوا رجال شجاعة وبأس ينكرون بعد وهـم ،
ولعله يرمى من وراء هذه الشجاعة الى حصولهم على المغانم التي سيأكلونها من سائمة
وغيرها في حروبهم ، ويريبهم بذلك فضل فرق ما يأكل كل منهم . يقول الأعشى :^(١)

هُمُ الطَّرْفُ التَّاكُو العُدُوَّ وَأَنْتُمْ . . . بِقُصْوَى ثَلَاثٍ تَأْكُونُ الوَقَائِصَا^(٢)

ومن المناسب أن نشير أيضا الى ما كان يفعله العرب من فصد الحيوان وشرب دمه ،
وذلك بأن يشق عرق البعير أو غيره فيسيل منه الدم فيأخذوه لضيفهم وربما أضافوا
عليه غيره ، وأحيانا يضعون الدم في معي فيشووونه ويأكلونه ، وكان فعلهم هذا في
الأزمنة الشديدة ، وربما فعلوه ضرورة ويسمى ذلك الفصيد .^(٣)

وقد كان الاشراف وأجواد الجاهليين يأنفون من ذلك ويذمونه ، فيروى عن " حاتم
طى " أنه طلبت منه امرأة من عيس أن يفصد ناقته استيقا لها فنحرها وقال هكذا
فصدى ، وقد قال في ذلك :^(٤)

كَذَلِكَ فَصَدِي أَنْ سَأَلْتِ مطَيَّتِي . . . دَمُ الجوفِ انِ كَلُّ الفِصَادِ وَخَيْمٍ

وروا له في ذلك - أيضا - قوله :^(٥)

لَا أَفْصَدُ النَّاقَةَ فِي أَنْفِهَا . . . لَكُنِّي أَوْجَرُهَا العَالِيَةَ^(٦)

إِنِّي عَنِ الفِصْدِ لَفِي مَفْخَرٍ . . . يَكْرَهُ مَنِّي المِفْصَدِ الأَلْيَةَ^(٧)

= وولاه عمر على حوران . ومن مراجع ترجمته : الاصابة : (٥٦٢٩) ، ٤ / ٥٥٣ ،

اللسان العربى : ٣٣٦ / ٣ .

(١) ديوانه : ١٩٩ .

(٢) نكا العدو : قتل فيهم وجرح وأثخن ، الناكون جمع ناكى . فصوص ثلاث : أقصى

الشيء آخره وأبعده ، أى بيوتكم آخر ثلاثة بيوت من بيوت قومكم ، الوقائص :
هي التي سقطت فكسرت عنقها وماتت دون ذكاة .

(٣) لسان العرب (فصد) : ٣٣٦ / ٣ .

(٤) ديوانه : ٢٨٨ .

(٥) السابق : ٢٨٨ . (٦) السابق : ٢٩٠ .

(٧) أوجرها : انحرها

(٨) الألية : يريد الألية ، وهي العجيزة للناس وغيرهم ، وفي اللسان (٤٢ / ١٤)
كانوا يجتبون أليات الغنم أحياء ، جمع ألية وهى طرف الشاة ، والجب القطع .
وقيل مارتكب العجز من اللحم والشحم ، والجمع أليات وألايا .

الجنایات :

هي الأفعال التي قد يعتدى بها الانسان على غيره مما يستوجب العقاب والقصاص، وتعد جرماً يؤخذ به صاحبه ، وأنواع الاعتداءات كثيرة غير أن ما يعنيننا من ذلك حسب ماتوفر لنا من مادة أدبية هو الحديث عن السرقة والقتل .

أما السرقة فقد دلت الاخبار على قطع يد مقترفها عند قریش^(١) ، ولعل من العرب من أخذ بذلك ، وقد عزوا سننها الى قریش ثم اختلفوا في أول مشرع لها^(٢) ، غير أن عطهم هذا فيما يبدو كان لا يخلو من المحاباة ، فاذا كان الجاني شريفاً ذاهباً ومكانة تركوه ، وان كان ضعيفاً أقاموا عليه الحد ، وقد ذكرتُ حادثة من ذلك^(٣) .

وقد جاء في المحبر^(٤) : " قطعت قریش رجالاً في الجاهلية في السرقة منهم (وابصة ابن خالد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) سرق في الجاهلية فقطعت يده . . . وقطع (عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) قطع مراراً ثم سرق فرجم حتى مات . و" الخيار ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف) و (عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم) قطع في سرقة ابل . و (مدرك بن عوف بن عوف بن عبيد بن عمر بن مخزوم) و (مليح بن شريح بن الحارث بن أسد) . و (قيس بن قيس بن عدى السهمي) / وكانا سرقاً^(٥) / حلى الكعبة في الجاهلية ."

أما ما روى من شعر في ذلك فقد روى عند ما قطعت قریش يد مليح بن شريح ويد مدرك ابن عوف السابقين حين اشتركا في سرقة كنز الكعبة وحليها أن مالك بن عميلة^(٦) قال

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ١٠٠ ، ١٠٢ .

(٢) المعارف : ٥٥٢ ، صبح الاعشى : ١ / ٤٣٥ .

(٣) انظرها في الاوائل للعسكري : ١ / ٨٨ ، ٨٩ .

(٤) ص ٣٢٨ .

(٥) كذا في المحبر وصوابه وكانوا ان هم ثلاثة كما في السياق ، وذكر مقيس أيضاً منهم في

الاولئ : ١ / ٨٨ .

(٦) في معجم الشعراء : ٣٥٧ مالك بن عميلة بن السباق بن عبدالدار بن قصي

القرشي جاهلي . وذكر له شعراً يخاطب به هشام بن المغيرة المخزومي ، ويفتخر

بعشيرته .

في ذلك مخاطبا " حميد بن زهير " ، وكان ابن عم مليح : (١)

تَنَنِي حُمَيْدٌ أَنَّهُ كَانَ حَيْضَةً .. لِيَالِي بَانَتْ مِنْ مُلِيحٍ أَصَابِعُهُ
 لِيَالِي بَانَتْ كَفَّهُ مِنْ ذِرَاعِهِ .. فَأَصْبَحَ لَا يَدَّ نُو لِقَرْنٍ يُنَازِعُهُ
 وَدِرْوَسٍ مَخْزُومٍ تَرَكَنَا مُجَدَّلًا .. بِمَا قَدَّمَتْ أَظْفَارُهُ وَأَشَاجِعُهُ (٢)
 فَأَمْسَى تَلِيلًا لِلسَّبَاعِ تَنُوبُهُ .. تَسِيلُ دَمَا آرَاهُ وَكَرَاسِعُهُ (٣)

أما القتل فقد كان كثيرا بين العرب كثرة غاراتهم ، ولم يكن هناك من يقتص من المعتدى الا قرابة المقتول متى ماتمكوا من ذلك . غير أن العرب مع ذلك كانت تحاول ارضاء قرابة الميت بقدر غير يسير من المال حتى يتركوا ثأرهم في مقابل ذلك المال ، وهذا ما يعرف بالديات .

وقد ذكر الرواة أناسا جعلوا الدية مائة من الابل واختلفوا فيهم . (٤) غير أن الديات لم تكن على قيمة محددة فيما يبدو وان تختلف الدية باختلاف درجات القبائل ومنازل الناس ، فقد تكون عشرة من الابل وقد تبلغ ألفا . فاذا كان القتل من سواد الناس ومن القبائل الصغيرة الضعيفة ، كانت ديته قليلة ، أما اذا كان من أشرف القبيلة زادت ديته عن ذلك تبعا لمنزلة القتل ولمكانته . واذا كان القتل ملكا ، كانت ديته ألفا من الابل ، وتسمى هذه الدية (ادية الملوك) (٥)

وقد كثر في الشعر الجاهلي حديثهم عن الديات ، وقد كان الاشراف والاجواء

(١) المحبر : ٣٢٨ .

(٢) درواس : لقب مدرك بن عوف كما في المحبر .

(٣) تليلا : مصروعا ملقى على الارض ، تنوبه : تتناوب عليه تأكله . آراهه : واحدها

يأرب ، وهي أعضاء ، أي أعضاء الجسم . كراسعه : جمع كرسوع : وهو العظم الناتق عند الرسغ من اليد ، وكرسوع القدم : مفصلها من الساق .

(٤) الروض الأنف : ٤٣ / ٢ وجعله أبا سيارة ، صبح الأعشى : ٤٣٥ / ١ ، جعله عبد المطلب . لأبي العباس أحمد القلقشندی ، نسخه مصورة عن الطبعة الاميرية .

(٥) بلوغ الأرب : ٢٢ / ٢ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٣٩٢ / ٥ .

يتحملون دفع الديات عند ما يسعون بالصلح بين المتقاتلين ، وربما أتاهم من عليه الدية يسألهم فيتحملوها عنه . ووساطة " الحارث بن عوف " و " هرم بن سنان المرى " ^(١) بين قبيلتي عيس وذبيان في الصلح واحتمالهما ديات القتلى مشهورة ذائعة ، وقد خلد لنا زهير بن أبى سلمى هذه المفخرة لهذين الرجلين اللذين أشار بهما زهير وجعل فيهما غرر مداعبه .

(٢)
يقول زهير :

سَعَى سَاعِيَا غَيْظَ بِنِ مَرَّةٍ بَعْدَ مَا . . . تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ ^(٣)
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ . . . رِجَالٌ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِينًا لِنَعْمِ السَّيِّدِ إِنْ وُجِدَ تَمَا . . . عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُسْرَمِ ^(٤)
تَدَارَكْتُمَا عَيْسًا وَذَبْيَانَ بَعْدَ مَا . . . تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ ^(٥)

ويبين زهير كيف قام السرجلان بحمل هذه الديات الكثيرة وأنهم وفوا بها لأهلها ، وقد

(١) الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ، من مشاهير الجاهلية وفرسانها ، أدركه الاسلام فأسلم ، وقيل ان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضع مابقى عليه من ديات القتلى التى حملها فى الجاهلية . وانظر الاستيعاب : ٢٩٧ ، الاصابة (١٤٦٢) ١ / ٥٩٠ .

هرم بن سنان ابن أبى حارثة المرى ، مدوح زهير وأحد أجواد الجاهلية ، مات هرم قبل الاسلام ، وهو ابن عم الحارث السابق الذكر ، وانظر : امثال السيدانى ١ / ١٨٨ ، الاغانى : ١٠ / ٣٠٤ وما بعدها .

(٢) ديوان زهير " الأعلم " : ١٤ ، ١٥ .

(٣) الساعيان : الحارث بن عوف وهرم بن سنان ، وقيل خارجة بن سنان وغيث بن مرة . تبزل بالدم : أى تشفق بالدم الذى كان بينهما .

(٤) السحيل : الخيط المفرد ، المبرم : المفتول . والمعنى على كل حال من شدة الامر وسهولته .

(٥) تداركتما عيسا وذبيان : أى بالصلح بعدما تفانوا بالحرب . منشم : امرأة يضرب بها الشؤم ، زعموا انها كانت عطارة ، فتحالف قوم وأخذوا من عطرها ، ومعنى ذلك عندهم أن يتعاهدوا على القتال حتى الموت ، وزهير يضرب بها المثل هنا .

كانت غرامة أولئك القتلى ابلا صحيحة تامة من خير المال: (١)

فَكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُمْ .. عَلَالَةَ الْفِي بَعْدِ الْفِي مَصْنَعٍ (٢)

تَسَاقُ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةً .. صَحِيحَاتِ مَالِ طَالَعَاتِ بِمَخْرَمٍ (٣)

والدية هي العقل كما تسمى أحيانا وجمعها عقول ، وسميت بذلك لأن الدية كانت عند العرب في الجاهلية ابلا لانها كانت أموالهم ، وكان القاتل يكلف أن يسوق الدية الى ورثة المقتول فيعقلها بالعقل ويسلمها الى أوليائه. (٤)

وقد خاطب "عوف بن الأحوص" قوما دفع اليهم ابنه مكان رجل أخذوه فأبوا ذلك كأنهم لم يروه كفؤا له في قصة يروى منها ذلك ، فبين لهم أنهم ليسوا ملوكا فيشتطوا في ديتهم ولكنهم من أصل واحد سواسية اذا وجبت عليهم الديات أدها ابلا وعبدا كما قال: (٥)

أَبُوكَ بُجَيْدٌ وَالْمَرْءُ كَقَبِّ .. فَلَمْ تَظْلِمْ بِأَخْذِكَ مَا تَشَاءُ (٦)

وَلَكِنَّ مَعْشَرَ مِنْ جِذْمٍ قَيْسٍ .. عَقُولُهُمُ الْإِبَاعِرُ وَالرَّعَا (٧)

(١) ديوان زهير : (الاعلم) ٢٤٠ .

(٢) يعقلونهم : يفرقون دياتهم ، العلالة : الشيء بعد الشيء ، مصمم : أى صحيح تام . صحيحات مال : قال الاعلم : أى ليست بعده ولا مطلق . يقال مال صحيح : اذا لم تدخله علة من عدة ولا مطلق . والذي يظهر أنه أراد أنها من خيار المال وليست من مهازيله . المخرم : التنية في الجبل أو الطريق والمعنى أنهم لم يشعروا بالابل ، حتى طلعت عليهم فجأة ، يشير الى وفاء الذين أدها وتحملوها .

(٤) لسان العرب (عقل) (١١ / ٤٦١) .

(٥) المفضليات : ١٧٥ .

(٦) بجيد : تصغير بجاد وهو كساء مخطط من أكسيه الاعراب . فلم تظلم بأخذك ماتشاء : أى لم تضع الشيء في غير موضعه ، وهو هنا يهزأ به ويتهمكم .

(٧) الجذم : الأصل . العقول : الديات . والمعنى نحن معشر من قيس اذا وجبت علينا الدية أديناها أباغرا وعبدا ، لسنا بملوك فلا تشتطوا علينا ، وانظر

شرح التبريزي : ٢ / ٦٤٩ .

وتسمى الدية الحمالة أو الفرامة ، و اذا كانت الدية على رجل قيل تحمل حمالة^(١) ،
وقد همدت العرب الرجال الذين يحملون الديات ويضمنون لأهلها دفعها لهم عند
عجز الجاني عن أدائها . وقد عيّر الأعمش أحد خصومه بأنه ليس ممن يحمل الديات
في القتلى فقال :^(٢)

ولا كخارجة اللذي . . . ولي الحمالة والصبارة^(٣)
ويقول معوذ الحكماء :^(٤)

حملت حمالة القرشي عنهم . . . ولا ظلما أردت ولا اختلابا^(٥)
ومع ما سلف من أخذ العرب بالدية كان بعضهم يكره ذلك ، بل ويراه فعلا مشينا ،
ويعيرون أخذ الدية بأكل الدم ، لأنه أخذ دية أخيه مالا فأكله فكأنه أكل دم قريبه ،
ولا شك أنهم كانوا يأنفون من قبولها الا فيما ندر ، ولم يكن يقبلها الا الضعفاء
الذين لا يستطيعون حيلة في أخذ ثأرهم .

هذا الأفوه الاودي يفتخر بأنفة قومه من أخذ الدية فيقول :^(٦)

وأنا لنعطى المال دون دماننا . . . ونأبى فما نسأم دون دم عقلا^(٧)
ويبرهن أحدهم على عدم أخذ العقل لسرعة فثائه وبقاء العار لا يذهب عنهم ان قبلوا

(١) تاج العروس (حمل) : ٢٨٩/٧ ، ٢٩٠ .

(٢) ديوانه : ٢٠٧ .

(٣) خارجة : هو خارجة بن سنان العيسى من مشاهير رجال بني عيس ، واشترك مع
الذين تحملوا ديات القتلى في حرب داحس والفجاء ، وانظر الاشتقاق : ٢٨٨ ،
الاصابة : ٥٩٠/١ .

الحمالة : الفرامة والدية التي يحملها قوم عن قوم ، الصبارة : الكفالة ، أى
تحمل الديات وتكفل بها لأهلها .

(٤) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، وسمى معوذ الحكماء لقوله في القصيدة
التي منها البيت الذى معناه : (أعود مثلها الحكماء بعدى . .) وهو فارس
وشاعر مشهور ، من اسرة عرفت بالسيادة والمروءة ، ومن مراجع ترجمته : سبط

اللالى : ١٩٠ - ١٩١ ، والروض الآنف : ١٧٥/٢ .

(٥) البيت فى المفضليات : ٣٥٨ ، اختلابا : أى خديعة .

(٦) الطرائف الادبية : ٢٣ . عبد العزيز الميمنى . ط : دار الكتب العلمية - بيروت .

(٧) فى شرح الحماسة للمرزوقى : ٢١٣/١ منسوبة لبعض بنى فقعس .

(١)
ذلك :

فلا تأخذوا عقلاً من القوم أننسى . . أرى العارَ يئقَى والمعاقلُ تذهبُ
ويروى ان امرأة من ضبة قالت لقومها : لا تأخذوا نوقاً ولكن أرووا سيوفكم من دمنا
أعدائكم ، فان لم تتأروا فلا درت يناقكم لبنا :

الا لا تأخذوا لبناً ولكين . . أن يقوا قومكم حدَّ السَّلاح
فان لم تتأروا عمراً بزبيد . . فلا درت لبون بني رباح (٢)
وقد أشار الكمي (٣) في شعره مفتخراً بأجدانه الي سنهم الدية مائة من الابل ،
فيقول : (٤)

أبونا الذي سنّ العثين لقوميه . . ديات وعداها سلوفا منيها
فسلمها واستوثق الناس للذي . . تعلل لها سن فيها حروبها
غنائم لم تجمع ثلاثاً وأربعاً . . مسائل بالالحاف شتى ضروبها

(١) الحماسة بشرح المرزوقي : ١ / ٢١٥ .
(٢) حماسة البحترى : ٧٣ . ابو عبادة البحترى . بعناية كمال مصطفى ،
ط ١٩٢٩ م . المطبعة الرحمانية - مصر .

(٣) الكمي بن زيد الاسدي من شعراء العصر الاموي ، كان يتشيع لآل البيت ،
وقال في ذلك شعرا كثيرا ، ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي ١٢٦ للهجرة ، ويبدو أنه
لم يكن من غلاة الشيعة لأنه مدح بني أمية . وانظر : طبقات فحول الشعراء :
١ / ٣١٨ وما بعدها ، ٢ / ٥٣٩ ، ، الاغانى : ١ / ١٧ ،
وما بعدها .

(٤) ديوان الكمي : ج ١ ق ١ ص ١١٣ ، ١١٤ . جمع وتقديم د . داود سلوم
ط مكتبة الاندلس - بغداد .

القسامة :

نلحق القسامة بالحديث عن الدية ان هي من أحكامها التي أخذ بها الجاهليون وهي من القسم ، ويراد بها * أن يقتل رجلا فلا تشهد على قتل القاتل اياه بينة كاملة ، فيجزي أولياء المقتول فيدعون قبل رجل أنه قتله ويدلون بلوث^(١) من البينة غير كاملة ، وذلك أن يوجد المدعى عليه متلطخا بدم القتل في الحال التي وجد فيها ولم يشهد رجل عدل أو امرأة ثقة أن فلانا قتله ، أو يوجد القتل في دار القاتل وقد كان بينهما عداوة ظاهرة قبل ذلك ، فإذا قامت دلالة من هذه الدلالات سبق الى قلب من سمعه أن دعوى الأولياء صحيحة فيسب حلف أولياء القتل خمسين يمينا أن فلانا الذي ادعوا قتله انفرادا بقتل صاحبهم ما شركه في دمه أحد ، فإذا حلفوا خمسين يمينا استحقوا دم قتلهم فان أبوا أن يحلفوا مع اللوث الذي ادعوا به حلف المدعى عليه وبرى ، وان نكل المدعى عليه عن اليمين خيّر ورثة القتل بين قتله أو أخذ الدية من مال المدعى عليه^(٢) .

وقد دلت المصادر على أخذ بعض الجاهليين بها ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقر القسامة على ما كانت عليه في الجاهلية وحكم بها أيضا^(٣) .

وقد ورد في الصحيح أن الجاهلية حكم بالقسامة فيها ، ذلك أن رجلا من قريش استأجر أحد بني هاشم في أحد أسفاره فحذفه بعضا كان فيها أجله فمر بالهاشمي رجلا أوصاه بابلاغ بني هاشم خبره ، فلما عاد القرشي زعم أن صاحبه مات في سفرهم فلما علموا بفدرة أتوه لثأرهم وخيروه بين دفع مائة من الابل أو يحلف خمسون رجلا من قومه أنه لم يقتله أو يقتلوه به فحلف ثمانية وأربعون رجلا واستفدى الباقيان من الخمسين بابل فقبلوا حلفهم ثم كانت عاقبة الذين أقسموا أنه لم يحل عليهم الحول وفيهم عين تطرف^(٤) .

(١) اللوث : شبه الدلالة ولا يكون بينه تامة ، مأخوذ من التلوث وهو التلطخ .

(٢) لسان العرب (قسم) : ١٢ / ٤٨١ .

(٣) جامع الاصول من أحاديث الرسول : ١١ / ٢١ وما بعدها .

(٤) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٧ / ١٥٥ .

وقد سجل لنا أبوطالب هذه الحادثة في شعر يروى له في ذلك فيقول : (١)

أفني فضّل حَبَلٍ لا أباك صَرَّيتَه .. بمنسأةٍ قد جاء حبلٌ وأحبلٌ (٢)

هَلُمَّ إلى حُكْمِ ابنِ صخرةِ أنسه .. سيحكّمُ فيما بيننا ثمَّ يَعْدِلُ (٣)

كما كان يَقْضِي في أمورِ تنويننا .. فيَعْمِدُ للأمرِ الجميلِ فيفصِّلُ

ويروى أن أبا الوليد أحد بني عامر بن لؤي خاطب أبا طالب في ذلك بقوله : (٤)

أتدعو إلى حكمِ بنِ صخرةِ أنفا .. أباةٍ لحكمِ العبدِ والعبدُ أنذلٌ (٥)

خِداشٌ إذا ما هاجتِ الحربُ فارسٌ .. وعندِ بنيِ سجعِ بمكةِ يعمَلُ

أبا طالبٍ ما كنتِ تعلمُ أنه .. خِداشٌ إذا ما كانَ يومَ مُحجَّلِ

(١) المحرّج : ٣٣٧ ، البيان والتبيين : ٤٠ / ٣ ، وبه البيت الاول فقط ، لسان

العرب : ١٦٩ / ١ (نساء) .

(٢) لا أباك : أي لا أبالك وانظر من أمثلة ذلك البيان والتبيين ٤٠ / ٣ ، ٤١ .

منسأة : هي العصا . وفي القرآن الكريم * فما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته* .

(٣) ابن صخرة : هو الوليد بن المغيرة ، وصخرة أم المغيرة ، بنت الحارث بن

عبد الله بن قسر كما في المحبر .

(٤) الاوائل للعسكري : ٧٨ / ١ - ٨٠ .

(٥) أنفا : جمع أنف ، أي يأنف أن يضام ويكره ذلك حمية وعزة .

الحكم في المنازعات :

تقع الخلافات بين الناس عند تباين آرائهم حول أى شأن من شؤون حياتهم ، وكل من المتنازعين يخال الحق معه فيما يبدوله ، وقد يكون أحدهم معتديا لكنه يصر على ذلك ، وقد كان المتنازعون في الجاهلية عند ما يتمادى بينهم الخلاف ، وتخشى الفتنة أو يقع النزاع يبحثون عن يحسم ذلك الخلاف ويحكم بين المتنازعين . وربما ذهبوا الى أحد الحكماء المشهورين ليحكم بينهم ، وقد يحكمون شيوخ القبائل ورؤساء العشائر وأصحاب الرأي والحنكة في هذه الخلافات .

والذى يعنينا من حكمهم في المنازعات ما نراه يدخل في أحكام الحنيفية ، ذلك أنهم أخذوا بحكم (البيّنة على المدعى واليمين على من أنكر)^(١) . ويقتضى هذا الحكم فيمن ادعى أى أمر أن يأتي ببيّنة تدل على صدق ما يدّعيه والا حلف له المدعى عليه يمينا يبعد بها ما ادعى عليه .

وقد حكم الاسلام بذلك وأقرّه وقضى به الرسول - عليه الصلاة والسلام - في بعض من

تخاصموا اليه .^(٢)

وقد أشار " زهير " الى ذلك بقوله :^(٣)

فانَّ الحقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ .. يمينٌ أو نِفَاؤٌ أو جَلَاءٌ

فذلِكُم مَّقَاطِعُ كُلِّ حَقٍّ .. ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُمْ شِفَاءٌ

فالذى يبين الحق واحدة من ثلاث خصال عند زهير ، فأولها اليمين التى ان حلف بها رضى الخصمان بها ، أو العنافة الى رجل ليحكم بينهم ويعلم حجج كل منهم ويرى رأيه فى ذلك ، أو باظهار بيّنة تجلو الامر وتبين وجه الحق فيه .

ويبدو أنهم كانوا يؤدون هذه الايمان فى الاماكن المقدسة عندهم ، وذلك من

(١) مجمع الامثال : ١/١١١ .

(٢) جامع الاصول من احاديث الرسول : مبارك بن محمد * بن الاثير * ٢٩٦/١٢ ،

٢٩٧ . ط ٢ (١٤٠٠) دار احياء التراث العربى - بيروت .

(٣) ديوانه : (الأظم) ١٣٨ ، (ثعلب) ٧٥ .

تعظيمهم للأيمان وحتى يستشعر الحالف عظمة الأمر والمكان فلا يحلف الا على حق ،
 كأن يحلفوا عند أصنامهم ، وقد ورد أن قريشا كانت تأتي عند الحطيم وهو ما بين
 الركن والباب ^(١) وتحلف عنده ^(٢) . وربما فعلوا أمورا أخرى غريبة عند عقد احلافهم
 كلعق الدم ^(٣) أو مس الطيب ^(٤) .

وقد أشار "زهير" الى عقد أيمانهم في الاماكن المقدسة ، فذكر أنهم سيحلفون
 في مكة ان هي موضع القسم فيقول : ^(٥)

فَتَجَمَعَ أَيْمَانٌ مِنَّا وَمِنْكُمْ . . . بِمُقَسَّمَةٍ تَمُورُ بِهَا الدَّمُ مَاءً ^(٦)

وتدل المصادر على أنهم ربما أوقدوا نارا أو تحالفوا أو حلفوا عندها ، ويدعون الله
 بحرمان الخائن من منافعتها ، ويهولون ذلك عليه ، وربما دنوا منها حتى يجدوا حرها
 وتكاد تحرقهم ، وقد سموا هذه النار بنار التحالف والحلف ^(٧) أو نار المهول ^(٨) .

وقد ذكر لنا أوس بن حجر هذه النار في شعره يذكر غيرا قائما فوق نشز :
 إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ . . . كَمَا صَدَّ عَنِ نَارِ الْمُهْوَلِ حَالِفٌ ^(٩)

- (١) هذا المشهور وقيل غير ذلك ، وانظر لسان العرب (حطم) ١٣٩/١٢ ، ١٤٠ .
 (٢) السابق ، تاج العروس (حطم) : ٣٥١/٨ .
 (٣) جاء في السيرة : المجلد الاول ١٩٦ ، ١٩٧ في اختلاف قريش فيمن يضع الحجر
 الاسود : " فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الاخرى ، حتى
 تكاوزوا وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفته مملوءة دعا ، ثم
 تعاقدواهم وبنو عدي ابن كعب بن لؤي على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك
 الدم في تلك الجفنة . . . "

(٤) انظر (حلف المطيبين) في السيرة النبوية : المجلد الاول ١٣٠ وما بعدها .

(٥) ديوانه : ١٤١ (الاعلم) .

(٦) تمور : تسيل ، يشير الى نحر البدن بمكة .

(٧) الحيوان : ٤٧٠/٤ وما بعدها .

(٨) ايمان العرب في الجاهلية : ٣٤ - ٣٧ ، بلوغ الارب : ١٦٢/٢ .

(٩) ديوانه : ٦٩

ولا شك أن للإيمان عند العرب شأنا عظيما في حياتهم ، وقد يسمونها الانفال^(١) ،
ولذلك وجدنا من أفرد لها مؤلفا عاما^(٢) ، وربما خصصوا لكل قبيلة نوافلها كنوافل
قريش ، ونوافل كنانة وغيرها^(٣) .

وقد كانت للعرب أيمان كثيرة بيد أنهم لما كانوا يؤمنون بالله - جل وعلا - جعلوا
القسم به أعظم أيمانهم ، ولذلك قال النابغة^(٤) .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة .. وليس وراء الله للمرء مذهب

(١) لسان العرب : ٦٧٣ / ١١ (نفل) .

(٢) كالتبجيري في كتابه ايمان العرب في الجاهلية .

(٣) الفهرست : ١٤١ (أخبار هشام الكلبى) . ط . دار المعرفة - بيروت .

(٤) ايمان العرب في الجاهلية : ١٢ ، ١٣ .

(٥) ديوانه : ٥٥ .

أحكام النساء :

يشارك النساء بجهد بارز في المجتمعات ، وللمرأة أعمال تختص بها في أغلب البيئات ، وكان نساء الجاهلية يساعدن أزواجهن ومن يعولهن في كثير من الاعمال التي تقتضي ذلك حسب ثراء الاسرة وما جرت به العادة بينهم ، وقد كان العربي يأنف من الاعتداء على النساء ، ويرون ذلك عارا كبيرا لحق بهم ، وربما قاد الى حرب اضررت ناراها عددا من الايام . ونرى ان المرأة في الجاهلية كانت مهيضة الجناح مهضومة الحقوق في الغالب ، وربما عدوها ضمن متاعهم .

وتحتل المرأة في الشعر الجاهلي ^(١) حيزا لا بأس به مما كانت عليه من مكانة في الاسرة والمجتمع أما وزوجه وبناتها وقريبه ، ودورها في الحياة العامة في السلم والحرب وأعمالها وثقافتها وغير ذلك .

وقد تبين لنا أن من أحكام بعض الجاهليين مانعده من أحكام الحنيفية فيما يخص النساء ، وسنأتي على بيان ذلك في ضمة ماورد من شعرهم في ذلك .

(١) انظر كتاب : المرأة في الشعر الجاهلي للدكتور : أحمد محمد الحوفي . ط٢ . دار الفكر العربي - القاهرة .

النكاح :

ونعنى به الزواج ، والنكاح هو العقد فى الأصل ، ثم استعير للجماع ^(١) . ويكون ذلك باتصال الرجل بالمرأة بخطبتها من والدها أو من يتولى أمرها ثم يرضى الطرفان ويتفقان على ذلك ويعمل له ما اعتاد الناس فعله فى هذا الشأن حسب عادة كل قوم .

وقد كان النكاح شائعا بين سائر العرب ، فهو أمر تقضيه الفطرة وتتوق اليه النفوس ، وقد أشار القرآن الكريم الى نكاح الجاهليين فى بعض الآيات ، ومنها تحريم نكاح الآباء كما قال تعالى : " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف " ^(٢) الى غيرها من الآيات التى تعرضت لشئون النكاح وترك ما كان للجاهليين فيه من عادات ^(٣) .

وقد بلغ من أمر نكاحهم أن أباحوا لأنفسهم تعدد الزوجات ، فروى " أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل ^(٤) ، وجاء الإسلام ومن العرب من له عشر من النساء فأمروا بامسك أربع وتسريح ما عداهن ^(٥) .

وجاء فى الحديث الصحيح " أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته ، أو ابنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها . ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته ، اذا طهرت من طمئتها : أرسلى الى فلان فاستبضعى منه . ويعتزلها زوجها ، فلا يمسه حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه . فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب . وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع . ونكاح آخر : يجتمع الرهوط ما دون العشرة . فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيبها ، فاذا حملت ووضعت ، ومريال بعد أن تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم . وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان - تسقى

(١) المفردات للراغب : ٥٣٥ .

(٢) النساء : ٢٢ .

(٣) انظر المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ٧١٨ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٥٦ / ٤ ، ١٥٧ .

(٥) المحبر : ٣٥٧ .

من أحببت باسمه - فتلحق به ولدها . لا يستطيع أن يمتنع الرجل . ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير . فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها - وهن البغايا - كن ينصبن على أبوابهن الرايات ، وتكون علما فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حطت احداهن - ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون . فالتا طبه (١) ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الا نكاح الناس اليوم . (٢)

ونجد الاعشى يشير لنا الى تمتعه بالنساء اما نكاحا او زنى فيقول : (٣)

وَأَقْرَرْتُ عَيْنِي مِنَ الْفَانِيَا .. تِلْمَا نِكَاحًا وَإِلْمَا أُنْ

وقال أحدهم (٤) مشيرا الى عدم الوفاق في الزواج والفشل فيه بعد أن تقدم وخطب ثم

صرفت الزوجة لغيره فتزوجها :

سَلَا رِيَّةَ الْحِدْرِ مَا شَأْنُهَا .. وَمِنْ أَيِّ مَا فَاتْنَا تَعَجَّبُ
 فَلَسْنَا بِأَوَّلٍ مِنْ فَاتَتْهُ .. عَلَى رَفَقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ
 فَكَائِنٌ تَصَّرَعَ مِنْ خَاطِبٍ .. تَزَوَّجَ غَيْرَ الَّتِي يَخْطِبُ
 وَزَوَّجَهَا غَيْرَهُ دُونََهُ .. وَكَانَتْ لَهُ قَبْلَهُ تَحْجَبُ

(١) التا طبه : التصق به .

(٢) رواه ابوداود . مختصر سنن ابى داود للحافظ المنذرى : ١٧٩/٣ .

(٣) ديوانه : ٦٧ .

(٤) هو رجل من اليهود كما في المفضليات : ١٧٩ .

تحريم المحارم :

وهن النساء اللاتي يحرم على الرجل الزواج منهن كالبنات والأمهات والخالات والعمات والأخوات وغيرهن . والذي دلت عليه المصادر أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين لقوله تعالى " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف . . . وان تجمعوا بين الأختين . . . " (١) .

ومع وجود الزواج بأمرأة الأب والجمع بين الأختين . . . كانوا يرونه قبيحا مكروها وهو أشنع ما كانوا يفعلون ويسمون الذي يخلف على امرأة أبيه (الضيَّزن) ، وقد يسمون هذا النكاح بنكاح المقت . (٢)

وقد جاء أن البرج من مسهر الطائي^(٣) انتبه في الليل وكان شارباً فسمع أخته (الفقاظة) تبول . فقال : انى لأسمع شخة^(٤) لا بد من أن أزخها^(٥) زخة . ثم واثبها فقالت : ويلك ! أنا أختك . فلم يلبث أن افترعها^(٦) . فلما أصبح هرب على وجهه إلى الشام ، فأقام هناك وتنصر . ثم ان^(٧) الحمام^(٧) هجاه وذكر فعله بأخته ، ولو لم يكن ذلك قبيحا ومنكرا لما شتم عليه وسبه بذلك : (٨)

(١) سورة النساء : ٢٢ ، ٢٣ . وانظر تفسير الطبرى : ٤ / ٢١٧ .

(٢) المحبر : ٣٢٥ ، لسان العرب : ٢ / ٩٠ (مقت) ، ١٣ / ٢٥٤ (وزن) بلوغ الأرب :

٥٢ / ٢

(٣) هو البرج بن مسهر بن الجلاس أحد بنى جديده ، ويعد من الشعراء ، ومن شرب

الخمير صرفا حتى مات ، وانظر المحبر : ٤٧٠ ، المؤلف والمختلف : ٦١ ، ٦٢ .

(٤) شخه : صوت البول عند نزوله .

(٥) أزخها : أى أجامعها .

(٦) أى علاها وواقعها .

(٧) الحصين بن الحمام بن ربيعة بن مساب بن حرام المرى ، كان سيدا شاعرا وقتيا ،

وكان سيد قومه ، وقد ذكر في الصحابة وهو من المتفق على أنهم اشعر العقليين في

الجاهلية ، ومعه المتلمس والمسيب بن علس . وانظر : الشعر والشعراء : ٢ / ٦٤٨

المؤلف والمختلف : ٩١ ، الاغانى : ١٤ / ١ ، وما بعد ها .

(٨) المحبر : ٤٧١ ، ٤٧٢ .

لا تحسبن ، أبا الغفافة أننى . . . رجل يخبرك لستُ بالعمّالِم
 استنزلوك وقد بللت نطاقيها . . . من بنت أمك والرمال د وامي (١)
 وهذا * أوس بن حجر* يهجو خصومه ويعيرهم بأنهم كالمجوس يتزوج الرجل منهم امرأة
 أبيه ويخلفه عليها ، وهذا من فعل الفرس فيقول : (٢)
 وَالْفَارِسِيَّةُ فِيهِمْ غَيْرُ مَنْكَرَةٍ . . . فَكُلُّهُمْ لِأَبِيهِ ضَيِّزٌ سَلِيفٌ
 وقد روى أن * حاجب بن زرارة التميمي* (٣) تزوج ابنته (د ختنوس) نظرا لتأثره
 بالمجوسية. (٤) غير أن هذا الخبر تردده بعض المصادر التي أوردت ذلك ، وإن الخبر
 مصنوع فيما يبدو ، وقد ذكرت أن زوجها * عمرو بن عمرو بن عدس* وليس حاجبا ، وأما
 ما روى من شعر زعموه لحاجب فهو للقيظ بن زرارة والد د ختنوس قاله عند موته ، وهو
 قوله : (٥)

يَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكَ دَ خَتْنَوْسِ . . . إِذَا أَتَاكَ الْخَبْرُ الْمَرْمُوسِ (٦)
 أَتَحْلِقُ الْقُرُونَ أَمْ تَمِيْسُ . . . لَا بَلْ تَمِيْسُ إِنَّهَا عَمْرُوسُ

(١) الاغانى : ١٤ / ١٢ .

(٢) ديوانه : ٧٥ .

(٣) حاجب بن زرارة بن عدس الدارمي التميمي : من سادات العرب في الجاهلية ،
 رهن فرسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به وبعثه النبي على صدقات بني تميم

الاجانى : ١١ / ١٥٠ ، الاصابة : ١ / ٥٦١ ، (١٣٦٠)

(٤) الجامع لاحكام القرآن : ٥ / ١٠٤ ، بلوغ الارب : ٢ / ٥٢ ، ٢٣٥ .

(٥) الاغانى : ١١ / ١٤٤ ، تاج العروس : ٤ / ١٤٧ ، ١٤٨ (د ختنوس) .

(٦) المرموس : اسم مفعول من رمس ، رمس له الخبر : أى أخبره به .

المهر :

والزواج الشائع عند الجاهليين ما كان بمهر يتفق عليه ، ويدفعه الزوج الى أب زوجته أو من ينوب عنه ، وهو الصداق الذي تستحقه المرأة عند زواجها ، ولا يتم الزواج الا به ، فهو علامة صدق ذلك وصحته .

ولاشك أن منهم من كان لا يعطى النساء من مهورهن شيئا فنهاهم الله عن ذلك بقوله : " وآتوا النساء صدقاتهن نِحْلَةً . . . " (١) وجاء أن " أهل الجاهلية اذا زوج الرجل ابنته استجعل لنفسه جعلاً يسمى الحلوان ، وكانوا يسمون ذلك الشيء الذى يأخذه النافجة ، كانوا يقولون بارك الله لك فى النافجة " (٢) والحلوان : " أن يأخذ الرجل من مهر ابنته لنفسه ، وهذا عار " عند العرب " (٣) ، وأما النافجة فقد " كانت العسب تقول فى الجاهلية للرجل اذا ولدت له بنت : هنيئاً لك النافجة أى المعظمة لمالك ، وذلك أنه يزوجهها فيأخذ مهرها من الأبل فيضمها الى ابله فينفجها أى يرفعها ويكثرها " (٤)

وقد عرف الجاهليون نكاحاً لا مهر فيه وذلك فى حروبهم ، فاذا أسروا نسائهم تزوجوهن بلا مهر لانهم أخذوهن بالقتال ، وقد اشار الاعشى الى ذلك بقوله : (٥)

وَمَنْكُوحَةٍ غَيْرِ مَهْرٍ مَهْرٍ . . . وَأُخْرَى يُقَالُ لِمَهْرٍ فَارٍ هَا (٦)

ويختلف مقدار المهر عند الجاهليين (٧) باختلاف الناس فى الشراء والعادة والمكانة وغيرها . وقد روى أن عبدالمطلب بن هاشم مهر فاطمة بنت عمر ومائة ناقة ومائة رطل من الذهب (٨) ، ومهر الحارث بن سليل الاسدى الزياء بنت علقمة بن حفصة الطاءى

(١) النساء : ٤ ، تفسير ابن كثير : ١٨٦/٢ .

(٢) لسان العرب : ٦٥٠/١١ (نحل) .

(٣) السابق : ١٩٣/١٤ .

(٤) السابق : ٣٨٢/٢ (نفج) .

(٥) ديوانه : ١٢٥ .

(٦) فادها : أى يفتديها ممن أسرها بمال ونحوه .

(٧) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى : ١٩٢ - ١٩٦ .

(٨) السيرة الحلبية : ٥٠/١ .

مائة وخمسين من الابل وألف درهم وربما وصل المهر الى مائة ناقة أو أكثر^(١) وكان أهل
 كندة مشهورين بالتفالى فى مهورهم.^(٢)

ونجد الابيرد بن هرثمة العذرى^(٣) يفتخر بسماحة نفسه ان ساق خمسين من الابل
 مهرا لزوجته وقال:^(٤)

إِنِّى لَسَمَّحٌ إِذْ أَفْرَجَ بَيْنَهُمَا .. بِأَكْثَبِ الْبَقَارِ يَا أُمَّ هَاشِمِ^(٥)

فَأَنْتَى صِدَاقُ الْمُحْصِنَاتِ إِفَالَهَا .. فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا جُلَّةٌ كَالْبِرَاعِمْ^(٦)

وقال خالد بن جعفر، عن على هوازن بفعله^(٧)

وَجَعَلْتُ مَهْرَ بَنَاتِهِمْ وَنَسَائِهِمْ .. عَقَلَ الْمُلُوكِ هَجَائِنًا أَبْكَارًا^(٨)

وذكر من المهر القليل رفاع الجلد التى أجبر المهلهل^(٩) على أخذها من قبيلة جنب،

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام : ٥٣١ / ٥ .

(٢) البيان والتبيين : ٢٨ / ٢ .

(٣) الابيرد بن هرثمة العذرى ، شاعر قد يقال "الأزير" ، وقد يسمى : أريد بن

هرثمة وانظر المؤلف والمختلف : ٢٥ ، تاج العروس : ٣٠٠ / ٢ (برد) .

(٤) المؤلف والمختلف : ٢٥ ، معجم البلدان : ٤٧٠ / ١ .

(٥) أفرج : أفرق بينها . أكثبه البقار : موضع يرمل عالج وقيل واد وقيل غير ذلك

انظر معجم البلدان : ٤٧٠ / ١ (بقار)

(٦) إفالهها : أى صفار الابل كينات مخاض ونحوها . جلّة : هى من الابل المسنة .

البراعم : شعاريخ الجبال . وهى رؤس الجبال المستديرة الطويلة الدقيقة .

(٧) خالد بن جعفر بن كلاب من بنى عامر بن صعصعه ، فارس شجاع ، واشتهر

بقتله زهير بن خزيمه العيسى سيد عيس ورئيسهم ، وقد قتل خالد الحارث

ابن ظالم المرى . وانظر الاغانى : ٨٢ / ١١ ، ٨٣ ، ٩٤ / ١١ وما بعدها

والبيت فى الاغانى : ٩٠ / ١١ .

(٨) عقل الملوك : دياتهم وكانت عند هم ألف بغير . هجائن : وهى البيض من

الابل وتعدّها العرب أكرمها .

(٩) المهلهل : اسمه عدى بن ربيعة ، سمى بذلك لأنه أول من أرق الشعر وهلهله

وهو أخو كليب بن وائل الذى هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب ، كما أنه خال

امرى القيس ، وانظره فى الشعر والشعراء : ٢٩٧ / ١ - ٢٩٩ ، خزنة الادب

١٦٤ / ٢ وما بعدها .

وكان قد اعتزل قومه بعد حروبهم مع بكر ، ابقاءً عليهم أن تفنيهم الحرب بسبب الشار
 لأخيه كليب ، وسار الى اليمن ونزل في جنب وهم حي من مذحج فخطبوا اليه ابنته
 فمنعهم ، فأجروه وأصدقوها جلودا من آدم ، فتحسروا وتالم بقوله :

اعزز على تغلب بما لقيت .. أخت بني الأكرمين من جشم
 أنكحها فقدّها الأراقم في .. جنب وكان الحياء من آدم (١)

(١) الشعر والشعراء : ٢٩٨/١ ، ٢٩٩ . الأراقم : هم كما في المعارف : ٩٦ ،
 جشم ، ومالك ، وعمرو ، وشعلبة ، والحارث ، ومعاوية ، بنو بكر بن حبيب بن
 عمر . وقد ذكرهم من اغتم بن تغلب . الحياء : هو المهر .

الطلاق :

وقد عرف العرب الطلاق وعملوا به في حياتهم ، وتدل الروايات على أن الطلاق كان عند هم ثلاثا ، فكان الرجل يطلق زوجته مرتين ثم يراجعها فاذا أوقع الثالثة حرمت عليه . (١)

غير أن ما ذكره المفسرون أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد ، فيطلق الرجل ثم يراجع مرات كثيرة حتى حذر الله لهم الطلاق بثلاث . (٢)

ويبدو أن من الجاهليين من كان يتحايل للحصول على امرأته اذا طلقها ، وذلك أن يتزوجها غيره مدة قصيرة ثم يطلقها حتى تحل له ، وعرف هذا المتزوج للفترة القصيرة بالمحلل وسمى أيضا التيس المستعار وقد حرم ذلك في الاسلام . (٣)

وقد أخذ الطلاق صورا عند الجاهليين منها طلاق الثلاث الذي يفترق به عهد الزوجان وقد ذكر ذلك الأعشى عند ما تزوج امرأة من هزّان ثم لم يرضها ولم يستحسن خلفها فطلقها وقال : (٤)

يَا جَارَتِي بَيْنِي فَاتِّكِ طَالِقَةً .. كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَابٍ وَطَارِقَةٌ (٥)
 وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا .. وَالْأَتْرَالُ فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ (٦)
 وَمَا ذَاكَ مِنْ جُرْمٍ عَظِيمٍ جَنَيْتِهِ .. وَلَا أَنْ تَكُونِي جِئْتِ فِينَا بِبَائِقَةٍ
 وَبَيْنِي حَصَانَ الْفَرْجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ .. وَمَوْمُوقَةٌ هُنَيْنَا كَذَاكَ وَوَامِقَةٌ (٧)
 وَذَوْقِي فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّي ذَائِقٌ .. فَتَاةٌ أَنَاسٍ مِثْلَ مَا أَنْتِ ذَائِقَةٌ

(١) المحبر : ٣٠٩ ، الاغانى : ١٢١ / ٩ ، ١٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير : (١ / ٣٩٩ ، ٤٠٠) ، الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ١٢٦ .

(٣) سنن ابن ماجه محمد بن يزيد القزويني : (١ / ٣٥٦) . تحقيق محمد مصطفى

الاعظمي . ط (١٤٠٣) شركة الطباعة العربية - الرياض .

(٤) ديوانه : ٣١٣ .

(٥) الجارة هنا زوجته . غاد : الذي يأتي غدوة في الصباح . طارق : أي يأتي ليلا .

(٦) بارقة : أي لائحة يريد العصا .

(٧) موموقة : محبوبه ، وامقه : محبة .

فَقَدْ كَانَ فِي شُبَّانِ قَوْمِكَ مَنَّكَحٌ . . . وَفَتِيَانِ هِزَّانِ الطَّوَالِ الْغِرَانِقِ (١)

ومن صوره الخلع ، وهو أن تفتدى المرأة نفسها ويطلقها زوجها مقابل مبلغ من المال

تدفعه المرأة أو أقاربها الى الزوج ، وقد ذكر أن " عامر بن الظرب " فعل ذلك . (٢)

ومن صور طلاقهم أيضا الظهار ، وذلك أن يقول الرجل لزوجته أنت على كظهر أمي

وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك بقوله " الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم

ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم . . . " (٣) . كما دلت المصادر على أن الايلاء كان من طلاق

اهل الجاهلية الذى يضارون به النساء ، وهو الحلف على ترك قربان المرأة مده ، وكان

ايلاءهم السنة والسنتين واكثر ، فوقت الله لهم فى الاسلام أربعة أشهر ؟)

وقد أبانت أشعار الجاهليين عن وقوع الطلاق فى بيئاتهم ، فهذا " طرفة بن العبد "

يجعل رماح قومه تطلق النساء ، وذلك أنها تقتل أزواجهن فى الحرب وتفرق بذلك بين

الزوجين وكان حال هذه المرأة كالمطلقة فيقول : (٥)

وَكَارِهَةٌ قَدْ طَلَّقَتْهَا رَمَاحُنَا . . . وَأَنْقَدَتْهَا وَالْعَيْنُ بِالْمَاءِ تَذْرِفُ (٦)

تَرَدُّ النَّحِيبِ فِي حَيَازِيمِ غَضَّةٍ . . . عَلَى بَطْلِ غَاثِرَتِهِ وَهُوَ مُزْعِفٌ (٧)

ويذكر النابغة الذبياني حاله عندما علم بوعيد " النعمان " له كالذى لدغته الافعى ، فلا

يخف عنه الالم حتى يرجع اليه ، وكأنما هو ذلك الرجل الذى يطلق زوجته ثم يراجعها : (٨)

فَيْتُ كَأَنْتَى سَاوَرْتِنَى ضَعِيلَةً . . . مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السَّمُّ نَاقِعٌ (٩)

(١) غرانقه : جمع غرنوق : وهو الشاب الجميل .

(٢) عيون الاخبار : عبد الله بن مسلم " بن قتيبة " : ٧٦ / ٤ . نسخة مصورة عن

طبعة دار الكتب المصرية .

(٣) المجادلة : ٢ . وانظر قصة خولة بنت ثعلبة مع زوجها فى تفسير ابن كثير : ٦٠ / ٨ - ٦٢

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٣ ، ١ ، بلوغ الارب : ٥٠ / ٢ .

(٥) ديوانه : ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٦) كارهة : أى امرأة كارهة . تذرف : تدمع .

(٧) ترد النحيب : أى تردد الزفير والبكاء على زوجها . وفى حيازيم غضة : أى تردد

النحيب فى صدر ذى غصه ، والحيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر .

(٨) ديوانه : ١٦٤ .

(٩) ساورتنى : وثبت على . ضعيلة : أى حية دقيقة ، وذلك اذا أسنت فكان سمها

أشد فتكا . ناقع : ثابت .

يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمَةً .. لِحُلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ (١)
تَنَازَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سَمْعِهَا .. تَطَلَّقَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ (٢)

ونجد " عمر بن شاس " كان له ابن أسود من أمه سوداء ، يقال له عرار ، وكانت امرأته تؤذيه وتستخف به فهددها بالطلاق ان لم تعامله بخير: (٣)

فَإِنْ كُنْتِ مَنِّي أَوْ تَرِيدِينَ صُحْبَتِي .. فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ (٤)
وَالْأَفْسِيرِي مِثْلَ مَسَارِ زَاكِبٍ .. تَعَجَّلْ خُمَسًا لَيْسَ فِي سَيْرَةِ أُمِّ (٥)

وقد يتوسم الرجل في المرأة التي خطبها شبابا وجمالا ، فلما يتزوجها لا يحظى بشيء

(١) يسهد : أي يكلف السهد أي السهر ، كانوا لا يتركون المسموم ينام لأنه اذا كان يقظان أرجى للسلامة من تأثير السم فيه ، ولذلك كانوا يجعلون في يديه أسورة ليوقظه صوتها اذا تحرك كيلا ينام وكانوا يجعلون الحلى فارغ الداخل فتكسون وسوسته أقوى ولذلك قال (لِحُلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ . سَلِيمَةً : السليم المددوغ يقولون له السليم تفاعلا كما سموا الركب المسافرين قافلة . من ليل التمام : من بمعنى في ، وليل التمام أطول الليل وهو ليل الشتاء .

(٢) تنازرها الراقون : أي أئذ بعضهم بعضا ، يقول بعضهم أنا أشفيه منها ويقول بعضهم أنت لا تستطيع ذلك . والراقون : جمع راق وهو الذي يرقى أي يعوز المريض بأقوال تشبه نفثات السحر عندهم . من سوء سمعها : من للتعليل ، سوء سمعها : عدم تأثيرها بالرقى كأنها صماء لا تسمع تلك الاقوال . تطلقه : أي تارة يتنفس عنه الالم ثم يراجعه (وكل ما سبق من شرح الديوان أخذناه) .

(٣) طبقات فحول الشعراء : (١/١٩٩ ، ٢٠٠٠ .

(٤) ربّت له الأدم : الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ تتخذ منه الزقاق والأوعية ونحوها ، وربّ الوعاء : دهن بالربّ وهو خلاصة التمر بعد طبخه وعصره ليمنع فساد السمن ، والمعنى عامليه برعاية كما تستلحق السمن بدهن وعائه .

(٥) الخمس : ورد الابل في اليوم الرابع بعد اليوم الذي وردت فيه فهي حينئذ ظمأ فيعجل بها صاحبها الى شريعة الماء أشد عجلة ، الأدم : المقاربة واليسر .

ما رجاء فيها فيطلقها ، وحدث ذلك لرجل خطب امرأة وباع ابلا له ومهرها ، فلما دخل بها وجدها عجوزاً مولىة فطلقها وقال :

وما لمت نفسي مذ فطمت بلحيفة .. كما لمت نفسي في عجوز بنى شميس
فبانت ولم أعبن غداة اشتريتها .. وبعثت ثلاث المال بالثمن البخس^(١)

وقد لا تأنس المرأة الى زوجها فتطلب الطلاق منه ، ومنه ما حدث لعبيد بن الأبرص مع زوجته وقد قل ماله وكبر سنه فزهدت فيه فقال :^(٢)

تلك عرسى غضبى تريد زيا لى .. البين تريد أم لـ دلال^(٣)
ان يكن طبك الفراق فلا أحـ فل أن تعطفى صدور الجمال

والمعروف أن الطلاق بيد الرجل غير أن هناك نساء كن يشترطن على أزواجهن أن يكون الطلاق بيدهن ، وقد وردت أسماء نساء كانت احداهن اذا أصبحت عند زوجها كان أمرها اليها ان شاءت أقامت وان شاءت تركته وذلك لشرفهن وقد رهن^(٤) . وقد كان لهن طريقة تدل على طلاقهن^(٥) . ومنهن سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب بن هاشم ، وأم خارجة التي ضرب بها المثل (أسرع من نكاح أم خارجة) ، وفاطمة بنت الخرشب الانمارية وغيرهن ، وقد روى من الشعر ما يدل على ذلك^(٦) .

وما يلحق بالطلاق العدة ، وهي الفترة التي تمكثها المرأة بعد وفاة زوجها بلا نكاح ، وقد كانت من المشهورات المسلمة في الجاهلية . وكانت مما لا يكادون يتركونها^(٧) . بل قد تشدد وأهيبها ، ففي الصحيح أن " أم سلمة تقول : جاءت امرأة

(١) عيون الاخبار : ٤٧ / ٤ .

(٢) ديوانه : ١٠٦ .

(٣) زيا لى : أى فراقى .

(٤) المحبر : ٣٩٨ .

(٥) الاغانى : ٣٨٧ / ١٧ (أخبار خاتم الطائي) ، ذيل الامالى : ١٥٣ .

(٦) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى : د . أحمد محمد الحوفى : ٢٦٨ ، ٢٦٩ . ط ٢ ، دار الفكر العربى . القاهرة .

(٧) حجة الله البالغة : أحمد شاه ولى الله الدهلوى : ١٠٦ / ٢ . ط (١٣٢٢)

الى الرسول صلى الله عليه وسلم . فقالت يا رسول الله : أن ابنتى توفى عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها ، أفتكحلها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا - مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول : لا - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هي أربعة أشهر وعشر ، وقد كانت احداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول .

قال حميد فقلت لزینب (رواية الحديث عن أم سلمة) : وما ترمى بالبعرة على

رأس الحول ؟

فقلت : زينب : كانت المرأة اذا توفى عنها زوجها دخلت جفشا ولبست شراياها ولم تمس طيبا حتى تربها سنة ، ثم توتى بداية - حمار أو شاة أو طائر - فتفتض به (أى تمسح به جلدها) فقلما تفتض بشيء الا مات ، ثم تخرج فتعطى ببعرة فترمى بها ، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره .^(١)

وقد أشار " لبيد بن ربيعة الى ذلك فى مدحه قوما بقوله :^(٢)

وَهُمْ رِيحٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ . . . وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

وذلك فى الجاهلية ، ولما جاء الاسلام أبطل ذلك وأنزل الله بيان العدة فى قوله " والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا " ^(٣) وأما المطلقات فلم يكن لهن عدة يعتد بها .^(٤)

والذى يفهم من الحديث السابق أن المتوفى عنها زوجها كانت تترك الزينة ولا تقربها وتبقى على حالة سيئة لا تمس ماء ولا تقلم ظفرا ولا تزيل شعرا حتى تخرج بعد الحول بأقبح منظر ثم تخرج من ذلك ،^(٥) وتفعله المرأة حداد وحزنا على فقيدها .

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى : ٩ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٢) ديوانه : ٣٢١ .

(٣) البقرة : ٢٣٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٨١ .

(٥) بلوغ الارب : ٢ / ٥٠ ، ٥١ .

وقد أشار " عامر بن الطفيل " الى قيام نساء بني أسد بذلك عند ما قتلوا أزواجهن

فقال (١) :

وحيّاً من بني أسدٍ تركنّا .. نساءهُمُ مسلّبةٌ أيامي (٢)

(١) ديوانه : (رواية أبي بكر الانباري عن أبي العباس شعلب) : ١٠٩ ط (١٣٨٣)

دار صادر ، دار بيروت .

(٢) مسلّبة : أي تركت الزينة وهي السّلوب ان سلبتها من جسمها فأصبحت بلا زينة

وذلك كالصبغ والكحل حدادا على هيئتها .

تجنب الحائض :

بيد وأن العرب في هذا لم يكونوا على أمر واحد ، فأما العرب في المدينة وما والاها فقد استنوا بسنة بني اسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض وساكنتها ، وروى أن منهم من كان يأتسهن في اديارهن فترة ذلك .^(١) ويتراءى أن من لم يؤاكلها لم يكن ليأتيها في دبرها ، ولعل ذلك في غير أهل يشرب .

وقد أشار الاعشى الى اشتغال مدوحه بالغزوات حتى فاته طهر نسائه فقال :^(٢)

وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ غَزْوَةٍ . . . تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمَ عَزَائِكِ^(٣)

فُورَةٌ مَالًا وَفِي الْحَمْدِ رَفَعَةٌ . . . لَمَّا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكِ^(٤)

وقال الربيع بن زياد العبسي^(٥) يخرص قومه في طلب دم مالك بن زهير العبسي ، وكانت^(٦)

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٨١ .

(٢) ديوانه : ١٤١ .

(٣) جاشم غزوة : أى متكلفها وقائم بمصاعبها ، العزيم : العزم والجد . عزائك : أى صبرك .

(٤) قرء : جمع قرء ، وقد قيل هو الحيض قبل الطهر . والذي بيدولى من هذا البيت أنه أما أن يريد بالقرء فترة غيابه بما فيها من حيض أو طهر معا وهذا بعيد ، وأما أن يريد أحدهما ، فان قلنا انه الحيض أى لا يأتى نساءه الا فى حالة حيضهن فقط فهذا لا يعقل ، وبذا يظهر أنه يقصد الطهر والله أعلم .

(٥) الربيع بن زياد العبسي ، ويسعى الكامل لكامل نفسه فى الاعمال والاخلاق الجميلة وأمه (فاطمة بنت الخرشب) أحد المنجيات الشهيرات يقال لبنيتها الكلمة وهم الربيع وعمارة وأنس ، والربيع شاعر جاهلى شهد داحس والغبراء ، وكان يلقب دالقا لكثرة غاراته . الاغانى : ١٧ / ١٧٩ - ٢٠٩ ، شعراء النصرانية :

٧٨٧ - ٧٩٣ .

(٦) مالك بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن العبسي ، وأمه من المنجيات

فى العرب تماضر بنت الشريد السلميه ، وأخوته قيس ومالك والحارث وورقاء

ووهب وشأس ، وكلهم ذو شأن وشهرة فى قومهم عبس ، وقد دس له حذيفة بن

بدر من قتله لتزوجه بامرأة ، وقد كان مقتله من أسباب اشتعال حرب داحس =

(١) فزارة قتلته لما قتل حذيفة بن بدر الفزاري :

أَبَعَدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زَهَيْرٍ (*) .. تَرَجُّوا لِنِسَاءِ عَوَاقِبِ الْأَطَهَارِ (٢)
 مَا إِنْ أَرَى فِي قَتْلِهِ لِدَوَى الْقَوَى .. إِلَّا الْمَطَى تُشَدُّ بِالْأَكْوَارِ (٣)
 وَمَجْنِبَاتٍ مَا يَدُفُّنَ عَدُوْفًا .. يَقْدُفْنَ بِالْمَهْرَاتِ وَالْأَمَهَارِ (٤)

= والغبراء . وانظر : المحبر : (٤٦١) ، الاغانى : ١٧ / ١٩٥ ، ١٩٦ ، المعارف

٠٦٠٧ ، ٦٠٦

(١) حذيفة بن بدر بن عمرو الفزاري ، كان في عصر المنذر بن ماء السماء ، ومن سادات فزارة وكان قائدا لبني فزارة في حربهم ، وقتل في حرب داحس والغبراء ويضرب به المثل في سرعة السير ان قيل سار في ليلة مسيرة ثمانى ليال . وانظر المحبر : ٠٢٤٩

(٢) الابيات في الحماسة بشرح المرزوقي : ٢ / ٩٩٢ - ٩٩٤

(٣) إِبْدَ الْمَطَى تُشَدُّ بِالْأَكْوَارِ : الا امتطاء الابل وتجنيب الخيول (كما في شرح المرزوقي ، تشد بالاكوار : يريد تشد الاكوار عليها ، وهى رحالها التى توضع على ظهورها .

(٤) مجنبات : أى خيلا تصاحب تلك الابل لا تركب ، وكانوا يركبون الابل ويجنبون الخيل الى أن ينتهوا الى موضع الغارة فينيخون الابل ويركبون الخيل وهى وادعة لم يلحقها كبير تعب فيعلمونها كما يشاءون ، مَا يَدُفُّنَ عَدُوْفًا : أى أدنى مايؤكل ، يقذفن بالمهرات والامهار : أى لما يلحقهن من الكلال يلقين ما فى بطونهن من اولاد .

(*) فى هذا الشطر من البيت ومثله صدر البيت الثالث القطع ، وهو حذف نون

متفاعله وإمكان ما قبله فى آخر تفعيله من الشطر الأول ، وانظر شرح

ديوان الحماسة : ٣ / ٩٩٢ ، ٩٩٣

الحجاب :

ونعنى به ما تستره المرأة عن الرجال الا جانب ، ويغلب فيه ستر لوجه ، وسنه ما يسترها عن الرجال . والمرأة من طبيعتها الحياء ، ولا تأنس الى من لا تعرفه كالرجل ، ولما كانت المرأة شهوة الرجال ، وهى مظنة الجمال والدلال خيفت عليها الفتنة ، وتوقع عليها الاعتداء ، وكان من الخير لها الا يراها الرجال ، ولا تفتنهم بدواعيها الكثيرة المغرية .

وليس غريبا أن نجد من العرب من عرف الحجاب ، فقد كان شاعرا منذ أقدم العصور فى " بابل " و " آشور " و " فارس " و " الروم " و " الهند " (١) .

وقد وجد السفور والحجاب بين العرب ، ونظن السفور أكثر تفشيا بينهم ، فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والاسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى صلى الله عليه وسلم خاصة (٢) . ثم كانت الشراف من النساء يقعدن للرجال للحديث ، ولم يكن النظر من بعضهم الى بعض عارا فى الجاهلية (٣) . وقد أشار القرآن الكريم الى ما كان يفعله النساء فى تبرجهن بقوله " ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى " (٤) ، وقد قيل إن تبرجهن هذا هو التبختر والتفنج والتكسر فى المشية واطهار الزينة والمحاسن للرجال (٥) .

وقد ورد أن سبب حرب اليوم الثانى من أيام الفجار الاول ان شيابا من قريش وبني كنانة رأوا امرأة جميلة من بنى عامر بسوق عكاظ ، وسألوها أن تسفر فأبت ، فامتعتها أحد هم بحيلة فاستغاثت بقومها فشبت الحرب (٦) ، وقد حلفت أم مصعب الا تلبس

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٣٧٧ وما بعدها . ولين هذا الرأى على اطلاقه فقد كتبت للمرأة فى بعض هذه المختص

(٢) هكذا فى الاصل ، والصحيح أنه على نساء النبى ونساء المؤمنين ، وانظر تفسير

الامام ابن كثير : ٤٠٢/٦ .

(٣) رسائل الجاحظ (رسالة القيان) : ١٤٩/٢ .

(٤) الاحزاب : ٣٣ .

(٥) تفسير ابن كثير : ٤٠٦/٦ ، الجامع لاحكام القرآن : ١٨٠/١٤ .

(٦) الاغانى : ٥٥/٢٢ ، ٥٦٠ .

(١) خمارا عندما اسلم لترده عن دينه .

وقد حفل الشعر الجاهلي بذكر الحجاب وذلك دليل انتشاره بينهم (٢) ، بل ربما كان ذلك في خيارهم وساداتهم ، كما قال " امرؤ القيس " : (٣)

وَبَيْضَةُ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا . . . تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجِلٍ

ويصور لنا " النابغة الذبياني " ما حدث لزوجته النعمان بن المنذر عندما سقط حجابها وذلك في قصيدته التي يقال ان النعمان عاداه من أجلها (٥) فيقول : (٦)

سَقَطَ التَّصِيفُ وَلَمْ تَرُدِّ اسْقَاطَهُ . . . فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَسِيدِ

وهذا " الشنفرى " معجب بزوجه التي لا تترك قناعها فيقول : (٧)

لَقَدْ اعْجَبْتَنِي لِاسْقَاطِ قِنَاعِهَا . . . إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بَدَاتِ تَلْفُتِ

وكانت العروس ترخي خمارها على وجهها كما قال " عوف بن عطية " في وصف جيش قومه : (٨)

وَجَلَّلْنَ دَمَخًا قِنَاعَ الْعَرُورِ . . . سِ ادَّنتِ عَلَي حَاجِبَيْهَا الْخِمَارَا (٩)

والنساء مخبات في شعر " زهير " عندما هجا بني حصن من كلب فقال : (١٠)

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي . . . أَقَوْمُ آلِ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ

فان قالوا النساءُ مُخَبَّاتٍ . . . فَحَقَّ لِكُلِّ مُحْصِنَةٍ هِرْدَاءُ

وعرف عائذ بن محصن العبدى بالمشقب العبدى لقوله في البيت المشهور يصف ظعن

(١) غريب الحديث للخطابي : ٢٩٢/٢ ، ٢٩٣ .

(٢) انظر المرأة في الشعر الجاهلي : ٣٧٥ .

(٣) الاسلام وتقاليد الجاهلية : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) ديوانه : ١٣ .

(٥) على ما يرويه بعضهم وهناك غير ذلك وانظر ديوان النابغة الذبياني : ٩٢ .

(٦) ديوانه : ٩٦ .

(٧) المفضليات : ١٠٩ .

(٨) المصدر السابق : ٤١٦ .

(٩) دمخا : اسم جبل .

(١٠) ديوانه : ١٣٦ (الأعلم) .

(١) النساء :

(٢) ظَهَرْنَ بِكَلَّةٍ وَسَدَلْنَ أُخْرَى .. وَثَقَبْنَ الْوُصَاوِصَ لِلْمَعْيُونِ

(٣) ويدلنا "أبودعوان الايادي" على سترهن الوجوه وهن في رحلة وسفر فيقول :

(٤) وَيَصَّنَّ الْوُجُوهَ فِي الْمَيْسَنَانِ .. سِيَّ كَمَا صَانَ قَرْنَ شَمْسٍ عَمَامٍ

(٥) وَتَرَاهُنَّ فِي الْهَوَاذِجِ كَالْفُزْرِ .. لِأَنَّ مَا أَنْ يِنَالَهُنَّ السَّهَامُ

ويبدو أن الهواذج التي كانت تركيبها النساء تسترهن عن الرجال وذلك من الحجاب،

(٦) وقد دخل "أمرؤ القيس" على عنيزة في خدرها وصور ذلك بقوله :

(٧) وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عَنِيْزَةَ .. تَقُولُ لَكَ الْوَيْلَانِ إِنَّكَ مُرْجَلِي

تقول وقد مال الغبيط بنا معا .. عقرت بعيري يا مرء القيس فانزل

ويبدو أنهم كانوا يضعون لنساءهم في البيوت مجلسا يبعد هن عن الرجال ، وقد يسمى

الخدرا أو الخباء كما قال "زهير" في أبياته التي أشرت اليها منذ قليل ، ومنه قول راشد

(٨) ابن شهاب اليشكري (٨) في تعبيره احد خصومه : (٩)

(١) ديوانه : ١٥٦ .

(٢) الكلة : الستر الرقيق ، سدلن أخرى : أرسلتها ، الوصاوص : البراقع الصفار

وأحدها ووصاوص ، أراد أنهن حديثات الاسنان فبراقعهن صفار .

(٣) الاصمعيات : ١٨٦ .

(٤) الميسناني : ضرب من الثياب ، نسبة على غير قياس الى "ميسان" وهي كورة بين

البصرة وواسط .

(٥) السهام : الضمر وتغير اللون وذبول الشفتين .

(٦) ديوانه : ١١ .

(٧) مرجلي : أي ستجعلني أمشي على رجلي .

(٨) هو راشد بن شهاب بن عبدة ، شاعر جاهلي ، كان سيد قبيلته ، مدحه نصر بن

عاصم في قصيدة في الحماسة . وانظر : الحيوان : ٢٦٦/١ ، ٣١٥ . سـ

اللاكي : ٨٢٩ .

(٩) المفضليات : ٣١٠ .

وَنَحْنُ حَمَلْنَاكَ الْمَصِيفَةَ كُلَّهَا .. عَلَى حَرْجٍ تُؤَسِّي كُلُّوْمَكَ فِي الْخِدْرِ (١)

وأخيرا فقد تحدثت حالات كانت تلتقي النساء فيها الحجاب، وذلك كما في الفرار من الحرب، أو عند ما يموت قريبها وغير ذلك. (٢) وقد صور لنا ربيع الحفاظ بن زياد العبسي حال نساءهم عند ما قتل سيدهم مالك بن زهير العبسي، وقد تركن الحجاب لهول الكارثة وعظم الرزء، فقال: (٣)

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ .. فليأتِ ساحتنا بوجهِ نهارِ
يجدُ النساءَ حواسِرًا يندبُنه .. يَلْطَمَنَّ أوجُههنَّ بالأَسْحَارِ
قَدْ كُنَّ يخبأَنَ الوجوهَ تَسْتُرًا .. فاليومَ قدَ أبرزنَ للنظَّارِ
يَضْرِبَنَّ حُرَّ وجوههنَّ على فتى .. عَفَّ الشَّمَائِلَ طيبَ الأَخْبَارِ

وقد جاء الإسلام باقرار الحجاب وأمر به، ولا سيما ستر الوجه ان هو جمال المرأة ومجمع حسننها، وحرم على النساء أن يبدن زينتهن الا ما ظهر منها، وأمر الرجال والنساء بغض البصر، كما أنه سد الذرائع على كل ما يؤدي الى افتتان الذكر والانثى بعد أن أوجد خير الطرق وأنجح الحلول. (٤)

(١) المصيفة: الصيفة، أي أوقعنا بك، فجرحناك جراحات بقيت منها في خدر صيفتك تداويها. الحرج: السرير الذي يحمل عليه الموتى، الخدر: حاجز يقطع في البيت تستتر فيه الجوارى.

(٢) انظر المرأة في الشعر الجاهلي: ٣٧٢ - ٣٧٤.

(٣) الحماسة بشرح المرزوقي: ٢/٩٩٥، ٩٩٦.

(٤) راجع اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن: ١٩٣/٦ - ٢٠٠، ٥٨٩ - ٦٠٢ ط المطابع الاهلية - الرياض.



الفصل الثالث :

النثر

بلغ العرب شأوا عظيما من قدره على البيان ، وكانوا في درجة عالية من البلاغة واللسن في جاهليتهم ، وقد بالغوا في العناية ببيانهم النثرى مبالغة تكاد تضارع اهتمامهم بالشعر ، وحرصوا على تدبيجة بالكلمات الجزلة ، وتوشيته بالحكم والامثال السائرة ، حتى يتم له البيان الذى يأخذ بسامعيه الى مسامرة القائل وموافقته فيما يذهب اليه من حديث .

وقد اتخذ النثر الجاهلى عددا من الصور ، فمنها الامثال التواستأثرت بهما كتبهم ، ومثلها الحكم التى أطلقها من عركتهم الحياة ونفذت أبصارهم فى كثير من أمورها ، ومنها الخطب الكثيرة ، التى تختلف دواعيها ، وتطول وتقصر على حسب اقتضاء المقام ، ومن ذلك تلك الوصايا التى تعتمد على النصح والتوجيه وتتسم بالحدذر والاشفاق ، كما يعد من نثر الجاهليين سجع الكهان ، وقد كان الكهان على مكانة رفيعة بين كثير من العرب ، يرجعون اليهم فى منازعاتهم ويسألونهم عن كثير مما يخشونه من أمورهم ، ويرون لهم اطلاقا على ما تخبئه الأيام فى ما يستقبل من الزمان ، ومن صور نثرهم ذلك القصص الذى كانوا يتحدثون به ، سواء عن اسلافهم أم غيرهم من الامم الاخرى ، وربما شاب قصصهم شئ من الاساطير وكثر من التهويل شأن ما يعترى القصص من حيك وقهارة وتخيل .

والذى نريده من هذا النثر الجاهلى ما يتوخاه هذا البحث من اشارات تعددها تمت الى الحنيفية بسبيل ، وتخضع لمظاهرها العامة . وسنمر بها على صورة تماثل سابقتها فى الشعر على ما توفر لنا من مادة نثرية .

وأحب أن أنبه هنا الى ما سلفت الايماة اليه فى فصل الانتحال من أن هذا النثر ليس على صورته التى وضعها قائلوه ، وانما هي تقليد ومحاذاة لها ، ذلك أن الفترة الزمنية التى فصلت بين قولها وتدوينها كغيلة بضياح أصلها ، وروايتها بمعناها الذى ينبىء عن أصلها . ولا شك أن النثر الجاهلى ضاع أكثره ، وما روى لنا منه قليل ، ويأتى الشك فى بعضه فيطرح جزءا آخر من هذه القلة الباقية مما يضيق مجال هذا النثر

ويحصر نماذجه ، وبذلك يتقلص القول في كثير من الاتجاهات الدينية والاجتماعية
وغيرها من خلاله ، وبذلك نرى النشر يقصر كثيرا عن الشعر ولا يدانيه وان كان
لا يخلو من بعض الاشارات والتوضيحات التي تعين على معرفة الحياة الجاهلية
وتفسيراتها .

(أ) المعتقدات

أولها الايمان بالله تعالى ، وقد أسلفنا ذكر الآيات القرآنية الدالة على ذلك ، وقد كانت آيات الكون الكبرى ، وما يحدث على وجه الارض من تقلبات ، وما يرى من الأعاجيب التي تخضع لنا موسى منظم دقيق في هذا العالم تدفع بالعقول وتأخذ بالأبصار التي الايمان بالخالق العزيز الذي أعطى كل شيء من خلقه روعة واتقاناً .

هذا قس بن ساعدة يذكر لنا كثيراً من هذه الآيات الكونية ، ثم يتأمل في مصير الاقوام السابقين فيقول : ^(١) " أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هوات آت .

آيات محكمات ، ومطرونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبرّ وأثام ، ولباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ^(٢) ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون أرضوا فأقاموا أم حبسوا فناموا .

يامعشر أياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والاجداد ، أين المعروف الذي لم يشكر ، والظلم الذي لم ينكر . أقسم قسّ قسما بالله ، ان لله ديننا هو أرضى له ممن دينكم هذا " .

وخطبة قس هذه مشهورة وله مثلها ^(٣) ، وقد روى لغيره ما يشابه قوله ، وحسبنا ذلك من تأملاتهم .

ومن مظاهر هذا الايمان بالله عند الجاهليين قسمهم به سبحانه ، ولا شك أن القسم له أهمية كبيرة عندهم ، وانما يلجئون اليه لتأكيد قول أو فصل حكم في بعض

(١) البيان والتبيين : ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، مجمع الامثال : ١ / ١١١ . أحمد محمد

الميداني ، تحقيق محي الدين عبدالحميد ط السعادة بمصر ١٣٧٩ هـ .

(٢) تمور : أي تذهب وتجيء .

(٣) انظرها في اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٤) مثل خطبة المأمون (المأمور) الحارثي في أمالي القالي : ١ / ٢١٣ ، وخطبة وكيع

ابن سلمة الايادي في البيان والتبيين : ٢ / ١٠٩ ، ١١٠ .

خلافاتهم .

ومن تلك الايمان التي اقساموا بها قولهم : " لا ومقطع القطر ، ولا مهب الرياح ، ولا منشرا الارواح ، لا والذي جلد الابل بجلودها ، لا والذي شق الجبال للسَّيْل والرجال للخيل ، لا والذي شقهن خسا من واحدة ، يعنون الأصابع . " (١)

والقسم بالله عندهم أعظم الايمان ، ويقولون : " والله فانها تملأ الفم ، وترقى الدم ، اى تبرى الظنين بالدم من الدم فيرقاً دمه ، اى يسكن محقونا فى مسكه فلا يراق " (٢) ومنه قولهم : " لا والذي يراني من فوق سبعة أرقحة " اى من فوق سبع سماوات (٤) ، ومنها لا والذي لا يوارينى منه خمر (٥) ، ومنها لا والذي لا يتقى بوجاح (٦) ، ولا والذي أخرج العذق من الجريمة (٧) ، ولا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة (٨) . وغير ذلك من كثير من أيمانهم .

ويتخذ ايمانهم بالله صورة أخرى تتمثل فى دعائهم ، فقد دعوا الله فى أكثر حالاتهم ، ولجئوا اليه فى دفع الضر عنهم ، ولا ريب أنهم ما دعوه - جلا وعلا - الا رجوا الاجابة وطمعوا منه بالعطاء .

وقد ورد دعاءه - سبحانه - فى بعض أمثالهم فقالوا : " عرفتنى نساءها الله " ،

(١) ذيل الامالى : ٥٠ ، ٥١ .

(٢) أيمان العرب فى الجاهلية : ١٣ ، ١٤ .

(٣) السابق : ١٥ .

(٤) وقيل سميت بذلك لأنها مرقعة بالنجوم ، وقيل لان كل سماء رقيق للأخرى .

(٥) الخمر : ما وارك من غيرك من أى شىء ، والمعنى لا يوارينى منه شىء .

(٦) وجاح : كل ما حال بينك وبين شىء من ستر ونحوه .

(٧) العذق : كل غصن له شعب ، وقيل النخلة وهو المراد هنا . الجريمة :

التمر المجرومة أى المصرومة والمراد النواة . أى أخرج النخلة من النواة .

(٨) فلق الحبة : أى شقها فى الارض حتى تنبت ، ثم اثمرت فكان منها حب كثير ،

وكل شىء شققته باثنين فقد فلقته . النسمة : كل نفس ذات نفس نسمة ، سميت

نسمة لتنسما الهوا .

و" بلغ الله بك أكلا العمر" (١) ، و" جدّع الله سامعه" (٢) ،
 وروى من دعائهم قولهم : " رماه الله بالأيمة والعيمة" (٤) ، وأشلّ الله عشره (٥) ،
 وأبرد الله غبوقه (٦) ، ورماه الله بفاشية . . (٧) .
 ومن دعائهم (٨) : رماه الله بليلة لا أخت لها (٩) ، وقمقم الله عصبه (١٠) ، ولا تترك
 الله له هاربا ولا قاربا (١١) ، وشتت الله شعبه (١٢) . . الى غير ذلك من كثير من دعائهم
 وكان من العرب من علم بظهور نبي من عند الله ، واستبشروا بذلك ، وفطن
 بعضهم كالحنفاء الى فساد دينهم وأنه لا يرضاه الله ، فأخذوا يسألون عن الدين
 الصحيح .

وقد أشاروا الى ذلك في خطبهم ، ونسبوا له أقوامهم ، فهذا " كعب بن لؤى "

(١) نساها الله : أى أخرج الله أجلها وأطال عمرها ، وقال أبو عبيد فى أصل
 المثل : أن رجلا كانت له فرس ، فأخذت منه ، ثم رآها بعد ذلك فى ايدى
 قوم ، فعرفته فحممت حين سمعت كلامه ، فقال ذلك ، أكلا العمر : قال
 أبو عبيد : أقصاه ، وقال عن الزبير : أحفظ العمر . وانظر كتاب الامثال لابى
 عبيد : ٦٨ .

(٢) أمثال أبى عبيد : ٧٧ ، ومعناه القطع ، يريدون الأذنين .

(٣) نيل الامالى : ٥٥ .

(٤) الأيمة : أى ماتت زوجته ، يقال رجل أيم وامرأة أيم اذا كان بغير امرأة وكانت
 بغير رجل . والعيمة : هى اشتهاء اللبن والمعنى يدعو بهلاك ماشيته حتى
 يشتهى اللبن فلا يجده .

(٥) شلّ الله عشره ا أصابه الشلل فى يديه لأن بها عشرة أصابع .

(٦) أى لا كان له لبن حتى يشرب الماء .

(٧) الفاشية : وجع يأخذ على الكبد يكوى منه .

(٨) نيل الامالى : ٥٧ .

(٩) أى ليلة موته .

(١٠) أى أيس عصبه فاجتمع .

(١١) أى لا تترك الله له لاصاراه عن الماء ولا واردا يريد مواشيه .

(١٢) أى أباد أهله .

- الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم - يستبشر بذلك فيما يروى له فيقول: ^(١) "زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم".
ولما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة واستولى على اليمن ، أتته وفود العرب وأشرفها للتهنئة بذلك ، وكان " عبد المطلب بن هاشم " قد اصطحب معه بعض رجال قريش وفدوا عليه فيمن وفد ، وبعد بقائهم فترة استدعى " سيف بن ذى يزن " عبد المطلب على ما روى وقال له : " يا عبد المطلب " ، انى مض اليك من سر على أمر لا غيرك يكون لم أبح به ، ولكنى رأيتك معدنه ، فأطلعتك عليه ، فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه ، انى وجدت فى الكتاب المكنون ، والعلم المخزون الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجناه دون غيرنا ، خبرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فيه شرف الحياة ، وفضيلة الوفاة للناس عامة ، ولرهطك كافة ، ولك خاصة ، فقال عبد المطلب : مثلك أيها الملك سرور ، فما هذا فداك أهل الوتر زمرا بعد زمرا ؟ قال : اذا ولد بشهامة غلام بين كتفيه شامة ، كانت له الامامة ، ولكم به الزعامة ، الى يوم القيامة ، قال عبد المطلب : أيها الملك لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد قوم ، ولولا هبة الملك واجلاله واعظامه ، لسألته من بشارته اياى ما أزداد به سرورا ، . . . ثم يذكر له أنه جده ويوصيه به حذرا من اليهود ، ويتمنى أن يخضع له العرب لو طال به العمر حتى يظهر .
(٢)

ويروى أن أكرم بن صيفى التميمى لما ظهر النبي - صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا الى الاسلام بعث أكرم ابنه حبيشا فأثابه بخبره ، فجمع تميم وأمرهم باتباع الرسول ومعاونته ، وأن يكونوا من أول الناس دخولا فى طاعته .
(٣)

(١) صبح الاعشى : ١ / ١١٢ .

(٢) هذه القصة وردت فى دلائل النبوة للبيهقى : ١ / ٢ ، تحقيق عبد المعطى قلعجى والبداية والنهاية : ٣ / ٣٢٩ وما بعد ها ، نهاية الأرب : ١٦ / ١٣٧ وما بعد ها . ولعل أصل هذه القصة صحيح ، فير أنه يولغ فيها ودخلها مالا يطعمان الى صحته ، كعلم سيف بجده صلى الله عليه وسلم ، ثم علمه بوفاة نفسه قبل أن يبعث والله أعلم .

(٣) الفاخر : لابي طالب بن سلمة : ٢٤٩ ، ٢٥٠ . تحقيق عبد العليم الطحاوى . ط ١ (١٣٨٠ هـ) ، وزارة الثقافة والارشاد القومى - مصر .

وقد كان من معتقدات بعضهم الايمان بالبعث ، والتسليم بالدار الآخرة ، والشواب
والعقاب ، فذكروا ذلك في أقوالهم وأذاعوه في خطبهم .

هذا قس بن ساعدة يقول : " . . . كلا ورب الكعبة ليعودن مابدا ، ولكن ذهب
يوم ليعودن يوم . " (١)

وقال " وكيع بن سلعة الايادي " (٢) : " . . . زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا ، وبالشر
عقابا ، وان من في الارض عبيد لمن في السماء . . . " .

ويقول " كعب بن لؤي " (٣) : " . . . والاولون كالأخرين ، كل ذلك الى بلاء ، فصلوا
أرحامكم وأصلحوا أحوالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ، أو ميتا نشر ، الدار أمامكم ،
والظن خلاف ماتقولون . . . " .

وأخيرا نجد " عامر بن الظرب " يؤكد ذلك أيضا فيقول : " (٤) ما رأيت شيئا قط خلق
نفسه ، وما رأيت موضعا الا مصنوعا ، ولا جائيا الا ذاهبا ، ولا نعمة الا ومعها بؤس ،
ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ، سيرجع الميت حيا ، ويعود لاشئ شيئا " .

(١) اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٢) البيان والتبيين : ١٠٩/٢ ، ١١٠ ، مجمع الامثال : ١٤٢/٢ ، ١٤٣ .

(٣) أنساب الاشراف للبلاذري : ٤٠ ، صبح الأعشى : ١١٢/١ .

(٤) الاوائل للعسكري : ١١٢/١ .

(ب) العبادات

ليس مانعني بالعبادات التي نذكرها أن تكون ما يفعله الجاهليون بنية العبادة ،
أو مما يعدونه من شعائر الدين ، وإنما سميها عبادات لأنها في الحنيفية كذلك ،
كما تبين لنا من دين الاسلام ، وربما كان منها ما بقى عند الجاهليين ما يتعبدون به
كالحج والعمرة ، وقد يكون منها ما جعلوه بعد ذلك كالعادة والمألوف بينهم من غير
أن يقصدوا به التعبد .

وما أتيج لنا من العبادات في النثر الجاهلي إنما هي نتف مبعثرة لا تفي بكثير مما
تدخل فيه من أنواع العبادات ، وحسبنا أن نذكر ذلك بقدر ما أتيج لنا فيما اطلعنا
عليه من مصادر .

أما سنن الفطرة فقد وجدنا ما يدل على عنايتهم باللحي ، بل وافتخارهم بها ، حتى
أنهم أطلقوا مثلاً في علة خلقها فقالوا : " فلم خلقت إذا لم أخدع الرجال ^(١) " وهم
يعنون بذلك اللحية ، وخدع الرجال ليس باليسير ، ولا يقدم عليه إلا المحنكون
الشجعان ، وربما عدوه ضرباً من الشجاعة والدهاء .

وقد عرفنا أنهم عرفوا الغسل من الجنابة ، وقد كان أحد اغسالهم ، وشاع ذلك
في أحد أمثالهم فقالوا : " لا ماءك أبقيت ولا درنك أنقيت " وذكروا سبب ذلك أن رجلاً كان في
سفر ومعه امرأته وكانت عاركة ^(٢) فحضر ظهرها ومعها ماء يسير ، فاغتسلت به ، ثم لم
يكفها لغسلها وقد أنفدت الماء ، فبقيت هي وزوجها عطشانين ، فعندها قال لها
هذه المقالة ^(٣) .

وكان من عباداتهم الاستسقاء ، وذلك أنهم إذا حبس عنهم القطر ، وأجدبت
الأرض وأصابتهم الفاقة وشارفوا على الهلاك لجئوا إلى ذلك . وقد علمنا أنهم كانوا يأتون

(١) الامثال : لابي عبيد القاسم بن سلام : ٨٣ . تحقيق : عبدالمجيد قطامش . ط ١ ،

(١٤٠٠) مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى .

(٢) العارك : الحائض .

(٣) الامثال لابي عبيد : ٢٩٩ ، مجمع الامثال : ٢ / ٢١٧ ، ٢١٨ وبه قصة أخرى غير

ما ذكره .

في ذلك بأفعال غريبة كعقد الحطب في أن ناب البقر ثم حرقه ، وما سموه بنسار الاستمطار^(١) ، غير أنهم كانوا يلجئون الى دعاء الله عند ذلك ، فقد ورد أن قريشا تتابعت عليهم السنون وقحطوا ، فاجتمعوا عند " عبد المطلب " ثم تطيبوا وطافوا بالبيت ثم ارتقوا جبل أبي قبيس ، ومعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو غلام قد أيفع أو دنا ، فقام عبد المطلب فقال : " اللهم ساد الخُلَّة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير ميخل ، وهذه عبداؤك واماؤك عذرات^(٢) حرمك ، يشكون اليك سنتهم التي قد أقحلت الظلف^(٣) والخف ، فاسمعن اللهم وامطرن غيثا مريفا مفدقا^(٤) فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بهائها وكظ^(٥) الوادى بثجيجه ، فسلمعت (أى الراوى) شيخان قريش وهي تقول لعبد المطلب : هنيئا لك أبا البطحاء هنيئا . أى بك عاش أهل البطحاء .^(٦)

وقد جاء أن عبد المطلب استسقى لهذيل ومن معهم بعرفات ودعى لهم على نحو من استسقاؤه هذا .^(٧)

أما ما يتعلق بالحج وهو أشهر عباداتهم فقد كان النثر نزرا به وفقيرا منه ، والذي رأيناه منه ، ما يدل على تعظيمهم للحرم واجلالهم له ، وتواصيهم بذلك ، فهذا " كعب بن لؤى " يوصي قومه فى خطبته فيقول : " . . . زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم . . . " .^(٨)

(١) انظر هذا البحث ص ٢٧٤ ،

(٢) عذرات حرمك : العذرة فناء البيت ، يريد أهل بيتك .

(٣) الظلف : أى ذوات الظلف من الماشية كالبقرة والغنم .

(٤) كظ : أى امتلا

(٥) شجيحة : أى سيلان الماء .

(٦) دلائل النبوة للبيهقى : ١٦ / ٢ ، ١٧ ، نهاية الارب فى فنون الادب : شهاب

الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . وزارة

الثقافة والارشاد القومى . مصر .

(٧) انظر نهاية الارب : ٤٨ / ١٦ - ٥٠ .

(٨) صبح الاعشى : ١١٢ / ١ ، جمهرة خطب العرب ط ١ : ٣٣ / ١ .

وقد جاء ذكر لما كان يقومون به عند الاجازة من مزدلفة الى منى ، وكان يلي ذلك رجل معروف ، فلا يذهب منها أحد حتى يكون ذلك الرجل أول من يخرج منها ، وقد كان أشهر من ولي ذلك رجل يسمى " عميلة بن الأعزل العدواني " وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة ، فضربوا المثل في الصحة والسلامة بعبيره هذا فقالوا : " أصح من غير أبي سيارة " ^(١) ، وأبوسيارة كنيته ، ويروون أنه كان يقول : " اللهم حبب بين نساءنا ، وبغض بين رعائنا ، واجعل المال في سمحائنا " .

وكانوا يسمون الليلة التي يخرجون فيها من منى عند انتهاء حجهم " ليلة الصدر " وضربوا بها المثل بالخلو بعد الامتلاء فقالوا : " تركته على مثل ليلة الصدر " ^(٢) ان صدر الناس من حجهم ، وينفر الناس من منى فلا يبقى منهم أحد بها .

(١) الامثال لابي عبيد : ٣٧٣ ، مجمع الامثال : ٤١٠ / ١ .

(٢) الامثال لابي عبيد : ٣٣٩ .

(ج) التشريعات

كان للجاهليين أحكام أخذوا بها في حياتهم ، وهي تشمل أكثر جوانب حياتهم السياسية والاجتماعية وغيرها ، وقد ألمنا بطرف منها فيما ورد من أشعارهم ، وسنرى الآن ما كان من هذه التشريعات على ماورد في نثرهم ، ولا يضير بعض هذه الأحكام تكررها هنا وهناك ، بل ذلك مما يؤكد بعضه بعضا ، ويعزز ما نذهب اليه من وجود هذه التشريعات بين أولئك الجاهليين .

وأول ما يواجهنا في هذا الصدد ما يدل على معرفة بعضهم للحرام ، وتمييزه من الحلال ، وقد ورد من ذلك ما يدل على أخذهم به ، ففي حادثة هدم قريش للكعبة وبنائها ، لما أجمعوا ذلك ، " قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ (١) . . . فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده ، حتى رجع الى موضعه ، فقال يا معشر قريش ، لاتدخلوا فسى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس " وفي رواية أخرى : " لاتجعلوا في نفقة هذا البيت شيئا أصبتموه غصبا ، ولا قطعتم فيه رحما ، ولا انتهكتم فيه نمة أحد بينكم وبين أحد من الناس " (٢) .

ولا ريب أن حكمهم هذا في المال الذي تبني منه الكعبة كان من وراء تقصيرهم فسى بنائها كاملة على أصولها الصحيحة فآكتفوا ببناء جزء منها وتركوا جزء بلا بناء عندنا عدموا ذلك المال الحلال الذي بنوا منه الكعبة ، وفي الصحيح عن عائشة انـ صلى الله عليه وسلم قال : " لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على اساس ابراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ولجعلت له خلفا (٣)

(١) أبو وهب ابن عمرو ابن عائذ ابن عبد بن عمران بن مخزوم ، من رجال قريش

والمعدودين وشرفائهم ، وهو خال أبي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

سيرة ابن هشام : ١٩٤ / ١ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١٩٤ / ١ .

(٣) رواه مسلم : باب نقض الكعبة وبنائها بشرح النووي : ٨٨ / ٩ .

الخلف : المراد به بابا من خلفها فيكون لها بابان .

ويروى من ذلك أن هاشم بن عبد مناف حث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام
 فإذا كان اليوم الأول من ذى الحجة خطب قريشا ، ومما يقول " . . . يا معشر قريش أنتم
 جيران بيت الله إكرمكم بولايتيه ، وخصمكم بجواره ، دون بنى اسماعيل ، وحفظ منكم
 أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فانهم يأتونكم شعشا (١)
 غربا من كل بلد ، فورب هذه البنية (٢) ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، إلا واني
 مخرج من طيب مالي وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه
 حرام ، فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألکم بحرمة هذا البيت
 إلا يخرج رجل منكم من حاله ، لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبا . . (٣)
 أما أحكامهم الأخرى فقد وجدنا منهم من ترفع عن الزنى ، وعده فجورا ، بل وعيبره
 خصمه ، وذلك من ترفع كثير من ذوى العروءة والسؤدد منهم عن ذلك .

ففى منافرة " عامر بن الطفيل " مع " علقمة بن علاثة " يروى ان " علقمة " تافره بقوله :
 " والله انى لبر وانك لفاجر ، واني لولود وانك لعافر ، واني لعف وانك لعاهر ،
 واني لوفى وانك لغادر . . . (٤) وإذا افتخر علقمة بذلك ، فقد رأينا منهم من كان
 يوصى ابناؤه بالحذر من الزنى ويضرب لهم من نفسه المثل فى احدى وصاياه . (٥)

أما الدية فشأنها معروف بينهم كما سبق الحديث عنها ، وكانت تتفاوت بينهم
 فالصريح ديته كاملة ، والهجين (٦) له نصفها ، وأما الطوك فلهم عشر ديات كاملة .

(١) شعشا : جمع أشعث وهو ملبد الشعر مغبره .

(٢) البنية : الكعبة ، والبنية : (بكسر الباء وضمها وسكون النون) ما بنيته .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام القسم الاول ١٣٥ ، ١٣٦ ، جمهرة خطب العرب :

٧٤ / ١ تأليف أحمد زكى صفوت مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٣٨١ هـ .

(٤) الاغانى : ٢٨٦ / ١٦ ، وجمهرة خطب العرب ٤٢ / ١ - ٤٣ .

(٥) انظر فى ذلك وصية الحارث بن كعب لبنيه . جمهرة خطب العرب ١٢٢ / ١ - ١٢٣ .

(٦) الصريح من الرجال : الخالص النسب لم يخالطهم غيرهم .

الهجين : من ولد من أم غير عربية وأبوه عربى .

وقد ورد أن سبب الخلاف في الدية أدى الى تفاقم الفتنة بين حيين من أحياء العرب كان أحدهما يرى له زيادة عن الآخر. (١)

وقد جاء أن "قيس بن عاصم" قال في إحدى وصاياه لولده: " . . . واکرموا الأبل ، فان فيها مهر الكريمة ورقوء الدم " (٢) يعنى الديات التي يدفع بها القصاص والقود. (٣)
أما احكام النساء فقد كانت أحسن حظا من سابقتها ان توفر لنا بعضها ، وأولها فيما نرى تحريم المحارم وتعظيم شأنهن ، ومنهن الخالة ، وربما أضافوا اليها قريبات الأم ، فقالوا في المثل: " كل ذات صدار خالة " (٤) أى أن الغيور اذا رأى امرأة عدها من جملة خالاته لفرط غيرته. (٥)

والحجاب أمر يلزم النساء ومنهم من أخذ به ، ان يخشى من تبذل المرأة امام الرجال الا جانب ، وانما يتمتع بجمالها زوجها حتى كان من امثالهم السائرة: " خلع الدرع بيد الزوج " وقالوا: " التجرد لغير نكاح مثله " (٦)

وقد تعود النساء الخمار والفرن الحجاب ، فهن مجربات لا يحتجن أن يعلمنه أو يؤمرن بأخذه كصغار الجوارى حتى قالوا: " ان العوان لا تعلم الخمرة " (٧)

وانما يختمر النساء لشدة الغيرة عليهن من الرجال ، فكانوا يتساهلون في الصعاب من الامور الا النساء وما يعرض لهن حتى شاع مثلهم " كل شئ مهه ما النساء وكرهن "

(١) انظر ذلك في ما وقع من المفاخرة بين طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان

عن بعض مقال حمير. أمالى القالى : ٢٢/١ وما بعدها .

(٢) رقوء الدم : ما يرقأ به أى يقفه ويحفظه من دية أو دواء حتى لا يسيل .

(٣) الامثال لابي عبيد : ١٩١ .

(٤) السابق : ١١٠ .

(٥) مجمع الامثال : ١٣٢/٢ ، وقال بعده ان المثل من " قول همام بن مرة الشيباني وكان أغار على بني أسد وكانت أمه منهم ، فقالت له النساء : أتفعل هذا بخالاتك ؟ فقال : كل ذات صدار خاله " ولو لم يكونوا ممن يحرم الخالة لما كان في قولهن له ذلك معنى في تلك الحال ، والله أعلم .

(٦) الامثال لابي عبيد : ٢٩٣ .

(٧) الامثال لابي عبيد : ١٠٨ ، مجمع الامثال : ١٩/١ ، العوان : المرأة الشيب كما قاله أبو عبيد ، الخمرة : اسم الهيئة والحالة من الاختمار .

أى أن الحرّ يحتل كل شيء حتى يأتي ذكر هذا فيتمتع حينئذ ولا يحتمله. (١)

والزواج أمر مشهور بينهم ، بل كانوا يجمعون بين أكثر من واحدة ، وربما وصلن إلى العشر ، ولا ريب أن النساء عند الرجل الواحد لا يخلين من الإحسان والتبرم من بعضهن ، وهذا ما عرف عند الجاهليين بداء الضرائر ، حتى كان من أمثالهم "بينهم داء الضرائر". (٢)

والزواج تسبقه الخطبة ، وفيها يتم الأمر للناس ويتضح ، وربما اتخذوا من يخطب باسم الزوج عند من يزوجهم ،

يقول الجاحظ : " كانت خطبة قريش في الجاهلية - یعنی خطبة النساء - : باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت". (٣) ويقول : كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب. (٤)

وحسبنا أن نور خطبة "أبي طالب" في زواج رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال : " الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس.

وان محمد بن عبد الله بن أخى لا يوازن به فتى من قريش إلا ربح به : بركة وفضلا وعدلا ، ومجدا ونبلا ، وان كان في المال مقصلا ، فان المال عارية مسترجعة ، وظل زائل ، وله في " خديجة بنت خويلد " رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فعلي". (٥)

وقد ذكر لنا العقد الفريد مزيدا من أقوال العرب وما كان في مناحكهم. (٦)

(١) الامثال لابى عبید : ١٠٩ ، مجمع الامثال : ١٣٢/٢ ، المهة أى اليسير الهين .

(٢) الامثال لابى عبید : ٣٥٤ .

(٣) البيان والتبيين : ٤٠٨/١ .

(٤) السابق : ١١٦/١ .

(٥) اعجاز القرآن : ١٥٣ .

(٦) انظره ٨٣/٢ وما بعد ها .

ولا يكون النكاح المعروف الا بمهر تفاوتوا في مقداره وعينه ، ومن أراد الزواج تأهب
 لا حضار المهر ، وقد كثر في امثالهم ذكره حتى قالوا " من ينكح الحسناء يعط مهرًا " (١)
 وقالوا في الذى امتن على زوجته مهرها وقد أخذه من أبيها : " كالمهورة من مال أبيها " (٢)
 وقالوا في الحمق : " أحق من المهورة احدى خدمتيها " (٣) .

وقد يكون المهر عقارا أو ابلا ، وربما دفعه الاب ان أتاه فقير من أشرف القوم ،
 وربما استشاروا النساء فيمن سيتزوجونهن ، وكانوا يوصون المرأة عند زواجها بما
 ينبغى عليها لزوجها من حقوق وما يرشدها لصلاح ما ستقبل به من حياة زوجية
 جديدة . (٤)

وأخيرا فاننا نجد في النثر ذكرا للخلع ، وهو فراق الزوجة على مال مأخوذ ، وأخذه
 زوجها ، وكان من صور الطلاق في الجاهلية ، وتفتدى به المرأة من زوجها بماله
 وتخلع منه اذا أساء عشرتها . (٥)

ومن ذلك أن " عامر بن الظرب " زوج ابنته ابن أخيه ، وبعد أشهر جاءته مشجوجه ،
 فقال لابن أخيه : " يا بني ارفع عصاك عن بكرتك ، فان كانت نفرت من غير أن تنفـر
 فذاك الداء الذى ليس له دواء ، وان لم يكن بينكما وفاق ففراق ، الخلع أحسن من
 الطلاق ، ولن نترك مالك وأهلك " ورد عليه صداقه وخلعها . (٦) وقد زعموا أن ذلك
 أول خلع كان . (٧)

(١) الأمثال لابی عبید : ٢٤٣ .

(٢) السابق : ٦٧ .

(٣) السابق : ٦٧ ، ٣٦٥ . وسبب ذلك فيما زعموا ان رجلا كانت له امرأة حمقاء
 فطلبت مهرها منه ، فنزع أحد خلداليها من رجلها ، وهما الخدمتان ، ودفعه
 اليها وقال : هذا مهرك فرضيت به .

(٤) انظر قولهم في المناكح في العقد الفريد ٣٦٣/٣ وما بعدها .

(٥) المرأة في الشعر الجاهلى : ٢٦٤

(٦) عيون الاخبار : ٧٦/٤ ، بلوغ الارب : ٤٩/٢ .

(٧) الاوائل للمسكرى : ١١٩/١ .

وقد أُتِمَّ الخلع في الاسلام ، وذلك لما تقتضيه مصلحة الزوجين وما قد يكون من مضارة كل منهما صاحبه ، قال تعالى " ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به " (١) .

كما أن الاسلام توعده المرأة بالعقاب الشديد والحرمان من الجنة ان طلبت فراق زوجها من غير ضرورة ولا حاجة تدعو لذلك . (٢)

هذا ما وقع لي من صور النشر ، وما وقعت عليه ، مما يرقى في تقديري الى " النشر " الذي يبدو كالمتواتر ، ولم أشأ أن أكون - في هذا الجانب - كحاطب ليل ، يجمع الدرر الى الفرر كما يقولون ، فاذا جاء الكلام عند " النشر " في هذا النطاق الضيق فعذري في ذلك أمران :

أولهما : أن " النشر " الجاهلي أيا كان موضوعه لم تؤطره الرواية في مادته " الخام " ان صح التعبير في هذا المقام وهو ما أشرت اليه في صدارة الحديث .

ثانيهما : أن الكذب والحيطة أو قل " حاسة النقد " هدتنى الى الانعطاف الى بعض صور النشر التي تتسق مع الموضوع الذي تدور مباحث هذه الرسالة حوله ، فجاءت في ذلك العرض ، على أن القضية لا تكمن أساسا في الاكثار من النماذج والصور بقدر ما نلمس معنى من المعاني يكشف عن بعد من أبعاد " الحنيفية " ، ولا سيما اذا جاء هذا البعد مؤيدا لما نطق به الشعر ، أو ملامسا له ، فحينئذ لا مناص من التعويل عليه بعد أن أكون قد احتكمت فيه الى الاسس التي تدفع هذا النص النثري أو غيره الى مقام " الصحة " .

ولم يكن أمامي معدي من ذلك ، أو فكاك عنه فيما يتصل بهذا الجانب ، وأرجو أن أكون - بهذا - قد وفقت في عرض الجانب النثري الذي يتشابه مع الموضوع الاصلى للحنيفية .

(١) سورة البقرة : ٢٢٩ . وانظر تفسير ابن كثير : (١ / ٤٠٠) وما بعد ها .

(٢) انظر في ذلك ما ذكره ابن كثير في تفسيره : (١ / ٤٠١ ، ٤٠٢) .

الفصل الرابع

تحليل وتفهوم

(أ) الاشارات الدينية فى شعر الجاهليين :

لمسة فنية

يواجه الدارس لادب العرب فى العصر الجاهلى بعض الاشارات التى قد تنم عن شعور دينى ، او تدل على معتقد من المعتقدات ، وقد تستوقفه وتزيد من تأمله ، ثم تدعوه الى التساؤل عن مدى الافادة من هذه الاشارات فى رسم صورة تكشف بعض قسماتها عن دين هؤلاء السابقين .

ولعل الدافع الى مثل هذا السؤال هذه النثرات المترامية الينا من اشعارهم ، فوق ان القضية تتعلق بأمر جوهري فى حياتهم اذ القطع بالحكم عليهم امر ليس من اليسير تلمسه ، لما سبق ان اشرت اليه فى مواطن من هذا البحث كما ان من المغامرة أو الجزافية ان نقطع على شاعر باليهودية او النصرانية بمجرد اشارة أو اشارات توافقت فى ابيات قلائل ، دون ان نعقب على تفاصيل حياته ، أو نلم بما يروى له من شعر ان كان شاعرا .

ولا شك اننا نخرج بفائدة كبيرة عندما نكشف ما يدين به الشاعر الجاهلى ، ان ذلك سيساعدنا كثيرا فى تحليل وايضاح جانب كبير من حياته وافعاله وما يروى له ، وكلنا يعلم ما للدين من سلطان على الناس فى عصرنا الحاضر وما تقدمه من احقاب زمنية طويلة ، فالنفوس تستجيب لأوامره وتبتعد عما نهى عنه ، وتحاول السير فى حياتها عامة وفق ما يسنه لها من تشريعات وما يصوره لها من شتى المعتقدات .

وقد رُمى الادب الجاهلى بعدم تصويره لحياة العرب الدينية تصويرا واضحا ، واتهم بضعف الشعور الدينى ، وعدم ظهور العاطفة الدينية القوية ، وقلة تعرضه لمسائل الدين وشرح شعائر العبادات وما يمارسونه من طقوس وما يؤدونه من ابتهالات ، وقد ادى كل ذلك الى ظن بعض الباحثين بضعف الروح الدينى عند الجاهليين وقصورها ،

وضحالة الدين الجاهلى نفسه (١) .

وقد علل هذا الضعف الدينى بأسباب مقبولة ، ومنها ان الشعر الذى قالته العرب لم يصلنا الا اقله ، ان فقد أكثره خلال رحلته الى عصر التدوين ، وقد نبه الرواة الى ذلك ، ففيما يروى عن عرب بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال : (كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .)

فجاء الاسلام ، فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيئت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه كثير (٢) .

وهذا التعليل يستشف منه صورة عامة ، ومعطى بعدا من الابعاد حول هذه القضية الا اننا لم نعدم ما هو أخص منه فيما نحن بصدده كما سيرد ذلك . فمن المعلوم ان تدوين الشعر لم يتم الا فى الاسلام ، وبعد أن مضى عليه قرن من الزمان تقريبا ، ولا غرو ان يغلب على من دونه النزعة الاسلامية ، والكره لتلك المعبودات والاحتقار لما كانوا يؤدونه نحوها ، فأغضبوا عن كثير من مظاهر تلك الوثنية أنفوسة منها ، واعتزازا بما انعم الله به عليهم من دين الاسلام ، وكرهوا تلك الحالة الدينية التى كان عليها هؤلاء ، فكرهوا ايضا ان يسجلوا ما يدل عليها ، ولعلنا لا نستبعد أن يغلب على اولئك الرواة الحرص على دينهم وذلك بعدم اشاعة الجاهلية وصور وثنياتها والاقلال من ذكرها ، الا فيما قد يرد تحذيرا منها أو تنديرا .

أو استخفافا بها .

(١) تاريخ الادب العربى ٤٦/١ وانظر في الادب الجاهلى : ٧٠ وكذلك المفصل

فى تاريخ الادب العربى : ١/٣٣٠ احمد امين واخرون ط ١٣٥٢ ، مطبعة

مصر - القاهرة .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٢٤ ، ٢٥

والشعراء في أي عصر مضى لا بد وأنهم قد تحدثوا عن الدين وأشاروا إليه ، ولكن الحديث عن الدين في الغالب لا يأتي في ذلك موضحا لشئ عقائده وذاكرا لعباداته وتشريعاته وإنما يتعرض لذلك تعرضا خفيفا ، والشعر هنا لا يتصور منه أن يتحدث عن الدين حديثه عن الغزل والهجاء والمدح وغير ذلك من الأغراض المتعددة .
وقد أحسن أحد الباحثين عند ما نظر في ذلك وقال :
(ليس من الطبيعي أن نرتقب من كل شاعر جاهلي أن تكون له في الدين جولة ، فان كثيرا جدا من الشعراء المسلمين على فحولتهم وعظم مكانتهم لم يقصروا على الدين بعض شعرهم ، حتى ليصعب على الباحث أن يستشف من خلال قصائد هم عقائد دينية متميزة كالمتنبي والبحتري وابن الرومي) (١) .

ويضاف الى ذلك قلة احتفاء الشعراء بالدين ، إذ يطربون وتهفو ألسنتهم الى الخوض فيما سوى ذلك من أغراض ومعان قد تدخلها الرغبة أو الوهبة أو الطرب الى انشاد الأبيات وعند القوافي ، وفي ذلك تسمع لهم القرائح وتلين المعاني حتى تفيض على ألسنتهم وتهش لك نفوسهم أكثر من انقيادها في حديث الدين ومعتقداته وآرائه (٢) وفي ضوء هذه النظرة يمكن أن ننظر الى الشعر الجاهلي ، وقد كان الحديث فيه مستبحرا عن أديان متعددة . . . تحدثنا عنها خلال الفصول الماضية ، بعد أن عرفنا وجود أكثر من دين بينهم كالوثنية المرتكزة على عبادة الأصنام ، واليهودية والنصرانية والحنفية وغيرها .

والشعر الذي روى عن عبادة الأصنام يصور لنا كيف حال هذه العبادة ، ويرسم طقسها ، ويبين ما يتقرب به اليها .
فطرفة يقسم عند النصب أنه هالك (٣) :

فَأَقْسَمْتُ عِنْدَ النَّصْبِ أَنِّي لَمَيْسَتْ
بِمُتَلَفَةٍ لَيْسَتْ بِغَرْبٍ وَلَا خَفْضٍ (٤)

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي : ٣٧٣ .

(٢) راجع نظرية الانتحال : ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) ديوان طرفة : ١٧٤ .

(٤) الغرب : الوهدة المنخفضة كذا بالديوان وقيل " ليست بطلح ولا حمض "

وفى هذا القسم تظهر لنا قوة ثقتهم بالأيمان ، و حدوشها عند الاصنام أكد لها
واعظم أن لا يدخلها الكذب أو يشوبها الفجور .

ويقسم "المتلمس" بالللات والانصاب أن لا ينجو عنه وه جنه (١) .

أطردتنى حذر الهجاء ولا واللات والانصاب لا تتيلر (٢)

وغير القسم يذكر لنا الشعر الكيفية التي كانوا يقدرسون بها أصنامهم ويعظمونها
ومن ذلك طواف النساء بها وقد ارتدبن الملاء المذيل عند دوار كما قال امرؤ القيس (٣) :

فِعْنٌ لَنَا سَرَبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دُورٍ فِي مَلَأٍ مَذْيَلٍ

" والنابعة الذبياني " مثله يشبه النساء بقطيع عندما رأهن يطفن حول دوار (٤) ،

كما نرى الحادرة يرجو أن يلقي أحبته يوم الدوار حين يقدمون للطواف به (٥) .

ومما يعمل عند الأصنام الذبح عندها والتقرب بذلك إليها ، ويلطخونها بدماء
ما تقربوا به ، وقد وجد سلامة بن جندل فى شكل النصب وقد سفح عليه الدم وجه شبه
مناسب لتشبيه أعناق خلية لما علق بها من دم بهذه الانصاب عندما قال (٦) :

والعاديات أسابى الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب (٧)

وذكر الجاحظ أن الرجل كان يندر أن يذبح عند الأصنام كذا عتيرة ، إذ بلغت

أبله أو غمه كذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال : انما قلت إني أذبح
كذا شاة ، والظباء شاة كما أن الغنم شاة ، فيجعل قربانه شاة كله مما يصيده ممن

(١) ديوانه : ٤٢ . يخاطب عمرو بن هند .

(٢) تثل : تنجو ، وفى القرآن الكريم (لن يجدوا من دونه موئلا) .

(٣) ديوانه : ٢٢

(٤) ديوانه : ١٢٠

(٥) ديوانه ، تحقيق : د ناصر الدين الأسد . ط ١٣٩٣) دار صادر - بيروت .

(٦) ديوان سلامة ابن جندل : ٩٨

(٧) العاديات : الخيل ، أسابى : واحدتها اسبابة ، وهو الدم المراق ، ويقال

الوان الدم . ترجيب : أى الذبائح التى تذبح فى رجب وقد تسمى العتيرة .

الظباء ، و لذلك يقول الحارث بن حلزة :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كَدَّةِ أَنْ يَفْكَرَ نَمَّ غَازِيَهُمْ وَمَنْ سَا الْجَزَاءُ
عَتَا بَاطِلًا وَظُلْمًا كَمَا تَعَا تَرَعْنَ حَجْرَةَ الرَّبِيعِ الطَّبَّاءُ (١)

وبعض الأصنام له أهمية خاصة عند العرب إذ لا يهلون بحجهم إلا من غده فيه
بيد أون ويستوثرون في شعائر حجهم ولا يتم حجهم إلا بالمرور به ثانية ، وهم يحلقون
رؤوسهم عند ذلك الصنم وبذلك يتحللون من حجهم وينتهون منه على ما قال شاعرهم
عن مائة أشهر صنم يعمل له ذلك (٢) :

إِنِّي حَلَفْتُ يَمِينِ صَدَقِ بِرِقَةٍ بِمِنَاةِ عَدَدِ مَحَلِّ آلِ الْخَزْرَجِ

وقد كانوا يضربون القداح عند أصنامهم ، ويستشيرونها في أمورهم فان خرج الأمر
منها اقدموا على ما يريدون ، وان خرج الناهي تركوا ذلك . وقد دل طرفة بن العبد
على ذلك في حادثة الصلح بين بكر وتغلب غدا ما قال (٣) :

فَسَعَى الْفَلَاقُ بَيْنَهُمْ سَعَى خَبَجٍ كَاذِبٍ شِيمُهُ (٤)

أَخَذَ الْأَزْلَامَ مُقْتَسِمًا فَاتَى أَغْوَاهَا زَلْمُهُ (٥)

عَدَدَ أَنْصَابٍ لَهَا زَفَرٌ فِي صَعِيدِ حَمَّةٍ أَدْمُهُ (٦)

وقد افتخروا برئيسهم الذي لا يستشير سوى الأزلام ويضئ على رأيها حتى قيل (٧) :

(١) الحيوان : ١٨/١ .

(٢) الأصنام : ١٤ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد (شرح الشنقيطي) : ١٧ - ١٨ . ط . القاهرة .

(٤) الفلّاق وفي الديوان المحقق : ٧٨ الفلّاق ، وهو اسم رجل من بني تميم واسمه

العلاق ابن شهاب كان النعمان بن المنذر راء عمرو ابن هند بعثه ليصلح بين

بكر وتغلب . خَبَجٌ : خادع .

(٥) الأزلام : القداح واحدها زلم .

(٦) زفر : المراد به هنا الدماء الغزيرة مما يذبح عند النصب ، حمّة : سودته بقاياها

أدمه : جلود ما حملة الى الانصاب ليذبحه عليها .

(٧) البيان والتبيين : ١٠٤/٣ .

رئيس ما ينازعه رئيس .. سوى ضرب القداح اذا استشارا

و اذا نظرنا بالمثل الى الديانة النصرانية وجدنا جانبا طيبا من الشعر الذي يصور

بعض ما كان يقوم به أصحاب هذه الديانة من شعائر أو عبادات .

فالنصارى لهم عيد يحتفلون به ويسمى الفصح وهو يوم فطرهم بعد أن أنهبوا صومهم ،

ومن احتفالهم بذلك العيد أن يوقدوا الشرج ، ويبالغوا يومئذ في شدة اشتعالها

بما يملأونها به من الذبال المقتول . يقول أوس ابن حجر (١) :

عليه كمصباح العزيز يشبُّه .. لفصحٍ ويحشوه الذبال المفتلاً (٢)

و النصارى يقرءون الانجيل فهو كتابهم المقدس ، ولا شك في اعتنائهم به ومحافظة

على قراءته كما قال النابغة الذبياني يمدح ملوك الغسان (٣) :

مجلتُّهم ذاتُ الاله ودينهم .. قويمٌ فما يرجون غير العواقب (٤)

ويستخدم النصارى النواقيس في كنائسهم ، ويضربون بها لعبادتهم تذكيرا بها ،

ويتخذ ذلك الاعلام ما يشبه وقتا محمدا ، ويشبه العرقش الأكبر صياح اليوم في الاماكن

المقفرة بتلك النواقيس التي ضربت بعد هدوء (٥) :

و تسمعُ تزقاً من اليوم حولنا .. كما ضربت بعد الهدوء النواقيسُ

وعلاوة على ذلك فان الناظر في شعر امرئ القيس يرى كثيرا من المظاهر النصرانية

التي فاق في ذكرها شعراء الجاهلية ، ولا شك أن ذلك يوحى باطلاع امرئ القيس

(١) ديوانه : ٨٤ .

(٢) عليه : أى على الرمح الذي وصفه في الأبيات قبله ، العزيز : فى الديوان " الملك

وسراجه أشد ضوءاً " ، الذبال : القتائل التي توضع فى السراج ليضىء ،

يحشوه : أى يحشو موضع القتائل .

(٣) هذا على رواية أبى عمر كما فى ديوان النابغة — بشرح ابن السكيت : ٥٦ . تحقيق

د . شكرى فيصل . ط . دار الفكر — بيروت . ويروى (محلثهم) والمعنى على

ذلك بلادهم .

(٤) محلثهم : يريد كتابهم الانجيل ، وكانوا نصارى ، وكل كتاب عند العرب مجلة ،

قويم : أى مستقيم

(٥) المفضليات : ٢٢٥ .

على احوالهم واتصاله بهم ان لم يكن خالطهم وعاش معهم .

ففى شعره ذكر للحرج (١) وهو نعش النصارى الذى يحملون عليه موتاهم ، وربما ذكره بالأران (٢) ، وذكر هيكل النصارى وشبه فرسه به (٣) ، وذكر مصابيح الرهبان (٤) ومنارتهم التى تضىء ليلا وقد انقطع الراهب الى عبادته (٥) ، وذكر ما كان يحدث ممن اجتمع الصبيان حول الراهب وما كانوا يقومون به من تخريق ثيابه وتمزيقها وهم يتمسحون به تعظيما وتبركا (٦) .

ونجد مع امرئ القيس (الاعشى) يتمحض لوصف هذه المظاهر ، ولا غرابة فى ذلك من الاعشى ، وقد كان جوابا للافاق يلتبس المال من الهلوك والاشراف ، ولا يضج رحلة الا ليستريح برهة كى يخرج فى رحلة جديدة ، وقد عرف عنه كثرة تردده الى العباديين (نصارى الحيرة) ونادم بنى عبد المدان فى نجران حيث توجد النصرانية ، وقد اشار الى ذلك عند خطابه الى ناقته وقد نوى الرحيل الى نجران (٧) :

وكعبة نجران حتمّ عليه لك حتى تنأخى بأبوابها
نزور يزيدَ وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها

ومن اشاراته فى هذا الصدد ان مدد وحه اتقى من الراهب المعتكف فى هيكله أمام الصليب دائيا فى صلاته (٨) ، وذكر لنا يوم الفصح (٩) ، وقسم بعمل الراهب الصالح (١٠) ، وشير الى دقهم للنواقيس (١١) .

(١) ديوان امرئ القيس : ٩٠

(٢) السابق : ٨١

(٣) السابق : ٣٦ ، ٩١ ، ١٧٢

(٤) السابق : ٢٠ ، ٢٤ ، ٣١

(٥) السابق : ١٧

(٦) السابق : ١٠٤

(٧) ديوان الاعشى : ٢٢٣

(٨) السابق : ١٠٣

(٩) السابق : ١٦١

(١٠) السابق : ١٧٥

(١١) السابق : ٢٢٧

وإذا اكتفينا بهذين النموذجين من عبادات الجاهليين من خلال تلك الصور والاشارات التي لمسناها في الشعر الجاهلي بعمامة ، ثم نظرنا الى بعض شعرائهم من خلال ما روت لنا المصادر من شعر له ، ثم حاولنا ان نستخلص من ذلك دين الشاعر وعقيدته ، فان ذلك ممكن وجائز ، وخاصة عند من حفظت لنا المصادر كثيرا من شعرهم ، ومعلوم ان هذا الأمر لا يمكن القطع فيه بسهولة ، ولا الحكم فيه من خلال القراءة السريعة بل لا يحصل ذلك الا لمن يمعن النظر كثيرا في كل ما قيل وروى عنهم يدرسه ، مع دقة فهم للنصوص وربط بين كثير من الظواهر والأحداث التي يلمسها في سيرته حتى يقف على رأى مقبول في ذلك .

والذين تعمقوا في دراسة بعض الشعراء الجاهليين استطاعوا أن يخرجوا بانطباع عن معتقداتهم ، واجتهدوا في ذكر ما كانوا عليه من دين ، ولا شك أنهم أفادوا من أشعارهم فائدة كبيرة ، و اتكأوا عليها في استنباط نتائجهم .
ولما كانت مسألة الدين من المسائل التي لا ينبغي المبادرة إليها : الا بعد ريث في الشعر الجاهلي ،

اذ هي من المسائل الدقيقة جاز أن يخرج دارسوها بنتائج مختلفة ، وبخاصة من تعجل النظرة وفاتته الاحاطة بجوانب القضية .
فامروء القيس قيل بنصرانية (١) ، وظن أنه على المزدكية المجوسية (٢) ، ورأى أحد الباحثين بعمق في دراسته أنه كان وثنيا كبقية قومه ، وقد أحسن في عرضه لذلك مسح مناقشة الأراء المخالفة ، ثم ايراده للأدلة التي رجحت ما ذهب اليه (٣) .
” زهير بن أبي سلمى ” يقترب منه ، فهناك من قال بوثنيته ، وثمة من رجح تحنقه (٤)

(١) لويس شينحوفى شعراء النصرانية) : ٦/١ .

(٢) امروء القيس أمير شعراء الجاهلية . د طاهر أحمد مكى : ٩٦ ، ٩٧ . ط ١ -

= ١٩٦٨ م ، دار المعارف بمصر .

(٣) السابق : ٩٧ - ١٠٣ .

(٤) انظر ما سلف عن ” زهير ” في باب الحنفاء من هذا البحث .

كما سلف ، و " النابغة " الذي يلقى قيل عنه انه كان كبقية العرب يعتقد في الله واحد ،
وان كان يعظم الأوثان ويحلف بها ، وليس ثمة داع للتعسف وتحميل الأبيات (الستى
تشير لمظاهر النصرانية) مالا تحتمل من معان تلمسا لا دعاء النابغة كان نصرانيا ، وان
بيتا كالدى يقوله النابغة :

فلا عمير الذي أثنى عليه . . . ومارفع الحجيج الى الال

لأدل على دينه من تلك الأبيات التي مدح بها الغساسنة على نصرانيتهم ، ووصف
فيها أعيادهم ، أو التي ذكر فيها اسم الله في مقام الحلف أو الدعاء . . . و ما شاكل
هذا وهم على وثنيتهم ، لأنها وثنية ورائها توحيد يكمن في قرارة نفوسهم " (١)
من خلال هاتين النظرتين الى بعض عبادات الجاهليين (الأصنام والنصرانية)
في الشعر الجاهلى ، و الى ما يروى لبعض شعرائهم يمكننا أن نعرف جواب ذلك التساؤل
عن فائدة هذه الأشعار الدينية وأهميتها ، ويمكننا القول : ان الشعر وان كان غير
مطالب بتسجيل الأحداث وتدوين الحقائق ليعين على استنباط كثير من الأمور والأحداث
والظواهر في حياة الأمم ، وهو يوضح جوانب في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية
والدينية ، ونحن نلاحظ ذلك في الدراسات الأدبية كثيرا ، و التي تنبثق مما يروى من
أدب يحمل أى ظاهرة ما ، و كمثل ذلك من العصر الجاهلى - الذى تنضوى تحته
دراسنا هذه - أن نرى من ألف في الحياة العربية في جوانبها المختلفة من اجتماعية
وخلقية ودينية ، وعادات وأساطير كل ذلك - من الشعر الجاهلى (٢) ، وبذلك
ليس غريبا أن نجد من دارسى هذا الأدب من يقول : " الشعر الجاهلى وثيقة تاريخية
في دراسة المعتقدات الدينية " (٣) .

(١) د . عمر الديبوقى : ٢٠٥ ، ٢٠٦ (النابغة الذبياني) ط ٦ - ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م

دار الفكر العربى - القاهرة .

(٢) " الحياة العربية من الشعر الجاهلى " للدكتور : أحمد محمد الحوفى .

(٣) دراسات فى الشعر الجاهلى : د . نوري حمودى القيسى : ٣٠ ط بمساعده

جامعة بغداد - العراق .

(ب) منهج فى قراءة

الاشارات الدينية وما يتصل بها فى الشعر الجاهلى

الشعر الجاهلى الذى كشف لنا جوانب كثيرة عن دين الجاهلين من عبادة أوثانهم وحنفية وغيرها يحمل فى ثناياه دلالات غير مباشرة على الدين ، وهى تختلف عن الصور التى يمكن أن نربطها باحدى تلك الديانات مباشرة كقولنا عن بيت امرئ القيس (١) :

أَتَتْ حَجِجٌ بَعْدَى عَلَيْهَا فَأَصْبَحَتْ . . . كَخَطِّ زُورٍ فِى مِصْحَافِ رَهْبَانَ

وهو يصف قدم الدار وبعد عهده بها حتى تغيرت رسومها ، ودرست آثارها ، فأصبحت كخط الكتب فيما تقادم من مصاحف الرهبان ، ان هذا البيت يدل على مظهر نصرانى هو وجود كتاب يأخذه الرهبان ويقرءون منه وهو الانجيل والذى سماه الشاعر زورا ، وتبد وهذه الدلالات غير المباشرة من الفكرة التى يتحدث عنها وما نراه من عاطفة دينية من وراء ذلك ، ونعنى بهذا ما يرد فى هذا الشعر من معان كالكرم وحس الجوار و اغاثة الملهوف و صلة القربى و التقوى و الحق و العدل و ما شابه ذلك . ولا ريب أن هذه المعانى و أضرابها مما يدخل فى مكارم الأخلاق و محاسن العادات غير أن ورودها فى هذا الشعر و تصويره نظرتهم مفاخرين و متنافسين فيها يومئ من طرف خفى — فيما يبدو لى — الى ارتباط ذلك بمعتقد دينى فى نفوسهم ان لم يكونوا بنوا ذلك عليه .

ولا أزعج بذلك أن هذا هو السبب الوحيد لانتشار ذلك بين العرب ، ان قد تفسر القضية بغير تلك الرؤية و من الجائز ان يقال ان مثل ذلك لا تخلو منه أمة من الأمم مهما كانت فلا بد أن يكون من بين أبنائها من يعمل بهذه الأعمال الخيرة و يحمل تلك المعانى النبيلة و يتمنى انتشارها فى بيئات قومه ، و لكننى أرى ارتكاز هذه المعانى و وجودها ينبع من أصل دينى كان أهم عامل دعا إليها و ساعدته عوامل أخرى كالشجرة و حب الخير و سواهما .

(١) ديوان امرئ القيس : ٨٩

ومن المعلوم ان هذه الامور انتشرت بين العرب في ذلك العصر ، ومع اننا لا ننفي وجود مثل ذلك عند غيرهم من الشعوب لكنهم بدوا غيرهم في مضمارها ، وبالغوا واعتدوا بهذه المزايا وحرصوا على التسابق اليها والفخار بها رغم فساد الاديان وانحطاط بعض الاخلاق والعادات .

وانا ما ذكرنا هذه الامور فلا حرج أن نورد ما يدل عليها من شعرهم في نماذج يسيرة من كثير مما حوى ذلك الشعر منها (١) .

فالكرم خلة افتخروا بها واحبوها ، وهو غير مخصوص بفتة دون اخرى ، بل يدعون عامة الناس الى طعامهم ولا يميزون فيه قريبا عن بعيد أو ضيعا عن شريف ، يقولون طرفة (٢) :

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفْلَى لَا تَرَى الْآدِيبَ فِينَا يَنْتَقِرُ (٣)

ومن حرصهم على الكرم ان اتخذوا ما يهدى الاضياف اليهم في مراتبهم ، فالكلاب تدل المارة عليهم ، وهم لا يحاولون اسكاتهما ، امارة منهم على أصالة هذه التسجيية عندهم ، اليس شاعرهم يقول :

فَإِنْ يَلُكُ شَابَ الرَّأْسِ مَنِّي فَأَنْتِي أَبِيْتُ عَلَى نَفْسِي مَنَاقِبَ أَرْمَى
فَوَاحِدَةٌ إِلَّا أَبِيْتُ بِغَيْرَةِ إِذَا مَا سَوَامُ الْحَيِّ حَوْلِي تَضَاعَوْا (٤)

(١) لمزيد من ذلك راجع : المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي . محمد الشيبغ محمود صيام . الباب الثالث (٣٠٦ - ٤٠٣) رسالة دكتوراه - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤٠٢ هـ

(٢) ديوانه : ٦٥

(٣) المشتاة : زمن الشتاء والبرد ، الجفلى : ان يعم بدعته الى الطعام ، ولا يخص واحدا دون آخر ، الادب الذي يدعو الى المادبة وهي الطعام ، ينتقر : يخص بدعته اناس دون آخرين عكس الجفلى .

(٤) الغرة : الغفلة ، السوام : الابل السائمة ، نصوع : تفرق ، والمعنى أنه لا يغفل عن حماية قومه اذا ذعروا .

وثانية كالأصممت كلبنا إذا نزل الأضياف جرّصاً لنود عسا (١)

واجتهدوا في اضرار النار في ليالي الشتاء الباردة حتى يستهدى بها الناس
فينزلون بساحاتهم كما قال حاتم طي لغلامه (٢) :

أوقيد فإن الليل ليـل قـر

والريح يا موقـد ربح صـر (٣)

عسى يرى نارك من يمر

إن جلبت ضعفاً فأنت حر

ومن أكبر ما يدل على اهتمامهم بالكرم وتعبيرهم من قصر فيه ما روى أن الأعشى لما
هجا علقمة بن علاثة بقوله (٤) :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرشي يبتن خمائصا (٥)

فلما سمع علقمة ذلك رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم العنه إن كان كاذباً ، ابحن

نفعل هذا بجيراننا ، ثم بكى وقال : ما هجاني بشيء هو أشد علي من هذا .

وكانوا يتبادرون إلى اجابة الداعي ونداء المستغيث ، وذلك معدود من الشجاعة

وحب النجدة واغاثة الصريح ، يقول عمرو بن معدى كرب (٦) :

أعاذل إنما أفنى شبابي ركوس في الصريح إلى المنادي (٧)

ومتسابق لنجدة الضعيف من تقدمت به السن غير حافل بحاله عوناً لمن آتاه ، كما

(١) الاصمعيات : ٦٤ ، من قصيدة لمالك ابن حريم

(٢) ديوان حاتم : ٢٧١

(٣) هـر : أى شديد البرد ، صر : أى ربح باردة

(٤) ديوان الأعشى : ١٩٩

(٥) المشتى : يريد في الشتاء وهو مظنه الحاجة ، غرشي وخمائصا : أى جائعات
ضوامر البطون من الجوع .

(٦) ديوانه : ٦١ ، صنعة هائم الطعان ، ط . وزارة الثقافة والاعمال
- العراق .

(٧) الصريح : يطلق على المغيث والمستغيث والمراد الاول في البيت .

يطيش الفتيان فى تلك الحالة بخفة لا يعبأ معها بما تكون العواقب ، وقد صرور
بشرب بن ابى خازم ذلك بقوله (١) :

صِيحْنَاهُ لِنَلْبِسَهُ بِزَحْفَرٍ شَدِيدُ الرُّكْنِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءٌ
بَشِيْبٍ لَا تَخِيْمُ عَنِ الْمَنَادِى مَرْدٍ لَا يُرَوِّعُهَا اللَّقَاءُ (٢)

والتعفف عن الشهوات وغض البصر عن الجارات وجد غد همم ، ومن وقع فى ذلك نالتسه
المذمة واتهم فى اخلاقه ، حتى ان منهم من لا يعرف جارته حتى ترحل عنه على ما قال
قيس بن الخطيم (٣) :

وَمَا لَمَعَتْ عَيْنِي بِغِمْرَةٍ جَارَتِي وَلَا وُدُّعْتُ بِالذَّمِّ حِينَ تَبَيَّنُ

اما الدخول على النساء ، وخيانة الازواج فهى خسة كبيرة ، وعار على من تحين
ذلك فى نساء الاقارب والجيران والبعده عند النمر بن تولب (٤) :

وَلَا أَخُونُ ابْنُ عَمِّي فِي حَلِيَّتِهِ وَلَا الْبَعِيدُ نَوَى عَمِّي وَلَا جَارِي
حَتَّى يُقَالَ إِذَا وَرَيْتُ فِي جَدَثِي لَقَدْ مَضَى لِمَرْءٍ عَارٌ مِنَ الْعَارِ

والجار مرعى الجانب ، لا يمسه سوء وهو فى حماية جاره ، ويعيش عزيزا بين جيرانه
مكرما ، سعيدا باقامته لاغضاضه فى ذلك ولا كدر ، والجار محافظ على جاره وامواله ،
وكانما هو من اهله حتى اذا ما رحل عنه ذكر بحسن الجوار وكرم العشرة ، وهم
يتواصون بحد الجار فيما بينهم كما قال المثقب العبدى (٥)

أَكْرَمِ الْجَارِ وَأَرْعَى حَقَّهُ إِنَّ عَرَفَانَ الْفَتَى الْحَقُّ كَرَمٌ

وسعى العرس لمخالطة جاره ولين الجانب دائما له حتى ينسيه انه جار ، وكانه
رب المحل مادام مقيما عنده كما قال قائلهم (٦) :

(١) ديوانه : ٦٥٥

(٢) تخيم : تنكس وتجب عن القتال ، مرد : جمع امرد وهو الشاب الذى طر شاربه
ولم تبد لحيته

(٣) ديوانه : ١٠٧

(٤) ديوانه : ٦٦ صنعه د . نوري حمودى ط . مطبعة المعارف - بغداد

(٥) ديوانه : ٢٢٩

(٦) شرح الحماسة (للمرزوقى) : ٣٠١/١ ليزيد بن حماسة السكونى

وَمَنْ تَكْرَمَهُمْ فِي الْمَحَلِّ أَنَّهُمْ لَا يَشْعُرُ الْجَارُ فِيهِمْ أَنَّهُ الْجَارُ
حَتَّى يَكُونَ غَزِيًّا مِنْ نَفْسِهِمْ أَوْ أَنْ يُبَيِّنَ جَمِيعاً وَهُوَ مُخْتَارُ

والصدق نجاته لصاحبه ، وهو سياج لشرفه من الاذى ، وقد ارضى زهير به
عندما قال (١) :

وَفِي الْحَلْمِ إِدْهَانٌ وَفِي الْعَفْوِ دُرِّيَّةٌ وَفِي الصَّدْقِ مَنجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ فَاصِدُ قِي (٢)
وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالْمَوَاقِفِ وَغَيْرِهَا مَا يَتَّفِقُ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ وَالْمَحَافِظَةُ عَلَيْهِ
وَعَدَمُ الْخِيَانَةِ فِيهِ ، فَإِذَا قَرْنَ بِالْيَمِينِ كَانَ أَشَدَّ لَزَامًا وَمَحَافِظَةً عَلَيْهِ ، وَقَدْ فخر عمرو بن
كلثوم بذلك في قوله (٣) :

وَنُوجِدُ نَحْنَ أَمْنَهُمْ ذِمَاراً وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَدُوا يَمِيناً
ويقول المثقب العبدى في قصيدته المشهورة (٤) :

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ أَنْ تُنِيْمَ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ نَعَمٌ
حَسَنٌ قَوْلٌ نَعْمٍ مِنْ بَعْدِ لَا وَقَبِيحٌ قَوْلٌ لَا بَعْدَ نَعَمٍ
أَنْ لَا بَعْدَ نَعَمٍ فَاحِشَةٌ فَبَلَا فَبَدَأَ إِذَا خَفَتِ النَّسَدُ
فَإِذَا قَلْتَ نَعْمَ فَاصْبِرْ لَهَا بِنَجَاحِ الْوَعْدِ أَنْ الْخُلُوفَ ذَمٌّ

ومن تلك الخلال الحميدة حب الحق والعدل والانصاف ، ومغض الجور والباطل
فتى بان لهم الامر وعرف الحق اتبعوه كما فخر سويد بن ابي كاهل بقومه
عندما قال (٥) :

عُرِفَ لِلْحَقِّ مَا نَعِيَّا بِهِ عِنْدَ مَرِّ الْأَمْرِ مَا فِينَا خَرَجَ (٦)

(١) ديوانه الاعلم : ٢٦٢

(٢) الادهان : المداينة والمصانعة . الدرية : العادة واللجاجة

(٣) شرح القصائد السبع الطوال (لابن الانبارى) : ٤٠٨

(٤) ديوان المثقب العبدى : ٢٢٧ ، ٢٢٨

(٥) المغضليات : ١٩٤

(٦) الخرع : الضعف واللين ،

ولعله يريد حسن تصرفهم وصبرهم في الطلمات .

ويقول (الاعشى) وقد طلب بالحكم بين مختلفين (١) :

حكمتهمونى ففضى بينكمم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة فى حكمه ولا يسالى غبن الخاسر

ومن الانصاف ان لا يتسرع الرجل فى ذم من لا يعلم حاله ، فمتى ماجرته ولا معدنه

سأغ له المدح أو الذم كما قال اوس بن حجر (٢) :

لا تُظهرن ذم امرئ قبل خبره معد بلاء المرء فاذموا واحمد

والتقوى مما يتوارد من المعانى عند زهير بن ابى سلمى ، وممدوحه لا تفارقه التقوى

فتحجزه عن الوقوع فى السوء وتحميه من عشار حبائه :

ومن ضربته التقوى ومعصمه من سئ العشرات الله والرحم (٣)

وقد حالت التقوى بين الممدوح وسلب اموال الناس بغير حق ، فلا يتكثر بمال باطل

ليس من خاصة ملكه ، ولا يطمع فى انتهابك اموال اقربائه او يسطو عليها :

تقى نقيء لم يكسر غنيمة بنهكؤ ذى قرى ولا بحقلد (٤)

ومما يحمل معانى التقوى قوله (٥) :

عودت قومك أن كل مبزز مهما يعوده شيمة يتعود
حزماً وراً للاله وشيمة تغفو على خلق المسين المفسد

ورمى * النابغة الذبياني * بالفجور من اشار عليه ان يأمر قومه بترك حلقهم مع

بنى اسد ومقاتلتهم ، فأنكر ذلك واستعظمه ، وهو مطاع فى قومه لو أراد ، لكسه استنكف

عن ذلك ، ولما توعد على صنيعه هذا لم يأبه لذلك حتى سئل لسانه يفضح به من سعى

فى الفجور أو تمناه (٦) :

(١) ديوانه : ١٩١

(٢) ديوانه : ٢٧

(٣) ديوانه (الاعلم) : ١١٢

(٤) السابق نفسه ١٩٠ ، النهكة : النقص والاضرار ، حقلد : البخيل السيء الخلق

(٥) السابق نفسه : ٢٣٣ ، ٢٣٤ والمبرز السابق

(٦) ديوان النابغة الذبياني : ١٠٥

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني
تحت العجاج فما شققت عجارى (١)
إننا اقتسنا خطيننا بيننا
فحملت برة واحتملت فجار

كل هذه القيم السافية والمعاني النبيلة وماشابهها مما ورد منها وهو كثير - تدفع المتأمل فيها ألا يفسرها بمظاهر حياتهم أو طبيعة جزيرتهم ، وأنها هي التي دعتهم إلى ذلك ، ولعل ما يقرب من ذلك ألا نقف بهذه الأمور عند ظواهرها المسطحة ، أو مغازيها القريبة ، كالكرم لأجل الذكر والشهرة ، أو حماية الجار خوفا من الهجاء والتعيير واغاثة الصريخ سلامة من سبهم بالجبن والخوف أو الضعف والمسكنة .

ومع عدم انكارنا لوجود شيء من ذلك عند بعض العرب إذ النفوس تهفو إلى الشهرة وتتوق إلى حديث الناس بالسنة رطاب فان كثرة ورود هذه المعاني وما يروى من بعض المبالغات في كثير منها - مما يوحى إلى شيء من ذلك - لتدل إلى عمق كبير لهذا الفكر في نفوسهم ، وأنها لم تكن سوانح سنحت بها خواطرهم ، أو عوارض طرأت في أذهانهم أحيانا ، وفي تقديري أن مثل تلك التفسيرات غير كافية لتفسير وجودها وسعة انتشارها .

وفي تناول - على هذا النمط - ما يوهم التمثل والتعسف ، والشروء عن الجادة في فهم هذه الأبيات ، وما إليها لكن من يدرس شعر حاتم الطائي - وهو أشهر من عرف بالكرم بين العرب آنذاك - ثم يربط ذلك بما يروى من أخباره لا يظن أن ذلك الرجل الكريم قضى حياته وأقنى تلاك ماله في كل الأحوال لينعم بثناء الناس ويزدهى بذلك عليهم ، وهو في مسيس الحاجة إلى تلك الأموال لينتفع بها في حاجات حياته ونوائبها .

ومفهوم الكرم لا يقتصر على سخاء النفس بكثرة بذل الأموال ، بل له روافد كثيرة يقوم بها ، وهو اجتماع خلال سامية وتنزيه لما يضع من منزلتها ، والكرم أكثر ما يكون

(١) يخاطب زرعة ابن عمرو ابن خويلد بنى كلاب في الديوان ، العجاج .

فى اقتران الجود بنبيل الفعال (١) . و على ذلك فلا تظن أن حاتما طار صيته بين العرب لما أسرف من بذل الأموال ، و أفعاله و أخلاقه الأخرى و ضييعه ، أو كان كعوام الناس فى حياتهم ، كلا و لكنه نال الذروة من الجود و مكارم الأخلاق .

و خير ما ندل على ذلك ما روى أن سفانة بنت حاتم لما أسرتها احدى سرايا المسلمين فى السنة التاسعة من الهجرة و جئ بها الى المدينة ((قالت لرسول الله صلى الله عليه و سلم : يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى و لا تشمت بى أحياء العرب فانى ابنسة سيد قومي . و ان أبى كان يحمى الذمار ، و يفك القانسى و يشبع الجائع و يكسو العارى و يقرى الضعيف ، و يطعم الطعام ، و يفشى السلام ، و لم يرد طالب حاجة قط ، و أنا ابنة حاتم طى . فقال النبى صلى الله عليه و سلم : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا لو كان أبوك مؤمنا لترحنا عليه ، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، و الله تعالى يحب مكارم الأخلاق)) (٣) .

ولعلنا نرى تلك الشيات فى دراسة شعر حاتم و أخباره لدى بعض الباحثين الذين ذهبوا الى تخطئة من فسر الكرم غده حاتم بعثق السلالة و رفعة النسب ، و أن جوده كان تصنعا اندفع فيه طلبا للذكر و الثناء (٤) ، و ذهبوا الى أن الأدلة التى انتهت الى ذلك (فضلا عن أنها غير كافية قسبى أيضا غير دافعة و لا قاطعة) (٥) . و كان الذى انتهت اليه تلك الدراسة و خرجت به اليها بعد المناقشة و التتبع (أن جود حاتم انما دفعه اليه رغبة مخلصه فى اغاثة الملهوف ، و نجدة المعتر ، لا مجلبة لحمد أو تمجيدا

(١) لسان العرب (كرم) : ٥١٠/١٢ .

(٢) راجع فى ترجمتها كتب الصحابة ، ديوان شعر حاتم و أخباره : ٢٥ - ٢٨ .

(٣) البداية و النهاية : ٢١٣/٢ رواية عن البيهقى .

(٤) هذا رأى الدكتور محمد النويهى . الشعر الجاهلى ١/٢٣٤ . ط الدار القومية القاهرة .

(٥) ديوان شعر حاتم الطائى و أخباره : ٧٩ ، و انظر الفروسية فى الشعر الجاهلى

د . نوري حمودى القيس : ٢٩٢ ، ٢٩٣ . ط ١ - بغداد .

لثناء ، فقد رأينا يعطى دون أن يسأل ، ورأينا لا ينتظر قصادة بل يبدأهم هو بالذم
 إليه ، تدعوهم ناره و كلابه ، ورأينا يبذل ماله حين يشتد الزمان ويشح القوت ويضيق
 الناس بما فى حوزتهم ادخارا ليوم قاسى وغداً مجليفاً ، وقد وقف ماله على ما يعين
 الناس ، وجعل همّة أن يصل رحمه ويأخذ بأيديهم ، وجعل وكده أن يساعد
 الغرباء فيطعم جائعهم كريم المأكل ، ويفك عانيهم من ذل الاسار ، حتى ولو بسات
 وهو غرثان لا يجد قوت ليلته ، أو وضع نفسه فى قيد الأسير لافتقاره الى فكائه . هذا
 هو نهجه ، لا تعدى عنه ولا مذهب (١) .

والى مثل هذا التفسير لظاهرة كرم العرب ممثلاً فى حاتم طى أميل الى تفسير تلك
 الأخلاق الحميدة و العادات الصالحة لأقول - كما أسلفت - ان هذه الأمور انما انتشرت
 ذلك الانتشار الواسع - كما صورتها كثرة أشعارهم فى التغنى بها - وتسبقوا فيها
 وتفاخروا بها لمعتقد رسخ فى أذهانهم بالايان بهذه الأمور ، وبقي العرب يتوارثونه
 جيلاً بعد جيل حتى بعث الله فيهم رسوله الأمين " محمداً صلى الله عليه وسلم " وشم
 على ذلك .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب اذا قلنا : إن تلك المحاسن و المناقب أتت بها دين
 " ابراهيم " و " اسماعيل " - عليهما السلام ، ولما انتشرت الحنفية فى العرب نشرت
 بينهم هذه المكارم و أخذوها منها ، و بقيت بينهم مثل ما بقى من تلك الحنفية من بقايا
 بين العرب كعظيم الأشهر الحرم و حج البيت وغيرها كما قرنا خلال هذه الدراسة
 و لا شك أن الحنفية أتت بمكارم الأخلاق و جميل الصفات و العادات و أمرت بها على
 ما نجده فى أقواله صلى الله عليه وسلم (انما بعثت لأتم صالح الأخلاق) (٢)
 أو لقوله عليه الصلاة و السلام :

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كرهه من كرب يوم القيامة ، و من يسر

(١) ديوان شعر حاتم الطائى و أخباره : ٧٠ ، ٧١ .

(٢) رواه أحمد فى المسند : ٣٨١ / ٢ . و فى بعض الروايات " مكارم الأخلاق " .

على محسر يسرا الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . . . (١) وما شابه ذلك (٢) وكيف لا يكون العرب كرماء وقد كان خليل الرحمن كريما ، وقد قص القرآن من نبضه في ذلك وقد أتاه نفر من الملائكة في صورة استنكر بها معرفته بهم ، فماذا حدث ؟ قال تعالى : (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين • إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون - فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقره اليهم قال الا تأكلون) (٣) • فهم نفر قليلون من الملائكة ظنهم أناسا لم يرهم من قبل ، فبادر اليهم بعجل يكتسى لعشرات من أمثالهم ، فالعرب أخذوا ذلك من دين إبراهيم وتشبثوا به حتى صار عادة مألوفة بين أكثرهم لا غرابة في التنافس فيها ، واللئيم في عرفهم من خالف هذه العادات أو قصر فيها •

ومع محافظة العرب على تلك المكارم فقد كان هناك فارق بين نظرتهم اليها وعملهم بها ما كانت تقصده الحنيفية منها ، فاله نغية تأمر بذلك لوجه الله خالصا ، وتنهى عن الاسراف والمبالغة الزائدة في هذه الأمور ، أما التخليون فهم على نقيض ذلك ، يحبسون الشهرة والسمعة ، ويسرفون الى درجة تشبه أن تكون تهورا ونزقا وطيشا •

ولعل ذلك ما حدا بأحد الباحثين الى أن يقول :

(ليس من شك في أن العرب في جاهليتهم كانت فيهم بقية من ملة سيدنا " إبراهيم " عليه الصلاة والسلام ، من مثل تعظيم الصفات الحميدة ، كالصدق والوفاء والجود والحلم والعفة • ولم تخل أمة من الأمم في أي جيل من الأجيال من مثل هذه الفطرة السليمة التي فطر الله عليها الخلق ، والتي بعث الله بها رسله بين الفترة والفترة ، • • • والذي

(١) رواه مسلم (شرح النووي) : ٤١٣

(٢) انظر جامع العلوم والحكم : أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي : ٢٢٦ -

• ٢٣٦ ط دار المعرفة - بيروت •

(٣) الذاريات : ٢٤ - ٢٧ •

أردنا أن نبينه هو أن بقية هذه الملة قد صرف عن وجهه وبعد عن مقاصده ، ولم تبسق منه الا صور لو تدبرناها لوجدنا أنها قد أصبحت ضد الجاهلى تترد فى آخر الأمر الى الاعجاب بالقوة و المفاخرة بها (١) .

و حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم الى العرب ، وكانت دعوته تأخذ بدعامة مكارم الأخلاق ونشرها بعد سلامة العقيدة ونقاء التوحيد (لم يفاجأ العربى بتغييرات كثيرة فى ظاهر ما ألف الا فى القليل ، لأن التغيير الجديد كان موجها الى روح العقيدة الذى فسد لا الى ظاهرها الذى بقى كثير من آثاره وأشكاله) (٢) .

لكن عمومية رسالته (ص) تتقاضى بأن يقف " الجاهلى " على تشريعات لم يألفها ، على أن ذلك الظاهر أو الشكل تغير فى جوهره ، لارتباطه بالعقيدة ، رأيت الى قوله تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعمنا هي ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) (٣) ،

ثم نرى التغيير واضحا فى قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون (٤) .

(١) المهجاء و المهجؤون فى الجاهلية ، د . محمد محمد حسين : ١٠ ط ٣ -

١٣٨٩ - دار النهضة العربية - بيروت .

(٢) السابق نفسه : ١٨١ .

(٣) البقرة : ٢٧١ .

(٤) المائدة : ١٠٣ .

(ج) شعر الحنيفة و حوم بعض الشبهات

ترد المعاني الدينية التي غيت بها تلك الدراسة عند أكثر شعراء الجاهلية بصفة عامة ، و برغم تفاوت ذلك عند هم بين مكثر و مقل فاننا نرى هذه المعاني أيضا تتوأم من عند من عرف من شعرائهم بكثرة التبذل و الاسراف في المجون ، و قضا حياتهم لاشين في التمتع بالذات ، مستغرقين في ذلك كل ما أوتوا من مال و فتوة و أزمان ، و تعيدوا كل فرصة سانحة للهو و المجون حتى عند و يسابقون الدهر الذي خافوا غوائله قبل أن يمنعوا أنفسهم بما يشتهون .

و حسبنا أن نرى ذلك عند شاعرين من أشهر من عرفوا بالتبذل و المجون بين شعراء ذلك العصر - فيما أرى - ، و أعني بذلك " امرأ القيس " و طرفة بن العبد .
 "فأمروء القيس" تحتل المرأة في شعره مكانا كبيرا ، يقف باكيا عند أطلال منازلها و قد غير الزمان حالها و لم تبق الا رسوم توحى اليها ، و يتذكر ما كان من شأنه في تلك الديار و يأسى على أيامه الخوالي معها ، و يصف المرأة و يدقق في ذلك ، فيصف أعضائها و قامتها و يشبه بجمالها و حسنها ، و يصور كثيرا من مفااتن الإغراء عندها . و لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى ذكر كثير من مغامراته ، و كيف يصل الى المرأة ، و ما يكون من عبات حتى يتم له ذلك ، ثم ما يكون من شأنه معها بعد ذلك ، و لعل مغامرته مع " غيظة " ابنة عمه و ما كان منه يوم داره جلجل جهيرة شائعة .

و الخمر مما غلب عليه و أفاض في ذكره و شرب و ارتوى منه ، و قد صور لنا شعره ما غلب على حياته من ذلك ، و قد دعا الى التمتع من الدنيا ، و ما دنياه الا كأس و امرأة (١) في قوله :

تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ فَا نِ . . . مِنَ النَّشْوَاتِ وَ النَّسَاءِ الْحَسَنِ
 مِنَ الْبَيْضِ كَالْأَرَامِ ، وَ الْأَدَمِ كَالدُّمَى . . . حَوَاصِئُهَا وَ الْمَبْرَقَاتُ الرُّوَانِي (٢)

(١) ديوانه ص ٨٧

(٢) الأدم - اللاتي يضرين الى السمرة ، الحواصي : الصفائف ، و المبرقات من النساء اللواتي يبرقن للرجال أى يبرزن حليتهن و محاسنهن الرواني : الدائمات النظر

هذا الشاعر نجد في شعره بعض المعانى الإيمانية وخاصة الايمان بالله ، فكثيرا ما يقسم به ، ومن ذلك يمينه لاحدى النساء وقد دخل عليها فى احدى مخامراته أنه سيقى غدها ، حتى لو دفع حياته فى سبيل ذلك ، ثم يقسم لها يميننا فاجرة إن الناس ناموا ، فما أدرك أحدك مجيئه ولا شعروا به :

فقلتُ يمينُ اللهِ أبْسَحُ قاعداً .. ولَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأُصَالِي

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ .. لَنَا هَوَا ، فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ (١)

فمع قسمه بالله يعلم أنه فاجر فى يمينه لها ، وماذا يبقى لليمين من داع و وزن ضد من تقم الأهوال حتى وصل الى مخدع المرأة فى أقصى دارها .

ونراه تارة يحمد الله وقد سرته ابله التى رعت الأعشاب الكثيرة حتى سمت و اكتنزت لحما حتى ضاقت عنها جلودها ، وذلك فى جوار قيس و شمر ابنى زهير من بنى ساهمان ابن ثعل ، كما قال (٢) :

أرى ابلى والحمد لله أصبحت .. ثقلاً إذا ما ستقبلنا تعودنا

رعت بحيال ابنى زهير كليهم .. معا شيب حتى ضاقت عنها جلودنا

ويوم أجار رجل يدعى بن شجنة بعضا من أهل " امرئ القيس " خلال حروبهم

مدخه ، ومدح قومه بأن الله اختارهم وفضلهم بالعويسر ، فكانوا أوفى الناس بميثاق لمن جاورهم أولا ذبهم .

فقد أصبحوا والله أصفاهم به .. أبر بميثاق و أوفى بجيران (٣)

والله جلا و علا خير من يطلب و انجح ، فهو المأمول فى حصول ما ارتجى منه ،

و البر خير ما يحمل الرجل فى القول و العمل :

والله انجح ما طلبت به .. و البر خير حقيبة الرجل (٤)

(١) ديوانه ص ٣٢

(٢) السابق ٣٤٧

(٣) السابق : ٨٤ .

(٤) السابق : ٨٣٨ .

وفي الحوار الذي دار بين " امرئ القيس " مع عبيد بن الأبرص ، وعبيد يسأل امرأ القيس كما تروى المصادر (١) ،

ما الحاكون بلا سمع ولا بصر .. ولا لسان فصيح يعجب الناسا
فرد امرؤ القيس :

تلك الموازينُ و الرحمنُ أنزلها .. ربُّ البرية بين الناس مقياسا

فهو يذكر الله باسم الرحمن ، وهو الذي انزل الموازين ، والناس يقيسون به المقادير في تعاملاتهم ، و الرحمن غد " امرئ القيس " رب البرية أجمعين يقول أحد الباحثين (و ذكر امرئ القيس لكلمة " الرحمن " دون معاصريه من الشعراء يقوى الرأي فيه شاعرا يمينياً وثنيا ، لان الرحمن اسم لاله جنوبي قديم ، أو وصف له في أضعف الحالات ، ثم تنويع اسم الاله ، وحلت بعض صفاته في الدلالة عليه) (٢) .
وهذا كلام لا نوافق عليه الظاهر مكى ، فالواقع أن الشعر الجاهلي تردد فيه كلمة " الرحمن " من ذلك قول " سلامة بن جندل " :

عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا عَجَلْتَيْنَا عَلَيْكُمْ .. ومن يشأ الرحمنُ يَعْقِدُ وَيَطْلُقُ (٣)

ثم ان كلمة " الرحمن " جاءت على لسان (الأعمش) في قوله :

وما جعلَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ فِي الْعُلَى .. بأجيارِ غريبِ الصَّفَا وَالْمَحْرَمِ (٤)

كذلك وردت في قوله .

وَإِنْ تُقَى الرَّحْمَنِ لَا شَيْءَ مِثْلَهُ .. فَصَبْرًا إِذَا تَلَقَّى السَّحَابُ الْغَرَائِبَا (٥)

والعجيب أن الدكتور (محمد حسين) يعلق على القصيدة تعليقا يفهم منه أن

(١) ديوان امرئ القيس : ٤٦٢ .

(٢) امرؤ القيس : حياته وشعره (ظاهر أحمد مكى) ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) ديوان سلامة بن جندل : ١٨٤ .

(٤) ديوان الأعمش : ١٧٣ .

(٥) السابق : ٣٧٩ ، السَّحَابُ : السَّحَابُ وَهُوَ الْجُدُّ ، وَالسَّحَابُ الْبَعِيدُ ، وَأَسْحَقُ الشَّيْءُ

إِذَا ضَمَّرَ وَأَنْضَمَّ ، وَمِنْهُ اسْحَقُ الْفَرْعِ إِذَا ذَهَبَ لَبَنُهُ ، فَلَمَّا فَتَاهُ أَرَادَ الضَّعْفَاءَ وَالغُرَبَاءَ

الْمَعُوزِينَ . الْغَرَاثُ : جَمْعُ غَرْتَانٍ وَهُوَ الْجَائِعُ ، فَصَبْرًا : الصَّبْرُ هُنَا الْكِفَالَةُ مَنْ قَوْلِهِمْ

صَبِرْ نَفْسَكَ بِصَبْرٍ أَيْ كَفَلْهُ وَعَالَهُ . وَالْمَعْنَى : سَاعِدْ هَؤُلَاءِ الضَّعْفَاءَ وَالْمُتَّاجِينَ .

القصيدة التي تضمنت هذا البيت لا تصح للأعشى لأسباب منها .

ركاكة نظمها ، وتأثرها بالقرآن الكريم ، ولو جار بناه في ذلك فرضا فكيف يفسر البيت الثاني ؟ ولا سيما والقصيدة التي تحمل ذلك البيت جاهلية لم يشك فيها ، أو تساوره ريبة . . هذه واحدة .

وأخرى ، فان الشعر الجاهلي مما تروي فيه كلمة (الرحمن) على النحو الذي أوامنا اليه في شعر (سلامة بن جندل) .

وهذه المقولة - مقولة أن كلمة (الرحمن) لم ترد في الشعر الجاهلي مطلقا ، أو أنها وردت عند (امرئ القيس) فقط ، لا تقوم على الاستيعاب والاستقصاء ، وفريسه تلقفها باحث عن آخر ، كذلك الذي نراه - مثلا - عند الدكتور (شوقي ضيف) من قوله : " ولم تشع كلمة " الرحمن " بين الشعراء الا في الاسلام أخذا من قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) (١) مع أنه لو عاد^{الى} تفسير (الامام الطبرى) لرأى أن " الطبرى " يرحض هذا الزعم ، ويعالقه به قائلا (٢) :

((وقد زعم بعض أهل العجباء أن العرب كانت لا تعرف (الرحمن) ولم يكن فى لغتها ، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ (وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا) انكارا منهم لهذا الاسم ، كأنه كان محالا عنده أن ينكر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحته ، أو كأنه لم يتل من كتاب الله قول الله ((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه (يعنى محمدا) كما يعرفون أبناءهم)) ، وهم مع ذلك به مكذبون ، ولنبوته جاحدون ، فيعلم بذلك أنهم كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته واستحكمت لديهم معرفته ، وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها . . ألا قضب الرحمن رسي يمينها

وهنا لابد من لفته على شابكة بما نقول ، تلك هي أن د . محمد حسين أغفل فى

(١) العصر الجاهلى : ٣٤٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٣١/١ .

فهرست اللغة كلمة (الرحمن) الأولى التي تتمحّض في جاهليتها ، بينما ذكر الثانيه تلك التي شكك فيها . . . و لست أدرى سرا لذلك اللهم الا أن يكون ذلك قد صدر منه غفوا ولفظة اخرى كذلك تتعلق بتحقيق * الاصمعيات * التي اوردت قصيدة (سلامة بن

جندل) ومطلعها :

لمن طَلُّ مِثْلُ الكِتَابِ المُنْمَقِ خَلَا عَهْدُهُ بَيْنَ الصُّلَيْبِ فَمُطْرَقِ
عَجَلْتُمْ عَلَيْنَا حَجَّتَيْنِ عَلَيْكُمْ وَمَا يَشَأُ الرَّحْمَنُ يُعْقِدُ وَمُطَلِّقِ

فقد وقع المحققان الفاضلان فيما وقع فيه المرحوم د . محمد حسين حسين أغفلا كذلك

(ايراد هذه الكلمة) في فهرست اللغة .

وفي تقديري أن هذا الصنيع لعله هو الذي رسخ في اذهان بعض الباحثين انه من المستبعد - ان لم يكن من المستحيل - أن تأخذ كلمة (الرحمن) طريقها الى الشعر الجاهلى . . . مما يحفز الى ان نعيد النظر في تلك الاحكام النقدية الجاهزة حتى يمكن تقويم هذه الاشارات الدينية ومثيالاتها في الحكم على هؤلاء ، ووضعها في اطارها الذي تستحقه (١) .

ومما ورد عنده من مظاهر الخيفية تعجبه من ذلك التفرق العجيب الحزين ، وهو

تفرق الحجاج بعد أن ادوا حجهم وتفرقوا من المحصب :

فَلَلَّهَ عَيْنَا مِنْ رَأَى مِنْ تَفَرَّقِي أَشْتَّ وَأَنَايَ مِنْ فِرَاقِ المَحْصَبِ (٢)

أما " طرفة بن العبد " فقد عاش فتى مغرما باللذات متساهلا على الشهوات ، يفخر بنفسه ويزهو بفتوته وبياهى بشجاعته ، وسخر بمن سواه حتى الملوك . كان لا يجمع مالا في حوزته ، أو يدخر لغده ، فما يأتيه المال حتى ينفقه في الخمر والملذات الاخرى . ولا يبقى منه شيئا ، وقد صاحب ذلك كله غرور الشباب وسبعة الصبا ، كما حفه الطيش

* ١٣٢ . (١) طالع مقال د . عبد العزيز المانع (قصيدتا الاعشى الاسلاميتان هل ترفضان نسبتهم

اليه مجلة كلية اللغة العربية - جامعة ام القرى - العدد الثاني ص ٧٩ .

(٢) ديوان امرئ القيس بريح ، المحصب : قيل انه موضع بين مكة ومنى وهو الى منسى

اقرب ، وقيل هو موضع رمى الجمار .

والخفة وعدم النظر فى عواقب الامور ، وقد ادى به ذلك - كما يصور شعره - الى حالة نبذه فيها الناس ، وتخلى عنه اقاربه ، واذا هو كالبعير الاجرب الذى افرد عن الابل ولم يعد بينها : (١)

وما زال تشرب الخمر ولذت
ومعنى وانفاقى طريفى ومتلدى (٢)
الى ان تحامتنى العشيرة كلها
وافردت افراد البعير المعبد (٣)

ولقد ظهر لهو طرفه وسجونه جليا عند دارسيه حتى قبل غم : انه (اندفع فى هيبه صباه لتحقيق ذاته ، وابرار شخصيته ، وتميزه على لدانه واقرانه ، ولم يكن له من سبيل لتحقيق ذلك الا ان يبذل مافى يده من مال طارف وتليد ، والتف حوله رفاق السوء وما اكثرهم حول يتيم طائش مندفع تياه بحسبه الرفيع وشبابه الغض ، واخذوا يزينون له حياة الفتنة والفساد ، فاندفع فى حياة اللهو والمجون والشراب ، واصبح همسه عبء كؤوس اللذاهقا مترعة ، وتابية نزوات النفس الامارة بالسوء ، ولم يكن الى جانبه من يكفكف من غلواء اندفاعاته فى هذا الطريق الوعر ، وسمعه كلمة النصح والتوجيه والارشاد ، فكان كل يوم يمر عليه يزيد ايفالا فى طريق الفتنة والشروء والضلال ، حتى غدا هذا النمط من العيش الماجن الالهى المسرف فلسفته التى لا يحيد عنها فى الحياة) (٤) .

ولا شك أن هذه الحياة التى سلكها " طرفة " قد أبان عنها صريحا فى شعره ، اذ لولا ملذات الخمر والنساء وزهو الفروسية والاعتداد بها لما حفل بحياته فى اى وقت يموت (٥) :

(١) ديوان طرفة ٣١

(٢) التشرب : الشرب ، الطريف : ما استحدثه من مال ، المتلدى : ما كان قديما عنده
(٣) تحامتنى : اى احتموا منى وماعدونى كما يتحامى البعير الاجرب ، المعبد
المذلل .

(٤) طرفة بن العبد - حياته وشعره . د . د . محمد على الهاشمى : ٤٥ ط ١ -

عالم الكتب بيروت - ١٤٠٠ هـ

(٥) ديوان طرفة ٣٢ - ٣٤

- فلولا ثلاثُ هَسَنًا من حاجةِ الفَتَى وجدَّك لم أحفلُ متى قامَ عَوْدِي (١)
 فمنهنَّ سَبَقُ العَادَاتِ بِشَرِيحَةٍ كُمَيْتِ مَتَى ما تُعَلُّ بِالْماءِ تُزِيدُ (٢)
 وكَرَّي إِذا نادى المِضَافُ مُحَنِّبًا كسيدرِ الغُضَا ، نَبَهَتَهُ المَتَوَرِّدُ (٣)
 وتقصيرِ يومِ الدَّجَنِ والدَّجِنِ مُعْجِبٌ بِهَكَائِنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ المُمَدِّدِ (٤)

وطريقة اللاهى هذا ليس غريباً ان نرى فى شعره شيئاً من الايمان بالله ، أو القسم

به و وصفه ببعض الصفات أو شىء من المعانى التى تدل على الدين .

فهو يلوم أصحابه ويعاتبهم ويدعو الله عليهم الا يبقى لأحد منهم سنا واحده يعيش

بها ، و ذلك عندما عذروا به وخذلوه فقال (٥) :

كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَتُهُ لا تَرَكَ اللهُ لِنَفْسِهِ وَاضْحَاةَ
 كَلِمَةٍ أَرُوغٌ مِنْ ثَعْلَبٍ ما أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ

و عندما تخلو يده من المال و تشتد عسرته يتصبر حتى يأتيه اليسر من غير أن يدنس

عضه بالتخشع و الدلة لمن سينم عليه بذلك ، و هو يعلم أن المال و أحول الفقر و الشراء

فِيهِ مِنْ عَطَاءِ اللهِ وَ قَسَمَتِهِ ، وَ هُوَ مَعَ ذَلِكَ لا يَتْرِكُ شِدَّ حِيَازِيمِ مَطِيئَتِهِ لِيَعْمَلَ حَتَّى يَسُدَّ

(١) عودى : قيل هم الذين يزورونه فى مرض مؤنه فاذا مات قاموا عنه . شرح القمائد

السبع لابن الانبارى : ١٩٤ .

(٢) العادات : أى النساء يلمنه ، كَطِيئَةٍ : الحمراء نضرب السواد ، تزيد : تعلوها
 رغوتها .

(٣) المِضَافُ : المستغيث الذى دأبهم سوء ، مُحَنِّبًا : أى فرسا مُحَنِّبًا ، أى فسى
 زُرَاعَةَ انْحِنَاءٍ ، مما يمدح به الفرس ، السيد : الذئب ، الغُضَا : ضرب من الشجر ،
 ذيب الغُضَا أخبث الذئب ، المتورِدُ : الذى يطلب الماء ويرده .

(٤) تقصير يوم الدجن : أى أقصره باللله و لا يَبْرُؤُ اللّهُ وَقَصِيرٌ ، يوم الدجن : يوم غييم

وضباب على الأرض . البهكئة : أى المرأة التامة الخلق ، الطراف : البيت من

أدم ، الممدد : أى الممدد بالحيال .

(٥) ديوان طرفة : ١١٨ .

خلته (١) .

- وَأَعْسُرُ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي .. وَأَدْرِكُ مَيْسُورَ الْفَنِيِّ وَمَعَى عِرْضِي
 وَلَكِنَّهُ سَيْبُ الْآلِهَ وَحَرْفَتِي .. وَشَدُّ حَيَازِيمِ الْمَطِيئَةِ بِالْفَرْشِ (٢)
 لِأَكْرَمِ نَفْسِي أَنْ أُرَى مُتَخَشِعًا .. لَذِي مَنْهٍ يُعْطَى الْقَلِيلَ عَلَى الرَّحْضِ (٣)

وعاذلته التي تحب الثراء والمال وتريده الا ينفقه حتى كأنها تظن الخلود نفسى ذلك ، ينبهها أنه مهما جمع من مال وأحرز من ثروة فلا سبيل إلى الخلود حتى لو بسنى له قصر شامخ كالمشقر فى أعلى جبل من الجبال المنيعة التي تعجز الوعول الوصول إليها مع ما عرفت به من قدرة على تسلق الجبال ، ويقول لها : أننى لابد أن تدركنى المنيسة وتأخذنى لأنها من حكم الله وأمره الذى لا يشابهه حكم أحد كائن من كان (٤) :

- وَلَكِنَّ بَنِيَّتِ لِسَى الْمَشْقَرِ نَفْسِي .. هَضْبٌ تَقْصُرُ دُونَهُ الْعَصْمُ (٥)
 لِتَنْقِبَنَّ عَنِ الْمَنِيئَةِ إِنَّ .. اللَّهُ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمٌ

وأخيرا نجد طرفة يقسم برب الابل التي جد بها السير متجهة الى منى ، وهى رواحل الحجاج التي يتنقلون بها عند أداء الشعائر والنسك (٦) :

- حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاغِصَاتِ إِلَى مَنَى .. يِيَارَيْنُ أَيَّامَ الْمَشَاعِرِ وَالنَّهْضِ (٧)

(١) ديوان طرفة : ١٦٩ .

(٢) السيب : العطاء ، حيازيم : جمع حيزوم وهو الصدر من الدابة إذ يقع عليه الحزام

الغرض : هو حزام الرجل الذى يشد به على صدر الدابة .

(٣) الرحض : الجهد الكثير ، والمعنى يعطى القليل بعد الحاح لشدة بخله .

(٤) ديوان طرفة : ١٩٢ .

(٥) المشقر : قصر معروف بالبحرين ، الهضب : الجبل العصم : الوعول سميت

بذلك لبياض فى أيديها فى موضع المعصم من الانسان .

(٦) ديوان طرفة : ١٧٠ .

(٧) ييارين : يسرن بقوة وقدرة على السير ، النهض : البراح من المكان ولعلسه

أراد الانصراف من الحج .

وإذا ما انتهينا الى وجود بعض هذه المعانى الايمانية الدينية حتى عند هؤلاء الشعراء الذين غلب اللهو والمجون على حياتهم فمن المناسب أن نتساءل : هل نبعت هذه الافكار عند هذه الطائفة من قراتهم ومن أين أخذوها ، وكيف جرت عند من غلب الباطل على حياتهم ؟

والجواب عن ذلك ما سبق أن أشرنا إليه ، وهو أن العرب قد أرسل الله اليهم عددا من رسله الكرام ، وكلهم جاءوا بعقيدة واحدة ترد فيها هذه المعانى الايمانية وكانت حنفية " ابراهيم " و " اسماعيل " عليهما السلام هي التي انتشرت في الجزيرة بين العرب بعد أن بنى البيت العتيق ، وذاعت بين العرب ودانوا بها ، فانتشرت بينهم معتقداتها وعبادتها وتشريعاتها ، وقد توارث العرب هذه الملة وبقيت فيهم حتى دخل عليها الشرك والتحريف ، وبقيت في العرب بقايا من هذه الملة إلى أن بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وذلك بالرغم من طول الزمان الذي كان بين " ابراهيم " و " اسماعيل " ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وقد عرفنا أن تلك البقايا أيضا دخلها شيء من التحريف والزيادة وإن لم تخرج في الغالب عن أصلها الذي جاءت عليه .

وبهذا فلا حاجة - فيما يبدو لي - إلى القول : بان الجاهليين أخذوا هذه المعانى من اليهودية أو النصرانية ، وأن ذلك أثر من اثار هاتين الديانتين أو أحدهما . وهذا لا يخرج بنا الى تجريد هاتين الملتين من مثل هذه المعانى الايمانية أو خلوها منها فلا شك أن " موسى " و " عيسى " عليهما السلام قد جاءا بذلك الى بنى اسرائيل ومن بعدهم أدخلوا الشرك والتحريف الى ما جاء به ، وتمادوا في ذلك الى نسبوا لله الولد في كثير من افتراءاتهم على الله ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

أما كيف تيسر ذكر مثل هذه المعانى لمن غلب اللهو والمجون على حياتهم فذلك أمر ميسور ، فهؤلاء الشعراء وغيرهم كثير لا نجد لهم حديثا مستفيضا عن الدين والمعتقدات والشعائر اذ مثل ذلك مما ظهر فيما بين المرء ومعبوده الذي يقصده بذلك اذ لا يتوجه به الى الناس ، وقد عرفنا أنه من الصعب التعرف على دين بعض

شعراء المسلمين من شعرهم (١) ، والاثار الدينية لا تظهر واضحة (لان الناس ما يزالون يختلفون في مبلغ تدينهم - كذلك لا تظهر المشاعر الدينية بنفس الدرجة من العمق في فترات حياة الشاعر المختلفة فهي خاضعة لتفسيح الانسان وتقدمه في السن ، وهي خاضعة ايضا لظروف حياته فهي تتنبه عند المصاعب والكوارث وتبدو خاملة في احيان اخرى) (٢) ولذلك فيمكن تلمس هذه المظاهر في شعر الشاعر جملة ، فمن المحتمل ان ترد عند أي فكرة يطرقها أو في أي غرض يتناوله من الأغراض .

(١) انظر ما قلناه أول هذا الفصل .

(٢) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : ١٤٠ ، ١٤١

(د) شعر بعض الحنفاء فى مواجهة الشعر الجاهلى

وإذا كنا قد اطلعنا على جزء من افكار الحنيفية ومعانيها فى الفصل السابق — من هذا البحث ورائنا قبل قليل بعضا من هذه المعانى عند امرئ القيس وطرفة فانتسنا نحب ان نرى بعض نماذج محدودة من ذلك عند بعض الشعراء الحنفاء لنرى ما يبيد و لنا بعد ذلك ، وحسبنا هنا ان نكتفى بما اوردناه * لطرفة * و * امرئ القيس * ليكون أنموذجا من هذه المعانى الدينية عند غير الحنفاء .

هذا * البید بن ربیعة * يرى ان كل ما سوى الله باطل ، ولعله يذهب فى ذلك الى المعبودات الاخرى التى يتقرب اليها من دون الله فى ذلك الزمان ، فهم — يقول (١) :

الاكل شينٌ ما خلا الله باطلٌ وكلُّ نعيمٍ — لا محالة — زائلٌ

ويرجع قوله هذا الى ما عرف عنه من تحنف كغيره من كفلاء الجاهلية الذين سخروا من عبادة الاصنام وحثوا عن دين قوم .

وأمية بن ابى الصلت يتساءل من رب السماء ؟ ثم يجيب بنفى هذه الربوبية عن كل ما سوى الله ، والناس معترفون بذلك بعامة ان لو قيل بربوبية غيره لكذبته الناس (٢) :

إذا قيلَ من ربِّ هذَى السَّما فليسَ سِوَاهُ لَهُ مَضْطَرِبٌ
ولو قيلَ ربُّ سِوَى رَبِّنَا لقالَ العبادُ جميعاً كَذِبٌ

ولا ريب ان هذه الربوبية تنطوى على الخلق والتدبير والاحكام والهيمنة على هذه السماوات .

ونجد زهيراً قد بلغ به الاعجاب غايته من فعل * الحارث بن عوف * و * هرم بن سنان * وقد حملا ديات القتلى ليصلحا بين * عبس * و * ذبيان * وقطعا دابر الحرب التى اودت بهما ، وقد علم الله فضل هذا العمل فجزاهما خير الجزاء ، ورفع أمرهم

(١) ديوان لبید : ٢٥٦

(٢) ديوان أمية : ٣٤٣ ، ٣٤٤

وشأنهم بين الناس (١) :

فوحثُ بما حُبَّرتُ عن سيدِكُم
وكانا امرأين كلُّ امرهَمَا يَعْلُو
رأى اللهُ بالاحسانِ ما فعلا بِكُم
فأبالهَما خيرَ البلاءِ الذي يبَلُو

ونجده يمدح " هرما " الذي الفه الناس لكثرة كرمه ، فمنزله وسط البيوت يدخله
كل محتاج ومؤمل فيه حاجته ، وقومه أخذوا ذلك عنه وتعودوه حتى أصبح من مالـسوف
عاداتهم ، وفعل هرم وقومه هذا جعلوه عبادة وطاعة لله ورا بالناس (٢) .

عَوَدَتِ قَوْمَكَ أَنْ كَلَّ مَبُورِزِ
مهما يَعُوْدُ شِيْمَةً يَتَعُوْدُ
حزماً وِبراً لِلاللهِ وَشِيْمَةً
تَعْفُو عَلَى خُلُقِ الْمَسِيءِ الْمَفْسُودِ

وايمانه بقدره الله على الرفع والخفض يقوده الى الترفع عن الجهل والخبث أو مسايـرة
أهله فيه ، ذلك المعنى الكريم هو قوله (٣) :

وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْهَوَلَ بُغْيَةً
وَلَيْسَ لِرَحْلِ حِظِّهِ اللَّهَ حَامِلٌ (٤)

اذا انت لم تقصُر عن الجهل والخبث أصبت حليماً أو أصابك جاهل

هذه المعاني الدينية عند الحنفاء وما ذكرناه من مثيالاتها الى كثير منها مما هو
موجود فيما روى للشعراء منهم في الدواوين وغيرها بعد تأمل مثيالاتها عند غير الحنفاء
تظهر لنا أن معاني الحنفاء ونظراتهم اكبر عمقا واعظم دلالة على الناحية الايمانية
منها عند غيرهم ، مع وجود بعض النماذج التي قد تقترب من نظرة الحنفاء ، وهذه
الظاهرة التي ذكرناها قد تقصّر النماذج التي مثلنا بها عند الطرفين في توضيحها
أو الكشف عنها ، غير ان اطلاقاً على اكثرها عند الطرفين - كما هو شأن الدارس - قد
دل على ذلك وما نرى ظاهراً واستنتاجاً .

والحنفاء بعمق نظرتهم الايمانية خير من مثلت عندهم المعتقدات الحنيفية ، كما

أنهم اكبر نصيباً في عدد النماذج التي يتجلى عنها ذلك المعتقد الايماني .

(١) ديوان زهير (الاعلم) : ٤٠

(٢) السابق : ٢٣٣ ، ٢٣٤

(٣) ديوان زهير (ثعلب) : ٢١٨ ، ٢١٩

(٤) معنى البيت ان من لم يركب الهول في مودة اخيه لم يدرك بغيته ، وليس لمن
ضعه الله ارتفاعاً .

ولا يقف بنا الأمر في هذه النظرة الايمانية الى هذا وحسب ، بل اننا لم نأت بعد الى ما هو أعظم وأهم من ذلك كله ، ذلك أن هذه النظرة الايمانية التي تجلت واضحة في بعض أشعارهم الايمانية تكاد لا تختفى في جوانب أشعارهم وأغراضها المختلفة ، فهي مرتبطة بها ان لم تكن مهيمنة عليها ، تصبغها بروح دينية ، وتظهرها مبنية على دين و ايمان . ولايضاح ذلك نعرض أمثلة قليلة من شعر أحد هم وليكن زهير ابن أبي سلمى . فمدوحة متصف بالتقوى التي تردعه عن الوقوع في الرذائل ، كما أنه يعرف للوحم حقها فلا ينس ما عليه لا قاره (١) :

وَمَنْ ضَرَبْتَهُ التَّقْوَى وَيَعْرِضُ لَهُ .. مِنْ سِيِّئِ الْعَثَرَاتِ اللَّهُ وَالرَّحْمُ

ومدوحه عطوف على المحتاجين و اليتامى ، حنون على من غصته السنون ، يمدل لحم الأموال كريمة بها محسنا اليهم (٢) :

أَلَيْسَ بِفَيَاضٍ يَدَاهُ عَمَامَةٌ .. ثَمَالُ الْيَتَامَى فِي السَّنِينِ مُحَمَّدٍ (٣)

والعدل و الانصاف مما اهتم به زهير في مدوحه ، فمتى يقع النزاع وتظهر الفتنة ويخاف الشر ، يلتمس الناس من يحسم النزاع بحكم عادل يرضاه الخصوم ، ولا يخشون حيفه ان هو أهل للقسط مرضى غدهم (٤) :

حَتَّى يَشْتَجِرَ قَوْمٌ تَقُلُّ سُرُوتُهُمْ .. هُمْ بَيْنَنَا فَهَمَّ رِضًا وَسَمُّ عَدْلٍ

وفي هجائه يظهر ذلك في خلق وحلم و عفة ، ويدعو من اعتدى أو أخطأ السي التدبر في العواقب و استعمال العقل و المنطق السائد غدهم ، ذلك فيما يروى من قول زهير غدا ما رحل رجل من بنى غطفان و كان زهير نازلا فيهم - الى بنى عليم - حتى مسن

(١) ديوان زهير (الاعلم) : ١١٢

(٢) السابق : ١٨٨

(٣) الفياض : الكثير العطاء ، ثمال اليتامى : أى يطعمهم ويقوم عليهم ، السنين الشدائد منها .

(٤) ديوان زهير (الاعلم) : ٣٨

كلب - ونزل في جوارهم ، فتقامروا معه ، وأخذوا ما غده حتى امرأته و ابنته على ما يقال ، فرحل الى قومه وزعم أنهم أغاروا عليه (١) :

جواراً شاهدٌ عدلٌ عليكم .. وسَيَّان الكفالةُ والتَّسْلَاءُ (٢)

بأى الجيرتين أجرتُموه .. فلم يَضَلَّحْ لكم الآ الأداة

ويقول أيضا في ذلك :

فلم أرَ معشراً أسروا هدينا .. ولم أرَ جازَ بيتٍ يُستَبَاءُ*

وجازُ البيتِ والرَّجلُ المنادى .. أمامَ الحَيِّ عهدُهما سِواءُ

والكلام عن النساء الذي يتناول محاسن المرأة ومفاتها عند كثير من الجاهليين نجد

" زهيرا " ينصرف عنه الا في القليل النادر (٣) ، ونراه يقول عن سلمى (٤) .

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُه .. ومعى أفراسُ الصِّبا ورواحلُه

وأقصرتُ عما تعملينَ وسُدَّ دت .. على سوى قصدِ السبيلِ معادِلُه

وقالَ العذاري أتما أنتَ عننا .. وكانَ الشابُّ كالخيلِ نزايلُه

فأصبحن ما يعرِفنَ الا خليفَتِي .. والآسوادُ الرأسِ والشيبُ شاملُه

وبجانب هذه الأعراف التي نكتفي بها لتمثيل ظهور النزعة الدينية على روح شعره فإن

حكمة زهير التي اشتهر بها تنطوي على كثير منها لمن تأمل ذلك .

وعلى هذا يمكن القول : ان هذه النزعة الايمانية عند الحنفاء - كما بدأت لنا عند

أحد شعرائهم - لم تكن مجرد خواطر قد ترد أحيانا وتغيب في أحيان كثيرة ، أو عوارض

(١) ديوان زهير (الأعلم) : ١٣٩ - ١٤٢ .

(٢) التلاء : الذمة والضمان وأي شيء يأمن به الرجل مع غيره .

(٣) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٦٠ .

(٤) ديوان زهير (ثعلب) : ١٠١ .

* الهدى : الرجل ذو الحرمة ، وهو المستجير بالقرم ما لم يجبر ويأخذ عهدا ،

فاذا أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جاز .

وسمى هديا على معنى أن له حرمة مثل حرمة ما يهدى الى البيت الحرام .

قد تمر بخلد هم ، فهي شعور قد رسخ في أذهانهم ، وامتألت به نفوسهم ، واعتقدت به وانطوت عليه قلوبهم . يغلب في تفكيرهم ، ويهيح في كوامن نفوسهم ، ويعثمهم على حب الحق والعدل والتقوى ، ويحيب اليهم معالي الأمور ومكارم الأخلاق ، ويعظم في أعينهم من يأخذ بذلك في حياته أو يعرفونه عنه ، فتتعلق قرائحهم بوافر الشاء عليه ، ويلهجون باطرائه بين الناس في صورة حسنة تدعو الناس الى التأسى بخلقه والأخذ بمكارم الأمور ومعاليها ، كما أنها كرهت اليهم الشر ودواعيه ، ورأت بهم عن الدنيا وسفاسف الأمور والأخلاق . وقد تغلغلت فيهم حتى فاضت على ألسنتهم ، وهيمنست عليهم فصبغوا بها شعرهم ، وتبدت في كثير من جوانبه مدعو الى الخير وترغب فيه وتكره الشر وتنفر منه .

و ليس عجيبا اذا أن نرى علماءنا الأوائل وقد لاحظوا ذلك أن يقولوا عن زهير ابن أبي سلمى " ((وكان زهير يتأله ويتحففه في شعره ، ويدل شعره على ايمانه بالبعث)) (١) . ويقولون عن أمية بن أبي الصلت : (ذهب أمية في شعره بعمامة ذكر الآخرة) (٢) .

والذي تأمل شعر " زهير " وأفكاره يرى ذلك حتى قال أحد دارسيه : (ولعل وجود الفكر الدينى في شعر زهير ظاهرة تلفت النظر وتستحق الدراسة . . . يدعونا الى هذا ما يعكسه لنا شعر زهير من اهتمام واضح بالحساب والعقاب واليوم الآخر وغير ذلك مما لا يمكن أن يصدر الا عن عقل متدين مفكر وفطرة سليمة مؤمنة بالله) (٣) . ولم يكن هذه المعانى الايمانية مما يأفل في شعره ، فشعره بها وهاج ساطع ، وربما جسد هذا المعنى الفرق بينه وبين غيره من الشعراء . . . أجل (ان هذه النزعة الدينية قد غلبت على شعر زهير بشكل واضح ، يدعونا الى هذه النظرة ما يحتوى عليه

(١) الشعر والشعراء : ١٣٩/١

(٢) الأغاني : ١٢٥/٤

(٣) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٢١

ديوانه من أفكار دينية قوية وصائبة لا يمكن أن ترجع إلا إلى إيمان قوى وقلب خاشع فسـ
قد سـيه ورهبة (١) .

وبهذا يتضح لنا كيف كان عمق هذه الحنفية - عند الحنفاء الذين مثلوا لنا ذلك
وكيف طفت السطحية التي لا تتم على عمق كبير بدين النصرانية عند من عرف من شعراء
الجاهلية بنصرانيته كعدي بن زيد العبادي وغيره (٢) .

-
- (١) الفكرة والصورة في شعر زهير بن أبي سلمى : ٧٥ .
(٢) انظر تمهيد هذا البحث :

(هـ) الحنيفية في المنطق الفنى لبعض الدارسين

" تفنيد و تعليق "

ان حنيفية ابراهيم " و " اسماعيل " التى بقيت منها بقايا فى العرب مع مرور الأيام و تعاقب الأزمان لم يبق من شرائعها و أحكامها الواردة فيها ما يجعل العرب يعدونه كده ديننا ، فقد اعترى التحريف بعضا منها و أدخلوا فى العبادات ما ليس منها ، و قد خرج بهم الأمر فى بعض منها أن ظنوه من مألوف حياتهم . و هذا يدل على عدم اعتداد الجاهليين ببعض ما مر بنا من مظاهر الحنيفية أنه ليس من الدين ، و ربما خالوه من قبيل عاداتهم أو مكارم اخلاقهم أو غير ذلك ، و بعضها الآخر كانوا يعدونه مما يدينون به فى حياتهم .

ولتوضيح ذلك نرى ان اخذ العرب نسائهم بالحجاب مثلا لم يكن ذلك تدبيرا منهم بل صار أمرا مألوفا بينهم ، و ربما قوى ذلك ما عرف من شدة غيرة العرب على النساء و استماتتهم دون حرمانتهن و محافظتهن عليهن . و قد يكون الختان والسواك مثل ذلك ، و ربما ظهر ذلك فى بعض أحكامهم كالإيمان و أخذ الدية .

أما الحج والعمرة وان أدخلوا فيها بعض المبتدعات ، كتحريم العمرة فى أشهر الحج حتى عدوا ذلك من أفجر الفجور فى الأرض^(١) ، فقد كانت مما يتعبدون به و يتقربون به الى الله .

غير ان بعض احكام هذه الحنيفية وان بقى بينهم حرفوه عن أصله و انقلبت وجهته و أخذ معنى جديدا ينطوى على شئ من الأصل وان خرج عليه ، و مع ما دخله من تبديل و تحريف لم يخرج عن اطار ما يدينون به .

ولبيان ذلك نضرب امثلة لما نريد ، فلقد عُرف عن العرب كثرة الغزوات والحروب فيما بينهم فالنارات لا تنقطع بينهم ، والقبائل فى تطاحن و معارك لا تغنى فيها الايام عن الاشهر والسنين ، والرجال على اتم الالهية للحرب فى أغلب أوقاتهم ، و أيام العسب و غزواتها ، و فرسانها و رجالها الشجعان مما هو غنى عن البيان .

(١) فتح البارى ، شرح صحيح البخارى : ٤٢٢/٣

ففي هذه الحياة الدامية وتلك الجروح التي لا تندمل وتلك الحياة التي لا مكان للضعيف بين أهلها ؟ لقد عرفنا ان الحنيفة أتت بتعظيم أربعة أشهر من السنة هي الأشهر الحرم وحرم القتال فيها ، وجعلته فيها أعظم جرماً وأبلغ حرمة منه في سواها ، ومن هنا فقد انحصر فهم الحرام عند العرب في هذه الأشهر الحرم وجعلوها أشهراً محرمة لا يجوز فيها القتال والغارات حتى تنقضى ، وأما الأشهر الأخرى فهي حلال لهم ، فلا عليهم ان يأتوا فيها بما يشاءون وما يتركون ولم يكن الدين (بمعزل عن هذه الحياة الحربية فقد كان يعتبرها أمراً حلالاً بما فيها من قتل ونهب وقسوة بالغة ومثل اخلاقية تمجد القوة والاقدام وتحتقر الضعف ولا تمنحه أى فرصة للبقاء ، ان الدين الذي حرم القتال في اشهر معينة احله في أشهر اخرى) (١) .

وقد سبق ان عرفنا تعظيمهم للأشهر الحرم ، واجتنابهم السلاح فيها ، وما كان من امر نساتهم الذين يقدمون في هذه الأشهر مؤخرون ، وعلى ذلك نجد أن تلك الكثرة من الحروب والنزاع بين العرب انما نتج من تلك النظرة الحلال الى الثمانية الأشهر الأخرى وان القتال مباح فيها ، وما تاله من سلب أو غنم ونحوه فهو لأخذه وصبح من حقه ، وقد جاء ان قيس بن زهير غزا بنى تميم فسبا فتاتين واستاق أبلالاً لقرواش بن عوف ، فاتفق زهير مع الفتاتين ان يطلقهما ويردّ الأبل بالفرس ، ولكن قرواشا الذي كان غائباً لم يرضى أن يؤخذ فرسه ففأغمر قيس بن زهير وحكم بينهما أن ترد الفتاتان والأبل لقيس والفرس لقرواش (٢) .

ومثل ذلك نظرة العرب الى كراهية الحرب بين ابناء القبيلة الواحدة ، وعلية ذلك بين أفراد القبيلة في الغالب تنطوي على القرابة وصلة الرحم ، وصلة الرحم ومعرفه حقها مما اهتمت به الحنيفة وأمرت بصلة الرحم واکرام القرابة والاحسان اليهم ، ومن قطع رحمه وأقاربه فقد أثم ، وقد ورد كثير من شعرهم الذي يدل على اهتمام العرب بها

(١) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : ١١٧

(٢) نقائض جرير والفرزدق : = / ٨٥ وتحقيق (بيفان) ط - ليدن

حتى قال " الحارث بن ظالم " (١) :

فينا لله لم أكسب أنا ما .. ولم أهتلك الذي رحم حجابا

ويقول " النابغة " (٢) :

ضرباً بغيض ابن ريثٍ انتها رحم .. حبتم بها فانا ختكم بججاج (٣)

ويقول " طرفة بن العبد " (٤) :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة .. على المرء من وقع الحسام المهند

وعلى ذلك لم يستسيغوا الاعتداء والظلم على أقاربهم وعشائهم وأبناء قبيلتهم ،

أما أبناء القبائل الأخرى وأحياناً هاهنا فلا يفرغون عليهم من ظلمهم وأخذ أموالهم .

ومما طرأ عليه التفسير ما جاء تبه الحنيفية موضوع الزنى . وهو محرم فيها ، وعلى

الرجل أن يتزوج بأمرأة يعف بها نفسه ، غير أن هذا المعنى اتخذ اتجاهها آخر غير

ذلك ، فقد ذكر عن العرب (أنهم كانوا يرون الزنى حلالاً فى السر حراماً فى العلن) (٥)

وبذا فقد يستحلونه اذا رضيت المرأة وأطاعت ، ويرونه حراماً اذا امتنعت منه وأجبرت

عليه ، والأصحى عندما يقول (٦) :

وأقررت عيني من الفانيات .. أما نكاحاً وأما أرن

(١) المفضليات : ٣١٥ .

(٢) ديوانه : ١٢٦ .

(٣) ضرباً : أى أضربوا ضرباً والمراد أعضوا ، بغيض بن ريث : يريد عسا كما قال

الشارح ، حبتم : أى أقتتم بقطع أو اضر الأرحام ، أناختكم بججاج : أى أناختكم

وضعتكم قطعكم رحمكم بمناع سوء . وهذا تمثيل لحالهم فى عداوة أقربائهم

بحال من انتقل من موضع خصب الى ججاج ، وهى الأرض المجدية .

(٤) ديوانه : ٤٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢١٩/١٢ ط (محمد شاکر)

(٦) ديوانه : ٦٧ .

يعلمنا أنهم كانوا يفوقون بين الحلال والحرام فى اتصال الرجل بالمرأة .

انّ ما وجد فى الشعر الجاهلى من نظرات ومعان دينية وما صاحبها من تأملات فى الحياة او مصير الانسان بما يشبه النظرات الفلسفية حدث ببعض من وقف عليها من الباحثين ان يُعجبوا فيها اذ هى ظاهرة ماثلة تستحق ذلك . وكان من جراء ذلك ان ذهبوا فى دراسة هذه الظاهرة حتى خرجوا منها بمواقف وتعليقات مختلفة ، بذل كل منهم جهده ورايه الذى اهتدى اليه وخرج به من ذلك .

وقد كان المستشرق " مرجليوث " ممن وقف على ذلك ، وراى ان فى ذلك الشعر اشارات الى قصص دينى ورد فى القرآن الكريم ، كما ان فيه كلمات اسلامية . وان الشعراء لا يمثلون الدين الجاهلى ، وليس فيه جو الآلهة المتعددة بل فيه توحيد ، وان أولئك الشعراء يقسمون بالله الواحد وبالصفات التى ذكرها القرآن الكريم ، وهؤلاء الشعراء موحدون مطلعون على أمور لا يعرفها الا من قرأ القرآن ورمعانيه (١) . وقد ساق ذلك كأحد الأدلة الداخلية التى استدل بها على عدم صحة الشعر الجاهلى .

وكان الدكتور طه حسين مسائرا لمرجليوث عندما ذهب الى الشك فى التبعية الجاهلى اذ زعم ان الدين أحد العوامل التى دفعت بالعرب الى نحل الشعر والتزبد فيه ، وكان هذا الانتحال الدينى قد اتسم بألوان وأخذ صوراً مختلفة . فمنه ما كان يقصد به اثبات صحة النبوة وصدق النبى ، ومنه ما يتصل بتعظيم شأن النبى ونسبه فسى قريش ، ومنه ذلك النوع الذى يلجأ اليه القصاص لتفسير ما يجدونه فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة ، وكان أعظم هذه الأنواع عند الدكتور ما ظهر عندما استؤنف الجدل فى الدين بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى ، اذ أراد المسلمون ان يثبتوا ان للاسلام أولية فى بلاد العرب . كانت قبل ان يبعث النبى ، وأن خلاصة الدين الاسلامى هى خلاصة الدين الحق الذى أوحاه الله الى الانبياء من قبيل (٢) .

(١) أصول الشعر العربى (مرجليوث) : ٧١ .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ١٣٢ وما بعدها .

وقد سبق أن مررنا ذلك عند قضية الانتحال ، وناقشنا ذلك بما أغنانا عن إعادة ذكره مرة أخرى .

ونرى المستشرق كارلونا لينو وقد رأى عدى بن زيد العبادى تحدث عن زوال الدنيا وفناء الانسان غير مرة كقوله فى احدى قصائده (١) :

مَنْ رَأَى أَنَا فليحدِّث نفسه .. أَنَا موفٍ على قسرون زوالِ
 وصروفِ الدهر لا يبقَى لَهَا .. ولما تأتى به صمُّ الجبالِ
 ربَّ ركبٍ قد أناخوا عندنا .. يشربون الخمرَ بالماءِ الزلالِ
 والابريقُ عليها فُـدُمٌ .. وجيادُ الخيلِ تردى فى الجلالِ (٢)
 عرّوا دهرًا بعيشِ حسنٍ .. آمنى دهرهم غيرَ عجالِ
 ثمَّ أضحوا صفَّ الدهرِ بهم .. وكذا ك الدهرُ يودى بالرجالِ
 وكذا ك الدهرُ يرمى بالقسى .. فى طلابِ العيشِ حالأبعد حالِ

وعلى ذلك وما شابهه يعد (نالينو) عديا من الشعراء الزهاد ، وان الزهد من موضوعات الشعر الجاهلى (٣) .

ويقول معلقا على هذه الابيات (فظاهرا فى هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الاسلاميين لا سيما ابى العتاهية ، فليس من البعيد أن شعر " عدى ابن زيد " ومن سلك منهجه من القدماء صار نموذجا للمتأخرين فى وصف فناء الامور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره) (٤) .

والذى يبدوا ان هذه الفكرة وأمثالها مما يدور حول فناء الناس وتعاقب الأزمان فيهم ، وتغيير أحوالهم من صورة الى اخرى ، وردت غير مرة فيما يروى من

(١) الاغانى : ١٣٤/٢

(٢) قدم : جمع فدام ، وهو ما يوضع على فم الابريق لتصفية ما فيه من شراب ،

تردى : تعد و ترجم الارض بحوافرها .

(٣) تاريخ الآداب العربية - كارلونا لينو : ٧٨

(٤) السابق : ٧٤

شعر لعدى بن زيد (١) ، ونرى مثلها عند كثير غيره من شعراء الجاهلية ، ولا شك أن هذه الفكرة مما استخدمه الزهاد مع غيرها فى وعظ الناس وتذكيرهم كى يأخذوا العبرة من ذلك ، غير أن القول : ان عدى كان زاهدا بسبب قوله ذلك او ما يماثله لا يكفى للاقناع بذلك أو النهوض به وأما القول بأن الشعراء المتأخرين الذين ذكروا الزهد كثيرا فى أشعارهم كأبى العتاهية قد أخذوا ذلك عن عدى لانه سبقهم وصار أمودجا حذوا فيه حذوه فغير صحيح ولا مقبول ان شتان ما بينهما .

وهذا يجعلنى على وفاق مع الدكتور شوقى ضيف الذى أقر (ان الزهد نشأ نشأة اسلامية خالصة ، فقد دعا اليه القرآن الكريم ودعت اليه السنة النبوية ، على اننا لا نتقدم الى عهد الفتح حتى تدخل فيه عناصر أجنبية كثيرة على رأسها عناصر مسيحية من تلك التى كانت فى العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة فى المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثر فى اتساع هذه النزعة لا فى وجودها ولا فى تنشئتها ولكن فى نموها وازدهارها (٢) .

ولا استبعد ان يكون زهدا فى العصر الجاهلى ما كان عليه بعض الاحبار والرهبان من أهل الكتاب ممن كانوا يتقشفون فى حياتهم ، أو ينقطعون للعبادة فى الصوامع وغيرها ، والذى عرف من حياة " عدى " بن زيد انه لم يكن من هؤلاء العباد المتبتلين والعازفين عن الدنيا ان عاش فى بلاط مناذرة " الحيرة " وعمل لهم .

ولما جاء الاسلام كان يدعو الى الزهد ، ولكنه زهد مختلف عن زهد الاحبار والرهبان من أهل الكتاب ، ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدون وصحابته وكثيرا ممن اتى بعدهم أخذوا بالزهد الذى أمرهم به الاسلام ورغبوا فيما ضد الله ، وحياتهم وسيرتهم خير دليل على ذلك ، ولكنها حياة مغايرة كثيرا لحياة زهاد أهل الكتاب قبل البعثة النبوية .

(١) انظر الاغانى : ١١٦/٢ ، ١٣٨

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى . د . شوقى ضيف ص ٦٣ - ط ٢ - دار

وترى الدكتورة " بنت الشاطىء " أن هذه المعانى الدينية عند الحنفاء أو غيرهم
انما كانت تمهيدا وارهاسا لأمر أتى بعد ذلك وهو الاسلام اذ من غير المقبول أن يأتى
الاسلام فجأة وتقول :

(واذا كان تاريخ الأديان يعترف بأن الاسلام لم يأت فجأة ، دون ان تكون الحياة
اذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها اليه ، فالأمر فى الفن شبيه بهذا ، ولا بد أن
يكون فى شعر الفترة الاخيرة من الجاهلية ما يسجل التهيؤ لهذا الحادث الجليل
والتطلع اليه .

وقد أفاضت كتب السيرة والتاريخ الاسلامى فى ذكر الارهاسات التى كانت تمهيدا
الجزيرة العربية قبل المبعث ، وفى ان تعنى الدراسة الادبية بجمع ما تطلع اليه شعراء
الجاهلية من قيم غير التى كانت تسود وتحتكم ، وما أعطى تراثهم قبيل الاسلام ، من
شعر التحنن والحكمة الذى يمثل فى تلك الفترة الارهاس الفنى بالتطور المرتقب (١) .

وزيد ذلك وضوحا عندما قالت : (وكما كان التهيؤ الاجتماعى عاما فى الجزيرة
كلها ، وكان التهيؤ الدينى مركزا فى مناطق بعينها ، كذلك رأينا صدق ذلك فى الشعر
حيث بدأ الارهاس الفنى للتحويل الدينى عند الشعراء المتحننين فى مكة ، بمثابة حجج
العرب ومركزته بينهم ، وعند المتطلعين من الحكماء ذوى الاتصال بالبيئات الدينية (٢)
ولما كان شعراء الاسلام المخضرمون يظهر فى شعرهم تأثير الاسلام مع بعض روااسب
جاهلية عدت الباحثة من المخضرمين أولئك الذين عاشوا فى أخريات الجاهلية وان لم
يدركوا الاسلام ، وان خرجت بذلك عما هو المتعارف عليه فى دلالة هذه الكلمة ، وكل
ذلك مبنى على نظرتها الى التهيؤ العام فى الحياة ككل للأمر الذى لا يحدث فجأة فى
الحياة حتى قالت :

" وهذا شعرهم فى أخريات الجاهلية يؤيد وجهة نظرنا فى الوجوع بفترة الخمرمة

(١) قيم جديدة لادبنا القديم والمعاصر ، د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) :

٨٥ - ط - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠م

(٢) السابق : ٨٨

الى ما قبل الاسلام ، مسجلة للارهاص الفنى بالحادث الجليل ، ومعبرة عن التهيؤ العام الذى عرفناه سياسيا واجتماعيا ، فى تناسى العرب لعصبيتهم القبلية أمام الخطر الأجنبى ، وقتالهم مجتمعين فى ((يوم ذي قار)) . وعرفناه دينيا وخلقيا فى مثل (حلف الفضول) الذى تداعت اليه قبائل من قريش وتعاهدوا على الايجاد وبمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا معه على من ظلمه ، حتى ترد عليه مظلمته) (١) .

وهذا المعنى وما يماثله قد يدفع بمن لا علم ولا فهم له الى الظن بأن دين الاسلام قد أتى والطريق مهتد له والفرصة مواتية والظروف مناسبة حتى يد عن له النار ويميطر على الحياة وتنقاد له ، وكيف يصح ذلك ونحن نعلم ما كابده الرسول صلى الله عليه وسلم ومعهم المسلمون فى مكة وفى المدينة وان كان أقل من ذلك حتى أنتشر الاسلام . ونحن لا نشك فى أن الباحثة تعلم أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من دين الاسلام وما آتاه الله من النبوة كان من تقدير الله وحكمته ، يؤتيها من يشاء ، ويعيشها الى من يختار .

وربما لو قرأ غير المسلمين هذه الفكرة لذهبوا الى الظن أن الاسلام انما هو أمر تطور مهتد له فى ما سبقه من الزمان ، وكثرة هذه الارهاصات فى الجاهلية ، ثم تمخض عنها الاسلام ، وفى ذلك نسيان للنبوة واغناء لدورها الكبير فى تسيير مجرى التاريخ .

ولعل من الأيسر - فيما أرى - أن نقول : ان مثل هذه المعانى الايمانية والتأملية هى مما عرف عند بعض الشعراء وخاصة من عرف بالتحنف منهم ان العرب قد تخللتهم عدد من النبوات حملت اليهم مثل هذه الأفكار ، ولعل هذا أيسر من القول بتقدم فترة الخضرة الى ما قبل الاسلام ، وأن ذلك ارهاص وتطلع وتبشير بما سيأتى . ولعل هذا ما أوقع بعض المستشرقين مثل " كليمان هوار " الى الظن أن هذه

(١) قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر : ٨٨ .

المعانى الايمانية والاسلامية شائعة بين الجاهلين قبل البعثة وقد استفاد منها الرسول عليه الصلاة والسلام - فجعلها مصدرا من مصادر القرآن الكريم (١) .

والحق أن العرب جاءهم الاسلام وفيهم من المزايا الحميدة التي لا يمكن التنكر لها ، ولكن طابع الشر والظلم وفساد المعتقدات والتصورات كان يطفئ على ذلك الخير فيهم ويغمره ، وكانوا بحاجة شديدة الى من يبين لهم سر حياتهم وماذا يعملون ، فبعث الله فيهم رسوله الكريم ، وأمره أن يبشر وينذر ، ويتحمل في سبيل ذلك ضروبا من التعب والمجادلة والأذى .

(١) نشر هوار ذلك في المجلة الآسيوية - الجزء العاشر - القسم الرابع ص ١٢٥ سنة

(١٩٠٤م) كما ذكر في (العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٣٩٦ .

(و) فى الخصائص الفنية لأدب الحنيفة

و أدب الحنيفة الذى قام عليه هذا البحث من شعر ونثر لا يخرج عن أصله من أدب

العرب الجاهلى .

فالشعر الذى يمثل الحنيفة - كما هو ملاحظ - منتزح من بين كثير من شعر شعراء الجاهلية ، ومعانى هذا الشعر (تتسم بالحقيقة و تصوير الواقع و عدم الجنىح السى المبالغة أو المبالاة فى الخيال ، فهى معان لا تعرف التكلف ، و الشاعر يعبر عنها فى صدق) (١) ، فالسهولة و الوضوح المعنى المراد فى يسر حتى ان وجدت بسببه بعض الكلمات التى نعدّها غير مألوفة من خصائص الشعر ، فلا اغراق و لا بعد فى تصوير الاحاسيس أو تمثيل مظاهر الحياة .

و اذا كان هذا مما يتصف به الشعر الجاهلى بعامته و يظهر فيه فانه فى شعر الحنيفة اكثر ظهوراً و أقرب مأخذاً ، يتجلى المعنى و يتضح المراد فى أغلب النماذج و أكثر الصور التى اطلعنا عليها من خلال القصائد الشعرية .

و ليس هذا مثار الدهشة أو باعاً على غرابة ، فالحنفاء انما كانوا يصورون واقعا عاشوه و ذلك مما دعاهم الى أن يطرحوه فى اطار بعيد عن التنمية و الزخرف من ناحية ، فوق أن شعرهم بمثابة الدعوة التى ووّوا - لو أتاحت الملابس - أن ينشروها على الملأ و يذيعوها على الأسماع من ناحية أخرى ، و ما لم يكن شعرهم يمثل " الوضوح " و النماعة التى تلامس أقطار النفسيات لا يؤدى مهمته ، أو يصافح الغرض المرجومنه و يتضح ذلك عندما نرى بعض ذلك كقول " زهير بن أبى سلمى " (٢) :

حياض المنايا ليس فيها مزحزح .. فمنتظرٌ ظمئاً كآخر وارِد
خبّالٌ ، و سقمٌ مضنىٌ و منيسةٌ .. و ما غائبٌ الا كآخر شاهِد
فلو كان حتىّ ناجياً لوجدتّه .. من الموتِ فى أحراسه ربّ ماردٍ

(١) أدب ما قبل الاسلام : ١٣٢ .

(٢) ديوان زهير (ثعلب) : ٢٤١ ، ٢٤٢ .

أو الخضر لم يمنع من الموت ربّه .. وقد كان ذامال طريف وتالد
 ألم تر أنّ الناس تخلد بعد هُم .. أحاد يشهم والمرء ليس بخالس (١)
 فزهير يحد ثنا عن الموت وأنه مصير الأحياء جميعا ، فلن ينجم منه أحد مما كان ،
 وما الأحياء في ورود حياضة الا كتلك السائمة التي تعطش وتنتظر ورود الماء فهي لا بد
 واردة عليه ، وكان حياتهم في قصرها أيام معدودة كأيام الظمء ثم تأخذهم المنسون .
 ومن يظل به العمر فلا يسلم من فساد الحياة في آخر عمره ان ينتابه الضعف وتهبط صحته
 الأسقام . ولونجا أحد من الموت لكان السلاطين أو لو الحرس والخدم وأهل البسوخ
 والثراء أحظى بذلك ولكن أنتى لهم ذلك ، والأمر غد " زهير " مادام الحال كذلك
 أن يقدم المرء في حياته خيرا يحمده الناس به وان وارته غمهم الأيام .
 ونرى " طرفة بن العبد " وهو يفتربفتوته وتعجهبه شجاعته ان يقدم على ما يخشاه
 غيره وقد كانوا يتطيرون من بعض الحيوان ، والطيور ويتشائمون بها وتقعدهم عســن
 الوجهة التي يريدون ولكن " طرفة " ليس من أولئك (٢) :

لعمري لقد مرّت عواطسُ جمّة .. ومَرَّ قُبَيْلَ الصَّبْحِ ظَبْيٌ مُصَمَّعٌ (٣)
 وعجزاءُ دَفَّتْ بِالْجَنَاحِ كَأَنَّهَا .. مَعَ الصَّبْحِ شَيْخٌ فِي بَجَادٍ مُقَنَّعٌ (٤)

(١) الظمء : حبس الابل عن الماء الى غاية الورود . وهو يريد الذي ينتظره الموت بعد

خيال : فساد المضمئ : الذي يهد الانسان ويضعفه من الأسقام .

الأحراس : جمع حارس ، رب مارد : صاحبه من ملوك اليمن ، ومارد : قصر .

التالد : القديم الموروث .

(٢) ديوان طرفة : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) العواطس : جمع عاطسه ، وكانوا يتطيرون من العطاس ، ومنه قيل للطبي الفاطح

العاطس وهو الذي يستقبلك لكونه متطيرا منه مصمغ : صغير الأذنين وقيل هو الأقرن

(٤) عجزاء : عقاب ، جعلها عجزاء لبياض عرها ، وكانت مما يتشاءمون منه .

دفت بالجناح : ضربت به وحركته .

فلن تمنع رزقا لعبد ينادي .. وهل يعدون بساك ما يتوقع

انه يسخر من خشى على نفسه ذلك و لكن ما حدث له كذ لك لم يكثر له أيخشاه على نفسه ، فالطباء أو غيرها تمر به ويسمع عطاسها ويرى فيها الأصمع والأقرن ، والطير تمر به في الصباح سانحة وبارحة ، وهو ذاهب في شأنه ، مقدم على ما يريد لا يثنيه شيء من هذه المعتقدات الساذجة ، فلا سبيل لهذه الكائنات على رزق العباد أو منعه عنهم ، و انما يرجع سوء عاقبة ذلك على من صدق به و ارتضاه .

ومثل هذا الوضع نراه أيضا عند " بشر بن أبي حازم " ان يعتذر عن هجاء بدر منه ويطلب عفوا كعفو " يوسف بن يعقوب " عن اخوته وقد أوردوه الهلاك كما يعلم من من قصته ويقول (١) :

و إنني إلى أوسى ليقبل عذرتي .. ويعفو عني ما حُييت لراغب
فهب لي حياتي فالحياة لقاءهم .. بشرك فيها خيرا ما أنت واهب
فقل كالذي قال ابن يعقوب يوسف .. لآخوته والحكم في ذاك راسب (٢)
فانني سأحوي بالذي أنا قائل .. به صادقا ما قلت ان أنا كانب

وعلى الدرب ذاته نلقى النابغة الذي بياني " وقد شد رحله عن غسان عائدا إلى ديار قومهم ويثني عليهم بعد أن دعا الله أن لا يرزئه بفقدهم انهم كرام ذوو أفضال على الناس ، فهم الملوك وأنبياء الملوك ذوو العقول البصيرة ، وأرباب الأخلاق والفعال الظاهرة ، من غير اثم ولا حقوق ولا فساد (٣) :

لا يُعَدُّ اللهُ جيراناً تركتهم .. مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم
لا ييرمون اذا ما الأفق جلل .. برد الشتاء الأمحال كالآدم (٤)

(١) ديوان بشر بن أبي حازم : ٤٢ .

(٢) أوس هو بن حارث بن أم كما في الديوان : ٤١ .

راسب : أي باق وثابت .

(٣) ديوان النابغة : ٢٣١ ، ٢٣٢ .

(٤) لا ييرمون : أي لا يكونون ابراما ، والبرم : الذي لا يدخل مع أصحاب الميسر فسي =

هم الملوك و أبناء الملوك لهم .. فضل على الناس في الأرواح و النعم
أحلام عاد و أجسام مطهرة .. من المعقة والآفات و الأثام

و اذا كانت المعاني جلية ماثلة لا تفرق في الخيال ، و لا تجنح الى الصور المعقدة
أو المراسم البعيدة فان الجمل سهلة التركيب ، و الألفاظ مما هو مألوف و ذائع ، لا تكسر
فيها المفردات التي تعدها جاهلية ، أو تحتاج منا الى نظر في كتب اللغة و المعاجم
و لا شك أن ذلك هو الغالب الذي لمسناه و ان وجد ما قد نبت عن ذلك و يقتضي الايضاح
و من هذا أيضا ما يذكرون من احدى نساء العرب و لدت من زوجها بنتا ، و كانوا
يكرهون البنات و يعزّون الذكور ، فهجر زوجها بيته ، و كان يقبل و يبني عند جيران له
بجنبه ، و مرّ ذات يوم فسمع زوجته و هى ترقص ابنتها و تعاتب ذلك الزوج الذي غيب
و هجر داره من أمر لم يكن في يدها ابرامه و تقول (١) :

ما لأبى حمزة لا يأتينا .. يظلّ فى البيت الذى يلينا (٢)
غيبان الأندال بنينا .. تا لله ما ذلك فى أيدينا
و انما نأخذ ما أعطينا .. و نحن كالارض لزارعينا
نبت ما قد زرعوه فينا

و هذا " زيد بن عمرو بن نفيل " يترك عبادة الأوثان و التقرب الى الجن بعد أن عقل
ذلك و كيف تكون عبادة ألفرب صحيحة ؟ و قد أهلك الله أما كثيرة طفخوا و فجروا و عبدوا
غيره ، و أبقى أهل البر و التقى و يقول (٣) :

= الميسر لوما و بخلأ أو لقله حاله ، يريد أنهم كرماء على كل حال ، الأمحجال :
جمع محل وهو الجذب ، كالأدم : الجلد الأحمر ، يريسون الأفسق
من الجفاف .

(١) البيان و التبين : ١٨٦/١ .

(٢) أبى حمزة : الضبى كما فى البيان و التبين .

(٣) الأغاني : ١٢٤/٣ ، ١٢٥ .

- عزلتُ الجنَّ والجَنَّ عَنِّي .. كذالك يفعلُ الجلدُ الصبورُ (١)
 فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها .. ولا صنمى بنى غنم أزو
 ولا هبلأ أدينُ وكان رسأ .. لنا فى الدهرِ انِ حلمى صغيرُ
 أرتأ واحد أ أم السفرب .. أدينُ اذا تُقُمتِ الأمـورُ
 ألم تعلم بأن الله أفنى .. رجالاً كان شأنهم الفجورُ
 وأبقى آخرين بيسر قـوم .. فيرو منهم الطفـلُ الصغـيرُ
 وبيننا المرء يعثرُ ثاب يومأ .. كما يترجُ الغصنُ النضيرُ

على أن شعرهم لا يحتشد للتشبيه أو الاستعارة والكفاية كثيرا ، وما نراه من ذلك ان فى بيت واحد ، أو بضعة أبيات يعالمن مكن نفسه ...
 ونظرة الى البيت الأخير من هذه الطائفة نرى أن التشبيه فيه لم يجنج الى التركيب كذلك البيت المعروف لامرئ القيس مثلاً :

- له أيطلا ظبى وساقنا نعامة .. و ارخأ سرحانٍ وتقريبُ تغلٍ (٢)
 وانما جاء فى اطار برراق لا أثر فيه للتركيب الذى ألفناه لدى بعض الجاهلين ...
 وقد نرى بجانب ذلك الاستفهام التقريرى فى قوله منها :
- ألم تعلم بأن الله ... الى آخر البيت ..

وهذا الاستفهام التقريرى مما يتناغم مع ما ألمحت اليه من شعرهم كانوا يتننون أن تتجاوب به الحياة ولا ينمض بمثل هذه اللفظة الاستفهام زو مسحة معينة ، قد يكون الاستفهام التقريرى من بينها وعلى شاكلة ذلك من سهولة الألفاظ ووضوح الدلالة نرى " ورقة بن نوفل " وقد سره ترك " زيد بن عمرو " عبادة الأوثان وأنه أنقذ بذلك نفسه من النار ، وأن ربه الذى دان له ليس كمثل أى معبود زعت ربيوته ، ومن عبد غير

(١) الجنان : جمع جن كما فى اللسان (جنن) ولعله أراد شياطين الانس
 الذين يدعون الى الشر والفساد .
 (٢) ديوان امرئ القيس : ١ ح .

الله فانما يدعون من لا يجيبه ولا ينفعه وان رجوا ذلك منه ، واما الله فانه يسمع ويجيب وينفع ويضر ويملك الأمور كلها ، وقد دل على عظمته وقدرته كثرة مخلوقاته التي تدعوه وترجو بره وكرمه .
يقول ورقة (١) :

رشدت و أنعمت بن عمرو و انسا .. تجنبت تنورا من النار حاميا
بدنيك رسا ليس رب كمثليه .. وتركك جنان الجبال كما هيا (٢)
أقول اذا ما زرت أرضا مخوفة .. حنانيك لا تظهر على الأعدايا
حنانيك ان الجن كانت رجاء هم .. وانت اهلى رنسا ورجائيا
أدين لرب يستجيب ولا أرى .. أدين لمن لا يسمع الدهر داعيا
أقول اذا صليت في كل بيعة .. تباركت قد أكثرت باسمك داعيا (٣)

وقد لاحظ في هذه الأبيات النبوة " الذاتية " التي تتأى عنها لغة الشعر الجاهلي بعامة ، فمعروف أن الشعر الجاهلي تزحف عليه النبوة الجماعية " نبوة الشاعر " ففى انتماء الى القبيلة والتعبير عنها وعدم الفكك منها فى حين أن هذه الأبيات وما قبلها جاءت تعبيراً عن تجربة ذاتية ، وممارسة فعلية ، تهتف بالمسئولية الخاصة التي ألقها هذه الحنيفة " على كاهل كل منهم ، وهو معنى أكده الاسلام حين قال " ولا تزر وازرة وزر أخرى " وكأنما الذاتية التي نراها تغلف تلك الأبيات ايذان بتلك التبعة الجسيمة التي تتقاضاها " الحنيفة " التي سلكها الشاعر

ويسترعى انتباهنا - فى تلك الأبيات - الأساليب الانشائية التي تكررت فيها على نحو ملحوظ ، كما فى قوله رشدت و أنعمت - حنانيك - تباركت قد أكثرت باسمك داعيا وكل هذه الملاحظ مما يستجيب لها " شعر الحنفاء " على ما هو ماثل فى تلك الأبيات

(١) الأغاني : ١٢٥/٣ .

(٢) جنان الجبال : هم الذين يأمرون بالفساد من شياطين الانس أو الجن ، وذلك

كما فى لسان العرب (جنن) ٩٧/١٣ .

(٣) المعنى كما فى الأغاني : أى خلقت خلقا كثيرا يدعون باسمك .

والشعر الذي دار عليه هذا البحث ، وأقام عماده عليه مع ما سبق له من خصائص
نَدَّت التشبيهات فيه مما استفاد به الشعر الجاهلي ، وتראה فيه صور الحيوان والمنازل
والرحلات والنساء ، مما هو منتزَع من بيئتهم ومائل أمام أعينهم يغدون عليه ويروحون
وعلى ذلك لن نر تلك التشبيهات حتى في صورها السهلة الواضحة ، أو في دليقاتها
التمثيلية المركبة ، ومن ثم فلم تقابلنا الاستعارات المختلفة ولا المجاز في أغلب الأحوال
ويظهر ذلك بلا لبس فيما مر بنا من هذه الأبيات الشعرية .

ولتطالع ذلك في بعض النماذج ، فذا قيس بن الخطيم يعلم أنه لن يلقى إلا ما أراد
الله له وان ذهب به الأمانى فيما يريد (١) :

يُحِبُّ المرءُ أن يلقى نساءً .. ويأبى الله إلا ما يشاءُ

ومثله * الأعشى * الذي يؤمن أن المرء لا يسبق أجله ، فالله قد قضى ذلك وحدده
يمضيه متى أراد (٢) :

وعلمتُ أن النَّفْسَ تَلْقَى حَتْفَهَا .. ما كان خالقها المليك قننى لها

وتقوى الله عند المتلمس الصنبسى من خير عماد المرء ، وان كما لا ندرى بعتاده هذا
لدنياه أو لآخرته أم لهما معا ، وذلك من جملة قصيدة حافلة بالحكم ويقول (٣) :

وأعلمُ علمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ .. وتقوى الله من خير العتادِ

ويقول دريد بن الصمة (٤) :

وفكَّ الرجالِ وكلَّ أمرئٍ .. اذا أصلحَ الله يوماً صلَّحَ

وهذه الملاحظات التي تلمسها في هذه الأبيات التي مثلنا بها وفي غيرها مما

(١) ديوان قيس بن الخطيم : ١٥٥

(٢) ديوان الأعشى : ٨٣ .

(٣) ديوان المتلمس : ١٧٢ .

(٤) ديوانه : ٤٢ .

سبق و التي اختص بها هذا الشعر من بروز المعاني و سهولة الألفاظ المعبرة عنها
 و وضوحها الى عدم احتفا لها بالمعاني البيانية التي تمتلئ بالتشبيهات و يحذفها المجاز
 و الاستعارات و تزدان بالمحسنات البديعة ، كل هذا يرجع فيما يبدو الى طبيعة
 موضوعات الحنيفية هذه ، فهي حقائق دينية ، و معالم شرعية ، انما جاءت لتخاطب
 العقل و تأمره ، و هي توقظه و توجهه . فهي أمور واضحة ليست مما يستدعي من الشاعر
 التزيين أو التمهيل ، أو تدفعه الى الحب أو الكره المتطرفين .

و الشعر من أهم خصائصه على ما يقول الباحثون : (انه المبني على الخيال ، المثير
 للعاطفة ، . . . و الشعر فيضان من شعور قوى ينبع من عواطف تجمعت في هدوء ، . . .
 و بعض الشعر يخاطب العقل لا المشاعر كـ بعض شعر المتنبي و المعري ، و كل شعر الحكم
 و ما يسميه العرب باب الأدب ، و لكن أكثر الشعر لا نسميه شعرا ما لم يحرك شعورنا
 و يولد فينا كثيرا من الانفعال كالذي تولده الأغاني ، و تكون المنزلة الأولى في
 للشعر للا للعقل ، أما ما يخاطب العقل كالذي ذكرنا فهو شعر في المنزلة الثانية
 أو الثالثة) (١) .

و اذا كان المرحوم " أحمد أمين " يرى الشعر الذي يخاطب " العقل " يحتل
 منزلة دون نظيره الذي يخاطب الشعور . فليس يعنى هذا أن شعر الحنفاء تنطلق
 فيه لوامع الجمال ، فلئن كان خلاصة لتجارب ذاتية محضة انه قد استطاع أن يخلق على
 تلك التجربة لمسات من الطلاوة الفنية ، بدليل أننا نراه يمتح من معين بعض الصور
 التي تثير الوجدان ، كما أمأت الى ذلك من قليل . . .

ويكاد يتجلى الفرق بين هذا الشعر . و شعر الحكم أو الأمثال " في ان ذلك الأخير
 قد يجنح في معظمه الى طرح التجربة بمنأى عن الطلاوة . . . و ربما كان ذلك هو السر
 في المقولة الشائعة عند النقاد " أبو تمام و المتنبي حكيمان ، و الشاعر البحتري "

(١) النقد الأدبي : أحمد أمين : ٧٩ ، ٨٠ ط ١٣٧٨ - دار الكتاب العربي

ولما كان الشعر يخاطب العواطف مباشرة ، و ذلك على حسب ما أوتى الشاعر من قوة
 الالهام و القدرة على تصوير الأحاسيس وكانت جوانب الحنيفية التي تراءت لنا
 فيما رأينا من أبيات تميل الى مخاطبة العقل ، و هي تستدعي الى التأمل و النظر كانت
 هذه الأبيات فى عمومها سهلة واضحة لا تحمل سامعها أو الناظر فيها على ما يألفه من
 جمال و متعة شعريه ، و ربما زاد فى ذلك استخراج هذه الأبيات من بين أخواتها
 مما قد يفقدها جانبا آخر من جمالها .

و لعل فى هذا ما يخفف ما قد يُظن من دخول الغشاء و الاسفاف فى شعر من بسرت
 فى شعرهم المعانى الايمانية و الدينية ^(١) ، و بخاصة ما نظنه قد سلم من النحل ،
 و ترجحت صحته الى قائله .

و لا يفوتنا أن ننبه الى قصور دراستنا هذه لمثل هذه الأبيات المفردة المقطعة
 و التي اقام عليها البحث هيكله ، و لعل ما عثرنا عليه من شعرهم من أبيات متفرقة ، لا يجمعها
 نظام واحد فى اغلبه ، حيث لم نعثر على قصيدة كاملة — فى هذا الباب — أو جزء من
 قصيدة فيه ينمض برسم الخصائص الفنية ، أو الخط الذي كان يحتديه هؤلاء الشعراء
 الحنفاء فى تناولاتهم و ما يصدر عنهم مما يمثل منطلقهم الفنى خير تمثيل — لعل فى ذلك —
 القدر فيما تقدمه من لمس فنى نرجو ان يكون بصيما على تلك الابيات المبعثرة .

— هذا موقفى من الشعر الذى أنا بصدده أما موقفى من النثر الذى رأينا طرفا منه
^{وإن طغى عليه الرقة الخطائية وطابع الموساراة}
 فى هذه الدراسة فهو الآخر يمثل النثر الجاهلى ، و تأمل قول عامر بن الظرب يوصى
 قومه :

” من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له ، وكان الباطل اولى به ، و ان الحق
 لم يزل ينفر من الباطل ، و لم يزل الباطل ينفر من الحق ، و أعد و لكل أمر قسده
 قبل الرماء تمالأكتائن ^(٢) ، و مع السفاهة الندامة ، و العقوبة نكال و فيها ذمامه ،
 فلا تدموا العقوبة ، و اليد العليا معها عافية ، و القود ^(٣) راحة لا عليك ولا لك ،

(١) العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٣٦٢

(٢) الرماء : الرمس ، الكتائن جمع كمة و هى جعبة المسهم

(٣) القود : القصاص ، و أقيد القاتل بالقتيل اذا قتل به

وإذ شئت وجدت مثلك ، ان عليك كما ان لك ، وللكثرة الرعب ، وللصبر الغلبة ، ممن
طلب شيئاً وجده ، والا يجده يوشك أن يقنع قريباً منه (١) .

فمعانيه تبد و واضحة ، وقد تحفها بعض التعليقات والابانات ، والجمل يفلـب
عليها القصر وهي لا تخلو من المحسنات البديعة التي قد تكثر في بعض منها ، والخطب
قد يغلب السجع بعضاً منها ، والمعاني في أكثرها متناثرة غير مترابطة ، ومع ذلك فقد
دبجوا نثرهم بكثير من الحكم والأمثال التي حفل بها نثرهم ، ومصفة عامة فنثرهم تظهر
فيه الجزالة والقوة وشدة الأسر والوضوح ، والميل الى الذوق الادبي المطبوع ، ولعل
في ذلك ما يدل على اهتمام العرب بنثرهم الفنى حتى بوءوا صاحبه مكانة رفيعة
بينهم .

(١) المعمرون والوصايا : ٥٩

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله

وصحبه أجمعين . . .

الفخار

فہرست المراجع

فهرس المرجع

- القرآن الكريم .

(أ)

- الأوائـل :

أبو هلال العسكري، تحقيق : محمد السيد الوكيل .- ١٩٦٦ م ،
دار أمل طنجة - المغرب .

- الاتقان في علوم القرآن .

جلال الدين عبدالرحمن السيوطي .- دار المعرفة - بيروت .

- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

أبو الوليد الأزقي . تحقيق رشدي الصالح ملحس .- ط ٣ .- ١٣٩٨ هـ
دار الثقافة - مكة .

- آدب ما قبل الاسلام .

محمد عثمان علي .- ط ١ .- ١٤٠٣ هـ ، المؤسسة العالمية للدراسات
والنشر والتوزيع . عالم الكتب - بيروت .

- آديان العرب في الجاهلية .

محمد نعمان الجارم .- ط ١ .- ١٣٤١ هـ ، مطبعة السعادة - مصر .

- الآديان في القرآن .

د . محمود بن الشريف .- ط ٣ .- ١٩٧٩ م - دار عكاظ - جدة .

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب .

أبو عمر يوسف بن عبدالله " بن عبد البر " ، تحقيق : علي محمد البجاوي
مطبعة نهضة مصر - القاهرة .

- الاسلام وتقاليد الجاهلية .

آدم عبدالله الآكوري .- ١٣٩٧ هـ ، المدني - القاهرة .

- الاشتقاق .

أبو بكر محمد بن الحسين " بن دريد " . تحقيق : عبدالسلام هارون .
الخانجي بمصر .

- الاصابة في تمييز الصحابة .
- أحمد بن علي " بن حجر العسقلاني " . تحقيق : علي محمد البجاوي .
دار نهضة مصر - القاهرة .
- الاصمعيات .
- عبد الملك بن قريب الاصمعي . تحقيق : أحمد شاكر، عبد السلام هارون
ط ٤ . - بيروت .
- الاصنام .
- ابن الكلبي . تحقيق : أحمد زكي باشا . - ط ٢ . - ١٩٢٥ م . دار
الكتاب المصرية .
- أصول الشعر العربي .
- مرجليوت . ترجمة : د . يحيى الجبوري . ط ٢ . - ١٤٠١ هـ ، مؤسسة
الرسالة - بيروت .
- اعجاز القرآن .
- أبي بكر الباقلائي . تحقيق : سيد أحمد صقر . - ط ٣ . - دار المعارف
بمصر .
- الاعلام .
- خير الدين الزركلي . - ط ٥ . - ١٩٨٠ م ، دار العلم للملايين - بيروت .
- الاغانى .
- أبي الفرج الاصبهاني " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب " نشر :
دار احياء التراث العربي - بيروت .
- الاكليل .
- أبي محمد بن أحمد الهمداني . تحقيق : محمد علي الاكوع الحوالي .
١٩٦٣ م ، السنة المحمدية - القاهرة .
- الأمالى .
- أبي علي القالى . - ١٤٠٠ هـ ، دار الافاق الجديدة - بيروت .
- أمالى الزجاجي .
- عبد الرحمن بن اسحاق . تحقيق : عبد السلام هارون . - ١٣٨٢ هـ -
المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة .

- آمالي الشريف المرتضى .
- " غرر الفوائد ودرر القلائد " تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . -
- ١٣٨٧ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- امتاع الأسماع .
- أحمد بن علي المقرئ . - ١٩٤١ م - مصر .
- الامثال : أبو عبيد القاسم بن سلام . تحقيق : د . عبد المجيد قطامش .
- مركز البحث العلمي - جامعة أم القرى - مكة المكرمة .
- امرؤ القيس " أمير شعراء الجاهلية " .
- د . طاهر أحمد مكى . - ط ١ . - ١٩٦٨ م - دار المعارف بمصر .
- أنساب الاشراف .
- أحمد بن يحيى البلاذري . تحقيق . د . محمد حميد الله . - معهد
- المخطوطات بجامعة الدول العربية مع دائرة المعارف بمصر .
- أيمان العرب في الجاهلية .
- أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله النجيمي الكاتب . تحقيق : محب الدين
- الخطيب . - ط ٢ . - ١٣٨٢ هـ - المطبعة السلفية - القاهرة .
- البداية والنهاية .
- أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير . - ط ٣ . - ١٩٧٩ م - مكتبة المعارف
- بيروت .
- البرصان والعرجان والعميان والحولان .
- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق : عبد السلام هارون . - ١٩٨٢ م
- وزارة الثقافة والاعلام - العراق .
- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب .
- محمود شكري الألوسي . شرحه وضبطه : محمد بهجة الأثرى . - ط ٣ . -
- دار الكتب الحديثة - القاهرة .
- بهجة المجالس وأنس الجالس .
- يوسف بن عبد الله " بن عبد البر " . تحقيق : محمد مرسى الخولي . - ط ٢
- ١٤٠٠ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .

- البيان والتبيين .
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق : عبدالسلام هارون . - ط ٤
- ١٣٩٥ هـ ، الخانجي بمصر .

(ت)

- تاج العروس من جواهر القاموس .
- محمد مرتضى الزبيدي . - ط دار مكتبة الحياة - بيروت .
- تاريخ آداب العرب .
- مصطفى صادق الرافعي . - ط ٤ . - ١٣٩٤ هـ ، دار الكتاب العربي - بيروت .
- تاريخ الآداب العربية .
- كالرلونالينو . - ١٩٥٤ م - دار المعارف بمصر .
- تاريخ الأدب الجاهلي .
- د . علي الجندي . - ط ٣ . - ١٩٧٩ م - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة .
- تاريخ الأدب العربي .
- ريجيس بلاشير . ترجمة د . ابراهيم الكيلاني - دار الفكر .
- تاريخ الأدب العربي .
- عمر فروخ . - ط ٤ . - ١٩٨١ م - دار العلم للملايين - بيروت .
- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام .
- الحافظ محمد بن أحمد الذهبي . تحقيق : حسام الدين المقدسي - المدني - القاهرة .
- تاريخ التراث العربي .
- د . فؤاد سزكين . ترجمة : د . محمود فهمي حجازي . - ١٤٠٣ هـ ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض .
- تاريخ ابن خلدون .
- " ديوان المبتد أو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " عبدالرحمن بن خلدون - ١٩٥٦ م - بيروت .

- تاريخ الطّبرى .
- " تاريخ الأمم والملوك " أبو جعفر بن جرير الطبرى . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف بمصر .
- تاريخ اليعقوبى .
- أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى . - ١٣٧٩ هـ - دار صادر ، دار بيروت . - بيروت .
- تاريخ اليهود فى بلاد العرب .
- اسرائيل ولفنسون . ١٩٢٧ م ، القاهرة .
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى .
- د . شوقى ضيف . دار المعارف بمصر .
- تفسير البحر المحيظ .
- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى . - دار الفكر - بيروت .
- تفسير البيضاوى .
- " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " عبد الله بن عمر البيضاوى . - مؤسسة شعبان - بيروت .
- تفسير الطّبرى .
- " جامع البيان عن تأويل آى القرآن " أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى تحقيق : محمود محمد شاکر ، أحمد محمد شاکر . - ط ٢ . - دار المعارف بمصر .
- تفسير القرآن العظيم .
- أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى . تحقيق : عبدالوہاب غنيم وآخرون . - دار الشعب - القاهرة .
- التفسير الكبير .
- الفخر الرازى . - ط ٢ . - دار الكتب العلمية - طهران .
- تفسير النسفى .
- عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى . - دار احياء الكتب العربية . القاهرة .

- التفكير الفلسفي الاسلامى .
د . سليمان دنيا .- ط ١ .- ١٣٧٨ هـ ، الخانجي بمصر .
- تلبيس ابليس .
ابوالفرج عبدالرحمن بن الجوزى .- دار الكتب العلمية بيروت -
" مصورة عن طبعة المطبعة المنيرية الثانية " - ١٣٦٨ هـ - القاهرة .
- التنبيه والاشراف .
على بن الحسن السعودى . تصحيح : عبدالله اسماعيل الصاوى ،
١٣٥٧ هـ .
- تهذيب تاريخ دمشق .
على بن الحسن " بن عساكر " .- ١٣٣٢ هـ ، روضة الشام .

(ج)

- الجامع لأحكام القرآن .
محمد بن أحمد الانصارى القرطبى . " مصورة عن طبعة دار الكتب " .
دار الكاتب العربى ، ١٣٨٧ هـ - القاهرة .
- جامع الأصول من أحاديث الرسول .
أبى السعادات مبارك بن محمد " ابن الاثير " .- ط ٢ .- ١٤٠٠ هـ ،
دار احياء التراث العربى - بيروت .
- جامع الرسائل .
أحمد بن عبدالحليم " بن تيمية " (المجموعة الاولى) تحقيق : د . محمد
رشاد سالم - المدنى - القاهرة .
- جامع العلوم والحكم .
أبو الفرج عبدالرحمن بن رجب الجنبلى .- ط دار المعرفة - بيروت .
- الجاهلية .
" مقدمة فى الحياة العربية لدراسة الأدب الجاهلى " د . يحيى
الجبورى .- ١٣٨٨ هـ ، مطبعة المعارف - بغداد .
- جزيرة العرب منذ أقدم العصور .
د . جمال عبدالهادى ، د . وفاء محمد رفعت .- ١٣٩٨ هـ .

- جمهرة أشعار العرب .
- أبوزيد محمد بن الخطاب القرشي . تحقيق : علي محمد البجاوي .
- ط ١ . - دار نهضة مصر - القاهرة .
- جمهرة أنساب العرب .
- علي بن أحمد " بن حزم " الأندلسي . تحقيق : عبدالسلام هارون . -
- ط ٤ . - دار المعارف بمصر .
- جمهرة خطب العرب .
- أحمد زكي صفوت . - (١٣٨١) ، مصطفى الحلبي - القاهرة .
- جمهرة نسب قريش وأخبارها .
- الزبير بن بكار . تحقيق : محمود شاكر . - (١٣٨١) ، المدني - القاهرة .

(ح)

- حجة الله البالغة .
- أحمد شاه ولي الله الدهلوي . - ط ١٣٢٢ هـ - المطبعة الخيرية .
- حلية المحاضرة في صناعة الشعر .
- محمد بن الحسن الحاتمي . - ط ١٩٧٩ م - دار الرشيد - بغداد .
- حماسة البحترى .
- أبو عبادة البحترى . بعناية كمال مصطفى . - (١٩٢٩ م) ، المطبعة
- الرحمانية - مصر .
- الحماسة البصرية .
- البصري . - ط عالم الكتب - بيروت .
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي .
- د . أحمد محمد الحوفي . - دار القلم - بيروت .
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي .
- د . محمد عبداللطيف جاووك . - (١٩٧٧ م) ، وزارة الاعلام العراقية .
- = الحيوان .
- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق . عبدالسلام هارون . - ط ٢
- .. - (١٣٨٥ هـ) ، مصطفى البابي الحلبي - القاهرة .

- ديوان امرئ القيس .
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم . - ط ٢ . - ١٩٦٤ م ، دار المعارف -
بمصر .
- ديوان أمية بن أبي الصلت .
صنعه د . عبد الحفيظ السطلي . - ط ٢ . - ١٩٧٧ م - دمشق .
- ديوان أوس بن حجر .
تحقيق : محمد يوسف نجم . - دار صادر - بيروت .
- ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي .
تحقيق : د . عزة حسن . - ١٣٧٩ هـ ، مديرية احياء التراث القديم -
دمشق .
- ديوان الحادرة .
تحقيق : د . ناصر الدين الأسد . - ١٣٩٣ هـ ، دار صادر - بيروت .
- ديوان الحطيئة .
تحقيق : نعمان أمين طه . ١٩٥٨ م ، مصطفى الحلبي - القاهرة .
- ديوان دريد بن الصمة .
جمع وتحقيق وشرح : محمد خير البقاعي . - ١٤٠١ ، دار قتيبة - دمشق .
- ديوان زهير بن أبي سلمى .
١ - " صنعة الاعلم الشنمري " تحقيق : د . فخر الدين قباوة . - ط ٣ .
- ١٤٠٠ هـ ، دار الآفاق الجديدة - بيروت .
٢ - " صنعه ثعل " تحقيق : د . فخر الدين قباوة . - ط ١ . - ١٤٠٢ هـ ،
دار الآفاق الجديدة - بيروت .
- ديوان سلامة بن جندل .
تحقيق : د . فخر الدين قباوة . - ط ١ . - ١٣٨٧ هـ ، المكتبة العربية -
حلب .
- ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره .
عادل سليمان جمال . - المدني - القاهرة .
- ديوان طرفه بن العبد .
تحقيق : درية الخطيب ، لطفى الصفال . - ١٣٩٥ هـ ، مجمع اللغة
العربية - دمشق .

- ديوان طفيل الغنوي .
- تحقيق : محمد عبدالقادر أحمد . - ط ١ . - ١٩٦٨ م ، دار الكتاب الجديد - بيروت .
- ديوان عامر بن الطفيل .
- " رواية أبي بكر محمد بن القاسم الانباري عن أبي العباس ثعلب " . - ١٣٨٣ هـ ، دار صادر ، دار بيروت .
- ديوان العباس بن مرداس .
- جمع وتحقيق : د . يحيى الجبوري . - ١٣٨٨ هـ ، وزارة الثقافة والاعلام - بغداد .
- ديوان عبيد بن الأبرص .
- تحقيق : د . حسين نصار . - ١٣٧٧ هـ ، مصطفى الحلبي - مصر .
- ديوان عروة بن الورد .
- (١٣٨٤ هـ) دار صادر - بيروت .
- ديوان علقمة الفحل .
- تحقيق : لطفى الصقال ، درية الخطيب . - ١٣٨٩ هـ ، دار الكتاب العربي - حلب .
- ديوان عمرو بن معدى كرب الزبيدي .
- صنعه : هاشم الطعان . - وزارة الثقافة والاعلام - العراق .
- ديوان عنتر بن شداد العنسي .
- تحقيق : محمد سعيد مولوى . - ط ٢ . - ١٤٠٣ هـ ، المكتب الاسلامي دمشق .
- ديوان أبي قيس بن الأسلت .
- تحقيق : د . حسن محمد باجودة . - دار التراث - القاهرة .
- ديوان قيس بن الخطيم .
- تحقيق : د . ناصر الدين الأسد . - ط ٢ . - ١٣٨٧ هـ ، دار صادر - بيروت .
- ديوان لبيد بن ربيعة .
- تحقيق : د . احسان عباس . - ١٩٦٢ م ، الكويت .

- ديوان المتلمس الضبعي .
تحقيق : حسن كامل الصيرفي . - ١٣٩٠ هـ ، معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .
- ديوان المثقب العبدى .
تحقيق : حسن كامل الصيرفي . - ١٣٩١ هـ ، معهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .
- ديوان النابغة الذبياني .
تحقيق : محمد الطاهر بن عاشور . - الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة
الوطنية للنشر - الجزائر .
- ديوان النمر بن تولب .
صنعه : د . نوري حمودي القيس . - مطبعة المعارف - بغداد .

(ن)

- الذيل والنوادر .
أبو علي القاسمي " مؤيلا بالأمالى " . - ١٤٠٠ هـ ، دار الآفاق الجديدة ،
بيروت .

(ر)

- رسالة الغفران .
أبو العلاء المعري . تحقيق : د . عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطبي " .
ط ٧ . - دار المعارف بمصر .
- رسائل الجاحظ .
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . - تحقيق : عبد السلام هارون . - ط ١٠ . -
١٣٩٩ ، الخانجي بمصر .
- روح المعاني .
محمود شكرى الألوسى . - ط ٢ . - دار احياء التراث العربى - بيروت .
- الروض الأنف .
عبد الرحمن السهيلي . - ١٣٨٩ هـ ، دار الكتيب الحديثة - القاهرة ،
تحقيق : عبد الرحمن الوكيل .

(ز)

- زهير بن أبي سلمى : حياته وشعره .
د . احسان النصّ . - دمشق .
- زهير بن أبي سلمى : شاعر الحق والخير والجمال .
د . سعد اسماعيل شلبي . - مكتبة غريب - القاهرة .
- زهير بن أبي سلمى شاعر السلم في الجاهلية .
د . عبد الحميد سند الجندي . - بدون تاريخ .

(س)

- سمط اللالكى شرح أمالي القالى .
ابو عبيد البكرى . تحقيق : عبدالعزيز المينى . - ط ٢ . - ١٤٠٤ هـ ،
دار الحديث - بيروت .
- السيرة الحلبية .
" انسان العيون فى سيرة الأيمن والمأمون " على برهان الدين الحلبى
- ١٣٨٤ هـ ، مصطفى الحلبى - مصر .
- السيرة النبوية .
أبو الحسن على الحسنى الندوى . - ط ٣ . - ١٤٠١ هـ ، دار الشروق
- جدة .
- السيرة النبوية .
عبد الملك بن هشام الحميرى . تحقيق : مصطفى السقا وآخرون . -
مؤسسة علوم القرآن .

(ش)

- شرح أشعار الهذليين .
تحقيق : محمود شاكر ، عبدالستار فراج . - المدنى - القاهرة .

- شرح ديوان الحماسة .
يحيى بن علي الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد محي الدين
عبد الحميد . - مطبعة حجازي - القاهرة .
- شرح ديوان الحماسة .
ابو علي المرزوقي . تحقيق : أحمد أمين ، عبد السلام هارون . - ط ٢ . -
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة .
- شرح القصائد السبع الطوال .
أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري . تحقيق : عبد السلام هارون . - ط ٤
- دار المعارف بمصر .
- الشعراء الحنفاء .
د . أحمد جمال العمري . - ١٩٨٢ م ، دار المعارف بمصر .
- شعراء النصرانية .
لويس شيخو اليسوعي . - مكتبة الآداب - القاهرة .
- الشعر والشعراء .
عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق : أحمد محمد شاكر . - دار المعارف
بمصر .
- الشهاب الرّاصد .
محمد لطفى جمعة . ط ١ (١٩٤٤ هـ) ، لقطائف ولقلم / عصر

(ص)

- الصائغون حرانين ومندائيين .
رشدى عليان . ط (١٩٧٦ م) دار السلام - بغداد .
- الصائغ المندائيون .
ليدى دراوو . ترجمة : نعيم بدوى ، غضبان روى . ط (١٩٦٩ م) مطبعة
الارشاد بغداد .
- صبح الأعشى فى صناعة الانشا
أبو العباس القلقشندى * نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية* .
- صحيح مسلم بشرح النووى .
ط ٢ (١٣٩٢) دار احياء التراث العربى - بيروت .

- الصنائع

- أبو هلال العسكري . ط (١٤٠١) دار الكتب العلمية - بيروت .
- الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث .
د . نصرت عبدالرحمن . ط (١٩٧٩ م) مكتبة الاقصى - عمان .

(ط)

- طبقات الأمم

- ساعد الاندلسى . (طبقات الكاتوليكيه) (١٩١٢ م) بيروت .
- طبقات فحول الشعراء
محمد بن سلام الجمحى . شرح وتحقيق : محمود محمد شاكر . ط المدنى
القاهرة .
- الطبقات الكبرى
محمد بن سعد . ط (١٣٧٧) دار صادر ، دار بيروت ، بيروت .

- طبقات النحويين

- أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى . تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم . ط
(١٣٧٣) الخانجى بمصر .

- الطرائف الأدبية

- تحقيق : عبدالعزيز السمنى . ط دار الكتب العلمية - بيروت .

- طرفة بن العبيد . حياته وشعره .
د . محمد علي الهاشمي . ط (١٤٠٠) عالم الكتب - بيروت .

(ع)

- عدى بن زيد العبادي
د . محمد علي الهاشمي . ط (١٣٨٧) المكتبة العربية - حلب .

- العصر الجاهلي

- د . شوقي ضيف . ط دار المعارف بمصر .

- العقد الفريد

- أحمد بن محمد " بن عذريه " . تحقيق : أحمد أمين وآخرون . ط (١٩٤٦ م)
لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر .

- عمدة القارى شرح صحيح البخارى .

- بدر الدين محمود أحمد العيني . ط المطبعة المنيرية - بيروت .

- العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده

- أبى الحسن بن رشيق القيرواني . تحقيق : الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد
" بدون تاريخ " .

- عون المعبود في سنن أبى داود .

- أبو الطيب محمد شمس الحق آبادي . ط (١٣٨٨) دار الفكر - بيروت . مصورة
عن طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة " .

- عيون الاخبار

- عبد الله بن مسلم بن قتيبة . " نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب " .

(غ)

- غريب الحديث .

- أبى سليمان الخطابي . تحقيق : د . عبد الكريم ابراهيم الغريباوى . ط مركز
البحث العلمى . جامعة أم القرى - مكة المكرمة .

(ف)

- الفاخر .

- المفضل بن سلمة بن عاصم . تحقيق : عبد العليم الطحاوى . ط (١٣٨٠)
وزارة الثقافة والارشاد القومى - مصر .

- فتح البارى شرح صحيح الامام البخارى
أحمد بن على بن حجر العسقلانى . ط (المكتبة السلفية - القاهرة

- فتوح البلدان
أحمد بن يحيى البلاذرى ، نشره : صلاح الدين المنجد ط مكتبة النهضة
المصرية .

- فجر الاسلام
أحمد أمين . ط ١١ (١٩٧٩ م) دار الكتاب العربى - بيروت .

- الفروسية فى الشعر الجاهلى
د . نورى حمودى القيسى . ط ١ - بغداد .

- الفكرة والصورة فى شعر زهير بن أبى سلمى .
د . فتحية محمود فرج العقدة . ط ١ (١٤٠٣) دار العلوم - الرياض .

- الفهرست
محمد بن اسحاق النديم . ط دار المعرفة - بيروت .

- فى الادب الجاهلى
د . طه حسين . ط ١ . دار المعارف بمصر

- فيض الخاطر
أحمد أمين . ط ١ (١٩٥٥ م) مكتبة النهضة المصرية

- فى ظلال القرآن
سيد قطب . ط ٨ (١٣٩٩) دار الشروق .

(ق)

- قرة عيون الموحدين
عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ . ط أنصار السنة المحمدية لاهور

- قس بن ساعدة الايادى . حياته - خطبه - اشعاره .
أحمد الربيعى . ط (١٩٧٤ م) مطبعة النعمان . بغداد .

- قصص الانبياء
أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقى . ط دار القلم - بيروت .

- قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر .
د . عائشة عبدالرحمن " بنت الشاطيء " ط (١٩٧٠ م) دار المعارف بمصر .

(ك)

- الكامل فى التاريخ
أبو الحسن مجد الدين على بن أبى الكرم " بن الاثير " ط ٤ (١٤٠٣) دار
الكتاب العربى - بيروت .

- الكامل فى اللغة والادب .
أبو العباس محمد بن يزيد المبرد . ط مكتبة المعارف - بيروت .
- الكشاف عن حقائق التأويل ومعانى التنزيل .
أبو عمر جار الله بن محمود بن عمر الزمخشري . ط دار المعرفة - بيروت .

- الكليات

- أبى البقاء الكفوى . قابله : عدنان درويش . ط (١٩٧٦ م) وزارة الثقافة
والارشاد القومى - مصر .

(ل)

- لبيد بن ربيعة
د . يحيى الجبورى . ط مكتبة الاندلس - بغداد .
- لسان العرب .
أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم " بن منظور " . ط دار صادر - بيروت .

(م)

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
لابى الحسن على الحسنى الندوى - ط الاتحاد الاسلامى للمنظمات الطلابية
(١٤٠١)

- مجاز القرآن

- لابى عبيد معمر بن المثنى - تحقيق : د . فؤاد سزكين ط (١٩٥٤ م) مطبعة
السعادة - مصر .

- مجمع البيان في تفسير القرآن
الفضل بن الحسن الطبري - ط (١٣٨٠)
- مجمع الأمثال
أحمد بن محمد الميداني - تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد -
١٣٧٤ . السنة المحمدية . القاهرة .
- محاضرات في الاخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي
محمد الخضر حسين . (مسئلاً من مجلة القضاء الشرعي المصري)
- المحبر
أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي . رواه الحسن بن الحسين السكري
تصحيح : ايلزه ليختن - ط . المكتب التجاري . بيروت .
- مختصر سنن أبي داود .
للمحافظ المنذرى - تحقيق محمد حامد الفقى - مكتبة السنة المحمدية . القاهرة
- مراتب النحويين
أبو الطيب اللغوى - تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ط (١٩٥٥ م)
- المرأة في الشعر الجاهلي :
د . أحمد محمد الحوفى . ط ٢ . دار الفكر العربي - القاهرة .
- مروج الذهب
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط . دار الاندلس
- المزهر في علوم اللغة .
جلال الدين عبد الرحمن السيوطى - تحقيق : على محمد البجاوى وآخرون
ط . دار احياء الكتب العربية - القاهرة .
- المستقصى في الأمثال
جار الله محمود بن عمر الزمخشري ط (١٣٨١) دائرة المعارف العثمانية
حيدر اباد - الهند .
- سند الامام أحمد .
للامام أحمد بن حنبل الشيباني . ط المكتب الاسلامى - بيروت .
- مصادر الشعر الجاهلي
د . ناصر الدين الأسد . ط (١٩٨٢ م) دار المعارف بمصر .

- المعارف

لابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة - تحقيق : د . ثروت عكاشة ط .
دار المعارف بمصر .

- المعتقدات والقيم في الشعر الجاهلي .

محمد الشيخ محمود صيام : رسالة دكتوراه - جامعة أم القرى (١٤٠٢)

- معجم ما استعجم

لابي عبيد البكري - تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ط (١٣٦٤) لجنة
التأليف والترجمة والنشر . مصر .

- معجم الادباء

ياقوت بن عبدالله الحموي - ط دار احياء التراث العربي - بيروت .

- معجم البلدان

ياقوت بن عبدالله الحموي - ط (١٣٩٧) دار صادر - بيروت .

- معجم الشعراء .

محمد بن عمران المرزباني - تصحيح كرنكو ط . دار الكتب العلمية - بيروت .

- معجم مقاييس اللغة .

لابي الحسين أحمد بن فارس - تحقيق : عبدالسلام هارون ط ٢ (١٣٨٩)
مصطفى البابي الحلبي - القاهرة .

- المغرب

لابي منصور الجواليقي - تحقيق : أحمد شاکر ط ٢ دار الكتب

- المعمرون والوصايا

لابي حاتم السجستاني . تحقيق عبدالمنعم عامر ط (١٩٦١ م) دار احياء
الكتب العربية - القاهرة .

- المفردات

للراغب : الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني . تحقيق : محمد سيد
كيلاني ط (١٣٨١ هـ) مصطفى الحلبي . مصر .

- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام

د . جواد علي ط ٣ (١٩٨٠ م) دار العلم للملايين . بيروت

- المفصل في تاريخ الادب العربي .

أحمد أمين وآخرون . ط (١٣٥٢) مطبعة مصر - القاهرة .

- المفضليات

المفضل بن محمد الضبي . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون
ط ٦ - بيروت .

.. الملل والنحل .

محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (على هامش الفصل في الملل والاهواء
والنحل لابن حزم ط ٢ (١٣٩٥) دار المعرفة بيروت .
وتحقيق : د . محمد فتح الله بدران ط الحلبي القاهرة .

- من قضايا الادب الجاهلي

د . محمد أبوالانوار ط . مكتبة الشباب القاهرة .

- موسوعة التاريخ الاسلامي .

أحمد شلبي ط ٨ (١٩٧٨ م)

- موسوعة العقاد الاسلامية * المجلد الاول * .

عباس محمود العقاد ط ١ (١٩٧٠ م) دار الكتاب العربي - بيروت .

- موقف النقد الادبي من الشعر الجاهلي

د . محمد رجب البيومي ط جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الرياض .

- النابغة الذبياني

د . عمر الدسوقي ط ٦ (١٩٧٤ - ١٩٧٥ م) دار الفكر العربي . القاهرة .

- نثر الدر

للوزير الكاتب : أبوسعبد منصور بن الحسين الآبي

تحقيق : محمد علي قرنه ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- النثر الفني

د . زكي مبارك ط ٢ مطبعة دار السعادة بمصر .

- نسب قریش

المصعب بن عبد الله الزبيري - تحقيق - بروفتسال ط ٣ دار المعارف بمصر .

- نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي

د . عبد الحميد المسلول ط . دار القلم . القاهرة .

- النقائص بين جرير والفرزدق .
لابي عبيد معمر بن المثنى . تحقيق : المستشرق " بيقان) ط ١٩٠٥ م ليدن
- النقد الادبي
أحمد أمين . ط (١٣٧٨) دار الكتاب العربي - بيروت .
- النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي
أحمد محمد الفمراوى ط (١٩٨١ م)
- نقد كتاب في الشعر الجاهلي
محمد فريد وجدى ط ١ (١٩٢٦ م) ط : دائرة معارف القرن العشرين بمصر
- نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر - ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر .
- نهاية الارب في فنون الادب .
شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى
" نسخة مصوره عن طبعة دار الكتب " وزارة الثقافة والارشاد القومى - مصر .
- النهاية في غريب الحديث والاثر .
للإمام مجد الدين : أبو السعادات المبارك بن محمد " بن الاثير " ، تحقيق
محمود محمد الطناحى ط . المكتبة الاسلامية .
- نوادر المخطوطات
تحقيق : عبدالسلام هارون ط (١٣٩٢) مصطفى الحلبي - مصر .

(هـ)

- الهجاء والهجاءون في الجاهلية
د . محمد محمد حسين . ط ٣ (١٣٨٩) دار النهضة العربية - بيروت .

(و)

- وثنية العرب وأثرها في الادب الجاهلي
على أحمد على الخطيب (رسالة ماجستير جامعة الازهر . ١٣٨٩)

(٤٤٢)
الدوريات

- مجلة آداب المستنصرية - جامعة المستنصرية - العدد الخامس - ١٤٠٠ ، ص ٥٣١
- مجلة الازهر - السنة (١٢) ١٣٦٠ ، ص ٣٦٥ ، ٤٤٠ ، ٦٣٠ ،
السنة (١٣) ١٣٦١ - ص ١٣٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٧٤٢
- مجلة التضامن الاسلامي - العدد السابع - محرم - ١٣٩٢ . ص ٢٩٦
- مجلة الشعر . العدد (٣٦) - اكتوبر (١٩٨٤م) ص ١٩
- مجلة كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى . العدد الثاني : ١٤٠٤ ص ٧٩
- مجلة المشرق " انظر فهرسها " (١ - ٤٤) ص ٤٢

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

١	- المقدمة
١٣	- تمهيد :
١٤	"أ" الحنيفية
٢٥	"ب" جذور الحنيفية
٣٩	"ج" أديان الجاهليين
	الباب الاول : الحنفاء
	الفصل الاول : حول معنى الحنفاء
٦٨	"أ" حول معنى الحنفاء
٨٨	"ب" عقيدة الحنفاء وشريعتهم
	الفصل الثاني : الحنفاء
٩٤	"أ" المشاهير
١٥٠	"ب" المفسورون
	الباب الثاني : أدب الحنيفية في العصر الجاهلي
	الفصل الاول : الانتحال وأدب الحنيفية
١٦٥	"أ" عند المستشرقين
١٧٧	"ب" عند الدكتور طه حسين
٢١١	النشر والانتحال

الفصل الثاني : شعر الحنيفة

٢١٩

" أ " المعتقدات

٢٦١

" ب " العبادات

٣٠٧

" ج " التشريعات

٣٤٨

الفصل الثالث : نثر الحنيفة

٣٦٤

الفصل الرابع : تحليل وتقويم

٤٢١

- فهرس المراجع

٤٤٤

- فهرس الموضوعات